ديزموند يونغ



الفيلد مارشال رومل ومذكراته السرية

ترجمة وتعليق سليم طه التكريتي

الفيلد مارشال

روميل

ومذكراته السرية

تأليف

اللواء دزموند يونغ

ترجمة وتعليق

سليم طه التكريتي

مطبعة واوفسيت عشتار - الباب الشرقي - بغداد - تلفون 8884010

الناشر مكتبة النهضة العربية / بغداد - هاتف : ٨٨٨٩٣٥٩ - تلكس : ٣٠٩٦ - بغداد

توزيع - مكتبة احياء التراث العربي - شارع المتنبي

مقدمــــة

لمعت خلال الحرب العالمية الثانية ، اسماء شخصيات عسكرية وسياسية ، غطت على ماسواها ٠ ولكن اسم القائد الالماني العظيم الفيلد مارشال ٠٠٠ رومل ..: كان اشد لمعاناً ، وسيظل يحتل المرتبة الاولى بين القواد العسكريين المحنكين على مر الاجيال والعصور ٠

والحقيقة ان العرب ، ومعهم بقية الشعوب الاخرى المحكومة من قبل الاستعماريين ، لم يظهروا اي ميل نحو النازية ، أو عطف على الالمان ، والاشادة بانتصاراتهم ، الا نتيجة الكراهية التي يكنها الشعب العربي للمستعمرين الانكليز ، والفرنسيين ، والايطاليين ، الذين ذاق على ايديهم ابشع الوان الاستعباد والهوان ، وقد تعاظمت كراهية الشعب العربي للمستعمرين ، بعد ان تحالفوا جميعاً ، الشرقيون منهم والغربيون ، على اقامة «اسرائيل» مصدر العدوان ، وركيزة الاستعمار العالمي ، في اعز بقعة من بلاد العرب هي (فلسطين الشهيدة) ٠

ومع ان اللواء البريطاني «دزموند يونغ» كان قد اصدر كتابه هذا عن رومل قبل فترة ليست بالقصيرة ، الا ان الكتاب بقي حتى الآن محتفظاً باهميته وحيويته ، لانه كان وما يزال افضل كتاب قد صدر عن ذلك القائد الالماني الذي لمع نجمه كالشهاب خلال الحرب العالمية الثانية ٠ وتبدو اهمية الكتاب جلية في دقة المعلومات التي وردت فيه ، والروحية التي كتب بها ، اذ لايمكن للقارئ ان يلمس فيه شيئاً مما قد يمليه الحقد او الحسد لما ورد فيه ، وهذا هو الذي دفعنا الى ترجمة هذا الكتاب بكل دقة وأمانة ٠

فنحن الآن نقدم «الفيلد مارشال رومل» في هذه الحلة القشيبة من الطبع والاخراج والتنقيح، وكلنا أمل ان يجد فيها القراء الكرام المتعة والفائدة ، وان يتوفر لهم الاطلاع على فصل خطير من فصول تلك الحرب الرهيبة ، ونعني بها معركة الصحراء الغربية وشمالي افريقيا ، وان تتجسد امام انظارهم ماتفعله الحزازات الشخصية من اساليب الفتك بالمرموقين من الرجال ، في كل زمان ومكان ٠

سليم طه التكريتي

أول آيار ١٩٨٤



رأي المرحوم : فخامة العميد طه الهاشمي ب « المارشال رومل »

لقد كانت مآثر رومل حقاً من الأساطير وكان لهذه الأساطير نصيب في العراق وقد اكتوى بنارها لفيف من القوميين ٠ حين كان العراق يرزح تحت نير الاحتلال الثاني وردت أخبار انتصارات رومل في الصحراء وأخذ الناس يتحدثون بها ويترقبون دخول رومل مصر واجتيازه قناة السويس ٠ وفي هذه الفترة نشط وكلاء المستعمر وعملاؤه واستغلوا شيوع هذه الاخبار فوشوا بهذا وذاك ، وكان ضحية الوشاية نفر من المخلصين القوميين قضوا سني الحرب في المعتقلات ٠

لقد كانت الجيوش في أوائل الحرب المنصرمة حديثة العهد باستخدام القوات الآلية ولم تكن المناورات التي كانت تجري عادة في الخريف تكفي لتدريب القادة على القتال بالمدرعات والدبابات ٠ ولكن مقدرة رومل ظهرت في استخدام هذه الاسلحة الآلية في الحرب الصاعقة التي شنها الالمان في الجبهة الغربية في صيف سنة ١٩٤٠ ٠

ولما انكسر الجيش الايطالي بقيادة غرازياني في معارك ليبيا أمام قوات الجنرال ويفل استنجد موسوليني بهتلر فأنجده برومل على رأس فرقة افريقيا الآلية وكان قبل ذلك اسم رومل مجهولاً لدى الحلفاء وما ان وصل الى طرابلس الغرب حتى بدأت صفحة لامعة في حرب الصحراء بهرت العقول وسحرت الافئدة وغذت الأخيلة الشرقية بفيض من أخبار البطولة فاقت مآثر عنترة وابو زيد الهلالي وسيف بن ذي يزن ٠

والواقع أن العمليات الخاطفة التي قام بها رومل من طرابلس الغرب نحو بنغازي وبرقة ومباغتته لقلعة طبرق وفتحها عنوة في مدة قصيرة لايكاد العقل يصدقها ، ثم قطعه صحراء مصر الغربية مطارداً فلول الجيش البريطاني في الرمال المحرقة والغازات الخانقة كانت من العمليات الحربية النموذجية التي لامثيل لها في التاريخ العسكري ٠ ولو لم تعترض دباباته خنادق العلمين وجداوله الاصطناعية التي شقت بين البحر ومنخفض القطارة لكان للحرب في الشرق الأدنى شأن وأي شأن ٠

وكانت أعمال رومل هذه الباهرة ومأثره الخارقة هي التي جعلت الجنرال اوكنك قائد جيش النيل البريطاني ، يطلب الى ضباطه بأن يقلعوا من رأس جنودهم اسم رومل ويقبضوا على سحره الذي افتّن افئدتهم ٠ ولأجل ان يسحر الانسان عقل الانجليزي البارد الدم والناكر للخرافات ينبغي أن تكون أعماله فوق استطاعة البشر ٠٠ هكذا ظنه جنود الانكليز وافتتنوا بسحره ٠

لقد خسر رومل معركة العلمين وكان مُقدّراً له ذلك ٠ لأن مناعة موضع العلمين وقلة وسائط رومل المتيسرة وبُعده عن قواعده واضطراره لاستخدام القوات الايطالية ، كل هذا حال دون نجاحه ٠ ولكن على الرغم من ذلك فيظل التاريخ العسكري يشيد ببطولة رومل وبراعته في حرب الصحراء حين شرحه لحركاته الحربية في قتال العجبلة والغزالة ومباغتته لطبرق ٠ وبعد ، فان الحروب الآلية تتطلب المبادءة والجرأة والاقدام وسرعة القرار وكان رومل مبرزاً في كل هذه الصفات ولاسيا في الصفة الاخيرة ٠

العميد

طه الهاشمي

المقدمة

بقلم الفيلد مارشال السر كلودجي .ئي.أوكنلك
قائد الجيش الثامن البريطاني في افريقيا

لقد اعيد ضمن هذا الكتاب نشر الرسالة التي وجدت ان من الضروري ان اوجهها الى ضباطي في الميدان عندما كان اسم روميل يفعل مايفعله السحر في عقول جنودنا . ولم ينل أي قائد معاد من الصيت ، وبمثل هذا اللون ، الا اذا كان انساناً فوق المستوى الاعتيادي للانسان . وقد كان روميل بحق شخصية غير اعتيادية .

لقد انجبت المانيا عدداً من القادة الكفوئين ، ولكن روميل فاق هؤلاء جميعاً لأنه تغلب على العقلية العسكرية الالمانية الصلبة ، وأصبح سيد المبادأة .

كان يبدو لي دائماً ان كبار الضباط الالمان في الفيلق الافريقي[1] ، وحتى ضباط الفصائل والسرايا والافواج ، كانوا أحسن اسساً والماماً بالتكتيك من ضباطنا . ولم يكن هذا ناجماً عن خطأ رجالنا وانما كان مرده الى الواجبات الخاصة الملقاة على عاتق جيشنا ايام السلم والى عجز حقيقي في التدريب المنتظم المستديم . وما ان طالت مدة الحرب وجد رجالنا انهم اصبحوا يضاهون الالمان جلداً وثباتاً لان تكتيكهم الطبيعي قد اصابه التحسن والتطوير فاستبدل بتبدل الظروف والأحوال .

---

(١) الفيلق الافريقي : اصطلاح عسكري اطلق على القوات الالمانية التي ارسلت الى شمالي افريقيا لمقاتلة الفرنسيين والانكليز في ليبيا والصحراء الغربية .

ولكن رومل ظل حتى بين أفراد الطبقة العليا من القادة الالمان ، ذلك القائد الذي تشهد بقدرته الميادين ٠

ان باستطاعتي ان أشهد بنفسي على ماكان يتحلى به من مرونة ودهاء ونشاط ذهني ومادمنا لسوء الحظ مجبرين على تدريب شبابنا وتسليحهم وتهيئة ضباطنا لقيادتهم فان بامكاننا ان نتعلم كثيراً من دراسة تشبث رومل والالمام بطرائقه الحربية ٠

كانت علاقاتي الخاصة مع رومل قد اقتصرت على المعارك التي نشبت معه والفيلق الافريقي في الحرب التي دارت في الصحراء الغربية خلال سني ١٩٤١ ـ ١٩٤٢ ٠

غير انني بعد قراءتي لتأريخ سنيه الاولى والأخيرة وجدت ان الفكرة التي كونتها عنه ـ والتي عملت في تأليفها تلك الايام الجهيدة حيث كانت الحرب تمد وتجزر بين بنغازي والاسكندرية ـ لم تكن لتختلف كثيراً عن التقدير الذي اولاه المؤلف شخصية رومل ٠

ففي ناحية واحدة كانت تفسيراتي خاطئة ٠ فلقد فوجئت حين علمت كيف كان رومل يحيا الزهد والتقشف وكيف كان وديعاً ٠ فلقد صورناه ـ نحن الذين حاربناه ـ في صورة ضابط من طبقة اليونكرز ونتاج عقلية عسكرية بروسية ٠ وواضح انه لم يكن كذلك وان كان من المؤكد ان تكون تلك الروايات التي اثيرت عنه وأثارت دهشته هو نفسه ، ناجمة عن ظفره كقائد في المعارك ٠

لقد هيأ لي رومل أنا واولئك الذين اشتغلوا بمعيتي في الصحراء لحظات خارقة ٠ فلم يكن هنالك اي تساؤل عن فتور جهودنا لتحطيمه ٠ لانه اذا وجد جنرال همه الوحيد تحطيم عدوه فهو رومل ٠ فلم يكن يظهر اي رفق أو لين ٠ ومع ذلك فلست قادراً على ان اعبر عن اسفي العميق للنظام الذي ناضل رومل عنه برغم كراهيته البالغة له ٠

واذا ماقلت الآن ان رومل قد مضى وحربه قد مضت ، فانني احييه كجندي وكرجل وآسف أشد الأسف للطريقة المخزية التي لقي حتفه فيها ، بل قد اتهم بأنتمائي الى مايسميه المستر بيفن «بنقابة الجنرالية» ٠

والذي اعرفه ان مثل هذه الزمالة ينبغي ان توجد من الآن فصاعداً وان عضويتها لاتتضمن اكثر من ان نعترف للعدو بالمزايا التي نود نحن ان نظفر بها ٠

فنحترمه لشجاعته ولانه خصم عنيد كثير اليقظة والحذر ٠ ونرغب في ان نجده يعامل ، بعد اندحاره ،نفس المعاملة التي يود المرء ان يعامل بها عندما يكون منتصراً ويكون غيره خاسراً ٠

ان هذا الخلق هو الذي تعورف على تسميته بالفروسية ، بينما قد يسميه الكثيرون اليوم بالهذيان ويقولون ان الايام التي كانت فيها مثل هذه العواطف تعقب الحرب ، ان تلك الايام قد تصرمت ٠

ان مؤلف هذا الكتاب أمير اللواء دزموند يونغ لم يوفر على نفسه اياً من الالام كيما يلم بالحقائق التي رافقت حياة رومل ومماته سواء عن طريق عائلة رومل ذاتها أو عن الآخرين ولست اعتقد ان هناك شخصاً قد وفق في استجلاء تلك الحقائق وتسجيلها كمؤلف هذا الكتاب ٠

ولما كان يونغ أحد الضباط المحنكين الذين خاضوا غمار الحرب العظمى الاولى فقد عهد اليه ان يساهم في معركة الصحراء الغربية فاشترك فيها اشتراكاً فعلياً الى ان خانه الحظ فوقع أسيراً في الغزالة بينما كانت الحرب ماتزال متأرجحة ، ولم يعرف بعد الغالب من المغلوب ٠

لقد كان (يونغ) أحد أصدقائي القدماء ، وبعد ان افلت من أيدي الاعداء ،اصبح أحد ضباط هيأة الاركان التابعة لي ٠ وطالما تحدثنا في "دلهي" وفي رحلات جوية عدة ، عن كثير من المواضيع ونحن تحت أشعة الشمس ٠ على انني وان كنت في القدرة على استيعاب نظراته العسكرية التي تضم مختلف الآراء ، ألا أني أقول بانني لم أبحث معه موضوع أدارة دفة الحرب في شمالي افريقيا ٠ فاستنتاجاته عن تلك الحرب، كما هو شأنه بالنسبة لغيرها من الامور ، تخصه وحده لأنه رجل ذو تفكير مستقل ٠

أما عن كتابه هذا فلقد قرأته بعد ان دفع به الى المطبعة ٠ ولقد قرأته بشوق واهتمام فائقين ، وأنا على يقين بانه سيحظى بتقدير الاخرين ، مثلما حظي مني بذلك ٠

انني لارحب بهذا الكتاب لأنه أنصف خصماً عنيداً ، ولأنه سيعين الجيل الجديد من الالمان ، على ان يدركوا باننا لانكره مواهبهم العسكرية ، وانما نبغض سوء استخدام قادتهم لتلك المواهب وبهذه الصورة المتكررة ٠

كلود اوكنلك

الفصل الأول

كارثة برقة

كيف وقعت الكارثة - اسطورة رومل بين الجنود البريطانيين اوكنلك يصدر منشوراً

في منتصف شباط ١٩٤١ ، ارتفعت أسهم بريطانيا في مصر ارتفاعاً كبيراً . فقد أصبح خدم البارات في القاهرة والاسكندرية - تلك البارومترات التي لاتخطىء - لايستطيعون كتم عواطفهم . وفقد خدم المطاعم اهاناتهم التي كانت تلقى اليهم جزافاً . وحتى سُواق سيارات الآجرة المصريون ، قد أصبحوا أكثر تأدباً من قبل .

أما الطبقة العالية من المصريين فأن الباشوات الاثرياء شرعوا يولمون الولائم للضباط البريطانيين في «نادي محمد علي» ويقيمون الحفلات في حدائق «الجزيرة» .

وقد كف المجتمع القاهري عن التعامل مع زبائنه الايطاليين واصبحت العلاقات بين ملك مصر وسفير صاحب الجلالة البريطانية اكثر صفاء .

وبعبارة كان الشرق (ولا فرق بين اجزائه الدنيا والوسطى والقصوى) يعمل بغريزته الفطرية كل مامن شأنه ان يؤدي الى السلام فالظفر . أما أصحاب المحال التجارية في قصر النيل ، فقد كانوا موزعين بين العاطفة الوطنية التي تهدف الى أن يجلو البريطانيون عن مصر حتى آخر جندي ، وبين ذلك الحرص التجاري العميق الذي يهدف الى أن يستولوا على آخر درهم معنا ، وكان يحز في نفوسهم أن تتحول أموالنا الى نظائرهم من التجار في طرابلس .

واذا كانت مصر تحسن الظن «بجيش النيل»[٢] فان لهذا الجيش أن يزهو بنفسه بحق . ذلك انه في الشهرين الأخيرين قد تقدم في الصحراء مسافة قدرها ٥٠٠ ميل ، تسنى له أن يهزم فيها جيشا ايطاليا ويحطمه ، وكان هذا الجيش مؤلفاً من أربعة فيالق ، قوامها تسع فرق وبعض من فرقة عاشرة ، كما أسر جيش النيل ١٣٠٫٠٠٠ جندي وغنم ٤٠٠ دبابة و ١٢٩٠ مدفعاً الى جانب كميات كبيرة من العتاد والمواد الاخرى كملاءات الفراش النظيفة ، والأسرة المريحة والقمصان الحريرية وكثير من أدوات الزينة . ذلك أن الايطاليين قد ذهبوا الى ميدان القتال مرفهين .

.. وفي السابع من شهر شباط استسلم الجنرال برغنزولي ، بلا قيد ولا شرط فأرسل ومن معه من الضباط الى «دهرادون» في الهند ، ولم تكن هذه البلاد لتشاهد مثل هذه الكثرة في الضباط ، من اسرى الحرب منذ سنة ١٩١١ .

وقد كان جيش غرازياني الايطالي في الصيف السابق ، يمني نفسه بأنه ليس عليه الا أن يصعد الى حافلات الجنود ، والا أن يمضي في طريقه الى القاهرة تحت ستار منيع من القوة الجوية الهائلة ، ولكن هذه الاحلام تبددت ، وأمحت معالم هذا الجيش من الخريطة . ولطالما شكا غرازياني نفسه من أن موسوليني قد ارغمه على أن يشعل حرباً كان الايطاليون فيها «كالذبابة التي أعلنت حرباً على فيل» ولكن هذا التشبيه لم يصادف في نفس الدوتشي هوى فقال : انها ذبابة ولكن من نوع غريب ، فقد زودت بألف من المدافع .»[٣]

ولم يكن أمام غرازياني الا أن يبعث بوصية الى زوجته في البريد ، والا أن يعتزل الخدمة العسكرية الى قبر عمقه سبعون قدماً في «تشرني» أول الامر ، ثم الى ايطاليا بعد ذلك .

والبريطانيون لم يتيسر لهم هذا النصر الا بعد أن كلفهم ٤٠٠ من القتلى ، و١٣٧٣ من الجرحى و ٣٣ من المفقودين . وقد اشترك البريطانيون بجيش قوامه ثلاث فرق ، غير ان فرقتين فحسب ، هما اللتان اشتركتا في هذه العمليات الحربية ، وهما الفرقة السابعة المدرعة والفرقة الهندية الرابعة . وقد حلت محل هذه الفرقة الأخيرة ، بعد معركة «سيدي براني» ، الفرقة الاسترالية السادسة .

غير ان أصداء الهجمات التي قام بها الجنرال ويفل ، سرعان ماخفتت في ذلك الدوي

---

(٢) «جيش النيل» هو اللقب الذي اطلق على القوات البريطانية في مصر وشمالي افريقيا .

(٣) الدوتشي : كلمة ايطالية تعني «الزعيم» وكان هذا اللقب خاصاً بالدكتاتور الاحمق موسويني .

الهائل الذي ترددت رعوده وبروقه في سماء المعارك الدائرة على طول الجبهة الروسية . وبات من المألوف أن يعرض الناس بهزائم الايطاليين . ومما لاشك فيه ان أول بادرة من بوادر عبقريتنا العسكرية ، أن نحارب عدواً يفوقنا عدداً وعدة على تلك الصورة الهائلة . فكنا نبعث اليه بجنودنا يتربصون به طول النهار في رمضاء الصحراء العارية ، على مدى ثلاثين ميلاً ، حتى اذا ماجنهم الليل ، تسللوا الى ماوراء حصونه ، دون أن يراهم أحد ، ثم يباغتون العدو عند الفجر ، ويطعنونه من الخلف . .

ومن الممكن أن يقال ان الايطاليين قد دخلو هذه الحرب بروح معنوية سيئة ، وبقلوب خائرة . وكم كانت دهشتهم حين اكتشفوا ان مدافع الميدان التي كانوا يستخدمونها لاتحطم دباباتنا المدرعة ، ولا تحول دون تقدم الجنود المهاجين الذين دربوا تدريباً عالياً ، كروحهم المعنوية تماماً . ولقد فعلت الفرق الجيدة من قبل ، مافعلته فرقنا هذه . على أن من الخطأ الافتراض بأن تلك العمليات كانت مجرد احتفالات مجيدة . ففي «نبيوا» ظل المدفعيون الايطاليون يحاربون حتى سحقتهم الدبابات البريطانية . وكان الجنرال الايطالي «ماتي» نفسه قد جرح وقتل وهو يطلق ، من خيمة احتمى بها ، مدفعاً رشاشاً . وفي «بيدافوم» صد لواء الرشاشات الثاني وحده ، تسع هجمات قامت بها الدبابات .

ولا يدري أحد ما اذا كان ذلك الجنرال «ويفل» قد صدرت اليه أوامر بأن يمضي في طريقه الى طرابلس ، وأن يجعل من هذه الاغارة التي استمرت خمسة أيام هجوماً عاماً .

ولكن الذي يتبادر الى الذهن في هذا المقام هو : هل كان في استطاعة دباباتنا المنهكة ، ووسائل نقلنا المثقلة ، أن تقطع ٥٠٠ ميل اخرى ؟ وهل ستقوم الفرقة الايطالية التي رابطت في طرابلس ، والتي ماتزال بعيدة عن العمليات العسكرية ، بتلك التحصينات التي توقع مونتغمري أن يقوم الالمان بها منذ سنتين ؟ ثم هل من الممكن ان تستخدم بنغازي كميناء لتموين الجيش ، على الرغم من الغارات الجوية التي قد نشنها عليها ؟ ثم هل يقوم الالمان برد فعل مباشر ، وذلك بأن ينقلوا فرقهم التي رابطت في جنوب ايطاليا ، بطريق الجو ؟ لقد كان يبدو ان الجنرال «اوكنور» قائد قوة الصحراء الغربية سيجد نفسه «على الهامش» حتى وان بلغ طرابلس . هذا لاننا في ذلك الوقت لم تكن لدينا الوسائل التي نستطيع ان نستغل بها أية عملية نجحنا فيها .

. . أما مصر فهي حتى هذه الآونة ماتزال آمنة . وقد تحطمت قوات المحور في شمال افريقيا ، وارتفعت قيمة البريطانيين في الشرق الاوسط ، واتيح للانكليز لأول مرة منذ «معركة بريطانيا» أن يحتفلوا بشيء ما . . .

ولم يكـد يمضي سـوى شهرين حتى سرى في القـاهرة رعب وفـزع ، وهبطت أسهم بريطانيا بنفس السرعة التي صعدت بها . وانتشرت تفاصيل الكارثة التي حلت بـالبريطـانيين . فاخليت بنغازي لسوء الحظ ، وان كان ذلك «وفقاً لخطة موضوعة !» ، ودمرت الفرقة الثانية المدرعة التي ارسلت أخيراً من انكلترا ، وأسر قائدهـا الفريق «غـامبير بـاري» ومعـه هيئـة أركان حربه . في «ميشيلي» ، وتحطم اللواء الهندي الآلي الثـالث في بـدايـة المعركـة . وتحصنت الفرق الاستراليـة التـاسـعة في «طبرق» ورفع كل من اوكـونـور وفليب نيم وجـون كـومب . وضاعت «البردية» ومن ورائها «السلوم» ، ووقعت «كابتزو» في أيـدي العـدو . وأصبح الخطر الـذي يهدد مصر أعظم من ذي قبل .

ولم يكن في استطاعة اي متحدث بلسـان القـاهرة ان يقنع العـالم كلـه بـأن هـذا النصر الـذي احرزه العـدو ، لم يكن إلا من قبيـل الـدعـايـة وحسـب ، وحتى المستر «ريتشـارد دمبلي» المعلق الحربي ذو الصوت الجميل في اذاعة لندن ، لم يشأ ان يجود على الموقف بكلمة واحدة .

ولم يكن ليبـدو على المصريين ان الأمر يهمهم . فلقـد كانـوا يتسـابقـون في التهكم ، ويتطلعون الى الجهة التي يعتقدون ان مصالحهم تكمن فيها . ولم يكن الايطـاليون بـدورهم خيراً من المصريين . اما هؤلاء الالمان فيالهم من جنود ! انهم اخصائيون كجندنـا في الجيش المصري . لقد كان المصريون يأملون أن يحترم الالمان ملكياتهم في القاهرة ، وان لايضاربوا بالعملة !

وهذه الهزيمة التي لحقت بالجنرال ويفل ، لم تكن سراً غامضـاً ، وانمـا كانت لهـا أسبـاب معلومة . فقد ابرقت اليه لندن بعد سقوط بنغازي مباشرة، بأن يبعث على جناح السرعة بأكبر عـدد ممكن من الجيوش البريـة والجويـة من الشرق الأوسـط الى اليـونـان . ولقـد سحبت هـذه القـوات فعـلاً من الفرقـة الثـانيـة المـدرعـة ، وفرقـة نيـوزيلـنـدا والفرقتين السـادسـة والسـابعـة الاسـتراليتين ،ثم من اللواء البولندي ، وبذلك يكون ويفل على حد قوله ، « فقـد من النـاحيـة العملية كل الجنود الذي أعدوا لهذه العمليات الحربية » في الصحراء .

ولعل الحكومة البريطانية لأسباب سياسية ، لم تشأ ان تمتنع عن ارسال قوة الى اليونـان ، على الرغم من ان اليونانيين لم يتحمسوا لها . ولقـد جـاءت هـذه المسـاعـدة غير كافيـة . وأدى تبديـد الجهود هنـا وهنـاك ، الى الفشل في كلتـا الجبهتين . وقـد يظن بعض النـاس ان ارسـال بعض الجنود البريطـانيين الى اليونـان ، قـد اقنـع هتلر بـأن هنـاك اتفـاقيـة سريـة مبرمـة بين الحكومتين البريطانية والسوفيتية ، وان هـذا هو السبب الـذي جعل هتلر يرجىء غزو روسيـا بضعة أسابيع . ولكن هذا الظن يعوزه البرهان .

فما لاشك فيه ان خسارة ٤٧٫٠٠٠ جندي من الجنود المدربين ، قد ادى الى هزيمة بالغة في الشرق الأوسط ٠

فلقد وَقَعَ الجنرال ويفل ، أو قلم مخابراته السرية ، في خطأ ، وهو وحده دون سواه الملوم على ذلك ٠ فقد استنتج ويفل من المعلومات التي تجمعت لديه ،ان الالمان لن يقوموا بهجوم مضاد على «برقة» قبل شهر أيار ٠ وفي نهاية شباط ، عندما انبىء ويفل بأن الالمان قد استعدوا في ليبيا ، مضى يعتقد انه لن يكون هناك اي هجوم عام ، قبل منتصف نيسان ٠ وكان يأمل ألا يقوموا بتعبئة عامة قبل أيار ٠ ولكن هذه التعبئة العامة بدأت بالفعل في ٢١ آذار ٠

وحتى هذه الغلطة التي انزلق اليها ويفل ، يمكن ان يقال بانه ليس وحده المسئول عنها تماماً ٠

ففي سنتي ١٩٣٩ ـ ١٩٤٠ كانت الحكومة البريطانية ماتزال تسير على سياسة اللين ، وتسكين الخواطر ٠ ولم تشأ الحكومة البريطانية ان تفعل ادنى شيء يفضي الى فصم عرى علاقاتها مع ايطاليا ، تلك العلاقات التي قال عنها موسوليني انها قائمة على البغض والاحتقار المتبادل بين ايطاليا الفتية وذلك الاسد البريطاني الذي فض فوه ٠٠ ولم تأذن له الحكومة البريطانية ان يبعث بقلم مخابرات في الاراضي الايطالية ٠ وفي شمال افريقيا ، لم تكن له عيون قبل ان تدخل ايطاليا الحرب ٠٠ وم يتيسر له ذلك الا بعد وقت طويل ٠ وهكذا استطاعت الفرقة المدرعة الخفيفة الخامسة القيام بانزال ناجح في طرابلس دون ان تعرف اي شيء عنها ٠

ويقول ويفل انه استدعى «لتحمل اعباء لم تكن لديه الموارد الكافية للنهوض بها» ، واستوى في ذلك مع كثير من القواد البريطانيين في مراحل الحرب الاولى ٠ وتحمل ويفل هذه الاعباء دون ان يتذمر او يشكو ٠٠ وفي هذه الاثناء اشتعلت في العراق ثورة ، ثم حرب صغرى ضد قوات فيشي في سوريا[٤] ، وبعد ان افلح في اخماد هذه الحرب الصغيرة ، نقل من قيادة شمال افريقيا ٠

وسواء قيل ان ويفل قد اعفي من منصبه لاسباب صحية ، أو لنقله الى مكان آخر لينهض بأعباء اضخم ، فان هذا لم يغير من شعور الجنود بأنه قد استبعد لانه لم يعمل المستحيل في اليونان ٠ ولم تكن تلك هي المرة الاخيرة التي قدم فيها ويفل مثل تلك الخدمات الممتازة لبلاده ٠

---

(٤) كانت هذه القوات ، وهي فرنسية ، تحت امرة الحكومة الفرنسية الخاضعة للالمان ، التي تألفت في مدينة فيشي بعد سقوط باريس في عام ١٩٤٠ ٠ اما ثورة العراق فهي ثورة أيار سنة ١٩٤١ ٠

تلك هي اذن كارثة برقة . ولو ان احداً استوقف في صيف ١٩٤١ ، اول عابر سبيل يلقاه في أحد شوارع القاهرة ، وسأله عن سبب هذا الذي حدث لأجاب في كلمة واحدة : رومل !

الفصـــل الثـــاني

رومـــل شيطان انطلق مـن عقاله

اوكنلك البريطاني يحذر من « ساحر الجنود » الجرماني
طرف من اساطير عجيبة تداع عن الرجل «الذي من طراز نابليون»

لقد أصدر الجنرال اوكنلك أمراً الى جنوده يحذرهم فيـه من خطورة الأسـاطير التـي شـاعت حول رومل بين الجنود البريطـانيين . وعلى الرغم من أنني اتـذكر هـذا الأمر تـامـاً ، كما يتـذكر ذلـك معظم الـذين اشتركـوا في الحرب في الشرق الأوســط ، غير أنني لم اتمكن من الحصـول على نسخة من هذا الأمر ، حتى من الجنرال نفسه،

فكان لابد من أن اعتمد على الترجمة الانكليزية للترجمة الالمانية ، التي عثرت عليها ضمن مذكرات رومـل التي احتفظت بهـا اسرتـه . وقـد يكـون هنـالـك بعض الخلاف اللفظي بين الترجمتين الالمانية والانكليزية الا ان المعنى فيهما واحد(٥) .

وفيما يلي الأمر الذي أصدره الجنرال اوكنلك الى القواد وهيئة أركان حربه :

« هنالـك خطر حقيقي مـاثل بين ايـدينـا ، وهو ان صـاحبنـا رومل قـد اصبح بمرور الايام ساحراً لجنودنا . فهم يكثرون من الحديث عنـه . وعلى أي حـال ، فليس رومل انسـانـاً

(٥) لقد اوضح احد الضباط الايطاليين الذين اشتركوا في تلك الحرب في مقال علق به على كتاب يونغ عن رومل بأن عنوان المنشور الذي اذاعه اوكنلك على جنوده كان : لا تتروملوا ! Do'nt Be Rommelised !

أعلى ، وان كان قائداً ممتازاً قديراً · وحتى لو كان رومل انساناً أعلى ، فليس مستحباً قط أن يضفي عليه جنودنا ، مواهب وقوى خارقة »·

«وانني لأرجو أن تتذرعوا بكل الوسائل الممكنة لتستأصلوا هذه الفكرة التي تجعلهم ينظرون الى رومل على انه شيء أكثر من كونه قائداً المانياً عادياً ··· والذي يهمنا هنا هو ان لانتحدث عن العدو في ليبيا · وانما يجب ان نشير دائماً الى «الالمان» أو الى «قوات المحور» أو الى «العدو» وان نقلع عن اسم رومل ، تلك النغمة التي لايفتأ جنودنا يرددونها ··

«واحب ان ينفذ هذا الامر فوراً ، وان يؤتي ثمرته بين الجنود ، كما احب ان تؤكدوا لكل الضباط ، بأن خرافة رومل على جانب من الخطورة حتى من الناحية النفسية ··

«اوكنلك»

ان عدد القواد الذين فرضوا شخصيتهم على جنودهم ، في أية حرب أقل بكثير جداً ، مما يحلو لهؤلاء القواد ان يعتقدوا · وخاصة اذا نحن استبعدنا قوة الاعداء الذين فرضوا شخصيتهم على الجنود فرضاً · ففي الحرب العظمى الاولى ، كان يقال بحق ، ان القليلين من الجنود البريطانيين من يعرفون اسم قائد فرقتهم ·

والحقيقة انه في الفترة الطويلة التي مرت بين ظهور «الدوق ولنغتون» الى «اللورد مونتغمري» لايزيد عدد القواد الكبار الذين يعتبرون ابطالاً في اعين الجنود ، على اصابع اليدين ···

فبالنسبة للحرب العظمى الثانية ، هنالك اسماء مشهورة كمونتي «مونتغمري» و «بل» سليم وديكي «مونتباتن» · وكذلك «ألكس» الذي لم يفكر قط في ان يكون مشهوراً · ومنهم ويفل على الرغم من التزامه الصمت التام ·· فالجنود لم يشكوا مطلقاً في كفاءته ، كما انهم ادركوا طيبة قلبه التي لاتبين للعيون · وكذلك كان «اوكنلك» ملهماً لكل جندي من جنوده ·

ويعقب هؤلاء عدد من القادة الذين يأتون في المرتبة الثانية ، ونستطيع ان نعد منهم فرايبورغ و «سترافر غوت» و «جوك كامبل» وآخرون غيرهم برزوا في ميادين اخرى ·

ولكن القائد الذي يعرفه كل جنوده مايزال من الندرة بمكان ، كما ان القائد البريطاني الذي يعرفه كل جنود الاعداء ، لأندر من ذلك بكثير ·

وهكذا فرومل بين هؤلاء القواد جميعاً ، ظاهرة لامثيل لها · فهذا الأمر الذي اصدره الجنرال اوكنلك قد أثار كثيراً من النقاش والسخرية عندما صدر في القاهرة · ولكن على الرغم

من ذلك ، كان هذا الامر ضرورياً ، وان جاء بعد الاوان · فقد اقترن اسم رومل «بالفيلق الافريقي» ، كما انه قد أثر في نفوس خصومه ، وأكبره المراسلون الحربيون البريطانيون والامريكيون ، وكذلك الصحفيون المحالفون لبريطانيا في القاهرة ، وكانت نتيجة ذلك ان فاقت شهرة رومل ، شهرة كل الشخصيات المعروفة في الشرق الاوسط · فكان جنودنا يتحدثون عنه في عبارات ودية ، وكان يكفي أن يقولوا انهم اشتبكوا مع الالمان في معركة من المعارك ، ليكون ذلك تبريراً لفشلهم · ولعل هؤلاء القلائل الذين يذكرون تلك العبارات التي ملؤها الاشفاق والكراهية ، حين تعودنا ان نقول عن الجندي الالماني ، أبان الحرب العظمى الاولى ، انه العجوز البائس ، يدركون ان رومل خطر محقق ، ذلك إننا كنا نقدر الفيلق الافريقي تقديراً عالياً · بينما كانت الانتصارات الهينة التي تحرزها على الايطاليين ، لانعدها من مفاخرنا ·

واذا نحن سلمنا بعظمة رومل ، فانه مايزال من العسير علينا ان نعلل لماذا اصبح رومل بهذه السرعة (رجلاً من طراز نابليون) ،وكيف أصبح ساحراً لجنودنا في الخطوط الخلفية من الميدان في القاهرة، بل وأصبح خطراً يهدد جنودنا في الخطوط الامامية ·

كان رومل كأنه الشيطان الذي انطلق من عقاله ، لكنه لسوء الحظ كان يعرف سبيله تماماً · ومن الغريب ان قلم مخابراتنا السرية لايعلم الا القليل عنه كجندي أو كرجل · وذلك لان البريطانيين قد اعتمدوا الى حد بعيد، على حلفائهم الفرنسيين في ان يمدوهم بترجمة حياة القواد الالمان ، وبهذه التفاصيل وحدها يتمكن قائد من القواد تقدير خصمه ومنافسه · ولقد ادى ذلك الانهيار المفاجىء في فرنسا ، الى المباعدة بين البريطانيين وبين الاتصال باحلافهم الفرنسيين ، وظلت هذه «الاضبارات» في وزارة الحربية الفرنسية ليقرأها الفرنسيون انفسهم · وهكذا لم تستطع وزارة الحربية البريطانية ان تمد الجنرال ويفل وهيئة أركان حربه ، الا بتقرير ضئيل عن رومل · ومن هذا التقرير يطالعنا رومل على انه ليس سوى رجل عنيف عنيد ، ابلى بلاء حسناً في الحرب العظمى الاولى · وتولى قيادة إحدى الفرق في غزو الالمان · وكان يقال انه من النازيين المتعصبين ، وان اختياره للنهوض باعباء الحملة الالمانية في شمال افريقيا ، كان نتيجة لمحسوبية حزبية ·

وهكذا كانت الفكرة عن رومل تخطيطية غير دقيقة ·

والحقيقة ان القصص والاساطير التي حيكت حول رومل واصله ،وعن صدر شبابه مازالت «عائمة» أو غير معروفة تماماً · غير انه في كتاب «الهزيمة في الغرب» ذلك الكتاب المدعم

بالوثائق والاسانيد ، يذكر لنا المؤلف ان روميل كان عضواً مع غورنغ وهيس وروهم وبورمان وغيرهم من اعضاء «الفيلق الحر» ، وقد كانوا جميعاً ينتسبون الى جماعة من «الرجال المتغطرسين غير المسئولين» ، وقد شبوا على ان «تكون روحهم عدوانية، وان يكونوا غلاظاً قساة ضد كل تألب على الاوامر العسكرية» • وخاصة في المانيا بعد ان استسلمت في سنة ١٩١٨ وانجبت (خير القواد لتلك الطغمة من الجنود اللذين تألفت منهم جناح العاصفة S.A. وفرقة الدفاع S.S.) •

وانباء اخرى تقول ان روميل كان ابناً لأحد العمال ، وانه كان في مقدمة اللذين انظموا الى (جناح العاصفة) • وآخرون يقولون انه كان ضابطاً خامل الذكر ، وقد برز بين اقرانه اثناء الحرب الاولى ، بينما اعتبره الآخرون من رجال البوليس بين الحربين العظميين •

ولكن الحقيقة هي اقل من ذلك تلوناً ولمعاناً •• فلقد كان روميل منذ البداية الى النهاية ضابطاً ، كما يدل على ذلك سجل خدماته العسكرية منذ أن التحق بالجيش حتى مات • فلم يغادر الجيش قط • وعلى ذلك فلم يكن من افراد (الفيلق الحر) ولا من رجال البوليس مطلقاً ، كما لم يكن من (جناح العاصفة) فضلاً عن أن علاقته بهتلر لم تأت الا عن طريق المصادفة المحضة ، لاأكثر ولا أقل •

وليس من الصعب ان نكشف عن مصدر بعض هذه الأساطير التي دارت حول روميل • ففي صيف عام ١٩٤١ ظهرت في (داس رايخ) وهي صحيفة غوبلز مقالة عن روميل مغفلة من الامضاء لفتت أنظار مراسلي الصحف الأجانب في برلين، وقد جاء في هذه المقالة ان روميل كان ابناً لأحد العمال ، وانه ترك الخدمة العسكرية بعد الحرب العظمى الاولى، ليدرس في (جامعة تيبنغن) ، وانه كان من أوائل قواد (جناح العاصفة) وانه أصبح صديقاً حميماً لهتلر ••• الى غير ذلك مما شاءت الصحيفة ذكره ، والاستطراد فيه •

وحين أرسلت الى روميل ، في شمال أفريقيا ، هذه المقالة ثار في عنف ، وبعث الى وزارة الدعاية يسألها قائلاً : ماذا يعنون بترويج مثل هذه القصص الملفقة حوله ؟ وحاولت وزارة الدعاية ان تخرج من هذا الحرج ، فلم تجد أمامها إلا أن تقول ان الملازم الأول (أجمبكه) الذي ألف كتاباً عن «فرقة الدبابات السابعة» الذي تولى روميل قيادتها في فرنسا ، هو وحده الذي أمدها بهذه المعلومات •

ولم يتمكن روميل من الاتصال بالضابط (اجمبكه) الا بعد ان فرغ من معركة «ممر الحلفاية» • وسأله روميل عما اذا كان قد أرسل الى وزارة الدعاية مثل هذه المعلومات الخاطئة ، ثم سأله عن الأسباب التي يهدف اليها من وراء هذه المعلومات ؟ فنفى (اجمبكه) انه قام بشيء

من هذا . ولم يكتف اجمبكه بهذا بل كتب الى وزارة الدعاية الالمانية يسألها عما تهدف اليـه من وراء افـاد علاقاته مع روميل ؟

وكان جواب الوزارة انها بعثت برسالة من قسم الصحافة بوزارة الدعاية الى اجمبكه اختتمت «بهايل هتلر» ووقعت بامضاء الدكتور «مايسنر» وكانت هذه الرسالة تحفة من أدب وزارة الدعاية الالمانية ، تبعث على الضحك والسخرية ، وقد ذكر الدكتور مايسنر ان ماكتب عن الجنرال روميل لايمكن أن يسيء الى شهرته كرجل ممتاز . بل على العكس ، انه ربما أحسن اليه . بأن يجعله شخصية مألوفة محبوبة عند المراسلين الحربيين الأجانب . وقد ختم الدكتور مايسنر رسالته بقوله انه كان يأمل ، من وجهة نظر وزارة الدعاية نفسها ، أن تكون تلك العبارات التي وردت في المقالة على الرغم من انها مختلقة ، صحيحة واقعية .

وبعث اجمبكه بهذا الخطاب الى روميل ، واحتفظ به روميل ضمن مذكراته . وربما كان ذلك سبباً في غضب روميل أشد الغضب بل ويرتاب أشد الريبة في كل شيء ينتسب الى الدعاية او الى (الاتصال بالرأي العام) .

وكان أول ضحايا تلك الريبة ضابط الماني حدث سيء الحظ يدعى «برندت» نقل من وزارة الدعاية الى الدفاع فالحق بالفيلق الأفريقي حالاً . فقد أسِرَ هذا الضابط الى روميل بانه قد طلب اليه ، ولما ير الصحراء من قبل ، أن يقوم ذلك المساء بغارة خلف أحد الخطوط البريطانية وقد نفذ برندت ما طلب منه فكان شجاعاً ولطيفاً في الوقت ذاته وقد عاد من تلك الغارة وهو يجر وراءه عدداً من الاسرى الانكليز ويحمل في جعبته معلومات قيمة .



الفصل الثالث

معلومات خاطفة عن رومل

اشتراكه في الحرب الاولى - تفوقه في المعارك البرية
مقاتل شجاع الى حد الخرافة - يهاجم وحده ببندقية خالية من الطلقات ويزحف بعد سهر أسبوع كامل

ولد ارفن يوهانس رومل بعد ظهر يوم الاحد المصادف ١٥ تشرين الثاني سنة ١٨٩١ بمدينة «هايد نهايم» من اعمال فرتمبورغ بالقرب من «اولم» وكان أبوه - ويدعى ارفن رومل أيضاً - مديراً لاحدى المدارس وابن مدير سابق فيها . وكان أبوه وجده من المتفوقين في المسائل الرياضية .

ولما كان الناس في ذلك الوقت ينظرون الى المشتغلين بالعلوم نظرة احترام وتبجيل لم ينالها اعضاء الاحزاب والهيئات السياسية ، فقد كان أبوه البروفسور رومل من ذوي المكانة المرموقة في هايد نهايم . وقد ولد له خمسة اطفال مات أحدهم في سن مبكرة أما الباقون فكانوا «هيلينا» تعمل الآن مدرسة في شتوتغارت وارفن رومل الذي نتحدث عنه ، واخوه كارل وجرهاردت . وقد توفي كارل بعد اصابته بالملاريا عند اشتراكه في حرب العراق أثناء الحرب العظمى الاولى . أما والد رومل فقد توفي سنة ١٩١٣ أما امه فعاشت بعد والده سبعا وعشرين سنة ، اذ كانت وفاتها في سنة ١٩٤٠ ، وبعد ان أصبح ابنها رومل برتبة فريق .

وقد تحدثت شقيقته عنه فقالت انه طفل رقيق مدلل ، وكان ذا جسد ناصع البياض وشعر اصفر شاحب ، ولذلك كنا ندعوه بالدب الابيض · وقد رفضت مدرسة «آلن» قبوله فيها لصغر سنه ، فأثر هذا الرفض في نفسه تأثيراً بالغاً فازداد شحوبه وفقد شهيته للطعام ، واصبح من العسير عليه ان يغمض له جفن طوال الليل ·

وكان وهو في المدرسة مثال التلميذ الخامل المهمل ، حتى لقد صرح أحد اساتذته ، بقوله لو وجدنا ان روميل قد أحسن الاملاء ولم يخطىء فيه ، لكنا استأجرنا جوقة موسيقية وطفنا بها البلدة طيلة ذلك اليوم ! ·

ولم يعر روميل اهتماماً للدروس الحسابية ، بعكس ماكان عليه اباؤه · اما هوايته المحببة اليه ، والتي كان ينفق فيها جل اوقاته ، فهي الطواف بدراجته الهوائية أثناء الصيف ، والتزحلق على الجليد أيام الشتاء ·

على انه كان الى جانب ذلك شديد الاهتمام بنقوده ، وعدم التبذير فيها، وتلك ميزة من ميزات سكان فرتمبرغ ·

وعزم هو وصديق له على دراسة فن صنع الطائرات ، وقد صنعا نموذجاً لطيارة ، وزوداها بمروحة كبيرة ، ولكن ذهبت جميع محاولاتها واتعابها سدى ، إذْ لم تغادر تلك الطائرة الأرض التي وضعت عليها ·

وشرع الاثنان روميل وصديقه ـ وكان يدعى كايتل ـ يتطلعان نحو المستقبل ، ويعدان انفسهما للعمل فيه · فقرر كايتل ان يصبح مهندساً ، وان يحصل على عمل له في مصانع «زبلين»[٦] في «فرد ريسكسهافن» · واعجب روميل نفسه بالفكرة ذاتها ، وصمم على تحقيقها اذا مانال موافقة والده · غير ان أباه عارض تلك الفكرة ، وافهم روميل ان عليه ان يربط مصيره بمصير الجيش الألماني ·

ولم يكن لدى عائلة روميل أياً من التقاليد العسكرية ، إذْ لم ينتسب أحد من أفرادها الى الجيش ، عدا روميل الجد الذي اشترك مدة في الجيش برتبة ملازم · وكذلك لم يكن لتلك العائلة أصدقاء عسكريون ذوو نفوذ وتأثير ·

● ● ●

---

(٦) زبلين : من اشهر المعامل التي انتجت المناطيد قبل الحرب العالمية الاولى وما بعدها · ثم اصبحت تنتج الطائرات والدبابات ·

في التاسع عشر من شهر تموز ١٩١٠ التحق رومل بكتيبة المشاة الرابعة والعشرين بعد لنة بصفة جندي اول . حيث كان عليه ان يخدم في صفوف الجيش قبل ان يدخل الكلية العسكرية ٠ ثم رقي الى نائب عريف في تشرين الأول من تلك السنة ، فالى عريف في كانون الأول ٠ وفي آذار ١٩١١ دخل رومل الكلية العسكرية في مدينة دانزغ ٠

كانت أيام الدراسة في دانزغ من أسعد الايام التي شاهدها رومل في سني حياته ٠ ففي هذه المدينة وفي الكلية العسكرية ذاتها ، تعرف بأحد التلاميذ كانت له ابنة عم جميلة في مدرسة مجاورة للكلية ٠ وقد تعرف رومل الى تلك الفتاة وتوثقت علاقته بها ، ولم يلبث ان تزوجها فيا بعد ٠ لقد كانت تلك الفتاة تدعى «لوسيا ماريا مولن» وهي ابنة أحد ملاكي الأراضي الكبار في غربي بروسيا ٠

وانقضت أيام الدراسة وجتاز رومل الامتحان ، فاصاب نجاحاً فوق المعدل ، وهكذا نال رومل في نهاية كانون الثاني ١٩١٢ رتبة ملازم ثان ، وعاد الى نفس الكتيبة التي سبق ان انخرط فيها في (فانغارتن) ، وظل يراسل «مولن» كل يوم ٠

وفي فانغارتن هذه عهد الى رومل بتدريب الجنود الجدد فامضى في العمل سنتين متواليتين ٠

في بداية أذار سنة ١٩١٤ ، أُلحق رومل بلواء مدفعية الميدان في (اولم) ، وظل بها حتى عصر يوم ٣١ تموز التالي ، اذ عاد الى الثكنات فوجد في ميدانها خيولاً قد اشتريت حديثاً تنتظره ، وتنتظره معها أوامر تطلب اليه أن يلتحق بكتيبته فوراً ٠

وفي اليوم التالي كانت سريته قد زودت بمعدات الميدان ٠ وفي المساء جاء ضابط برتبة عميد واستعرض الكتيبة وكان افرادها قد ارتدوا الملابس الرمادية ، ثم القى فيهم كلمة حماسية ، وقبل أن ينصرفوا ، أصدر اليهم أمره بالتهيؤ للحرب ٠

وقد جاء في كتاب رومل عن «الهجمات البرية» ان صرخة من «الشبيبة الالمانية المحاربة قد دوت أصداؤها بين جدران ذلك الدير العتيق» ولكن يبدو لنا ان هذه العبارة ، ومثيلاتها من التعليقات التي وردت في الكتاب ليست من وضع رومل ، وانما أقحمها على الكتاب أحد دعاة النازية حين كان يهيء الكتاب لطبعة جديدة سنة ١٩٣٧ لعامة القراء ٠ وما ان أصبح اولئك الشبان المتحمسون قادرين على مشاهدة الصور التذكارية ، لعشرة آلاف ضابط وجندي كانوا يؤلفون كتيبة فرتمبرغ - حيث لاتزال هذه الصور معلقة الى اليوم في كتدرائية اولم - حتى أصبحوا أقل حماسة ! ٠ وفي اليوم التالي تحركت الكتيبة المشار اليها الى ميدان القتال ٠

في كل جيش من الجيوش توجد أقلية من الجنود المحترفين ـ وقليل من الهواة أيضاً ـ الذين يجدون في الحرب شاغلهم الأوحد الذي يلائمهم تمام الملائمة ·· وأذكر انني كنت اقرأ في العمود الذي كانت تنشره صحيفة «التيمس» بعنوان «للذكرى» أسماء كثير من الضباط الذين قتلوا في الحرب ، في سن مبكرة · وكان روميل أحد هؤلاء الشبان الذين جندوا في سن صغيرة · ولكنه مع ذلك برز منذ اللحظة التي انتظم فيها في سلك الجندية، بوصفه مقاتلاً من الطراز الأول ، إذ كان صلباً ماكراً قاسياً صبوراً سريعاً شجاعاً ، الى درجة تكاد تكون خرافية !

يهاجم وحده ببندقية خالية من الطلقات

وفي الساعة الخامسة من صبيحة ٢٢ آب سنة ١٩١٤ قام روميل بحركة مضادة للفرنسيين في قرية (بليد) بالقرب من (لونغفي) وحينما ارسل لاستكشاف هذه القرية، وسط الضباب الكثيف، كان لم ينم منذ ٢٤ ساعة ، وكان الى جانب ذلك يعاني آلام الطعام المسمم الذي أكله ، كما كان من الاجهاد والتعب بحيث لم يستطع ان يمتطي صهوة جواده · على انه ماكاد يعرف القرية التي اعتزم مباغتتها، ويتحقق من سلامة الطريق الذي يؤدي اليها، حتى خف اليها على رأس فصيلته · فلما اطلقت نيران العدو عليه وعلى جنوده ، أوقفهم ثم اصطفى منهم ثلاثة بينهم ضابط غير حربي ، ومضى بهم حتى صاروا على قيد خطوات من سور يحيط ببيت ريفي · على مقربة منه طريق صغير يمر بهذا البيت متجهاً الى قرية اخرى مجاورة ·

وهناك رأى روميل في أحد جوانب هذه القرية ، خمسة عشر رجلاً أو عشرين من الأعداء ، قد وقفوا في عرض الطريق ·

فماذا عسى أن يفعل ؟

هل يرجع ادراجه ، ويأتي بفصيلته التي تركها وراءه ؟

ان البت السريع في مثل هذا الموقف المفاجىء، لهو أمرٌ عسير في الحرب، ولاشك ان كل مستقبل المحارب يتوقف على أول تصرف له · على أن روميل تصرف على النحو الذي كان يروق له أن يفعله المرة بعد المرة · فلما أحس خطر المباغتة ، جمع رجاله الثلاثة ، وهاجموا العدو ، وظلوا يطلقون عليه النيران ، حتى تحطم ·· ثم تلفت روميل الى فصيلته فألفاها تتحرك نحو القرية ، وكان نصفها قد حمل حزماً من العشب الجاف ، ونصفها الآخر يقوم باطلاق النار ليغطي تقدم النصف الاول · وهنا تقدم مرة اخرى فاقتحم أبواب منازل القرية ، والقى عليها وعلى مخازن الغلال بحزم العشب الجاف مشتعلة ، فتساقطت البيوت واحداً أثر واحد !

تلك حادثة صغيرة قد لاتكون لها أهمية . الا انها توضح لنا اولى حركات رومل . وتصور جرأته واستقلاله في التفكير والتصرف . ذلك الاستقلال الذي تحلى في حياته العسكرية كلها .

لقد أبدى رومل صبرا وجلدا عجيبين. على الرغم مما اصابه من مرض . وعلى الرغم من تلك المتاعب الهائلة في الحرب الدائرة الرحى في تلك الفترة . وفي بعض الأحيان كان يغمى عليه. ولكنه لم يكن يبلغ السلطات انه مريض . وظل كذلك حتى جرح في مؤخرة جسمه في ٢٤ أيلول. وهو يهاجم ثلاثة من الفرنسيين في غابة بالقرب من (فارن) وكان وحده وليس معه الا بندقية خلت من الطلقات !

من ذلك الحين أخذ قائد الكتيبة التي بها رومل . يعول عليه في النهوض بالأعمال التي تحتاج الى شجاعته وجلده . ثم كوفىء رومل بوسام الصليب الحديدي من الدرجة الثانية .

وبعد مضي ثلاثة أشهر . كان جرح رومل قد التأم . فالتحق مرة اخرى فصيله . وزحف به في منتصف كانون الثاني في (أرغون) . وفي ٢٩ كانون الثاني سنة ١٩١٥ . انعم على رومل بوسام الصليب الحديدي من الدرجة الاولى. مكافأة له على ماقام به من أعمال باهرة . إذ زحف مع فصيلته عن طريق ثغرة احدثها في نطاق من الاسلاك الشائكة . الى مسافة قدرها مائة ياردة في صميم مراكز الفرنسيين . فاستولى على اربع من العمارات الكبيرة وصد هجمات كتيبة من كتائب العدو . واستطاع ان يسترد إحدى تلك العمارات بعد ان اخرج منها . ثم انسحب الى مراكزه الأصلية . بعد ان خسر أقل من اثني عشر رجلا .

وهذا ايضا عمل صغير . ولكنه يدل على مدى استعداد رومل بطبيعته . لأن يستغل موقفه الى اقصى حد مستطاع . على الرغم مما ينطوي عليه ذلك من مجازفة .

واذا كانت روح المجازفة هذه قد أدت به احيانا الى الوقوع في مآزق بالغة الخطورة والحرج . فان هذه الروح قد مكنته ايضا من ان يستفيد فائدة قصوى . وخاصة أزاء عدو متهالك لم يحسم أمره بعد .

والذي لاشك فيه أن اصرار رومل على المخاطرة . وقدرته على التصرف الفردي . هي التي أدت بالسلطات الى أن تختاره للعمل في (كتيبة فيرتمبرغ الجبلية) التي الفت بعد ان رقي الى رتبة ملازم اول . وبعد ان اصيبت ساقه بجرح ثان .

وكانت هذه الكتيبة . اكبر من الفوج العادي . فهي تتألف من ست سرايا من حملة البنادق . وستة فصائل من حملة المدافع الرشاشة . كما ان هذه الكتيبة لم تكن تحارب برمتها

وحدة . بل بوصفها تشكيلة منقسمة الى مجموعتين أو أكثر . ويختلف عدد الجنود في هذه المجموعات تبعا للدور الذي تقوم به من أعمال حربية · وكان لكل مجموعة من هذه المجموعات واجبها الذي تتفرد به . وقائدها الذي تأتمر بأوامره . وكان هذا القائد يتمتع بحرية واسعة النطاق في اعماله وتصرفاته . وليس عليه الا ان يكتب تقريراً يومياً لقائد الكتيبة العام ·

وبعد ان تدربت هذه الكتيبة ، التدريبات الممتازة على خوض المعارك الجبلية في النمسا . وبعد أن قضت فترة هادئة تقرب من السنة في قطاع آمن من جبال «الفوج التحقت (بالفيلق الألبي) المشهور . في الجبهة الرومانية . وسرعان ماوكل الى رومل قيادة إحدى هذه المجموعات التي تتفاوت في حجمها · فتارة تكون صغيرة ، وتارة اخرى ينضوي تحت لوائها فوج بكامله ·

وفي اثناء ذلك منح رومل اجازة ، فسافر الى دانزغ وهناك في ٢٧ شباط ١٩١٦ تزوج من صديقته لوسي ماريا مولن · وتظهر لنا صورتها التي اخذت لها في ذلك الحين ، انها كانت فتاة رشيقة ايطالية الشكل على نحو واضح ، جميلة السمات ، وان كان وجهها الذي يسوده الجد ، لم يكشف عن روحها المرحة ، التي ماتزال باقية لديها حتى الآن · ومن أخص خصائصها الواضحة . دأبها وشجاعتها ، وقوتها ·· لقد كانت «لوسي ماريا مولن» هي أصلح زوجة لجندي

يزحف الى المعركة وهو سهران اسبوع

والواقع ان بعض الأعمال التي قام بها رومل بعد ذلك في رومانيا وايطاليا . لم يكن أحد ليصدقها ، لولا ان تواترت الروايات عنها ممن شهدوها ،واشتركوا معه فيها ·

ويمكن ان يقال في كلمة موجزة ، ان طريقة رومل هي ان يتسرب الى خطوط الأعداء بعدد قليل من الجنود وان يصحب معه خطاً تلفونياً أينما ذهب · وفي المناطق الجبلية ، حيث يمكن الاستيلاء على القمم والوديان ، كان رومل يتسلق المنحدرات العالية التي لايمكن لأمهر سكان المنطقة الجبلية السير عليها · وكذلك امتاز بأنه سريع الخطى ، سواء أكان يمشي في الضباب الكثيف ، أم على الجليد السميك ، أم في الحر اللافح ، بالليل والنهار على السواء · ولرومل قدرة على تحمل الحرارة ، والبرد والتعب ونقص الغذاء ، وقلة النوم ·

وعندما يكون رومل وراء خطوط العدو ، فانه لايتردد مطلقا في الهجوم مهما كانت ضآلة القوة التي يهاجم بها ، ذلك انه يرى بحق ان ظهور جنوده فجأة وراء مراكز العدو ، وانطلاق نيران المدافع الرشاشة على ظهر العدو ، يزعزع الجنود جميعاً ، إلا الجنود الممتازين ، وليس الرومانيين أو الايطاليين منهم !!

وعندما استولى على جبل كوزونا في اب سنة ١٩١٧ ، ذلك المركز الروماني المحصن تحصينا قويا . كان قد اقتاد أربع سرايا تسير على صورة ارتال فردية . ومشى بها خلال الغابات بين مركزين من مراكز العدو على مدى ١٥٠ ياردة ، دون ان يكتشف امره أحد . وكان قد تمكن في الوقت نفسه من مد خط تلفوني معه . فلما وصل الى قمة جبل (كوزونا) كان قد مضى عليه اسبوع كامل لم يذق خلاله للنوم طعماً . كما انه كان جرح جرحا بليغاً في ذراعه منذ أيام اذ اصابته رصاصة من الخلف من مكان بعيد !!

وعندما استولى على قرية جاجستي في شهر كانون الاول من العام نفسه . ظل في العراء حتى الساعة العاشرة مساء . وهو في داخل الخطوط الرومانية الأمامية . وكانت حرارة الجو تحت درجة التجمد بعشر درجات . وعندما ادرك . وكان مصيباً في ذلك . ان الرومانيين لابد ان يكونوا نياما . أطلق مدافعه الرشاشة . وصب نيران بنادقه على القرية . ثم تقدم لمهاجمتها بنصف جنوده . وعندما خرج الاعداء من منازلهم والنوم لم يفارق عيونهم بعد . ساقهم أمامه وحصر اربعمائة منهم داخل كنيسة . وكانت الخسائر التي لحقت جنوده طفيفة لاتذكر !

وحينما كان رومل يضطر الى القيام بهجوم على طول الجبهة . كان يطلق نيران مدافعه الرشاشة على القطاع كله . مركزا نيرانه تركيزا هائلا . على النقطة التي سيقوم بمهاجمتها ... وحينئذ يشن هجومه بقوة كبيرة . على جبهة ضيقة للغاية . ثم تحمل القوات المهاجمة مدافعها الرشاشة وتثبتها في الارض وتطلق نيرانها على جناحي العدو بعد احداث ثغرة في خطوطه . وتقوم القوة المهاجمة بالضغط على العدو . والتقدم نحوه دون أن تولي أدنى اهتمام لما عساه أن يقع في مؤخرتها .

وبعبارة اخرى يمكن أن يقال : ان رومل يطبق تكتيك اختراق خطوط العدو والتوغل فيها كما كانت الفرق الالمانية المدرعة تفعل ذلك سنة ١٩٣٩ .

الفصل الرابع

رؤساؤه يستشيرونه في أساليب الهجوم

كيف استولى رومل على بطارية كاملة للعدو بالسلاح الابيض ..
وسبح في الجليد ومعه ستة من الجنود ليأسروا حامية من العدو !

ومما يجدر بالذكر أن رومل ، حتى ذلك الحين ، لم يرق في قيادته الى أكثر من قيادة فوج ، ويقوم بعمليات مستقلة في تصميمها ضد العدو . وكان رؤساؤه يستشيرونه في شؤون إدارة المعارك وأساليب الهجوم ، وينفذون مايقول به ، ومع ذلك فلم يكن حينئذ سوى شاب دون الخامسة والعشرين من عمره ، وكان يبدو على وجهه انه أصغر من ذلك بكثير ، كما ان رتبته العسكرية لم تزد على رتبة ملازم اول، ولايغرب عن البال ان استشارة الرؤساء للمرؤوسين قد تكون مسألة لاأهمية لها ، ولكن لها أهميتها الكبرى في الجيش الالماني ، الذي لايشجع فيه صغار الضباط عادة على أن يبدوا وجهات نظرهم ، وان كانوا مثقفين ثقافة عسكرية ومدربين تدريباً عالياً .

أما ان رومل قد استطاع أن يجعل لنفسه شهرة فردية ، وان يكون معروفاً بين جنود فرقته جميعاً ، فذلك مالم يحدث من قبل . ولكن رومل ليس من تلك الشخصيات الشاذة التي تبرز في الحروب ، وتحدث تأثيرها في النفوس بوصفها غير عادية او غير مألوفة . ورومل لايمكن الا أن يلفت الانتباه بما له من شجاعة وجرأة وعناد ومبادأة على صورة فريدة في نوعها .

رومل يجند النمسويين

وربما كان أقصى مابلغه رومل من مجد في الحرب العظمى الاولى ، هو استيلاؤه على جبل «ماتاجور» جنوبي غرب «كابوريتو» في ٢٦ تشرين أول سنة ١٩١٧ ٠

فقد كان النمسويون يعانون من سلسلة من الهجمات التي قام بها الايطاليون ضدهم ، ولذلك لم يجدوا بداً من ان يطلبوا العون من الألمان ٠ وعلى الرغم من اشتباك القوات الالمانية في جبهات مختلفة ، سارعت القيادة الالمانية العليا الى ارسال الجيش الرابع عشر ، المؤلف من سبع فرق ممتازة ، ليساهم في الهجوم على المراكز الايطالية في وادي ابزونتسو ٠ وفي أثناء ذلك انضمت «كتيبة فيرتمبرغ الجبلية» مرة اخرى الى «الفيلق الالبي» الذي كان عليه ان يقوم بهجوم في الوسط ، تجاه «ماتاجور» ، وفي اليوم الأول كان على هذا الفوج ان يحمي ميمنة الكتيبة البافارية التي كان منوطاً بها قيادة الهجوم على العدو ، وكان على بقية القوات ان تتبعها ٠

ونوجز وصف هذه العملية المعقدة فنقول : ان رومل لم يرقه ان يتبع البافاريين في هجومهم ، واستطاع ان يقنع قائد فوجه المقدم «شبروسر» ، بأن يأذن له في أن يتقدم الى ميمنة البارفايين ، وأن يهاجم مراكز الايطاليين وحده ٠ وما أن أوقف تقدم البارافايين ، حتى زحف رومل بجنوده قبيل الفجر ، عبر الجبهة الايطالية ، دون ان ينكشف أمره ، فأفلح بعض جنوده في اختراق الخطوط الأمامية للجبهة الايطالية ، عندما انبثقت أشعة الفجر ، وتمكن رومل من الاستيلاء على إحدى بطاريات الايطاليين بالسلاح الأبيض ، دون ان تطلق عليه رصاصة واحدة ٠ ثم ترك رومل احدى السرايا لحراسة هذا المركز الذي استولى عليه ، وأخذ يوسع الثغرة التي فتحها ، متقدماً بعد ذلك بسرية اخرى الى الخطوط الايطالية الخلفية ٠

الاستيلاء على جبل ماتاغور

وكان عليه ايضاً ان يعود الى الجماعة الاولى التي خَلَفَها وراءه ، والتي تعرضت لهجوم قام به فوج ايطالي باسره ٠ وما كاد يفاجىء الايطاليين بالهجوم من المؤخرة ، حتى سارعوا الى القاء السلاح مستسلمين ، وحينئذ بعث رومل برسالة الى قائد فوجه ، ومعها الف أسير ايطالي !٠

وفي هذه الآونة تقدم المقدم «شبروسر» بقوة قوامها أربع سرايا اخرى ، ثم أذن لرومل وست سرايا تحت قيادته ، في ان يتقدم داخل هذه الثغرة التي فتحها ، الى المناطق الخلفية للعدو ٠ ولما وجد رومل الطريق قد حجب عن الرؤية ، سار بكل قواته على هيئة رتل واحد

مسافة تسع ميلين تقريباً . وفي ذلك الوقت كان الايطاليون مايزالون منشغلين بالمعركة الرئيسية وبالاغارات المتكررة المتواصلة على جبهتهم . وفي العراء ، وراء خطوط العدو ، كمن رومل في الطريق الرئيسي الذي يفضي الى جبل ماتاغور ، وتمكن من الاستيلاء على رتل من سيارات التموين مع سيارة حربية وأسر خمسين ضابطاً والفين من جنود لواء بيرزاليري الذي كان يتحرك نحو الميدان . واستقل رومل السيارة ، وراح ينطلق الى الطريق أمامه وحواليه. ثم قرر ان يمضي قدماً الى جبل ماتاغور ، وهو المفتاح الرئيسي لمراكز العدو .

وظل رومل بقية ذلك النهار والليل كله ، يتقدم نحو العدو بجنود قد نال منهم التعب ، وانهكهم السير . وعند مطلع الفجر بلغ رومل معسكراً للواء سالرنو . فتقدم ومعه ضابطان آخران وبعض الجنود من حملة البنادق ، الى حشد من الجنود الايطاليين ، وطلب اليهم ان يستسلموا . وبعد هنيهة من التردد ألقى الايطاليون السلاح فاستسلم له ٤٣ ضابطاً و ١٥٠٠ جندي . ولعلهم كانوا قد استسلموا فزعاً من هول المفاجأة ، ونفاذ بصيرة رومل .

تقدم يستمر خمسين ساعة

عندما تسلق رومل جبل ماتاغور من المؤخرة ، وراح يرمي قذائفه الموفقة من القمة ، كان لايزال يتقدم بجنوده خمسين ساعة . وحين كانت الغربان تحوم في سماء هذه المناطق الجبلية ، كان رومل قد استولى على منطقة مساحتها ١٢ ميلاً . وأخذ رومل يتسلق الجبل حتى غدا على ارتفاع ٧٠٠٠ قدم . وتيسر له ان يأسر ١٥٠ ضابطاً و ٩٠٠٠ جندي و ٨١ مدفعاً . والشيء الذي لم يتبينه رومل في ذلك الحين ، هو سر الخور وروح التخاذل العسكرية لدى الايطاليين .

وفي الطبعة التي ظهرت سنة ١٩٣٧ من كتابه «التكتيكات البرية» يقول رومل (اليوم يعد الجيش الايطالي من أحسن جيوش العالم) ولكن لايسعنا هاهنا إلا ان نرتاب في هذه العبارة التي ربما يكون قد أقحمها قسم الدعاية العسكرية على الكتاب .

وعلى أي حال ، فانه على الرغم من ان رومل كان من العسير عليه ان يقوم بمثل هذه الخدع ضد فرق اللورد (كافان) البريطانية ، فإن أعماله كانت بالغة الجرأة ومن أجل ذلك منح وسام الاستحقاق الذي لايمنح عادة إلا لكبار القواد . كما رقي رومل في الوقت ذاته الى رتبة نقيب .

وبعد ذلك بقليل سبح رومل في الليل ، مع ستة من جنوده شدوا الى حبل واحد ، في مدينة ... الجبلية ، وهجموا قرية لونغاروني . واستولوا عليها ، بحاميتها الكبيرة ، وذلك بأن

صبوا عليها النيران من عدة جهات مختلفة ، تحت جنح الظلام . وما ان طلع الفجر حتى تقدم رومل وحده ، وأخبر الحامية الايطالية ان الالمان يحاصرون القرية من جميع الجهات ، وانهم يأمرونها بالاستسلام فأستسلمت .

ثم منح رومل بعد ذلك إجازة ، وعلى كره منه ، عين في إحدى هيئات أركان الحرب ، وظل بها حتى نهاية الحرب .

الفصل الخامس

أينما يوجد رومل توجد الجبهة

يتمتع بحاسة « سادسة » ـ مع الكابتن النجر ـ رومل ومو نتغمرى

قد لايكون فن قيادة الجيوش في الحرب من أسمى الوان النشاط الانساني . واذا كان أي بطل عالمي لايحتاج الى أكثر من ان يكون ذا نزعة عدوانية فريدة ، وذا تركيب جسماني مناسب ، وبراعة فنية ممتازة ، فان قائد الجيش الذي تأتمنه امته على أرواح خيرة أبنائها في معارك الحرب ، لابد أن تتوفر فيه صفات ومزايا لايشترط توافرها في غيره من الابطال العالميين .

ومن هنا ، ماكدت اشرع في تتبع سيرة رومل ، حتى وجدتني اسائل نفسي ، وأسأل غيري من الناس : أي الصفات والمزايا رفعت هذا الرجل الى مصاف الأبطال ؟

ومنذ اللحظة الاولى ، وأنا اشعر تماماً أن هناك خلافاً اساسياً بين نظرة الالمان الى الحرب ، وبين نظرتنا نحن البريطانيين اليها . ولا اقول : انني لم أكن على استعداد لفهم ذلك . ولقد شاءت الصدفة أن أقف على ترجمة لكتاب اسمه (عاصفة من الصلب) بقلم (أرنست ينغر) ،فقرأت في هذا الكتاب حادثة التصقت بذاكرتي ، لأنها كانت مألوفة لدي . وكانت بعد معركة (كمباري) والهجوم الموفق الذي شنه الالمان بعدها ، وتتلخص فيما يلي :

كان الفوج الذي ينتسب اليه (ينغر) مرابطاً بالقرب من (الموفر) بجوار قناة هرمس . فحدث في عصر يوم من أيام الآحاد التي سطعت فيها أشعة الشمس الدافئة ، ان كان جماعة من الضباط جالسين يستمتعون بطعام الغذاء ، وبتدخين سكائرهم الكبيرة وبالشراب ، في أحد الخنادق التي حفرت في الخطوط الأمامية للجبهة ، واذا بضابط منهم يبتدرهم بقوله : لماذا لانتقدم ونُغير على الانكليز ؟ .

ومثل هذا الاقتراح لم يكن ليخطر على بال أي بريطاني في ذلك الحين . فقد كنا على استعداد تام ، بل لقد كنا في شوق الى ان نساهم في هجوم عام نُغير به على الالمان بصورة منظمة ، متى صدرت الينا الأوامر بذلك .

وانه لفخر لأي فوج من الافواج أن يقوم بمراقبة العدو ، وان يكون مسيطراً على المنطقة الحرام في الليل . ويبدو أن معظم الناس على استعداد لأن يعيشوا في وئام ، وان يتركوا غيرهم من الناس يعيشون في وئام ، وأن يستمتعوا بعصر هادىء في ذلك اليوم ، وكأنما هي فرصة قد هبطت عليهم من السماء ليقرأوا كتاباً أو يكتبوا رسالة . فمن يتقدم باقتراح للقيام بمثل هذه الغارة لابد وأن يكون قد صمم على حرمان نفسه من الاستمتاع بالشراب الجيد الوفير ، وتركه جانباً ، والاضطجاع في الخندق !

ويذكر الكتاب ان الالمان أغاروا علينا ، مخترقين الخمسين أو الستين ياردة التي تفصل الجبهتين الالمانية والبريطانية . ولما كانت المدافع لم تطلق نيرانها تمهيداً للمعركة كما هو المألوف عادة ، ولما كانت تلك الساعة من عصر ذلك اليوم ليست هي الوقت المناسب ، فقد نجحت هذه الاغارة ، وعاد ضباط هذه الجماعة في خلال عشرة دقائق ، مزهوين منتصرين ، بعد أن أسروا منا اثنين او ثلاثة ، ومخلفين وراءهم اثنين او ثلاثة من القتلى .

واغرب من هذا ، ماذكره الكتاب بعد ذلك من حوادث . فعندما خرج الفوج للهجوم في اليوم التالي ، اهدى الضباط الذين اشتركوا في هذه الأغارة لقائد السرية . كأساً فضية كتب عليها : الى المنتصر في «الموفر» .

وهكذا كان الجندي الالماني المحترف ، ينظر الى الحرب دائماً ، بنفس النظرة الجادة ، التي ينظر بها البريطانيون الى الرياضة ، وينظر بها الأمريكيون الى الاعمال التجارية .

حاسة سادسة

هذه القصة التي قرأتها والتي ذكرتها الآن ، ظلت عالقة في ذهني لاتبرحه حين كنت

تحدث في مدينة (هايدنهيم) الى النقيب «هارتمان» ، أول شخص قابلته ، وكان زميلاً لرومل في الحرب العظمى الاولى ٠ ولهارتمان مصنع يقوم بانتاج الضمادات والأربطة الطبية بالملايين ، ولهذا المصنع جو مقبض . ولكن نظافته لايمكن أن تجد لها نظيراً الا في المصانع الالمانية والسويسرية ٠ كما كان مكتب النقيب هاتمان ، مثالا لما ينبغي أن يكون عليه مكتب مدير ذلك المصنع ٠ فجوه قاتم رغم آثاثه الفاخر ، وعلى جدرانه صور فوتوغرافية كبيرة كلها تحمل صورته ٠ وهو وان كان وسيما الى حد ما ، الا أنه يبدو كالجو الذي حوله قاتم اللون ، المأني البنية ، كما يبدو على وجهه انه أصغر من ان يكون معاصراً لرومل - ولي أنا ٠

وحين نهض هارتمان من مكتبه وتقدم نحوي يحييني ، تبينت انه فقد أحد ساقيه ٠ فهل فقدها في الحرب العظمى الاولى ؟ لا ، وانما فقدها ، في حادثة طائرة شراعية ، عندما كان في سلاح الطيران الالماني ٠ فقد أولع بركوب الطائرات الشراعية منذ زمن بعيد ، وفي أول يوم غادر فيه المستشفى بعد أن فقد إحدى ساقيه ، صعد في طائرة شراعية الى الهواء ، مرة اخرى ! ٠

وحين يتحدث هارتمان عن الطيران الشراعي ، يلتمع وجهه ويضيء ٠ ثم شرعنا نتحدث عن رومل ٠ أجل فقد كان رومل وهارتمان صديقين حميمين منذ الحرب العظمى الاولى ، وظلا كذلك الى أن مات رومل ٠ فقد اشتركا في الحرب معاً في فوج واحد ٠ كما كان هارتمان مع رومل غداة انعم عليه بوسام الاستحقاق ٠

طفق هارتمان يروي لي كيف عبر رومل مياه (بياف) في إحدى ليالي كانون الأول الباردة ، ومعه ستة من الرجال ، ويصف استيلاءه الرائع على قرية لونغارون ، وكيف كان جنود فرقته يضربون به المثل فيقولون : أينما وجد رومل وجدت الجبهة !

ومضى هارتمان في حديثه يقول :

« وكان رومل يحاول دائماً أن يأتي بما لم يخطر على بال أحد ، وبما لم يفكر إنسان في محاولة الاتيان به ٠ ولاشك في أنه كانت له (حاسة سادسة) أو انه (كان يستشعر بأطراف أصابعه) وقد سمعت هذا التعبير من جميع الجنود الذين عرفوه ٠ مما عرف عن رومل انه كان قاسياً ، ولكنه لم يشأ أن يكلف احداً رهقاً ، ولم يطلب الى أحد أن يقوم بشيء أكثر مما يقوم به هو نفسه ، أو حتى مثل مايقوم به ٠ وكانت خطة رومل أن يقلل من الخسائر ماأستطاع الى ذلك سبيلا ، وأن يلتجيء الى التكتيك ، وهو عبقري في هذا الفن ٠

ولعلنا نجد بين الضباط ممن لايحبونه كما يحبه الجنود · ولعل مرد ذلك أن رومل نفسه كان يعلق أكبر آماله على جنوده ، وكان يتوقع منهم الشيء الكثير ، وقليل منهم يستطيع أن يجاريه · وكان رومل على حد قولهم (خير زميل) لهم ·

وهذه العبارة الاخيرة لها دلالتها ، ذلك ان الجنود لم يكونوا سوى مجموعة من الزملاء الشبان يقضون معاً وقتاً طويلاً ، لأن أعمال الافواج لم تكن تستغرق كل وقتهم · وحتى في الجبهة الرومانية ، كان باستطاعتهم أن يستمتعوا بجلسات محلية ، أو يطوفوا بالكنائس ، أو ينتخبوا لهم ناحية، فيستغرقوا في الشراب والطعام ، وينسوا الحرب وأعباءها ·

وختم هارتمان حديثه قائلاً : تلك ذكريات في حياة كل من اشترك في الحرب العظمى ، ذكريات تجعل الانسان يهتف من صميم قلبه قائلاً : ان الحرب لم تكن شراً على اي حال ! تلك الامسيات الجميلة عندما كنا نركب الخيول رائحين غادين، وعندما كنا نستأجر حجرة لنستحم فيها ، وعندما كنا نبتاع مانحتاج اليه ، ونشرب مع زملائنا من جنود فرقتنا !

وعندما حاولت بلباقة ، أن احول مجرى حديث هارتمان عن القتال في الخطوط الامامية ، الى حياة الهدوء والاطمئنان ، لاستخلص منه فكرة عن رومل بوصفه انساناً وجندياً ، لم افز بطائل وخرجت صفر اليدين !

فهل كانت لرومل متعة خاصة ؟ يجيبني هارتمان بقوله : انه لم يكن لديه متع أو تسليات · أن من يستخدم عبقريته في تنفيذ التكتيكات الصغيرة ، كان يبتكر خططاً جديدة ، لاحداث ارتباك في خطوط العدو · ومما لاشك فيه أن رومل لم يكن يهدف الى أن يضرب العدو في مؤخرته ، كما انه لم يكن يهدف الى زيارة العدو أو التنزه في صفوفه !

وسألت هارتمان : ألم يطرأ اي تغير على رومل بعد ان عاد الى فوجه في سنة ١٩١٦ ، بعد أن زُفَ الى زوجته لوسي ؟ فقال : ان شيئاً من ذلك لم يحدث ، فقد عاد كما كان قاسياً لايعبأ بخطر ، كل همه ان يكسب الحرب في القطاع الخاص به ·

ثم قال هارتمان ، وقد عرت وجهه الوسيم علامات التأثر : «لقد كان رومل جندياً مائة في المائة · كانت الحرب تغمره قلباً وقالباً » ·

مع الكابتن الدنجر

وبعد ذلك ببضعة أيام حاولت أن أحصل على معلومات اخرى عن رومل من النقيب

«الدنجر» الذي حارب مع النقيب هارتمان ورومل في الفوج ذاته ، أبان الحرب العظمى الاولى ، وكان مساعداً لرومل ، وسكرتيراً خاصاً في فرنسا سنة ١٩٤٠ ، وفي شمال افريقيا ، وفي نورماندیا سنة ١٩٤٤ ، وربما كان «الدنجر» آخر من رأوا رومل حياً ٠٠ كان «الدنجر» في حياته الخاصة ، يشتغل بتصيم الحدائق وتخطيطها ، وله شهرة واسعة في «اشتتغارت» ، وهو مهندس معماري له ذوق ممتاز ، ولعله كان قد ادرك بغيتي ، وما احاول ان استخلصه منه في شأن رومل ، فلم افز بطائل ٠ غير انه سرعان ماأخذ يضفي على رومل خاصية «الحساسة السادسة» ، وكل المزايا العسكرية ثم مضى فقال : ان رومل كان قاسياً ، قاسياً جداً على كل الناس ، وعلى الضباط بصفة خاصة ٠ ومع ذلك فحينما يكون رومل الى جانبك لن يداخلك هم قط ٠٠ وفي تلك الايام كان رومل يعتقد اعتقاداً راسخاً بأن كل أمر من الأوامر يجب ان ينفذ تنفيذاً تاماً ٠٠ ذلك انه كان أكثر ثقة بالقيادة العليا وبهيئة اركان الحرب في الحرب العظمى الاولى ، منه في الحرب العظمى الثانية ٠

ثم سألته : ألم تكن لرومل متع اخرى ؟ فقال : انه كان يحب القنص وصيد السمك ، اذا ماوجد فسحة من الوقت ٠ كما كان يحب الكتب العسكرية أكثر من غيرها ٠

ولم يكن يحب الموسيقى والمسرح ، ولا قيمة عنده للطعام والشراب ٠

وسألته : هل كان صارماً حاداً دائماً ؟ فقال : لا ٠٠ وانما كان يمزح ويتفكه مع الجنود ٠ وكان يتكلم بلهجته الاقليمية الاسفابية مع الجنود الذين ينتمون الى ذلك الاقليم ٠[٧]

رومل ومو نتغمري

ويخيل الى أنني أبحث عن ذلك المخلوق النادر الذي لالون له ، ذلك الانسان الذي تخصص في فن معين ، والذي له عقلية ذات اتجاه واحد ٠ ومونتغمری في شبابه ، كما يطالعنا من كتاب «الان مورهيد» ، هو اقرب من يماثل هذا الضابط «النظامي» الذي لم تكن له أية منعة أو هواية أللهم الا حرفته ـ أي فنه العسكري ـ غير ان مونتغمري كان على الأقل ، رياضياً مبرزاً ، في مدرسة (سنت بول) ، بل كان أحسن طالب في المدرسة ٠ وفي (ساند هرست) كان يضايق معلميه ، ويذكر لهم كيف ان بعض الناس يقولون عنه انه لافائدة منه ، وانه لن يجد له مكاناً في الجيش ٠ أما رومل فلم تكن لديه حتى تلك الصفة السلبية ٠

(٧) سفابي : أحد اقاليم المانيا الوسطى ٠

والحياة في الجيش ضيقة النطاق ، محدودة ، وخير مثال على ذلك : الجيش الالماني القديم ، بشعوره الطبقي ، وتقاليده العتيقة الجامدة . وعلى ذلك فالأجنبي او الرجل الذي يدخل الجيش ، بصفة مؤقته ، من مكان آخر من العالم ، يذهب به الاعتقاد الى أن الجندي المحترف حتى في أيام الحرب ، يجب ألا يفكر في غير الجندية .

وعندما ذكر لي الجنرال (اشبيدل) وهو رئيس هيئة اركان حرب رومل في نورمانديا ، ويمتاز بذكاء مفرط ، عندما ذكر لي هذا الجنرال انه يظن ان رومل لم يقرأ في حياته كتاباً عن غير الحرب ، سألته : ألم يكن رومل غبياً بعض الشيء ؟ فحملق الجنرال في وجهي وقال : غبي ؟ كلا لم يكن غبياً . ان هذا آخر شيء يمكن أن ينعت به رومل » .

الفصل السادس

كاد رومل أن يكون شرطياً

المانيا ومعاهدة فرساى ـ هتلر ينتظر الوقت المناسب
فرق بين هزيمة ١٩١٨ واندحار ١٩٤٥ ـ تسع سنوات برتبة نقيب
الالمان يهربون بأسلحتهم وموسيقاهم !

طعم الهزيمة مُر المذاق دائماً ، ولكن انهيار المانيا في سنة ١٩١٨ ، كان مفاجأة لكل جندي الماني ، على العكس من استسلام الجيوش الألمانية في أيار سنة ١٩٤٥ ، لأن ذلك كان متوقعاً من الألمان جميعاً ويرونه واقعاً لامحالة ، ماعدا المتطرفين من جنود فرقة الدفاع (S. S.) ولقد ادرك المارشال (لوندورف)[٨] بحق ، ان الهجوم الكبير الذي شنه في آذار سنة ١٩١٨ كان آخر مافي جعبته ٠

ولكن عندما أخذت انتصارات الألمان تضعف ، ولاحت بوادر الهزيمة في الصيف ، بقي الضباط الألمان القدامى من دون ان تتسرب الى رؤوسهم فكرة الاستسلام ٠ وحجتهم في ذلك ان الجيوش الألمانية مازالت ترابط في أرض اجنبية ، وان ارض المانيا منذ دخلها الروس في سنة ١٩١٤ ، لم تطأها قدم اجنبية ، أللهم إلا اقدام الاسرى !

وفي اثناء ذلك كان يجب ان تقصر خطوط الألمان بعد معارك (السوم) كما كان ينبغي لهم ان يجلوا عن شمال فرنسا كله وعن بلجيكا ، وان تبرم معاهدة للسلام مع المانيا ، وان لم

---

(٨) من كبار القادة الالمان في الحرب العالمية الاولى ٠ وضع مذكراته بعد تلك الحرب ، فترجمت الى العربية وطبعت في جزئين ، على يد احمد رفعت وذلك في القاهرة سنة ١٩٢٢ ٠

تتركها أحسن حالاً في الغرب مما كانت عليه في الرابع من شهر آب سنة ١٩١٤ ٠ وما عدا القيادة العليا وقواد الجيش ، كان الذين ادركوا في الاسابيع الاخيرين من تلك الحرب انه لم يكن ثمة مجال للاختيار بين الاستسلام وبين الكارثة التامة . وكان هؤلاء قليلين جدا ٠ وحتى الحلفاء انفسهم كانوا هم ايضاً يستعدون لمواجهة حرب الشتاء في الخنادق ، ويضعون الخطط للقيام بهجماتهم النهائية في ربيع سنة ١٩١٩ ٠

والواقع ان الجيوش الألمانية كانت قد هزمت هزيمة سافرة في الميدان ، كما ان الحصار المضروب حول المانيا ، كان قد حطم روح المقاومة في الشعب الالماني داخل المانيا نفسها ٠ وكان في المستطاع إعاقة الهزيمة ، غير انه لم يكن من الممكن تجنبها أو تفاديها ٠

وعلى الرغم من هذا ، كنا نميل لأن نعزو فشلنا الى أي شيء آخر ، عدا سبب النقص في مواردنا ٠ فكان من الطبيعي إذن ان تعود اسطورة «الطعن من الخلف» لتستولي على ادمغة الجنود الألمان العائدين من الميدان ٠ وقد كان فهم الحلفاء لنفسية الشعب الالماني فهماً خاطئاً غريباً ، بل انهم جعلوا الالمان يستمرئون هذه الحالة النفسية ، وذلك حين اذنوا لهم في أن يعودوا الى بلادهم بأسلحتهم مارينَ بجسور نهر (الرين) تتقدمهم موسيقاهم !

الألمان ومعاهدة فرساى

ومضى الحلفاء يعطون الألمان فكرة ثابته مستمرة عن ذلك الضيم المشروع الذي لحق بهم ، فتجاهلو تلك الشروط التي تمت الهدنة بمقتضاها ، وهي شروط سافرة لا لبس فيها ، كما أشار الى ذلك «جون مايناردكينز» في ذلك الحين ٠

لقد أعلن الحلفاء عن عزمهم على عقد معاهدة للصلح مع المانيا على اساس شروط الرئيس ولسون الأربعة عشر ، كما بدت واضحة مفصلة في كلماته التي القاها في الكونغرس الأمريكي ، على ان تكون من مهمة مؤتمر السلام ، مناقشة التفاصيل الخاصة بتطبيق تلك الشروط ٠

غير ان هذه التفصيلات ، في الواقع ، لم تناقش ، كما ان شروط الصلح امليت املاء ، دون ان يستمع أحد لصوت الألمان ٠ رغم انه كان ممكناً ان تدرج شروط ولسون الأربعة عشر ، وما تفرع عنها في معاهدة الصلح ، على حد قول «هارولد نكلسون» في كتابه عن «السلام» ٠

وترتب على ذلك . انه على الرغم من ان معاهدة فرساي ، لم تكن قاسية قوة أية معاهدة يبرمها الألمان مختارين ، فلم يشعر الالمان جميعاً بأنهم مقيدون بهذه المعاهدة ٠ كما ان المانياً واحداً لم يكن على استعداد لان يقبل التنازل عن قطاع كبير من غرب بروسيا الى بولندا ، وانها لخسارة ان تضبح مدينة «دانزغ» ـ وفيها مليونان من الالمان ـ خاضعة بصفة دائمة للحكم البولندي !(٩) ٠

وعلى هذا الاساس يمكن ان نفهم بجلاء سلوك اي ضابط الماني فيما بعد ٠ فطبقة الضباط يرون انهم قد غرر بهم حين القوا سلاحهم ، وانه لم يكن ثمة فائدة تجنى من وراء الجدل ، حتى ولو قدر أن تمتد الحرب الى سنة ١٩١٩ فيما عسى ان يقبلوه من الشروط التي يفرضها عليهم الحلفاء ، مهما تكن تلك الشروط مثيرة للسخط ٠

وفي سنة ١٩٤٥ رأينا الالمان قد تحطموا او تحللوا كحطام مدائنهم التي خربت ، وقد بدت عليهم البلادة العاطفية في بؤسهم الكئيب ٠ ففي عام ١٩١٨ كانت روح التبرم التي تثير البعض ضد البعض الآخر ، مازالت متقدة بين الالمان على أساس ان اليوم الذي يتألبون فيه على الغزاة مايزال بعيداً ، وان كانوا انفسهم لايشكون في ان ذلك اليوم آت لامحالة ٠

وقد قال لي أحد رجال الصناعة الالمان في دسلدورف سنة ١٩١٩ :
«اخرجوا من هنا ، وسنعود الى اصطياد الفرنسيين بالعصي في عقر دارهم !» ، وكان ذلك قبل احتلال الفرنسيين للروهر بأربع سنوات ٠ وفي ذلك الحين كنا نداوي جراحنا ، ونحتفي بانتصاراتنا ،وننفق مما أعطينا من مكافآت ونستمتع بطلائع تلك الفترة القصيرة التي اعقبت الحرب ، وكنا في شغل شاغل عن ان نعرف او نعني بما يجري في المانيا نفسها ٠

هتلر ينتظر الوقت المناسب

ولكن منظر الضباط العائدين من الميدان ، وهم يسيرون في الشوارع ، ويهبطون من القطارات مجردين من رتبهم العسكرية ، وفي كثير من الاحيان ممزقي الاوصال ، قد أثر تأثيراً بالغاً في نفوس الشعب الالماني ، وبالتالي ، أعلن هتلر في يقين بأن الشعب الالماني سيرحب به في الوقت المناسب ، وهذا التأثير أيضاً يفسر لنا الى حد بعيد ظهور الفيلق الحر ، بما له من

---

(٩) ميناء دانزغ : من اهم الموانىء البولندية على بحر البلطيق وكانت مطامع المانيا الهتلرية في الدانزغ من الاسباب الاساسية للهجوم الالماني على بولندا

وحشية ، ويفسر لنا ظهور امثال غورنغ وروهم وديتريخ ، كما يعيننا على ان ندرك لماذا عاد الهر «نوسكه» ، الضابط غير الحربي ، وصانع السلال السابق ، الى طبقة الضباط بوصفها تتضمن الالمان القادرين على حفظ النظام ٠

ومهما يكن من أمر ، فقد كان هنالك جانب آخر لهذا كله ، فوسط هذه السحائب المتراكمة لهذه الفوضى الاقتصادية ، والاضراب الروحي الذي استشرى في نفوس الالمان من جراء الهزيمة والاحتلال والحرب الأهلية ، كان من العسير على اي انسان لايعيش في المانيا انئذاك ، ان يتصور حالة عائلات الطبقة الوسطى هناك في ذلك الحين ٠ فلقد كان الازواج يخرجون الى مصانعهم أو الى مكاتبهم ، والزوجات يشرفن على العمل الذي لايفرغ في البيوت ، ويفتشن عن الخادمات البائسات ، وكان اهم مايشغلهن في ذلك الوقت هو اسعار الطعام ، إذ يعانين الكثير في سبيل الحصول عليه ٠ لعل اعسر من ذلك كله أن نرى ضابطاً المانياً نظامياً يعود مرة اخرى الى حياة الجندية في وقت السلم ، كما لو كانت الحرب ليست إلا مجرد مناورة طويلة الامد وغير عادية ٠

رومل يعود الى الجيش

ويكاد كل ذلك ان يكون قد حدث تماماً للنقيب «ارفين رومل» ٠ ففي ٢١ كانون أول ١٩١٨ ، عين مرة اخرى في كتيبته الاصلية ، كتيبة المشاة ١٢٤ في فانغارتن ، التي التحق بها أول مرة سنة ١٩١٠ عندما انتسب الى الجيش ٠ وعلى أي حال فالنقيب رومل لم يكن حظه من المتاعب قليلاً ٠ وكان عليه ان يسافر في الشهر نفسه خلال المانيا الثائرة ، ليأتي بزوجته من دانزغ ، حيث ثقل عليها الداء ، فلزمت بيت جدتها ٠ وسافر رومل اليها في زيه العسكري فكان مدعاة للتساؤل ، والتعريض الهين به ، وكاد يلقى القبض عليه ، ولكن النقيب رومل عاد بزوجته آمناً الى بيت امه في (فانغارتن) وكانت الام والكنة صديقتين حميمتين ؟

وفي صيف ١٩١٩ ذهب رومل على رأس سرية في مهمة تستغرق بعض الوقت للاشراف على الامن في «فريدريكسهافن» ٠ وكانت هذه اولى تجاربه في كبح جماع الالمان الذين لم يوطنوا انفسهم بعد على اطاعة الأوامر ، وكانوا ينفرون منه بعض الشيء في اول الأمر ، بل كانوا يهزأون به لأنه يضع وسام الاستحقاق على صدره ، وطلبوا اليه اول الامر تعيين مفوض ، وأبوا أن يمشوا مشية الأوزة ، ثم عقدوا اجتماعاً ثورياً ، حضره رومل ، وفي نهايته وقف رومل عند آخر منضدة في مكان الاجتماع واعلن ثائراً انه انتوى ان يقود جنوداً لا شرذمة من المجرمين !

وفي اليوم التالي سيرهم وراء فرقة موسيقية الى ميدان العرض العسكري · وحين رفضوا ان يقوموا بالتدريبات العسكرية ، امتطى صهوة جواده وعاد ادراجه ، فتبعوه الى الثكنات صاغرين تماماً ، وفي خلال أيام اصبحوا بالغي الهدوء والألفة ، حتى ان (هاهن) رئيس بوليس اشتتغارت طلب الى رومل ان يصطفي بعضهم ليلحقوا بالبوليس ، على ان يمنحوا مكافأة خاصة · ودعي رومل الى ان يلتحق معهم بالبوليس ، وربما يفسر لنا هذا ، تلك الاسطورة القائلة ان رومل كان في يوم ما رجلاً من رجال البوليس ·· ولكن رومل اعلن انه سيعود الى كتيبته السابقة ، وود معظم هؤلاء الرجال ان يلحقوا به مضحين بمكافآتهم المالية !

تسع سنوات اخرى برتبة نقيب

وبعد ذلك قاد رومل سريته الى الروهر ليقوم بنشر الأمن ، ولكن شيئاً مقلقاً أو مثيراً للخاطر لم يحدث هناك وفي ٢١ كانون ثاني سنة ١٩٢١ بعد ان قام رومل بحملة تفتيشية تأديبية في «اشفابسيغوند» عاد الى اشتتغارت على رأس سرية من كتيبة المشاة الثالثة عشرة ، حيث كانت الكتيبة الرابعة والعشرون بعد المائة قد اختفت بعد ان خفض عدد الجيش الالماني ·

وهناك ظل رومل برتبة نقيب تسع سنوات اخرى !

الفصل السابع

رومل في الفيلق الحر

لذته في التدريبات العسكرية ـ تذكر أعماله الاولى

كتابه عن الهجمات البرية ـ كيف نشأ فيلق المتعطلين

لم يكن بد لرومل من ان يستأنف عمله ، وينساق للانضمام الى «الفيلق الحر» ملاذ كثير من المتعطلين والساخطين والقساة من ضباط الجيش السابقين الذين لايعرفون عملاً آخر غير الحرب ، وليس يعنيهم كثيراً من الذين يقاتلون !

كان لابد له من ذلك ، لأن الجيش الالماني رغم هزيمة تشرين الثاني سنة ١٩١٨ ، ورغم الحرب الأهلية التي وقعت عقب ذلك ، لم يعدم من الجنود لحظة واحدة ، كما أن أحداً لم تغب عن باله قط ، تلك الرغبة في زيادة عدده في اول فرصة ممكنة . وقد جاء في المادة ١٦٠ من معاهدة فرساي انه في تاريخ غايته ٣١ آذار يجب الا يزيد الجيش الالماني على سبع فرق من المشاة ، وثلاث فرق من الخيالة . وبعد ذلك التاريخ يجب الا يزيد عدد الجيش العامل على مائة الف جندي وضابط . كما ان المجموع الكلي للضباط العاملين يجب ان لايزيد على اربعة آلاف ! .

وكان الغرض من ذلك ان يسمح لالمانيا بقوة كافية لحفظ الأمن في الداخل وكانت النتيجة ان القائد الأعلى الجنرال (هانز فون سيكت) «وهو الرجل الذي اشعل الحرب التي جاءت بعد ذلك» استطاع الحصول على دعامة صلبة من المحاربين المحترفين اقام عليها بنيان جيش المستقبل ، حين اصبح من الممكن فتح باب التجنيد من جديد ، كما فعل هتلر ذلك في آذار سنة ١٩٣٥ .

وكان طبيعياً ان يقع الاختيار على رومل للقيام بدوره في هذه الفترة ، فهو يحمل وسام الاستحقاق ، وله شهرة ممتازة بوصفه ضابطاً برياً · ورغم انه لم يكن يعرف الجنرال فون سيكت ، معرفة شخصية ، ولم يلتق به الا مرة او مرتين في استعراض عسكري ، فان «سيكت» كان يعرف تماماً ان رومل هو الرجل الذي يريده ، وكان رومل آنذاك مايزال دون السابعة والعشرين من عمره بأربعة أيام غداة اعلان الهدنة ، ولكنه ليس من ذلك النوع الصلف ، الذي قد يفيد في الحرب ، ولكنه لايطيع الأوامر ، ولا يذعن للتدريب العسكري السخيف الممل في أيام السلام ·

لذته في التدريبات العسكرية

لم يكن لرومل ، في الواقع ، ان يختار بين أحد الأمرَيْنْ ، حتى لو كان له الخيار · فالجيش هو سبيله الأوحد · وما دام متزوجاً وليست له موارد اخرى خاصة ، فهو لاشك يرضيه تمام الرضى ان يتمكن من العودة الى الجيش ·

وفضلاً عن ذلك كان رومل لايجد الحياة العسكرية سخيفة او مملة ، وذلك لانه كان جندياً مفكراً ، فهو يريد ان يعيش في جو معاركه من جديد ، لا بدافع من الهيام بالحرب ، ولكن ليستخرج من هذه المعارك دروساً في التكتيك الصحيح ·

ومثل رومل في هذا الباب كمونتغمري تماماً ، يجد لذة في التدريبات والتمرينات العسكرية !

وليس ثمة ادنى شك في ان رومل كان يعلم تمام العلم هدف المؤامرة الواسعة النطاق التي نشر اطرافها الجنرال «سيكت» لزيادة عدد الجيش ، واخفاء مدى قوته عن اعين الحلفاء !

ولا شك كذلك في ان كل ضابط من الضباط الاربعة آلاف المصطفين ، كان عليه ان يعلم تمام العلم ان رسالته ليست حفظ الامن الداخلي فحسب ، وانما هي خلق وتدريب جيش جديد قوي يبعث من حطام ذلك الجيش القديم · ولابد ان يكون هؤلاء الضباط قد ابتهجوا تماماً لهذا البعث ـ ولو كنا في مكانهم لسررنا مثلهم ـ حين رأوا تلك المهارة التي تحققت بها رسالتهم ·

واذكر لهذه المناسبة انني قرأت مقالاً في مجلة «كوارترلي ريفيو» في عدد تشرين اول سنة ١٩٢٤ يصف فيه امير اللواء «الجنرال مرغان» احد اعضاء لجنة نزع السلاح ، الحيل والخدع

التي احبطت جهوده ، فاصبح كل الجيش الالماني بفضلها قائماً سليماً لم يمسسه سوء ، تحت ستار تلك الالفاظ الجوفاء : من امثال تسريح الجيش ، والصالح العام ، ومراكز المعاشات وغيرها ٠

ويقول مورغان نفسه : «لو كنت المانياً وطنياً لاحنيت هامتي للجنرال فون سيكت بوصفه اعظم روماني بين الالمان «فشار نهورست» الذي احال العبارات الخاصة بنزع السلاح في اتفاق «تلست» الى هزيمة نابليون ـ ثم الى انتصارنا عليه في معركة واترلو ـ ليس الا مثلاً صغيراً حين يقاس بالجنرال سيكت وذلك لان العبارات المماثلة لها في معاهدة فرساي قد صيغت على نحو اكثر حرصاً ودقة » ٠

في ميادين اعماله الاولى

فالجندية في المانيا في الفترة التي اعقبت حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ لم تكن عقيمة او غير مريحة للضابط الالماني ، كما قد يخيل الينا ٠

وربما كان من حسن حظ روميل ان يكون مقر عمله في اشتتغارت ، تلك المدينة الجميلة التي تقع في صميم بلاده ، حيث تعيش اسرته ٠ هكذا ، ورغم انه كان على روميل ان ينتظر حتى سنة ١٩٣٣ ليرقى الى رتبة مقدم ، فانه لم يكن تعساً قط ٠ ففي سنة ١٩٢٧ منح اجازة سافر خلالها الى ايطاليا ومعه زوجته ، وهناك زار مرة اخرى ميدان اعماله الباهرة في لونغارون ، حيث تعرف الى زوجته ، لاول مرة في مدافن قبور اسرة مولينو ، التي اشتهرت اسرة زوجته ، بأنها انحدرت منها ٠ ولكن ارتياد روميل وزوجه لهذه المنطقة لم يدم طويلاً ، لأن الايطاليين في لونغارون قد استاءوا حين رأوا ضابطاً المانياً في زيه العسكري يروح ويجيء في مكان يرتبط في ذهنه بشيء حبيب اليه !

وفي فترة اخرى من فترات اجازته كان روميل وزوجه يستقلان الزوارق في نهر الراين حتى بحيرة كونستانس ، وكلاهما يحسنان الانزلاق على الجليد وتسلق الجبال ، والسباحة ، وكلاهما يحسنان ركوب الخيل ، ويغرمان بالخيول والكلاب ، ويؤثران حياة الريف على حياة المدن ، ولهذا كانا يفران من مدينة اشتتغارت مااستطاعا الى ذلك سبيلا ٠ كما كان كلاهما يحبان الرقص ، ولكن واحداً منها لايجد متعة في التردد على المسرح ، او في غشيان السينما ، ولا يعبآن بالحفلات !

وكانت ملهاة روميل حينما كان يأوى الى البيت ، هي العزف على الكمان ، على طريقة الهواة ٠ وكان الى جانب ذلك مقلا غاية الاقلال في الشراب ، فلا يتجاوز زجاجتين من النبيذ

. ولم يكن يدخن ، أو يبدي اهتماماً خاصاً بالوان الطعام ، وحين يخلد الى البيت يكون دائب العمل بصورة غير عادية . فهو يستطيع ان يصنع او يصلح أي شيء . وحين يشتري دراجة بخارية مثلاً لايستريح الا اذا فككها تماماً ، ثم يعود فيركبها من جديد !

وحين كان رومل في اشتتغارت ، الف مع هارتمان والدنجر «جماعة المحاربين القدماء في فيرتمبرغ» . وتفرغ لها تماماً . وفي هذه الجماعة لم يكن هنالك أي تميز بين الرتب العسكرية ، وانما كانوا سواسية . كما كانت هذه الجماعة أهم شاغل لرومل . فهو يقضي فيها معظم وقت الفراغ، وهو يتصل بكل الجنود الذين حاربوا في هذه الكتيبة ، ويبعث اليهم برسائل خاصة، ويحاول أن يأخذ بيد هؤلاء الذين يقاسون شظف العيش في المانيا بعد الحرب .

. وفي سنة ١٩٣٥ كان رومل برتبة عقيد وعلى رأس أحد الافواج في (غوزلار) ، وكانت هذه الجمعية قد عقدت اجتماعها السنوي الذي اعتادت أن تقوم فيه بعرض عسكري ، فلم يشأ رومل ان يتخلف عن هذا الاجتماع ، وسافر تواً الى اشتتغارت ليشهده ! وقد حضر الاحتفال ذاته الجنرال فون سودل ، ودعا رومل الى الوقوف معه في المنصة ، وتحية العرض وكان «سودل» من طراز رومل . فهو يفضل دوماً الالتقاء والعمل معاً مع أفراد سريته القديمة .

وهذا مضت الأعوام على رومل وزوجه هينة خالية من الاحداث ، أللهم إلا ذلك الحادث الرئيسي ، وهو ميلاد ابنهم الوحيد «منفرد» في ليلة عيد الميلاد من سنة ١٩٢٨ ، بعد اثني عشر عاماً من زواجهما .

وتقول أرملة رومل : «ان الحرب لم تترك أي أثر في زوجها ، أللهم إلا بعض آثار الجروح» وعندما كان رومل يتحدث عن الحرب ، وقلما ماكان يتحدث عنها مع زوجه ، كان يتحدث عن عمل سخيف وحشي ، لايرغب اي انسان عاقل في ان يراه قد عاد مرة اخرى !

لم يكن رومل يحلم في نومه ، ولا كان يشعر ، كبقية الجنود الشبان في كل الجيوش بعد ١٩١٨ ، بأن تلك السنوات الاربع لم تكن سوى هذيان غريب لعين ، بل انه لم يكن يشعر بأنها كانت حقيقة واقعة . وانما ظل ذا عقلية جادة ، وان كانت لطيفة ، ومزاج معتدل ، وذوق بسيط ، ويؤثر حياة الهدوء والدعة ، وتستغرقه مهنته العسكرية تماماً .

أما ان عمله هو التهيؤ للحرب ، فتلك فكرة بادية التناقض ، يملك الجنود المحترفون التدليل عليها اكثر مما يملكه المدنيون انفسهم !

كتاب الهجمات البرية

وفي أول تشرين أول ١٩٢٩ عين رومل مدرباً لمدرسة المشاة في «درسدن» حيث ظل بها أربع سنوات كاملة · وكانت له محاضرات جمعها في كتابه «الهجمات البرية» وقد بناها على خبرته الشخصية أبان الحرب العظمى الاولى ، في بلجيكا وهضبة أرغون ، وجبال الفوج والكربات وفي ايطاليا · وهو كتاب صغير ممتاز حقاً عن التكتيكات البرية ، وقد وصف فيه العمليات الصغيرة وصفاً بارعاً ، وزوده بخرائط تخطيطية ، كما رسم فيه دروس التكتيك رسماً واضحاً · وقد أصبح هذا الكتاب من المراجع المقررة في الجيش السويسري ، الذي أهدى ضباطه ساعة ذهبية الى رومل· كما اجتذب هذا الكتاب انتباه قارىء قريب من موطن المؤلف وكان له أكبر الأثر في مستقبله كما سنرى فيما بعد !

وفي ١٠ تشرين أول سنة ١٩٣٣ ، كان رومل برتبة مقدم أفأعطي قيادة الفوج الثالث من كتيبة المشاة السابعة عشرة ، وهي كتيبة جبلية ، اشترط في جنودها ان يكونوا على اختلاف رتبهم من البارعين في الانزلاق على الجليد · ولاشك ان الجنود أرادوا ان يعرفوا هل ان قائدهم رومل ، الشاب جدير بأن تناط به قيادة فوج من الرياضيين · ولم تكن لديهم في ذلك الحين آلة لرفعهم الى قمة الجبل ، فكان عليهم ان يجهدوا انفسهم في تسلقه الى قمته · وهناك على هذه القمة كانوا يودون لو جلسوا ليشربوا وليدخنوا وليستريحوا من وعثاء الصعود ، ولكن رومل كان يصيح بهم : «اظن ان من الافضل ، ياسادة ، ان نبدأ الهبوط !» ·

كان الهبوط سريعاً · وعند السفح سلم الجنود بأن رومل يحسن الانزلاق ·· ولكن رومل لم يلبث ان قال : «ان الانزلاق شيء بديع ، ياسادة ، فلنحاول مرة اخرى» · وكان رومل ينظر الى ذلك كله على انه مجهود رياضي وحسب · وعندما اقترح رومل ان يعاود الجنود الصعود مرة ثالثة ، أخذت حماستهم تفتر · وفي هذه المرة بلغوا مشارف أحد المنحدرات ، وهنا صعب عليهم الصعود أكثر من ذلك عدا رومل نفسه الذي راعه شكل المنحدرات ، فرأى انها تستحق منهم نصف ساعة اخرى ··

ولو كان المرء في فوج بريطاني ، لكان الذي يلاحظه غالباً هو تزحلق الضباط بصفة غير فضولية · أما في الفوج الجبلي الذي عهد به الى رومل ، فكان المتطوعون للتزحلق مع رومل يسألون عن كل صغيرة وكبيرة ·



الفصل الثامن

أول لقاء بين رومل وهتلر

آراء رومل في النازيين - رومل يحمي هتلر في جيكوسلوفاكيا
موقفه من شبيبة هتلر

ظل رومل بمنأى عن السياسة والاشتغال بها ، ولم يساهم بقسط قليل فيها إلا حين أصبح هتلر مستشاراً للرايخ في آخر كانون الثاني سنة ١٩٣٣ ، وذلك لأن التقاليد العسكرية الألمانية تقضي باجتناب السياسة والتجارة ، وتعدهما من الأعمال المنحطة التي لاتليق بالعسكريين ٠

وفي السنوات التالية للهدنة مباشرة ، وطن الجنرال «فون سيكت» عزمه على تنمية هذه التقاليد ، وفي الوقت نفسه شرع يحطم تلك الحواجز التقليدية بين الضباط وسائر الناس ، وكان يهدف من وراء ذلك الى ان يخلق جيشاً نموذجياً جديداً ، ولكنه لم يكن ينوي مطلقاً ان يسلم الجيش الى ساسة جمهورية «فيمار» .[١٠] فالقيادة العليا وحدها هي التي تقرر متى يمكن الاستعانة بالجيش ! ومتى يكون استخدامه ؟ ٠ وإذن فيجب ان يكون الولاء للعسكريين وحدهم دون سواهم ٠ ومن هنا أصدر سيكت أوامر صريحة بمنع رجال الجيش من الاشتغال بالسياسة ، بل بمنعهم حتى من التصويت في الانتخابات ٠

---

(١٠) هي الجمهورية التي قامت في المانيا بعد هزيمتها في الحرب العالمية الاولى ، وكانت عاصمتها مدينة «فيار» فعرفت بأسمها ٠

والواقع ان هذا العمل الذي اطمأن اليه الحلفاء ، لم يكن إلا جانباً من خطة واسعة النطاق ، دبرها الالمان وكان ممكناً ان يكشف الحلفاء مدى خطرها ، لو انهم أولوها ماتستحقه من حذر واهتمام ·

وهكذا يتضح ان رومل لم يكن في حاجة الى من يحرم عليه الاشتغال بالسياسة ، ذلك لانه قد ربي في مجتمع لاشأن له بالسياسة ، في مدينة صغيرة باحدى الولايات الألمانية ، كما انه تعلم ان يكون جندياً ، وخرج الى ميدان القتال وهو لم يبلغ الثالثة والعشرين من عمره · ولشد ماكان سروره حين قفل راجعاً الى عالمه الهادىء الذي يأنس اليه في البيت ، هارباً من تلك الخصومات التي انتشرت في المانيا فيما بعد الحرب · ولم يكن من متع رومل ، الاخلاد الطويل الى المقاهي ، كما أنه أيضاً لم يكن يقرأ إلا لماماً ، ولم يكن عقله معداً اعداداً سياسياً ·

آراء رومل في النازيين

وكل ماتتذكره زوجة رومل من آرائه في أعضاء الحزب النازي الاول أنهم «شرذمة تبعث على الضحك !» · وانه لما يبعث على الاسى حقاً ان يحيط هتلر نفسه بمثل هؤلاء الناس · ذلك ان رومل ، ومثله تسعون في المائة من الالمان الذين ليس لهم اتصال مباشر بهتلر وحركته ، كان ينظر الى هتلر على أنه رجل مثالي ، والى أنه رجل وطني غيور · له مبادئ وافكار سليمة تفضي الى تماسك المانيا ، وانتشالها من براثن الشيوعية · ولعل مثل هذا التقدير يبدو ساذجاً ، ولكنه على اي حال ليس اكثر سذاجة مما كان عليه في انكلترا ، حين كانوا ينظرون الى هتلر على انه رجل يبعث على الضحك وله شارب سخيف ! · ولكن كلا الرأيين قائم على أساس من التفكير المغرض غير النزيه · على ان الالمان الذين حطمت الهزيمة نفوسهم ، وذاقوا مرارة الشيوعية ، كان لهم العذر في ان يعتقدوا مايريدون ان يعتقدوه · أما هؤلاء الذين أبوا ان يروا في شخصية هتلر المبهمة أي خطر ، الا بعد فوات الاوان ، فماذا يكون عذرهم ؟ لابد انهم اعتقدوا بصحة أمانيهم ، وانهم اختاروا بين أمْرَيْنْ احلاهما مُر !

على أن رومل ، وان كان ضابطاً ، فانه لم يكن من طبقة النبلاء ، كما انه لم يكن من رعاع البروسيين ، وانما هو من الطبقة المتوسطة ·

وإذن فقد كان في اعتقاد رومل ان تلك الفكرة التي سادت كبار الضباط الالمان ، من ان هتلر ذلك النائب عريف النمسوي ، هو وحده الذي يستطيع أن يحقق الخلاص لالمانيا ، لم تكن فكرة طائشة ·

ذلك ان رومل بطبيعته كان يحب الجنود ، ويحب طبقة (نواب العرفاء) منهم · ولم يمعض شيئاً بعضه لذوي القمصان البنية من أمثال الهر روهم ، ولم يحدث قط أن التقى رومل بالهر روهم ، ولا بأحد من المتصلين به ، ولكنه كأكثر رجال الجيش كان يشك في ان رجال الهر روهم يحاولون انشاء نظام ينافس الجيش · ولقد رأى رومل ذوي القمصان البنية ورأى الفوضى وانعدام روح النظام والطاعة بينهم ، فكرههم تماماً ، ولذلك لم يفزع رومل حين نمى اليه ان روهم قد قضى عليه ، وعلى اصحابه في ليلة ٣٠ حزيران سنة ١٩٣٤ · هذا الى ان رومل كان ممن يعتقدون بصحة ماقيل من ان «روهم» واصحابه ، قد تآمروا على اقصاء هتلر للاستئثار بالسلطة وحدهم ، وبذلك يكونون قد بلغوا مايتمنون ·

ومما أكدته لي زوجة رومل وغيرها ، ان هذا كله لم يكن له في ريف المانيا إلا أثر أقل بكثير مما كان له في الخارج ، كما ان حوادث الاغتيال سرعان ماانكشفت لنا تفاصيلها بالتدريج ·

وقد ظهر من أول اتصال عملي بين رومل والاشتراكيين الوطنيين انه ماكان يضمر ميلاً كبيراً الى النازيين · فقد كان رومل يقود «الفوج الجبلي» في غوزلار سنة ١٩٣٥ ، حينما اختيرت غوزلار لتكون مسرحاً لاحدى حفلات الشكر والتقدير التي يشهدها هتلر بنفسه · وكان مفروضاً ان يعد كل شيء اعداداً خاصاً · فالجماهير تحمل الأعلام ، والريفيون يُفدون من المناطق المجاورة ، وقد ارتدوا أزياءهم القومية · كما كان طبيعياً في هذه المناسبة ، ان يقوم الفوج الجبلي باستعراض عسكري · ولكن الذي حدث انه بعد الانتهاء من اعداد تفاصيل هذا الاحتفال ، جاء أحد أفراد جماعة الدفاع ، وأنبأ رومل بأن زكاء من هذه الجماعة سيأخذ مكانه في مقدمة فوجه ، ليكون هذا الزكاء مسئولا عن سلامة هتلر ، فغضب رومل لهذا التصرف وأجابه بقوله : «اذا صح هذا فلن يقوم الفوج بأي استعراض !» ·

ولم يجد مندوب جماعة الدفاع بداً من ان يطلب الى رومل بأن يلتقي بهلمر وغوبلز في أحد الفنادق · فمضى رومل لمقابلتهما ، حيث رحبا به ، وقابلاه في كثير من اللين واللطف ، ثم رغبا اليه في ان يتناول معهما طعام الغذاء · ولم يسعهما الا النزول على رأيه في ان الترتيبات التي طلب اليه تنفيذها في الحفلة ، تعد إهانة له ولفوجه ، واعتذرا بأن الأمر لايعدو ان يكون تصرفاً خاطئاً وقع فيه بعض المرؤوسين بحسن نية ، نتيجة مغالاتهم في الحرص على سلامة هتلر !

وهكذا الغيت تلك الترتيبات فوراً ، ورجع رومل الى زوجته بعد هذه المقابلة ،

وحدثها عن هملر وغوبلز حديث من يبغضهما من كل قلبه !
ولقد ظل هذا الأثر كامناً في نفسه لايبرحها !

ولا شك في ان النازيين كانوا يرون ان روميل يستحق ان يكسبوه الى جانبهم ، فاذا استحال عليهم ذلك ، فلا أقل من ان يكونوا ذوي علاقة طيبة به !

ثم التقى روميل بهتلر للمرة الاولى ، وكان هذا اللقاء رسمياً للغاية · فقد حياه روميل ، وقدموه اليه ، فسلم عليه ، ولاحظ هتلر وسام الاستحقاق على صدر روميل ، وهنأه على مارآه من استعراض فوجه ·

مدرس في الكلية الحربية

وفي تشرين الاول سنة ١٩٣٥ عين روميل ، وهو برتبة عقيد ، مدرساً بالكلية الحربية في بوتسدام · وهكذا وجد نفسه لأول مرة على مقربة من مراكز السياسة والامور العامة · وقد استطاع في وقت مبكر ان يشترك في الامتحانات التي اجريت لموظفي كليته ، وان يصبح بين النخبة الممتازة من ضباطها ·

على انه انبىء فيما بعد ان امامه فرصة طيبة للترفيع اذا ماظل على رأس الفوج الذي عهد به اليه · وفي بوتسدام عاش روميل وزوجه وابنه «منفرد» الصغير ، عيشة هادئة بالقرب من الكلية الحربية ، وكان اختلاطهم محدوداً بمجتمع برلين · ولم يكن لروميل اصدقاء بين اقطاب النازية ، بل لم يكن يعرف أحداً منهم · كما انه وزوجه لم يلتقيا في بوتسدام بأحد من كبار ضباط الجيش ، اذ لبثا فيها كما كانا في شتوتغارت ، لايلتقيان الا بالضباط الذين هم من رتبة روميل نفسه ·

على ان روميل وزوجته بدءا يعرفان عما يجري في المقامات العليا اكثر مما كانا يعرفان · فلقد عرفا مثلاً ، ذلك التناحر بين النازيين وبين هيئة أركان حرب الجيش الالماني · ولما ادرك أقطاب النازية ان هتلر أصبح بعد موت (هندنبرغ)[11] قائداً لكل القوات الالمانية المسلحة ، وأقسم الضباط جميعاً يمين الولاء له ، بدأوا يعملون جاهدين على ان يجعلوا ضباط أركان الحرب أعضاء في الحزب النازي ، وعلى ان يدمجوا الجيش في «النظام الجديد» · وذلك لأن هؤلاء الأقطاب رأوا ان مثل هذه الهيئة الهائلة المستقلة بما لها من تقاليد عريقة تمتد جذورها

---

(١١) هو الفون مارشال هندنبرغ الذي تولى رئاسة الجمهورية في المانيا بعد الحرب العالمية الاولى ·

الى الماضي البعيد ، وتسيطر على مافي كبار العسكريين الألمان من ولاء غريزي ، قد تنقلب يوماً ما عليهم ، وتنتزع منهم النفوذ والسلطان ٠ ولكن هتلر ، كان انفذ بصيرة ، فرأى هذا الموقف بوضوح أكثر ، وأخذ يؤلب الجانبين بعضهما على بعض ، في مهارة ودهاء ٠

ورغم ان الجيش كان منذ آذار سنة ١٩٣٥ منهمكاً في التوسع الهائل ، ممتناً أشد الامتنان لما أسداه هتلر اليه من فرص جعلته يزداد عدداً وعدة ، الى حد اكبر مما كان يحلم به ٠ رغم هذا كله لم يفكر الجيش قط في انه سيذعن في يوم من الايام لمن كانوا جنوداً عاديين فيه ! وكان بعض الضباط الممتازين ذوي الكفاءة ، كالعميد «لودفيغ بيك» رئيس هيئة أركان حرب الجيش ، لايفرق في قليل أو كثير بين هتلر وبين تابعيه ، كما كان من الناحية الأخلاقية والروحية ، يرى ان الاشتراكية الوطنية وصاحبها كليهما نكبة قومية !

ومن هذا يتضح ان «بيك» ، رغم انه لم يعتزل منصبه إلا سنة ١٩٣٨ ، احتجاجاً على الاقتراح الخاص بغزو تشيكوسلوفاكيا ، فانه لم يكن واهماً منذ اللحظة أو مخدوعاً ٠ وكان مثله في ذلك مثل كثير من كبار ضباط الجيش ، وفي مقدمتهم «فرنرفون فريتش» القائد الاعلى للجيش ، فقد كان هو الآخر يبغض النازيين وزعيمهم ويكن لهم كل احتقار ، ولعل مرد ذلك فيما يبدو لنا ان فون فريتش كان يشعر تماماً بان النازيين يهددون القيادة العليا للجيش ، وبأنهم ليسوا ممن يمكن لضابط الماني أن يتعاون معهم بحق ٠

وفي الوقت ذاته كان هنالك في الجيش من امثال كيتل وبودل من هم على اتم استعداد لأن يضحوا بوقارهم العسكري ، وبسلامة الجيش ، من أجل أن يرقوا الى مراتب عسكرية عليا !!

ومما قاله العميد «فالتر فالرمونت» في وصف موقف هيئة اركان حرب الجيش الالماني عن النازية ، «ان الضابط في هيئة اركان الحرب أخذ يجد بالتدريج ، انه قد أصبح من الضروري تماماً أن يكون له نفوذ ثابت ، وانه أخذ ينظر الى هتلر ، برغم وجهة نظره الخاصة في اتباعه ، على انه أمل المانيا الجديد ٠ فبرنامج اعادة التسلح ، والاحتلال السلمي من جديد لمنطقة الراين ، قد زاد من شهرة هتلر الشخصية بين الضباط وذلك لان هذا المنهاج يتفق مع السياسة الاساسية للجيش » ٠

ولم يكن هذا في الحقيقة إلا انتقالاً من المرجل الى اللهيب نفسه لو كانوا يعلمون ، على ان هذا الأمر لم يكن يبدو سخيفاً في ذلك الحين ، كما يبدو لنا الآن ٠

وبعد هذا كله ، ألم يكن هتلر نفسه جندياً كثير الزهو بعمله في الجيش ؟ ثم هو قد

ظاهرهم ضد مطامع «روهم» واتباعه من ذوي القمصان البنية ؟ ولقد كان يعلم تمام العلم ان الجيش ، والجيش وحده ، هو الذي أبقى الجذوة العسكرية مشتعلة في المانيا طوال فترة الاحتلال ، ولئن كان «فتيان» النازي هم الذين أعانوه على بلوغ منصة الحكم ، فأن أحداً لايستطيع أن يقول بأنه آثر هؤلاء على الضباط الالمان من المدرسة القديمة ، بل الحق انه كان ينتظر الوقت المناسب الذي يتمكن فيه من التخلص من اولئك «الفتيان» ليعتمد على الحماة الحقيقيين لألمانيا ! ٠

تلك إذن كانت وجهة نظر هيئة أركان حرب الجيش الالماني ولقد تسربت هذه الفكرة الى صغار الضباط والى رومل ٠ ولم تكن هناك مندوحة لأحد منهم عن قبولها ، بالنظر الى كل تلك الاعتبارات ٠

غير أن رومل كان فيا بينه وبين نفسه يفرق في الحكم بين هتلر واتباعه ، كما أنه لم يبد اعجابه بهتلر واحترامه اياه ، الا بعد أن فتحت التجارب المريرة عينيه ، أي بعد «معركة العلمين» ولكن رومل لم يكن ذا جدوى او فائدة للنازيين[١٢]

رومل وشبيبة هتلر

وهكذا ، ماكاد رومل يسمع في سنة ١٩٣٥ ان الجيش سيشرف على «فرق العاصفة S.A.» وان قيادة هذه الفرق ستسند اليه ، حتى تلقى ذلك دون حماسة تستحق الذكر ٠ ولكنه مع ذلك أعلن انه سيجد متعة ولاشك في تدريب جنود فرق العاصفة ، ولعله أدرك ان هذا العبء لن يكون سهلا ، او محبباً الى نفسه ، وانه لم تكن هناك أية فرصة محتملة لانجاح هذه المحاولة ٠

ومهما يكن من أمر ، فان رومل لم يكن في طوقه ان يهرب من الاتصال بالنازيين ٠ فقد وكل اليه ، وهو لما يزل في الكلية الحربية ، النهوض بمهمة خاصة فكان عليه أن يلحق «بشبية هتلر» بقصد تحسين تدريبها ، ورفع مستوى نظامها ٠ فواءمه ذلك العمل ، إذ كان مغرماً بالشباب وحيويته ، ويجد راحة في العمل معهم ٠ والحق ان اكثر هؤلاء الشباب ، بما لهم من غريزة طبيعية تحبب اليهم البطولة ، قد اكبروا رومل واجلوه ٠ فقد كان جندياً ذائع الصيت ، وقد رأوه يتبسط معهم ويتحدث اليهم كما لو كان واحداً منهم ٠

---

(١٢) معركة العلمين هي المعركة التي حطم بها الانكليز بقيادة مونتغمري ، الجحافل الالمانية والايطالية في الصحراء الغربية واوقف الزحف الالماني على مصر ، وكانت اول هزائم المانيا النازية في الحرب العالمية الثانية ٠

ومن الطريف حقاً ان نفكر فيما كان سيحدث لهذه الشبيبة لو أن رومل كان مطلق اليد يفعل مايشاء معهم ٠ فلو تسنى لرومل ذلك لالفيناهم قساة شجعاناً ، كما كان معظمهم في الحقيقة ، ولحاربوا في آخر ايام الهزيمة الالمانية ، ببسالة ، كما مات الكثيرون منهم تحت قيادة «كورت ماير» قائد فرقة جنود الدفاع الثانية عشرة في «كان» ، وليقفزوا على دباباتنا كالذئاب الضارية ، حتى لقد قال أحد قوات دباباتنا : «لقد اضطررنا الى قتلهم رغم انوفنا» !» ولو اطلقت يد رومل في تنشئتهم لما كانوا متهوسين اشراراً ، لما قتلوا اسرى الحرب واجهزوا عليهم ، كما فعلوا تحت قيادة كورت ماير ، ولما تألفت من البقية الباقية منهم الآن ، تلك النواة الصلبة الساخطة من الخطرين ، الذين لايستطيع أي انسان عاقل ان يؤمن بامكان تغيير مافي رؤوسهم ، ليدخل فيها الافكار الديموقراطية الانسانية المسالمة ٠

ولقد كان الفيلق الافريقي ، مؤلفاً من جنود لهم مثل هذه الروح المعنوية العارمة ، فالشبان الذين حاربوا تحت لواء الفيلق الافريقي ، كانوا اقوياء شجعاناً ٠ وكانوا ايضاً ، مزهوين بانفسهم ٠ وحين تلتقي بالاحياء من الفيلق الافريقي ، وبالاحياء من شبيبة هتلر ، فأنك لن تجد اي فارق بين هؤلاء وهؤلاء ٠

ولم يوفق رومل في العمل مع شبيبة هتلر ، إذْ سرعان ماثار ضد قائدهم «فون شيراخ» الذي كان شاباً وسيماً لبقاً ، واكثر ثقافة من معظم النازيين ، ذلك لانه كان ابناً لمدير مسرح «فيار» ، وشاعراً ، وقد اشتهر بأنه أحد المثاليين القليلين في الحزب ٠ ولا ريب في ان فون شيراخ كان من ذلك النوع من الناس الذي يجتذب عواطف الشبان الالمان ٠ كما انه كان وفياً لهتلر الى حد العبادة ، وكان يبعث اليه بشعره الداعر ٠ فليس من الطبيعي اذن الا يمتعض فون شيراخ من الاتيان بضابط نظامي كرومل الى شبيبة هتلر ، ولا سيما ان رومل لم يكن عضواً في الحزب النازي ٠

وعلى اي حال ، فقد اختلف رومل وفون شيراخ ، على مسألة قد تبدو غريبة لمن لايعرف ان رومل قد انحدر من اسرة من المدرسين ٠ فقد عارض رومل اهتمام فون شيراخ كل الاهتمام بالرياضة والتدريب العسكري ، دون التربية وتنمية الملكات والشخصية ٠

وقد ذكر رومل انه عارض اتجاه فون شيراخ الى جعل كل من هؤلاء الشبان الذين لم يناهزوا الثالثة عشرة «نابليوناً صغيراً» ، لانه ليس من الحكمة مطلقاً «ان يفهم شباب في الثامنة عشرة انه قائد» وليس جندياً !

وكان رومل يكره ان يرى افراد تلك الشبيبة يكرهون المدارس ، ويأبون ان يعاملوا

كما يعامل الطلاب . وكيما يضع الامور في نصابها ، جمع رومل بين فون شيراخ وبين الدكتور روست وزير المعارف . غير ان هذا الاجتماع لم يسفر عن شيء ، فقد كان فون شيراخ صلفاً متغطرساً ، وكان وزير المعارف ابله !

وافرغ رومل كل ما في جعبته حين ذكر لفون شيراخ انه اذا كان مصراً على ان يعامل هؤلاء الشبان الصغار على انهم جنود فأجدر به هو نفسه ان يتعلم كيف يكون جندياً . وعلى الرغم من ان فون شيراخ ذهب فيما بعد ليكون جندياً ، الا انه اعترض على ذلك قائلاً بأنه سيفقد كل ماله من نفوذ على شبيبة هتلر ، إذ ماشوهد مرة يأتمر بأوامر مدرب برتبة عريف .

وفي اثناء ذلك وعندما استشعر فون شيراخ القدرة على تنفيذ غرضه ، شرع في التخلص من رومل . ولم يكن من الصعب عليه وهو من المقربين الى هتلر ، ان يظهر له ان رومل ليس نازياً حقيقياً حتى يسند اليه تدريب شبيبة هتلر . ولما كان رومل منتدباً من هيئة تدريس الكلية الحربية ، لم تثر عودته الى الكلية نزاعاً سافراً بين الجيش والحزب . وقد عاد الى الكلية دون ان يمنح الشارة الذهبية التي يحملها شبيبة هتلر !

ولما انتهى رومل من خدمة السنوات الثلاث في بوتسدام في ٩ تشرين الثاني ١٩٣٨ ، عين في اليوم التالي رئيساً للكلية الحربية في فينرنويشتادت .

ومما تجدر الاشارة اليه ان رومل كان قد رقي في العام السابق ، وبذلك يكون قد رقي من رتبة نقيب الى رتبة عقيد في خلال تسع عشرة سنة ، وهي ترقية سريعة في ايام السلم ، ولكنها ليست غريبة اذا مانظرنا الى سجل خدماته ، والى ذلك التوسع الهائل في الجيش الالماني منذ سنة ١٩٣٥ . ولا يستطيع أحد ان يقول ان هذا كان نتيجة لاي تأثير أو نفوذ لرومل في القيادة العليا للجيش الالماني ، أو لأية محاباة من النازيين !

يحرس هتلر في السوديت[١٣]

اما الشيء الذي يرد في «ثبت خدماته» فهو ان رومل قبل ان يغادر بوتسدام ، تلقى من الكلية الحربية دعوة الى القيام بعمل مؤقت ، فكان هذا العمل هو الذي غير مستقبله كله - الى الأحسن والى الاسوأ معاً - فقد احتاجت السلطات الى من يتولى قيادة الفوج الموكل بحراسة هتلر والمحافظة عليه ، عند دخوله السوديت في تشرين أول سنة ١٩٣٨ . وكان كتاب رومل

---

(١٣) السوديت جزء من اراضي تشيكوسلفاكيا سكانه من الالمان وقد ظل هتلر يطالب به حتى انتزعه ، وكان هذا الاقليم هو شرارة الحرب العالمية الثانية .

«الهجمات أو التكتيكات البرية» قد نشر قبل ذلك بسنة ، وقرأه هتلر واعجب به ايما اعجاب ٠ فاختار مؤلفه بنفسه ليقوم على حمايته ٠

ولأول مرة ينتقل روميل الى المقامات العليا القريبة من هتلر ، ذلك الرجل الذي رفعه حتى اصبح فيلد مارشالاً ثم قتله ايضاً ٠

الفصل التاسع

هتلر منوم مغناطيسي

ذو ذاكرة قوية - يعشق التصوير - دروس من حرب بولندا

ماأشبه دخيلة نفس هتلر ببئر عميقة مظلمة ، ثم سلط عليها النور فجأة ، وادليت فيها الدلاء ، فاتضح من أمرها ماكان خافياً • فهكذا عرف الناس أخيراً ، ماكانت تنطوي عليه نفس هتلر من خيانة وقسوة ودهاء ، وتعطش للدماء ، كما عرفوا أية أفكار سوداء كانت تسيطر على ذهنه ، وأية نزعات شيطانية من جنون العظمة كانت تستبد به وتسيره •

غير ان سراً واحداً من أسرار هتلر مازال محجباً لم يمط عنه اللثام بعد ، ذلك هو سر تمكن هتلر - طوال تلك الحقبة الطويلة - من المضي في خداع الكثيرين من العقلاء والأذكياء الذين كانوا على اتصال يومي به ، فضلاً عن خداع الشعب الالماني الذي رفعه الى مصاف الآلهة !

فرومل مثلاً لم يكن عالماً نفسانياً ، ولا كان صديقاً لهتلر ، ولكنه كان ، ولا شك ، ثاقب الفكر ، ذكياً فطناً ألمعياً ، صادق الحكم على الأشخاص والأشياء ومع هذا ، فقد اتيحت له فرصة ثمينة لدراسة هتلر عن كثب ، غير ان الآثار التي تركها هتلر في نفسه ، وسجلها بعد ذلك في دقة ، لم تضف الى معلوماتنا عن هتلر الا النزر اليسير •

فقد كتب رومل عن هذه الحقبة مذكرات ، احتفظ بها ابنه «منفرد» من بعده[١٤] ويقول رومل : «الذي لاشك فيه ، ان هتلر كانت له قوة مغناطيسية ، وربما كانت قوة تنويم مغناطيسي ، مردها ايمانه الصادق بأن العناية الآلهية قد بعثته ليأخذ بناصر الشعب الالماني ، ويعرج به الى الشمس !» ٠

لقد كانت قوة هتلر المغناطيسية هذه ، تتجلى على اشدها حين يعقد أحد الاجتماعات ، ففي بداية الاجتماع كان ينظر الى الحاضرين نظرة شاردة ، خالية من أية دلالة ، ثم يتبع هذا باشارة من يده ، شاردة أيضاً ، كأنه يتحسس بها في حيرة عجيبة ، طريقاً غير معلوم ٠ وفجأة تسعفه حاسته السادسة ، وتقوم بدورها الخطير ، فاذا هو يصغي بانتباه تام ، ثم يطلع على المتحدثين اليه بجواب فريد ، ينتزعه من اغوار نفسه ، فيرضيهم به جميعاً ارضاء تاماً ، ولو في تلك اللحظة على الأقل !

ويقول رومل : «ان هتلر في هذه اللحظة كان يتحدث كما لو كان رسولاً نبياً» ٠ ثم يؤكد رومل ان هتلر «كان يعمل أبداً بوحي من بديهته وحدسه ، لا بعقله ومنطقه ، وانه كان ذا ملكة خارقة يستطيع بها أن يجمع شتات النقاط الجوهرية لأي نقاش يدور أمامه ، ثم يستخلص منها جميعاً ، حلاً واحداً ٠

وهذه الميزة نفسها هي التي مكنت هتلر من أن يدرك أفكار أي انسان يتحدث اليه ، وان يقول له ، اذا اراد ، أي شيء يعجب به ويطيب له سماعه ٠ وهكذا فهو عندما يوطن عزمه على شيء ، فانما يستشير بعض من يؤمن هو نفسه بأن لديهم مالديه من افكار ، وانهم سيقتنعون بأفكاره ، ولو كرهوا ذلك الى حد ما ٠ وكان هتلر بارعاً في ملقه ونفاقه ٠ فكان قبل أن يتخذ قراراً من القرارات ، يستشير فيه أمثال اولئك المقربين اليه ليشبع غرورهم مرتين : مرة حين يستشيرهم ،ومرة اخرى حين يصدر القرار فيداخلهم الظن بان لهم يدأ فيه !٠ ومن المهم هنا ان نعرف ماذا كان هتلر قد قرأ كتاب «ديل كارنيجي الأمريكي كما اطلع هذا الاخير على كتاب هتلر المشهور «كفاحي»[١٥].

---

(١٤) نشرت بعد الحرب مذكرات كثيرة منسوبة الى رومل لكننا نشك في صحة القسم الاكبر منها ٠ لأنه كان في الواقع من اختلاق الكتاب والصحفيين ٠

(١٥) ديل كارنيجي كاتب امريكي وضع اعظم مؤلفاته في بحث كيفية الوصول الى الشهرة والكسب المادي والمعنوي ٠ اما كفاحي فهو الكتاب الذي وضعه «هتلر» حين اودع السجن بعد الحرب العالمية الاول وفيه وضع برنامجه للنهوض بالمانيا وسيطرتها على العالم ٠

ذو ذاكـرة قويـة

والشيء الثـاني الـذي بهر رومل في شخصيـة هتلر ، ذاكرتـه القويـة المـواتيـة • فهتلر ، يعرف بالدقة وعن ظهر قلب كل مايحويه أي كتاب قرأه ، ومثله في ذلك (الجنرال سمطس) فهو تصور تصوراً دقيقاً ، كل الصفحات والفصول التي اطلع عليها في أي كتاب •

كما ان ادراك هتلر للمعلومات على صـورة احصـائيـة ، كان ادراكاً قـويـاً فـذاً ، فهـو يستطيع ان يسرد لك عدد الجنود ، عدد دبابات العـدو ، التي تحطمت ، ويـذكر لـك اعـداداً دقيقة عن احتياطي البترول والمؤن وغيرهـا ، كل ذلـك على صورة تبهر حتى أكثر اعضـاء هيئـة أركان حربه مرانا وخبرة •

وقد روى لي البارون «فون ايزبك» ـ المراسل الحربي الالمـاني ـ قصـة تـدل على ان هتلر لم تخنه ملكاته او بديهته التي اودت بـالجيوش الالمـانيـة واوقعتهـا في هـذه الكارثـة • ففي اوائل ربيع سنة ١٩٤٥ زار هتلر القيادة العليا في الجبهة الشرقية • وسأل قائد الجيش الالمـاني هنـاك : متى تتوقع أن يكون الهجوم التالي للروس ؟

فحدد له القائد يوماً ، وابدى الأسباب •

ولكن هتلر عاد فقال : «لا • سيكون هذا متأخراً اسبوعاً» • ثم جـاءت الايـام مؤيـدة مـاذهب اليه !

وسأل هتلر ذلك القائد : «كم طلقة لديـك لكل من مـدافع الميـدان المتوسطـة الحجم ؟» فذكر له القائد رقماً • فأجابه هتلر قائلاً : «لا • لقد بعثت اليـك بـاكثر من هـذا • وعليـك ان تتصل بفلان وفلان من القواد :
اتصل بهم تلفونياً ، وسل القائد الأعلى لمدفعيتك يخبرك» •

وربما كانت هذه خدعة قـديمـة طـالمـا عول عليهـا القواد في رحلاتهم التفتيشيـة ، ولكن هتلر استاذ في فن الخداع ، وليس في حاجة الى من يأخذ بيده في هذا المضار •

وهناك صفة اخرى لهتلر ، أثرت في رومل تأثيراً كبيراً ، وطالما اكبرهـا طول حيـاتـه ، تلك هي شجاعة هتلر الجسمية • فعندما كان الالمان على وشك ان يدخلوا براغ في ١٣ اذار سنـة ١٩٣٩ ، كان رومل مرة اخرى على رأس الفوج الـذي يحرس هتلر • فسـألـه هتلر : «مـاذا تصنع ياعقيد إذا كنت في مكاني ؟» •

فأجابه رومل اجابة عبرت عما في نفسه تماماً فقال : «اركب في سيارة مكشوفة ، واسير بها في الشوارع دون قوة تحرسني» ٠

واذا نحن عرفنا مدى تحمس التشيك لهتلر في ذلك الحين ، ادركنا ان هذه النصيحة كان من الممكن ان يتقدم بها بعض المسئولين شخصياً عن سلامة هتلر ٠ وتلك نصيحة لايأخذ بها الا القليلون ، ولو كانوا في مكان هتلر ولكنه أخذ بنصيحة رومل ٠

يعشق التصوير الفوتوغرافي

ولعل أسعد مايحمله آل رومل من ذكريات بين حربين ، هي ذكريات حياتهم في «فينر نويشتادت» حيث كان رومل يعمل في كليتها الحربية ، على الجبال الواقعة جنوب غربي «فيينا» ٠ فقد كانت لرومل قيادة مستقلة ، بمنأى عن أي تدخل من السلطات العليا ، وكان يعمل عمله الأثير لديه المحبب الى نفسه ، اعني تدريب الضباط الناشئين ، أو تلك البراعم التي لما تتفتح بعد ، على فن التكتيكات الصغيرة ، وآداب السلوك العسكري ٠

كما كان رومل وزوجه وولده يسكنون في بيت خلوي منعزل جميل ، تحيط به حديقة كبيرة ٠ وفي تلك المنطقة طالما قام آل رومل بنزهات لاعداد لها ، كما اغرت رومل نفسه بأن يعود الى ممارسة هوايته الخاصة ، اعني التصوير الفوتوغرافي ، الذي أبدى تفوقاً فنياً كبيراً فيه ، وفي اختيار موضوعات التصوير والتأليف بينها ٠ وفضلا عن ذلك كله ، كانت اسرة رومل مغتبطة أشد الاغتباط بالحياة المنزلية ، مكتفين بأنفسهم عمن عداهم من بقية اسرة التدريس في الكلية ٠ وهكذا مضت أيام الصيف جميلة هادئة ٠

وحينما جثم شبح الحرب على صدر اوربا ، لم يكن بدعاً ولا مستغرباً ان يعتقد رومل ، كما اعتقد الالمان جميعاً ، بعد ماحدث في ميونخ وبراغ ، ان هتلر لابد ان يشعل الحرب على نحو ما ٠ ولقد لاحظ الجنرال توماس ، رئيس فرع الشئون الاقتصادية في القيادة العليا الالمانية «ان كل الماني مثقف ، يعتقد ان الدول الغربية تنظر الى المانيا على انها المعقل الحصين ضد البلشفية ، وانها من اجل ذلك قد رحبت باعادة التسلح في المانيا ، وهذا يدلنا على مدى مايمكن ان تفضي اليه سياسة اللين التي اتبعها الحلفاء من فهم سيء خطر ٠ كما ان رومل لم يكن على يقين من انه قد ذهب به مرة اخرى الى الميدان حتى بعد ترقيته في ٢٣ آب سنة ١٩٣٩ الى رتبة فريق ، وعين في هيئة أركان حرب هتلر ، ليكون مسئولاً مرة اخرى عن سلامة الفوهرر ٠

ولو ان تسوية تمت في اخر لحظة ،لما فوجىء رومل بها ، كما فوجىء بذلك التحالف

الذي ابرم في نفس اليوم بين المانيا وروسيا !٠ فبهذا التحالف ، اصبحت الحرب لامناص من وقوعها ٠ ففي الساعة الخامسة الا عشرين دقيقة من صبيحة يوم أول ايلول شن الالمان هجوماً جوياً على بولندا ٠ فصح اذن ماكان قد قاله «لويد جورج» في مذكرته التي بعث بها الى مؤتمر السلام في ٢٥ آذار سنة ١٩١٩ إذ قال : ان الاقتراح الذي تقدمت به اللجنة البولندية والذي يقضي بانه يجب ان نضع مليونين من الالمان تحت اشراف شعب من جنس آخر لم تثبت قدرته على ان يحكم نفسه حكماً ذاتياً في تاريخه كله ، لابد في نظري أن يؤدي ، ان عاجلاً وان آجلاً الى وقوع حرب جديدة في شرق اوربا» ٠

ومن السخف إن نزعم ان رومل قد انبه ضميره على غزو بولندا ٠ فكما انه رحب باعادة التسلح للجيش الالماني ، سواء أكان ذلك في السر أم في العلن ، لانه يشعر بأن المانيا لاتتوقع من الحلفاء الا القليل من التقدير لها الى ان يشتد ساعدها ، فلاشك في انه اعتقد أيضاً ان الممر البولندي يجب ان يتلاشى ، وان «دانزغ» يجب ان تعود الى رحاب الرايخ ، بالاتفاق الودي ان امكن ، وبحد السلاح اذا اقتضى الأمر ذلك ٠

ولعل اهتمام رومل اهتماماً شخصياً مباشراً بمشكلة دانزغ ، راجع الى ان اسرة زوجته تعيش في غرب بروسيا اذ انه التقى بزوجته في دانزغ ، أو لعله يرجع الى انه تخرج في الكلية الحربية في دانزغ ، ثم ان رأي رومل هذا ، يوافقه عليه السواد الأعظم من الشعب الالماني !

ومن الانصاف ان نذكر لمناسبة الحديث عن السوديت وتشيكوسلوفاكيا ، ان الالمان ، حتى المثقفين منهم ، قد أثرت فيهم الدعاية التي وجهها غوبلز توجيهاً بارعاً ، فلم يتح لهؤلاء المثقفين ان يستمعوا الى وجهات نظر اخرى غير مزاعم غوبلز ٠ وقليلون هم الذين استطاعوا ، كما صنع الجنرال بيك واولريخ فون هاسل ، ان ينظروا الى الامور الاوربية من وجهة نظر منزهة عن الغرض ، ومن وجهة نظر عالمية ٠ ومثل هؤلاء الرجال في كل الدول ، قلما يجدون سميعاً ٠ وليس هذا عذراً ننتحله لهذا العدوان الالماني المسلح ، وانما نذكره تفسيراً وتعليلاً للطريقة التي فزع بها الجنود الالمان المحترفون ، كما فزع غيرهم في جميع انحاء العالم !

دروس من حرب بولندا

ولقد تسنى لرومل ان يلقي نظرة عامة شاملة ، وهو في هيئة أركان حرب هتلر ، على تلك الحملة الخاطفة التي هدت كيان بولندا ، وقوضتها في غضون أربعة أسابيع ، حتى قبل ان

يبلغ الجيش البولندي مراكز احتشاده · ففي الثاني من أيلول كان رومل في بروشيو ، وفي العاشر منه كان قد بلغ كيلشه ، وفي ١٣ منه كان في لودز ، وفي ٥ تشرين أول بلغ العاصمة وارشو التي استسلمت في اليوم الثلاثين منه · وبعد يوم او يومين كان رومل في طريقه عائداً الى برلين ·· فلم يفته أن يستفيد من هذه الدروس العملية في فن الحرب الحديثة · وقد رأى رومل أهمية التعاون الوثيق بين سلاح الطيران وبين القوات البرية الزاحفة · كما رأى كيف ان نشر الاضطراب والفوضى في الصفوف الخلفية للاعداء ، هو امضى سلاح لاضعاف روحهم المعنوية ، ويفوق تكبيدهم الكثير من الخسائر ·

ورأى رومل أيضاً ان انجع وسيلة في الحرب الميكانيكية ، هو التقدم في خطوط العدو ، واحراز الانتصارات الممكنة بالتوغل بين صفوفه ، حتى لو استهدف الجيش الى التعرض لقطع خطوطه ، وترك الجيوش الزاحفة لبعض جيوب مقاومة العدو ، لتعالجها القوات البرية التي تواصل هجومها · وهذه الخطة مقتبسة عن «لودندورف» الذي قام بتكتيكات التوغل في خطوط الاعداء في آذار سنة ١٩١٨ ، كما انها مستفادة من تجارب رومل الشخصية في حرب رومانيا وايطاليا ·

ورأى رومل ايضاً ان الدبابات يجب ان تكون جماعات لا فرادى متفرقات · وقد ادرك اولاً وقبل كل شيء ، ان من المناسب لرجل مثله ، ان تكون الفرقة المدرعة هي التي تقود الهجوم على العدو ·

كما ان هذه الحملة قد اكدت له صحة رأيه في شجاعة هتلر · ومما ذكره رومل لزوجته قوله : «انني طالما تعبت معه تعباً هائلاً · لقد كان هتلر يريد ان يكون في الخطوط الامامية مع الجنود الزاحفة ، ويبدو لي ان هتلر يجد متعة في ان يكون تحت وابل النار» ·

وفي خلال غزو نورماندیا ، لم يجد رومل الشجاعة التي كان يجدها من قبل في هتلر · ومنذ ذلك الحين ، اخذ رومل يراجع فكرته عن هتلر لاسباب اخرى !

الفصل العاشر

على استعداد تام للانتصار

الزحف على بلجيكا - رومل والفرنسيون وجهاً لوجه
رومل أمام الانكليز

كانت أسابيع القتال الخمسة التي سبقت انهيار فرنسا ، تبدو لمن لم يشترك في هذا القتال ، وكأنها أوهام أو خرافات . فقد كانت هذه الاسابيع كاللحظة التي تسبق تقوض بيت حبيب الينا ، عقب اصابته بقنبلة ثقيلة مدمرة !

وأذكر اني سافرت بالطائرة في اجازة من انكلترا الى الهند ، وهبطت بي الطائرة في (غودهبور) في العاشر من شهر أيار ، وبعد اسبوع كنت أجلس في النادي الأمريكي في سملا ، وكنت أستمع الى الراديو والمذيع يسرد تلك الاسماء القديمة :

كامبراي ، ماركوان ، بيرون ، أراس ، بابوم ، لاباسي ، كانال .. وسرعان ماانتقل الى اميان ، والفي ، وفيكا ، وسان فاليري . فهل كان البريطانيون يحاربون مرة اخرى في ذلك الميدان القديم الذي مزقته القنابل ؟ . وهل صحيح انهم طردوا في الليلة الماضية من أماكنهم التي ظلوا فيها سنوات ؟ .

لقد كانت «دنكرك»[١٦] شيئاً آخر ، وان المرء ليستطيع ان يسترجع في ذهنه مشاهد

---

(١٦) دنكرك من موانىء فرنسا المهمة على بحر الشمال ومنها انسحب القوات الانكليزية الى بريطانيا بعد سقوط فرنسا بيد الالمان في ربيع سنة ١٩٤٠

تلك الشواطىء الرملية ، والافواج الهائلة من الجنود وقد امتدت وتلاحقت في عرض البحر . ولكن يبدو لي ان هذه الأسابيع السابقة كانت كحلم مفزع ، ذهبنا في اثنائه مشدودين الى الميدان ، وجرى على ألسنتنا جميعاً ان الامور تبدو سيئة للغاية .

واتذكر انني كنت اجلس الى «منفرد» ابن رومل ، في ذلك البيت الصغير في «هرلنغن» ، وقد اطلت علينا لوحة كبيرة لرومل في زيه العسكري . كما أتذكر انه نشر امامي على الغطاء الأحمر لمائدة الطعام ، ذلك السفر الضخم ذا الغلاف المخملي الذي سجل فيه رومل ، يوماً بعد يوم وحركة بعد حركة ، قصة الفرقة السابعة المدرعة أو «فرقة الأشباح» . ولقد كان رومل خير من يجيد تسجيل حركاته وخططه . ومن الطريف انه دعا النقيب «الدنجر» - زميله القديم في فوج فيرتمبرغ الجبلي خلال الحرب العالمية الاولى - وكان الدنجر متقاعداً ، يحيا حياة هادئة في تصيم البساتين ، ليقوم بمهمة جمع الأوامر التي اصدرها رومل ، والخرائط التي رسمها ، والخسائر التي تلحق بالفرقة السابعة المدرعة يوماً بعد يوم ، ثم لكي ينظم هذه المعلومات جميعاً .

ولقد قام النقيب الدنجر ، بواجبه هذا خير قيام وعلى أتم وجه ، فوضع على الجانب الأيسر من كل صفحة رقماً مكتوباً على الآلة الكاتبة ، للأوامر والمذكرات اليومية للحرب ، وعلى الجانب الأيمن ، وضع خريطة ذات نسب قياسية كبيرة ، رسمت عليها وحدات الفرقة ، وحركات هيئة أركان حرب رومل ، ساعة بعد ساعة .

ليس في هذه الصفحات جميعاً تصويب واحد ، وليس فيها مسح مطلقاً !
ومن هذا الكتاب الذي لاتوجد منه إلا نسخة واحدة ، نرى بالضبط ماالذي فعلته الفرقة السابعة المدرعة بين ١٠ أيار ١٩٤٠ ، حينما عبرت الحدود البلجيكية في الساعة الخامسة صباحاً ، وبين ١٩ حزيران حينما استسلمت شربورغ بلا قيد ولاشرط ، ووافق رومل على استسلام الأميرال الفرنسي دابريال : ومعه أربعة ضباط برتبة أميرال ، وثلاثين الف فرنسي !

قائد الانتصارات العاجلة

وليس أشق على النفس من اقتناء سيرة رومل في هذه الفترة ، وادراك ماظفر به من نصر في تلك المعارك . وسيأتي ذلك اليوم الذي يقوم فيه أحد المؤرخين العسكريين بهذه المهمة على انها واجب .

وعلى ان أحداً من الفرنسيين قد لايهتم بها ، بينما يكد البريطانيون في البحث والتنقيب

عنها ، وكذلك الامريكيون • أما الالمان فحين ينظرون الى الماضي سيتوقون ولاشك الى اثارة ذكرى هذه المعارك من جديد • واستطيع ان أقول : ان التقدم البارع الذي طالما احرزه الجنرال (باتون) لايمكن ان يبدو اكثر صلابة ولا جرأة مما قام به رومل ، ذلك القائد المستعد دائماً لان يخاطر ولأن يحرز انتصارات عسكرية عاجلة •

لقد شهد «فون توما» الذي قاد الفيلق الافريقي والذي شهد لرومل بعظمة تكتيكية ، تقول شهد فون توما بأن رومل كان في صميمه جندياً من المشاة الممتازين ، وبأنه لم يكن يفهم فن قيادة الدبابات ، ولكنه كان يعلم تمام العلم تكتيكاتها • ولاشك ان فون توما جدير بأن يقدر رومل ويفهم فنه ، ذلك لانه قد قاد مجموعة من مائة واربعة وعشرين دبابة في الحرب الاسبانية الاهلية وحده ، ثم حارب بالدبابات الروسية بقيادة المارشال كونيف ، ثم عُيِّن بعد ، ان اقتاد لواءً من الدبابات في جرأة هائلة وبراعة في الجبهة البولندية ، قائداً أعلى للقوات الالمانية الميكانيكية •

وحين نقرأ قصة «فرقة الاشباح» لن ندهش حقاً حين نجد رومل قد علمنا خدعة او خدعتين عن استخدام الدبابات في افريقيا •

الزحف على بلجيكا

وعندما غادر رومل بولندا ظل في هيئة اركان حرب هتلر ، مسئولاً مرة اخرى عن سلامته • ولكنه في اثناء ذلك كان يتوق الى قيادة فرقة تشترك في القتال ، وكان هتلر ، يحب رومل ويميل اليه ، لأن رومل لم يكن ذلك الضابط الصلف الذي يجد هتلر مشقة في التفاهم معه ، ولئن كان هتلر قد قسا على الضباط المتغطرسين أحياناً ، فما ذلك الا لأنه كان يشعر في صميم نفسه بأنهم يضمرون له الاحتقار •

وسأل هتلر رومل : ماذا تريد ؟

فأجابه رومل : اريد قيادة فرقة مدرعة •

وكان له ماأراد ، ونهض بقيادة الفرقة السابعة المدرعة في غودسبرغ ، على الراين في ٢٥ شباط سنة ١٩٤٠ ، بدلاً من الجنرال «اشتومه» الذي مات بالسكتة القلبية فيا بعد ، قبيل معركة العلمين ، فحل محله رومل مرة اخرى •

أما زوجه وابنه منفرد فقد ظلا في بيتها الصغير في فينرنويشتادت • وكان لدى رومل فسحة من الوقت تكفي لأن يجعل نفسه معروفاً لدى كل ضابط وجندي في الفرقة ، وان

يعرف الضباط على الأقل معرفة شخصية ، وقبل أن تتحرك الفرقة حركة واحدة ٠٠ كا تمكن رومل في خلال شهرين من التدريب القاسي ، ان يخرج نظرياته في تكتيك الدبابات . والدروس التي تعلمها في بولندا الى حيز التطبيق ٠ ولذلك عندما صدرت اليه الأوامر بالزحف على بلجيكا كانت الفرقة قد تدربت تدريباً بارعا ٠

وفي العاشر من شهر أيار عبرت الفرقة السابعة المدرعة الحدود البلجيكية على مدى ثلاثين ميلا جنوبي «ليبج» ٠ وفي ١٢ أيار قامت الفرقة بأكبر عبء قدر لها ان تحمله ، فشقت لها طريقاً عبر «الموز» ولقد حارب البلجيكيون بقوة ، متحصنين في بيوت قد هيئت للدفاع ، وفي بيوت صغيرة جداً ٠ فقد كانوا مزودين بالمدافع المضادة للدبابات ، مثبتة في قواعد من الاسمنت المسلح ، فكانت المدفعية تقدم [illegible] غلالة من النار على هذه القواعد المسلحة ، وكان على رومل ان يقوم ببناء جسر تحت وابل من النيران الكثيفة ، وقد نزل رومل بنفسه في الماء حتى بلغ الماء خصره ، واخذ يجمع الالواح الخشبية ، ويقول للجنود : «سأساعدكم» وظل رومل يتقدم جنوده ويعاونهم حتى أيقنوا ان العمل يسير على أحسن وجه ٠ ومما لاشك فيه ان قائد أية فرقة من الفرق لاشأن له بالخطوط الامامية لفرقته ، ذلك لأنه يقود الفرقة عادة من مؤخرتها ، أو من أي مكان آخر منها ٠ ولهذا لم يكد يمر على هذه الحادثة الصغيرة وقت قصير حتى انتشر خبرها بين الجنود جميعاً ، واستعاد رومل شهرته القديمة ، بانه لايكلف أحداً أمراً لايقوم به هو نفسه ٠

وفي المساء قام البلجيكيون بحركات مضادة بالدبابات والمشاة ، ولكن هذه الهجمات قد ردت بقسوة ٠ ولم يكد الليل يرخي سدوله حتى عبرت الدبابات الالمانية نهر الموز ، وكانت دبابة رومل نفسه في المقدمة ٠

رومل والفرنسيون وجهاً لوجه

وفي اليوم التالي كاد رومل أن يموت ٠ فقد تقدم بدبابته في منطقة حجرية تحت وابل من نيران المدفعية المضادة للدبابات ، فتعطلت دبابته ، واصيب في وجهه وتقدم بعض الجنود الفرنسيين ليأسروه ، لولا أن الزعيم روتنبرغ ، الذي كان يقود اللواء الخامس والعشرين المدرع ، تقدم بدبابته الخاصة وطارد اولئك الجنود ، فمنح من أجل هذه العمليات وسام الاستحقاق وصليب الفروسية ٠

وفي ١٥ أيار كانت الفرقة السابعة المدرعة قد تقدمت الفرقة الخامسة المدرعة الى اليمين ٠ وفي الليل كان رومل مايزال في المقدمة فاستولى على بطارية فرنسية كانت تزحف الى مركز اعتقد قائدها انه درع حصين !

وفي الليلة التالية اقتحمت الفرقة استحكامات خط (ماجينو)[١٧] ، تلك الاستحكمات البالغة التحصين ، غربي كليرفي ٠ اما المراكز الخلفية بما فيها من مدافع ميدان ومدافع مضادة للدبابات ذات قواعد من الاسمنت المسلح ، فقد سترت جميعاً بسحب من الدخان الصناعي ونيران المدافع الامامية ، كما سترت الفرق التي على جانبي خط ماجينو بالدخان الصناعي ٠ وفي الساعة الحادية عشرة مساء ، قام رومل بشن هجوم على خط ماجينو تحت ضوء القمر ٠ وكانت الدبابات وكتيبة الدراجات البخارية تقود الهجوم ، واعقبتها بعد ذلك بقية الفرقة ٠ وكانت القيادة العليا قد اصدرت الى رومل أوامرها ، بألا تطلق الدبابات نيرانها وهي تزحف على العدو ٠ ولكن رومل أغفل هذا الأمر ، وشجع الجنود على مخالفته أيضاً ٠ وكانت حجته في ذلك ان عدم الدقة في تنفيذ الأوامر لن يترتب عليه إلا تبدبد لبعض المؤن ، وهذا ليس شيئاً يذكر بجانب التحطيم الذي سيحيق بالروح المعنوية لدى جنود الأعداء ، حين يجدون أنفسهم محاصرين بنيران الدبابات !

وكان رومل يقول لجنوده ٠ لنعمل كالاسطول تماماً ، فنطلق النيران دفعة واحدة على الميناء ، وعلى الجانب الأيمن من السفينة المعادية ٠

وعندما اقتحم الالمان خط ماجينو وغادروا (افيان) عند منتصف الليل ، كان الجنود الفرنسيون مايزالون يحتلونها ، وكانت الدبابات الفرنسية تطلق نيرانها الحامية في كل اتجاه ، كما كان القتال مايزال حامي الوطيس في الشوارع ٠ فأخذت الدبابات الالمانية تطلق نيرانها على جانبي البطاريات الفرنسية حتى أسكتتها ٠ ثم لاحقت فرقة ميكانيكية فرنسية تتقهقر نحو الغرب ، على طول الطريق الذي احتشد فيه اللاجئون ، والذي وقفت على جانبه بعض الدبابات الفرنسية ، فلحقت بها قبل أن تتهيأ للنزال واطبقت عليها ٠ وكذلك اقتفى أحد الوية المدفعية الالمانية بقية الدبابات الفرنسية في «افيان» أثناء الليل فاستولى على ٤٨ دبابة سليمة ٠ وأخذ الجنود الفرنسيون يفرون ملقين بالسلاح ، ناشرين الرعب والفزع حيثما ساروا ! ٠

---

(١٧) خط ماجينو : اهم خط دفاعي اقامه الفرنسيون بعد الحرب العالمية الاولى بينهم وبين المانيا وكانوا يتصورون بانه لاتوجد قوة في العالم تستطيع ان تخرقه !

ولو أن الفرنسيين صمدوا للالمان قليلاً يومذاك ، لأوقعوهم في ورطة ، ذلك لأن دبابات الالمان ومدافعهم المتنقلة والمضادة للدبابات التابعة لكتيبة الدراجات البخارية ، لم تكن في استطاعتها أو الأمر أن تصنع أي شيء أزاء خط الدفاع الهائل الذي تألف من الدبابات الفرنسية ·

ومن الطريف أن إحدى السيدات الفرنسيات ، رأت رومل واقفاً الى جوار دبابته في شارع إحدى قرى افيان ، فربتت على كتفه وسألته : هل أنت انكليزي ؟

فأجابها رومل بالفرنسية ، وهو يعرف أطرافاً من بعض اللغات قائلاً : «لا ياسيدتي انني الماني !» ·

وإذ ذاك صاحت السيدة في خوف : «آه ! هؤلاء البرابرة !» ثم ولت مدبرة ، وقد القت بطرف ثوبها على رأسها ، وانطلقت تعدو الى البيت !

وفي أثناء ذلك اضطربت المواصلات جميعاً ، وكان لواء المشاة مهدداً بأقتحام القوات الفرنسية لخطوطه · ولكن رومل ، على الرغم من ذلك كله ، أصر على ان يقوم وعلى مسئوليته الخاصة ، بالهجوم بفرقته كلها نحو الغرب · وكان يهدف من وراء ذلك الى بلوغ نهر السامبر ، ليؤمن رأس جسر هناك ، ثم يبقيه مفتوحاً لجنوده · وقد شن رومل هجومه حوالي الساعة الخامسة والنصف صباحاً ، وذلك بعد ليلة لم ينقطع القتال فيها ، باللواء الخامس والعشرين المدرع ، واتجه نحو لاندرسيه التي لم يحارب حراسها الا في الحرب العظمى الاولى ، وقد هاجمهم رومل بأرتاله الميكانيكية من الجانبين ، فصعق المشاة الفرنسيون ، واستسلموا حين فوجئوا بظهور الالمان أمامهم · وفي الساعة السادسة كان الالمان قد استولوا على لاندرسيه ، وأسروا عدداً كبيراً من الفرنسيين الذين احتموا في ثكناتهم ، كما استولى الالمان على أحد الجسور سليماً عند «السامبر» · وأمر رومل الفرنسيين بالقاء السلاح ، ثم مر بدبابته على السلاح ، وانطلق اللواء الخامس والعشرون قدماً نحو لوشاتو ، حيث اوقفه رومل هنالك ، وذلك لان بقية الفرقة كانت ماتزال بعيدة في المؤخرة · فكل هذه العمليات قد استعان فيها رومل بكتيبتين اثنتين ، وكتيبة من الدراجات البخارية · وبينما كان اللواء المدرع الخامس والعشرون يرابط في مرتفع شرقي لوشاتو ، عاد رومل بسيارة مصفحة ليأتي به ··

ولقد ظل اللواء المدرع الخامس والعشرون هدفاً لهجات متكررة قوية من الدبابات الفرنسية · ثم تمكن الفرنسيون من استرداد «بومراي» ولكنهم ردوا عنها مرة اخرى حين زحفت بقية الفرقة · وفي ليلة ١٧ أيار بدأ الموقف واضحاً غاية الوضوح ، بحيث تمكنت المدفعية من ان

تتقدم الى المراكز الامامية . واستولت على جسر آخر عند برليمونت ، وتمكنت الفرقة الخامسة المدرعة البعيدة من ان تعبر هي الاخرى ذلك الجسر !

وإذا مانحن نظرنا الى الخريطة ، فاننا نرى رومل قد دق اسفيناً طوله ثلاثون ميلاً وعرضه ميلان ، وكأنه اصبع تشير الى قلب فرنسا . ولقد اقتضت هذه العمليات من رومل جميعاً مخاطرة كبيرة . لأن هنالك قوات فرنسية ماتزال قوية عاملة على جناحي رومل . ولكنه مع ذلك اقتحم المنطقة المحصنة ، وأمن معابر حيوية على نهر السامبر . ولقد اعتبرت القيادة العليا الالمانية جميع هذه الحركات سليمة وموفقة ، بالنسبة لتقدم الحملة الالمانية كلها . ومن أجل ذلك منح رومل صليب الفروسية لشجاعته الشخصية ، ولهذه الانتصارات التي احرزها !

رومل أمام الانكليز

وليس أدل على ان الجرأة تؤتي ثمارها فعلاً ، من ان مجموع خسائر الفرقة السابعة المدرعة لم تزد على ٣٥ قتيلاً و ٥٩ جريحاً . بينما اسرت هذه الفرقة خلال يومين اثنين ، عشرة آلاف جندي . واستولت أو حطمت مائة دبابة و ثلاثين سيارة مصفحة ، ٢٧ مدفعاً !

ورغم وجود صعوبات هائلة أمام رومل للحصول على البترول ، ورغم ان دبابات الفرنسيين كانت لاتزال تواصل هجماتها على جناحي رومل ، فقد تمكن اللواء الخامس والعشرون من شق طريقه بمثل تلك السرعة والقوة وفي الساعة الخامسة من صبيحة يوم ٢٠ أيار اجتاز كمباري وعبر قناة دي نور عند ماركوان ، واحتل مركزاً جنوبي آراس ، وكانت القوات الالمانية على طوال الطريق تأسر الجنود الفرنسيين وهم محتمون في ثكناتهم . وللمرة الثانية ترك رومل بقية الفرقة وراءه ، ثم عاد بنفسه مرة اخرى وجاء بها مصطحباً معه دبابتين وعلامة جماعته وسيارة مصفحة . وفي طريق آراس ـ كمباري ، وعند فيز ـ أن ـ ارتوا ، دخل رومل في خطوط الفرنسيين فتحطمت دبابتاه تماماً ، وظل محاصراً بضع ساعات .

ومما يبعث على الاهتمام حقاً ، ذلك القتال الذي دار حول آراس في ٢١ أيار ، ذلك أن هذه كانت هي المرة الاولى خلال الحربين العالميتين التي حارب فيها رومل ضد البريطانيين . ومما يدعو الى الاغتباط حقاً . أن نسجل هنا بأن رومل قد وجد البريطانيين اصلب عود من الفرنسيين ، وأشد مقاومة . فلقد تقدم لواء الدبابات التابع للجيش الأول المنتسب للفرقة الاولى

المدرعة الانكليزية ، من آراس الى الجنوب والجنوب الشرقي ، ثم هاجم رومل عند اشيكور وأني · وتقدم البريطانيون وطاردوا الكتيبة الثانية والاربعين المضادة للدبابات ، وقتل معظم جنود المدفعية ، وذلك لأنهم لم يستطيعوا أن يخترقوا ذلك الخط الدفاعي الذي نصبته الدبابات حتى من مدى قريب · ولكن الهجوم أوقف عندما اطلقت المدفعية نيرانها من مدافع عيار ٨٨ مليمتراً . ولقد كانت مفاجأة أليمة لنا حقاً · كما دعيت الطائرات من طراز اشتوكا لتشد ازر القوات البرية ، قبل أن ينسحب البريطانيون الى آراس ·

وفي اثناء ذلك ، كان اللواء الخامس والعشرون قد تقدم ، كما هي العادة دائماً ، وبلغ مرتفعاً جنوب (الاسكارب) عند (آك) ، واصدر اليه رومل أوامره بأن يستدير ليهاجم الدبابات البريطانية من المؤخرة ، ووقعت معركة للدبابات بالقرب من أتيس · وعلى الرغم من أن البريطانيين قد فقدوا سبع دبابات ثقيلة وبعض الدبابات الخفيفة ، وبذلك يكون قد مُني بخسائر أفدح في هذه المرة · ولكن رومل أُرغم في هذه الحالة على ان يقوم بحرب دفاعية ، إذْ قُتل ضابط آخر كان الى جواره ، بينما كان هو ورومل يطالعان في خريطة معاً ·

لقد كان ذلك يوماً عصيباً ، فقد فيه رومل ٢٥٠ قتيلاً وأسيراً ، بينما بلغ مجموع ماخسره البريطانيون ٥٠ أسيراً وان كانت قد تحطمت لهم ٤٣ دبابة !

الفصل الحادي عشر

يقود المعركة بنفسه على الدوام

كارثة دنكرك - يطلب الى الانكليز الاستسلام
ثلثمائة الف أسير - اسرع من البرق

.. وكانت الايام التالية عصيبة حقاً ، فقد عبرت الفرقة السابعة المدرعة «الاسكارب» . وذلك في الثاني والعشرين من ايار . وتسجل «اليوميات» ان الهجمات التي شنها البريطانيون لم يتمكن رومل من صدها الا بشيء من المشقة ، وكان لابد له من بث الالغام في طريقهم . وقد استولى رومل على جبل «سانت الوا» فاجلي عنه ، ثم عاد فاحتله من جديد . وأخيراً أفلح الالمان في ٢٦ أيار في تأمين رؤوس جسورهم على جينشي ، رغم القناصة البريطانيين الذين انبثوا في الاحراش بالقرب من قناة لاباس ، ثم مضت الدبابات والمدافع الالمانية قدماً ، وفي ٢٨ أيار تقدمت نحو الشرق في اتجاه «ليل» . وفي اليوم التالي أصدر رومل أوامر الى فرقته بأن تظل غربي آراس .

وبعد اسبوعين ، قضاها رومل وفرقته في قتال مستمر ، عنّ له ان يرفه عن نفسه وفرقته بعض الوقت ، فاستقل سيارته ومضى بها وحده الى مدينة «ليل» . وشد ما كانت دهشته عندما وجد شوارع المدينة غاصة بالجنود الفرنسيين والبريطانيين . وادرك انه ارتكب خطأ جسيماً ، بهذه المغامرة ، فانطلق بسيارته عائداً قبل ان يكشف أمره !

وإذا نحن احصينا عدد المرات التي أفلت فيها رومل من الموت ، أبان هذه الفترة ، بالاضافة الى مخاطراته العادية كقائد فرقة يصر دائماً على ان يقود المعركة في خطوطها الامامية ، فاننا ندرك الى اي حد كنا سيئي الحظ حين التقينا برجل من طراز «ارفين رومل» في افريقيا ٠

كارثة دنكرك

ولم تطل راحة فرقة رومل ، فعادت الى العمل بعد ايام ، ونيطت بها مهمة خاصة ٠ وكانت النهاية ماثلة للعين تماماً ٠ فالفرنسيون اوشكوا ان يخرجوا من الحرب ، والبريطانيون قد اخرجوا من فرنسا ٠

وفيما بين يومي ٢٩ أيار و ٤ حزيران كان قد انسحب من دنكرك ثلاثمائة الف من الجنود البريطانيين ٠ ومن الانصاف لهتلر ان نذكر هنا انه لم يشأ ان يهاجم هؤلاء الجنود المنسحبين ٠

على ان الفرقة البريطانية الواحدة والخمسين كانت قد نزلت الى الشاطئ متأخرة ، لكي تبحر من فيكان وسان فاليري ٠ ورأى رومل ان يقف على انسحاب هذه الفرقة ، وكان عليه لذلك ان يعبر نهر السوم ٠ وان يخترق مابقي من خط ويغان !

وليس شيء أحب الى رومل من هذا الصراع ، الصراع مع الزمن ٠ ومن هنا لم يضع رومل لحظة واحدة سدى ٠ فاستعرض الموقف مع قادة الالوية والكتائب ، ثم عبر السوم في صبيحة اليوم السادس من حزيران ٠

وعندما كانت فرقته تتحرك ليلاً ، كان دوي دباباتها يتردد صداه في القرى الفرنسية النائمة ، وظن الريفيون الفرنسيون انها دبابات بريطانية فكانوا يستقبلونها بالترحيب ويرفعون لها الايدي قائلين : حظ سعيد ! وفي ليلة ٩ حزيران بلغ الالمان نهر السين على مدى عشرة اميال جنوبي غرب «روان» ودبت الحمية في نفوس بعض الفرنسيين ، فانتفضوا يقاتلون الالمان في صبيحة اليوم التالي عند ايفيتو ٠ ولكن القوات الالمانية اكتسحتهم تماماً وطهرت الطريق ٠ وفي الساعة الثانية والربع مساء كانت الفرقة قد غطت العشرين ميلاً بين ايفيتو و «فوليت» ، وبلغت البحر بين فيكان وسان فاليري ٠

وفي فيكان كان ترحيل الجنود مايزال على قدم وساق ، وكانت حاملات الجنود راسية

بالقرب من الشاطىء تحت حراسة مدمرة بريطانية ، وذلك عندما ظهر الفوج الألماني المدرع السابع والثلاثون ، واشتركت معه مدفعيته وأخذت تطلق النيران على البريطانيين ٠ وكانت المدمرة البريطانية تواصل اطلاق نيرانها على الألمان عن كثب ، حتى اصابتها مدافع الألمان الثقيلة ٠ كما كانت هنالك قطع اخرى للاسطول البريطاني راسية في ذلك الميناء الصغير ، وكانت جميعاً تحت وابل من مدافع الألمان ٠ وفي هذه الاحوال كان من المستحيل نقل الجنود الى ظهور السفن في وضح النهار ٠

أما في سان فاليري ، حيث كان الجنرال فورشن قائد الفرقة الحادية والخمسين الانكليزية ، فقد كانت الفرقة بتمامها على استعداد للرحيل ٠ وفي خلال ليلة ١٠ حزيران وصبيحة ١١ منه ، تمكن رومل من الاستيلاء على ربوة مرتفعة الى الغرب اتخذها قاعدة له ، فأصبحت الميناء بذلك تحت رحمة نيران مدافعه ٠ وفي الساعة الثالثة والنصف مساء قاد رومل بنفسه الكتيبة المدرعة الخامسة والعشرين ، وجانباً من كتيبة المشاة السادسة ، وشن هجوماً تحت ستار من مدافعه الجبارة ٠

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن اللورد مونتغمري ذكر في الكلمة التي القاها في المأدبة التي أقامتها الفرقة الحادية والخمسون في العام الماضي ، انه احس في العلمين بين الجنود قلقاً شديداً ، وتحرقاً الى الثأر لمأساة سان فاليري ٠ وفي العلمين ذاتها تمت اعادة تأليف فرقة البلاد العالية التي تقدمت لمهاجمة خط الأنابيب ، غير ان واقعة سان فاليري وان كانت مأساة للذين خلفوا ابناء الحرب الاولى ، فأن أعداء تلك الفرقة (فرقة المدرعات الالمانية السابعة) لم يكن لديهم اي انطباع بأن تلك الفرقة قد فقدت روحها ، أو صفتها المحاربة في حزيران ١٩٤٠ ٠ «فقد قاتل العدو في المؤخرة بيأس فبدأ بالمدفعية ثم بالمدافع المضادة للدبابات وأخيراً بالرشاشات والصغير من الاسلحة ٠ لقد نشب قتال عنيف بصفة خاصة في جوار «لوتو» والطريق الممتد بين سانت سليفان وسانت فاليري» ٠

هذا ماأورده التقرير الرسمي الذي سجل مساهمة المدرعات البريطانية حول آراس ٠ وفي الليل تمكن رومل من أن يأسر الفاً من الجنود ، كما تمكن من الاستيلاء على مركز رئيسي غربي سان فاليري ، استطاع منه ان يطلق نيران مدافعه للحيلولة دون ترحيل الجنود من الميناء !

واستمر القتال سجالاً طوال الليل ، وظل كذلك حتى تقدم فوجان يؤلفان الطليعة ، ثم تبعتها بعد ذلك بقية الفرقة لتشد ازرها ٠

يطلب الى الانكليز الاستسلام

وبعث رومل الى الجنرال فورشن رسالة يطلب اليه فيها الاستسلام · وأن تخرج الفرقة الى الشاطئ رافعة اعلامها البيضاء ، فرفض القائد البريطاني · وقد رأى الألمان ان الجنود البريطانيين قد دقوا المتاريس على ارصفة الميناء ، وركزوا المدافع الرشاشة على الساحل ·

وفي التاسعة مساء انفتحت أفواه المدافع ، وتركزت نيران الفرقة جميعاً بمدافعها الثقيلة على الجانب الشمالي من سان فاليري ومن الميناء ، حتى سقطت على هذه المنطقة الصغيرة ٢٥٠٠ قذيفة ·

وفي الوقت نفسه قامت الكتيبة المدرعة الخامسة والعشرون ، وكتيبة المشاة السابعة والثلاثون بهجوم عنيف ، وتقدمتا جميعاً نحو سان فاليرى ·

ورغم كل هذه النيران الثقيلة ، لم تستسلم القوات البريطانية ، ذلك انها كانت ترجو أن ترحل ليلاً ، ولكن المدفعية جعلت هذا الرحيل مستحيلاً · واشتبكت إحدى السفن الحربية البريطانية مع البطارية المضادة للطائرات من عيار ٨٨ مليمتراً ، وتقدمت كتيبة المدفعية السابعة وجانب من لواء المشاة السادس ولواء المشاة السابع فاحتلت بعض الاراضي عند سان فاليري · وكان رومل الى اليسار من هذه المعركة يتقدم في سان فاليري بالكتيبة المدرعة الخامسة والعشرين تحت قيادة الزعيم روتنبورغ وكان يصاحب هذه الكتيبة أيضاً جانب من كتيبة المشاة السابعة · فاجبر حاميتها على الاستسلام بعد ان وجد قائدها ان المقاومة اضحت مستحيلة ·

وتمكن رومل من أسر ١٢ الفاً من الجنود ، منهم ثمانية آلاف من البريطانيين من بينهم الجنرال فورشن نفسه ، وقواد الفيلق الفرنسي التاسع ، وقواد ثلاث فرق اخرى · كما استولى رومل على ٥٨ دبابة و ٥٦ مدفعاً و ١٧ مدفعاً مضاداً للطائرات و ٢٢ مدفعاً مضاداً للدبابات و ٣٦٨ رشاشاً و ٣٥٥٠ بندقية (بينما ظل عدد كبير منها ملقى في الميناء) كما غنم ١١٣٣ سيارة ·

وقد ذكرت المدفعية الألمانية : أنها أغرقت إحدى قطع الاسطول البريطاني المدرعة ، وهي ولاشك اصابة غير مألوفة ، ولهذا أنبأتني الأميرالية البريطانية مشيرة الى ان هذا الادعاء لاأساس له من الصحة ·

ومن الطريف أن رومل لم ينس الجنرال فورشن ، وكان يتحدث عنه بعطف الى زوجه وابنه منفرد ، ويقول عنه انه قائد ممتاز لفرقة لم يواتها الحظ · ولم ينس الجنرال فورشن

شخصية رومل · وقد حدث أن طلب الى أحد الجنود الألمان الاسرى العائدين بعد الحرب الى المانيا ، أن يحمل تحياته الى أرملة رومل · وأن يبلغها أسفه على موته · ولم أتمكن من مراجعة هذه القصة مع الجنرال فورشن قبل موته ، ولكنني أميل الى تصديقها ، بل اني لأتمنى أن تكون هذه القصة صحيحة ، ذلك لأنني من ذلك الطراز العتيق من الجنود الذين يخشون أن تكون الفروسية إحدى خسائر هذه الحرب الجماعية · ولكن هذه الفروسية لحسن الحظ لاتزال تنمو في مناطق لانتوقع وجودها فيها ، كما سنرى فيما بعد ·

ثلاثمائة ألف أسير

واخيراً تم استسلام سان فاليري في ١٢ حزيران · وفي ١٧ منه ، ذلك اليوم الذي طلب فيه بيتان الهدنة ، أي بعد ثلاثة أيام من دخول الالمان لباريس ، كانت الفرقة السابعة المدرعة تشق طريقها الى شبه جزيرة كوتنتان لتهاجم شربورغ · فتحرك رتل على طول الساحل ماراً بكوتانس ، وتحرك رتل آخر عبر «سان لو» وهو مكان من الصعب أن نجده على الخريطة ، ولكنه أصبح أشهر لدى الامريكيين من مدينة «دوترويت» · ولقد تقدم هذان الرتلان ، دون أن يكون لهما سند من قوة كبيرة تعززهما الى مسافة ١٥٠ ميلاً ، فلم يلقيا أية مقاومة تذكر · وقبل منتصف ليلة ١٧ حزيران اصطدام جنود رومل بمركز قوي للفرنسيين ، ولكن الالمان هاجموا هذا المركز بعنف بالمدافع ، والمدافع المضادة للدبابات ··

ولما لم يجد رومل ضرورة للمغامرة طلب الى جنوده أن يكفوا عن القتال ، على أن يستأنف نشاطه في وضح النهار ، وفي اثناء ذلك تحرك رومل على رأس لواء من المشاة وكتيبة من المدفعية وبعض بطاريات المدفعية الخفيفة والمدافع الثقيلة المضادة للطائرات ·

وفي الساعة الثامنة صباحاً استأنف رومل القتال مواصلاً الزحف الى شربورغ · وفي حوالي الساعة الواحدة مساء كان على مدى ثلاثة أميال جنوب غربي المدينة ، وأخذ رومل يخترق طرقاً محصنة تحصيناً قوياً ·

وفي الخامسة مساء كان رومل قد استولى على مرتفع غربي شربورغ · وفي المساء كانت كتيبة المشاة السابعة بقيادة الزعيم فون بسمارك ، ومعه سريتان مدرعتان ، قد استولت على مرتفع عند كركفي ، ثم انطلقت الى ضواحي المدينة · وقبل منتصف الليل وصل الجنود الالمان الى محطة سكة الحديد !

وفي الليل تحركت المدفعية لتبدأ ضربها لقلاع المدينة في صباح اليوم التالي · وعندما

انبثق أول شعاع للنهار ، وانطلقت النيران من أفواه المدافع الالمانية ، وراحت تدك الحصون حتى أسكتت أكثرها قوة ومناعة ، وفي خلال هذه الفترة كان المشاة قد توغلوا في الضواحي ٠

واذا كان الجنرال كولينز قائد الفيلق الأمريكي السابع قد اطلق عليه اسم «جو الخاطف» لأنه استولى على شربورغ بعد عشرين يوماً من نزوله الى الشاطىء في نورمانديا ، فماذا نسمي رومل إذن ؟! ٠

لايدري أحد لماذا استلمت هذه القوات الفرنسية في شربورغ ولعلها علمت بأن بيتان[١٨] طلب الهدنة ، وإلا فليس لحامية شربورغ عذر في أن تستسلم بجنودها الثلاثمائة الف لفرقة مدرعة واحدة ، بعد ١٢ ساعة من ضربها بالمدافع الالمانية !

ولكن هذا هو ماحدث !

ففي الساعة الثانية من مساء ١٩ حزيران جاء الضباط البريون والبحريون الفرنسيون يطلبون تسليم المدينة ٠ وفي الساعة الخامسة مساء امضيت وثيقة الاستسلام رسمياً ٠٠

وقد تمكن رومل في كل العمليات التي قام بها منذ ١٠ أيار من أسر الاميرال دابريال أميرال الاسطول الفرنسي في الشمال ، واربعة آخرون برتبة أميرال وقائد فيلق ، واربعة من قواد الفرق وهيئة اركان حربهم ، و ٢٧٧ مدفعاً ، و٦٤ مدفعاً مضاداً للدبابات ، و ٤٥٨ دبابة وسيارة مصفحة ، وحوالي ٥٠٠٠ ناقلة للجنود ، و ٢٠٠٠ سيارة ، وحوالي ٢٠٠٠ عربة تجرها الخيل و ٢٠٠ سيارة نقل للركاب ، و ٤٠٠ دراجة بخارية ، ٩٧٫٤٦٨ أسيراً ، و ٥٢ طائرة ، منها ١٥ سليمة ، عدا ١٢ طائرة محطمة !

وهنالك مغانم اخرى لرومل لم يستطع ان يحصيها ، لأن الفرقة كانت تتحرك بسرعة كبيرة ٠ كما أنه لم يتمكن أيضاً من أن يحصي ولو بالتقريب ، الخسائر من القتلى والجرحى التي كبد العدو بها ٠

أما خسائر رومل نفسه في كل هذه المرحلة فهي : ٤٨ ضابطاً قتلوا ، و٧٧ ضابطاً جرحوا ، و١٠٨ عرفاء قتلوا و٢١٧ جرحوا و ٥٢٦ من مختلف الرتب قتلوا و١٫٢٥٢ جريحاً ٠

اما المفقودون فهم ثلاثة ضباط و ٣٤ عريفاً و ٢٢٩ من مختلف الرتب ٠

---

(١٨) المارشال بيتان : هو الذي اعلن استسلام فرنسا للالمان بعد سقوط باريس ٠

واما مافقده من الاسلحة فهو : ٣ دبابات من طراز مارك «١» و ٥ دبابات طراز مارك «٢» و ٢٦ دبابة طراز مارك «٣» و ٨ دبابات طراز مارك «٤» ٠

ولاشك ان أرقام هذه الخسائر التي تكبدها رومل تعد ضئيلة اذا قيست بالاعمال الباهرة التي حققها ٠ واذا نحن علمنا بان رومل شحيح بحياة رجاله ، أدركنا ان هذه الخسائر طفيفة ، وانها تدل على ان الفرقة السابعة المدرعة كانت تقوم بقتال عنيف ، وانها لم تكن تطارد عدواً منهزماً عبر الاراضي الفرنسية ، بل كانت تلقى عنتاً من الفرنسيين أحياناً !

الفصل الثاني عشر

دخل رومل مصر لو لا ؟

الالمان يريدون طرد بريطانيا من البحر المتوسط

١٢ ايطالي مقابل جندي انكليزي

كان على «الحورية الطيبة» التي يعتقد البريطانيون انها ترعاهم ، ان تضاعف جهودها في سنة ١٩٤٠ . فلقد رأت هذه «الحورية الطيبة» مالم يستطع تشرشل أن يره ، من أن الفرنسيين لن يواصلوا الحرب في شمال أفريقيا . ولو انهم فعلوا ذلك لتبعهم هتلر ، ولأرغمت أسبانيا على أن تصبح ممراً للجنود الالمان ، ولسقط جبل طارق ، واغلق غرب البحر الأبيض المتوسط ، وإذ ذاك يستسلم جنود المستعمرات الفرنسية للجيش الالماني ، ويتجلد غرازياني ذو القلب الخائر ، ويتشجع إذ يرى معه فرقتين المانيتين مدرعتين ، فيتخذ طريقه الى القاهرة . وبذلك تكون بريطانيا قد فقدت معقلاً ذا شأن . ولأدى سقوط قناة السويس الى اغلاق البحر الابيض من الناحية الاخرى ، فأصبح الطريق الى سوريا والعراق وايران والقوقاز مفتوحاً تماماً ، ثم يأتي دور تركيا فتنضم أو ترغم على الانضمام الى المحور .

تلك إذن هي الخطوط الرئيسية التي كانت تقوم عليها أفكار البارعين في الشئون الاستراتيجية ..

طرد بريطانيا من الأبيض

ولم يتمكن من تقدير هذا الموقف تقديراً سليماً ، وتفهم هذه الامكانيات جميعاً . الا القيادة العليا البحرية الالمانية . فقد رأى الأميرال رايدر في السادس من أيلول سنة ١٩٤٠ أن خير وسيلة تضرب بها بريطانيا هي ابعادها عن البحر الأبيض المتوسط . وفي السادس والعشرين من ذلك الشهر ، اعرب الأميرال عن ذلك بوضوح تام فقال : «ان البريطانيين طالما اعتبروا البحر الأبيض المتوسط مدار امبراطوريتهم ، فلسوف يصبح الايطاليون هدف الهجوم الرئيسي لبريطانيا ، التي تحاول دائماً ان تخنق الاضعف . والايطاليون لم يتبينوا بعد مدى ماتحيط بهم من خطر ، ولهذا رفضوا مساعدتنا لهم . وإذن يجب أن نفرغ من مشكلة البحر الابيض المتوسط خلال شهور الشتاء ، ويجب أن نستولي على جبل طارق . كما يجب الاستيلاء على قناة السويس . ومن المشكوك فيه أن يستطيع الايطاليون وحدهم تحقيق هذا كله ، فلابد إذن من أن يشد الجنود الالمان ازرهم . ومن الضروري ايضاً ان نتقدم من قناة السويس عبر فلسطين وسوريا حتى نبلغ تركيا . وإذا بلغنا هذا الحد من التقدم والزحف اصبحت تركيا في قبضة يدنا . وحينئذ تبدو لنا المشكلة الروسية على ضوء مغاير . فروسيا تخاف المانيا خوفاً أساسياً . ومن المشكوك فيه مهاجمتها من الشمال . كما ان مشكلة شمال غرب افريقيا على جانب بالغ من الأهمية . وتدل كل القرائن على أن بريطانيا ، وبمساعدة اتباع ديغول ، والولايات المتحدة ، تريد ان تجعل هذه المنطقة مركزاً للمقاومة ، وان تقيم مطارات لمهاجمة ايطاليا . وفي هذه الحالة ستهزم ايطاليا» .

ولو قدر لرايدر ان يلتقي باشباح هتلر وكيتل وبودل لصاح بهم قائلاً :
« ألم أقل لكم هذا من قبل ؟! »

على ان المفهوم هو ان هتلر كان يوافق على هذه الخطوط العامة . وإذن :
فلماذا لم يتبع نصيحة رايدر ؟

والجواب أن هتلر لم يكن ذا عقلية بحرية ، وانه كان يؤمن او يكاد بأن بريطانيا ستتفق معه في أواخر صيف سنة ١٩٤٠ . فاذا هي أصرت على عنادها فأنه يأمل - كما صرح بذلك تشيانو بعد اجتماع برنر في ٤ تشرين أول - أن يجتذب فرنسا الى الائتلاف ضد بريطانيا ! . واضافة الى ذلك فقد كان هتلر مشغولاً تماماً في أواخر أيلول بالمسألة الروسية .

أما ان هتلر لم يكن ذا عقلية بحرية ، فهذا ماكان يعتقده أيضاً مستشاروه العسكريون : الفيلد مارشال كيتل ، العميد بودل ، العميد هالدر . أما أمل هتلر في الاتفاق مع بريطانيا

كان من اوهامه التي بددها تشرشل علناً · ولعل هتلر كان يستطيع أن يكسب الفرنسيين الى جانبه ، ولو انه عجل بمحاولة التفاهم معهم ، إذن لهدأت ثائرة أغلبية الفرنسيين ، ولقبلوا سيادته على اوربا ولو الى حين · والحق أن الفرنسيين لم يكن لديهم أي شعور بالكراهية للجيش الالماني ، بل على العكس ، كانوا ينظرون اليه باعجاب شديد · أما اليوم فان جنود المقاومة الفرنسيين لايبغضون شيئاً كبغضهم جنود دارنان ، والمتحالفين مع المحور ، ورجال الغستابو وفرقة الدفاع ، والجيش الالماني !

ولا تزال العبارة التالية «لايستطيع أحد ان يقول انني لااعرف اولئك القوم حقاً !» · التي كان يتهجم بها على المتعاونين مع الالمان أيام الحرب الأخيرة ، أقول لاتزال هذه العبارة ، مضرب المثل في فرنسا حتى الآن · فقد كان تصرف الألمان في فرنسا لايمكن مقارنته بسلوك الامريكيين المحررين . أما بالنسبة للطيش المطبق الذي اظهره الالمان ، فلم يكن له من علاج غير التحدث عن شتاء روسيا والجيش الأحمر الروسي ·

ورغم أن الجانب الاكبر من تفكير هتلر كان منصرفاً الى روسيا ، فانه لم ينس شمال افريقيا · ولقد حاول روبنتروب محاولات هائلة لادخال فرانكو في الحرب · واعدت خطة للاستيلاء على جبل طارق ، وكانت لغورنغ خطة اخرى ، ترمي الى المحاربة في ثلاث جبهات هي مراكش ، وطرابلس ، والبلقان ·

يضاف الى ذلك اننا على الرغم من عدم معرفتنا تفاصيل هذه الخطة في ذلك الحين. الا ان الجنرال فون توما ، كان قد ارسل في تشرين اول ليتباحث مع الجنرال غرازياني في شأن ارسال بعض الجنود الالمان الى ليبيا ·

وقد اظهر الجنرال فون توما معارضة لهذا المشروع ، الذي قال عنه بانه مشروع يراد من ورائه التأكد من عدم تقلب موسوليني وتغيير اتجاهه · وكان جدل توما يقوم على أساس انه لايمكن القيام بعمل جدي بقوات تقل عن اربع فرق مدرعة ، وان مثل هذه القوات لايمكن الاحتفاظ بها الا بصعوبة بالغة ، وخاصة اذا ماأريد مجابهة القوى البحرية البريطانية · واذن فينبغي ان يستعاض بتلك القوات عن الايطاليين · ولكن المارشال غرازياني والمارشال بادوليو كانا يعارضان ارسال اية قوة المانية الى شمال افريقيا ·

ولقد ذكر الجنرال فون توما أن الميدان الافريقي لاتناسبه إلا الحرب التي كان يستخدمها الجنرال ليتوف فوربك ، في شرق افريقيا في الحرب العظمى الاولى · ثم ذكر أن كلا

من : الفيلد مارشال فون براوشتش ، والعميد هالدر كانا على رأيه في عدم ارسال جنود المان الى أفريقيا · كما أنهما عارضا خطة فون مانشتين في اقتحام فرنسا من طريق «الاردين» ، بدلاً من الهجوم عليها من طريق هولندة ، ولكن هتلر لم يوافقهما على ذلك ·

وأرسل هتلر فون توما الى افريقيا ليقود الجيش الالماني بعد أن اوشك الالمان أن يخسروا الحرب ، فوصل الى العلمين ، حيث أسر في ٢٠ أيلول سنة ١٩٤٢ ·

وحتى بعد انتهاء الحرب لم يقتنع فون توما ، ماذا كانت الدوافع التي دفعت هتلر الى المغامرة الافريقية سياسية أم عسكرية ، وان هتلر كان على صواب ، وكان براوشتش وهالدر وتوما أنفسهم مخطئين ·

١٢ ايطالي مقابل انكليزي واحد

ويذكر فون توما أنه طالما بين لهتلر - استناداً الى تجاربه في أسبانيا - «أن الجنود الايطاليين لاجدوى منهم ، وان جندياً بريطانياً واحداً خير من اثني عشر جندياً ايطالياً · وذلك لأن الايطاليين قد يصلحون لأن يكونوا عمالاً ممتازين ، ولكنهم لايصلحون أبداً لأن يكونوا محاربين ، لأنهم لايحبون الضوضاء !»

وهكذا كان فون توما وكأنه قد ادرك ماحدث بعد ذلك ، من استطاعة الجنرال ويفل من مهاجمة تلك القوات الايطالية الهائلة ، ومن انهيار هذه القوات بقيادة غرازياني انهياراً تاماً ، وبسرعة لم تكن لتخطر ببال أحد !

على ان هتلر ، حين انهزم غرازياني ، وكادت تضيع الفرصة الذهبية الاولى ، مالبث أن قام بعمل ايجابي · بعد سقوط سيدي براني · فقد اقترح هتلر على موسوليني أن تكون قيادة القوات الايطالية بيد الالمان · وحينما سقطت البردية ، تقدم بعرض للمساعدة ، محاولاً بذلك الحيلولة دون ضياع افريقيا من يد ايطاليا ، ولذلك أكد لايطاليا انه سيقدم لها المعونة · فالوحدات الألمانية يجب ان تنقل الى الميدان بسرعة ، وان تزود بالالغام والمدافع المضادة للدبابات ، والدبابات الثقيلة والخفيفة، والمدافع المضادة للطائرات ، وان تنقل التجهيزات الحربية بحراً ، بينما ينقل الجند بطريق الجو · غير ان هذه القوات لايمكن نقلها الا في منتصف شهر شباط وستستغرق عملية النقل مدة لاتقل عن خمسة أسابيع ·

ولقد ذكر الايطاليون ، بعد اجتماع كل من هتلر وموسوليني بقيادته العليا ، في يومي ١٩ و ٢٠ كانون الثاني ، انهم يقوون فرقهم الثلاث في طرابلس الى اقصى حد ، وانهم سيمدونها

بفرقة مدرعة وفرقة ميكانيكية من ايطاليا ، على أن يتم ذلك كله حوالي ٢٠ شباط / ، ولذلك تحمس الايطاليون لارسال الفرقة الالمانية الخامسة الخفيفة الميكانيكية ، على أن تتحرك فيما بين اليوم الخامس عشر ، واليوم العشرين من كانون الثاني ، وتكون معداتها قد ارسلت قبل ذلك الوقت ٠

وفي اجتماع آخر ، ذكر هتلر لقيادة الجيش الالماني العليا ان «خسارة أفريقيا الشمالية يمكن احتمالها من الناحية العسكرية ، ولكن سيكون لها وقعها النفسي الهائل في ايطاليا ٠ فبريطانيا تستطيع أن تشتهر مسدسها على رأس ايطاليا ٠ والقوات البريطانية لن تكون مقيدة في البحر الابيض المتوسط ، كما تستطيع بريطانيا استخدام أكثر من عشر فرق استخداماً خطيراً في سوريا ٠ ثم طلب بذل اقصى الجهد للحيلولة دون ذلك ، عن طريق تقديم المساعدات بمعاونة الايطاليين ، فسلاح الطيران الالمان الذي صدرت اليه الاوامر بمعاونة الايطاليين ، يجب أن يتدخل على صورة اقوى ، بطائراته من طراز (اشتوكا) ، وبمقاتلاته ٠ ويجب أن يوجه للجنود البريطانيين في «برقة» ضربات عنيفة مستخدماً أثقل قنابله ، ويجب أن يعمل متعاوناً مع سلاح الطيران الايطالي ، لحماية النقل بين ايطاليا وشمال أفريقيا ، وأن يقطع خطوط امدادات البريطانيين في البحر ، وأن يحارب الاسطول البريطاني أيضاً ٠٠ وأخيراً يجب أن يكون هدفه الاول قهر القاعدة الجوية البريطانية في مالطة » ٠

وحتى لو كان هذا التدخل كافياً لوقف تقدم البريطانيين فأن الفرقة الخامسة الخفيفة ، مازال غير كافية ، على حد قول هتلر ، ومن ثم يجب تدعيمها بوحدة مدرعة قوية ٠ ومن هنا كان لابد من التعجيل بارسال الجنود الالمان بطريق الجو ٠

كل ذلك كان كافياً تماماً ٠ وسنرى أن التفكير كله كان دفاعاً لأكثر ولا أقل ٠ وقد قال هتلر في خطاب بعث به الى موسوليني في ٢٨ شباط : «اذا نحن تذرعنا بالصبر خمسة أيام اخرى ، فأنني على يقين من أن أية محاولة بريطانية جديدة للتقدم نحو طرابلس ، لابد أن يكون نصيبها الفشل واني لأشكر لك ياعزيزي الدوتشي ، ان جعلت وحداتك الميكانيكية تحت تصرف الجنرال رومل ٠ وان رومل لن يخذلك ، وانني على يقين من أن جهوده في المستقبل القريب ستكلل بالنجاح ، وآمل أن نحوز رضا جنودك ، واعتقد أن وصول الكتيبة المدرعة الاولى سيكون تدعيمها قوياً لمركزك» ٠

كيف ينظر هالدر الى رومل

وهكذا تحقق هتلر من أهمية بقاء شمال افريقيا في قبضة يده ٠ ولكن هتلر وقيادته

العليا لم يدركوا أمكان غزو شمال افريقيا ، كما انهم لم يدركوا النتائج البعيدة التي تترتب على هجوم موفق على مصر · فهالدر مثلاً ، لم ينظر مطلقاً الى الحملة التي جردت على شمال أفريقيا ، نظرة جدية ، فلم يعتبرها اكثر من حركة سياسية الغرض منها ابقاء الايطاليين مشتركين في الحرب ، ولهذا فانه لم يكن يعتقد ان خسارة ثلاث فرق أو أربع فرق ، ليس ثمناً غالياً · وقد ذكر هالدر في اثناء استجوابه انه لم يكن يشك في انه لو اتيحت للالمان فرصة الهجوم لسارعوا الى انتهازها· ولكنهم نظروا الى هذه المسألة كلها على انها محاربة لكسب الوقت !

ثم مضى فقال : «وقد تحدثت اخيراً الى رومل في هذا الشأن ، في ربيع سنة ١٩٤٢ · فصرح لي في ذلك الحين بانه سيغزو مصر وقناة السويس ، ثم أخذ يتحدث لي عن شرق افريقيا · لم استطع ان احول دون ابتسامة ساخرة علت شفتي ، فسألته عما يحتاج اليه لمثل هذه العمليات العسكرية جميعاً · فذكر انه سيحتاج الى فيلقين مدرعين اخرين · فسألته قائلاً :
«لو فرضنا جدلاً ان لديك هذين الفيلقين ، فكيف تمد هذين الفيلقين بالطعام والمؤن ؟» · فاجاب بقوله : «هذا لايعنيني · انما يعنيك انت !» · واضاف هالدر الى ذلك قوله : ولما اخذت الأحوال تزداد سوءاً في افريقيا ، راح رومل يطالب بمعونة عسكرية اكثر · ولكن اذا استطاع التاريخ ان يفسر لنا الخيوط الرئيسية لما جرى على المسرح الافريقي ، اذن لحقق معجزة ، لان رومل تمكن من ان يجعل الامور على صورة مهوسة حتى ليصعب على اي انسان ان يعرف لها أولا أو آخراً» ·

ان رومل ميت الآن · ولكن تفسير هذا الذي دار في افريقيا ليس من الصعوبة كما توهم الزعيم هالدر · كما ان حكم التاريخ لايمكن ان يرضيه كما يظن · فالتاريخ لايقدر تقديراً عالياً اولئك الذين يشغلون مناصب رئيسية وتتأثر احكامهم بما لهم من أهواء شخصية · وليس ثمة شك في ان هالدر كان يكره رومل ، والدليل على ذلك واضح في لهجته خلال حديثه السالف الذكر ، وفي توخيه الخبيث تسمية الفرقتين المدرعتين اللتين طلبهما رومل باسم «الفيلقين» · ثم ان هالدر قد تحدث عن حوار دار بين رومل وبينه في ربيع سنة ١٩٤٢ ، ولم يشأ ان يذكر ان رومل طلب في ٢٧ تموز سنة ١٩٤١ ولاول مرة، ان يأذن له هتلر في القيام بهجوم هدفه قناة السويس ، على ان يكون ذلك الهجوم في شباط سنة ١٩٤٢ ·

ومما هو جدير بالذكر هنا ، ان الالمان كانوا يستخدمون مائتي فرقة في الجبهة الروسية ، ثم ارسلوا ثلاث فرق الى تونس في خلال ثلاثة اسابيع ، بعد نزول قوات الحلفاء في شمال افريقيا في تشرين الثاني سنة ١٩٤٢ ·

أما مسألة التموين التي سأل هالدر روممل عن شأنها ، فان هالدر لم يشأ أن يذكر ان روممل كان وحده الذي رأى ماعميت عنه بصائر القيادتين الالمانية والايطالية على نحو غريب ، اللهم الا بعد وقت طويل ! . فقد رأى روممل ان مفتاح كل مشاكل امداد الجيوش ، ومفتاح حوض البحر الأبيض المتوسط ، هو الاستيلاء على مالطة !

وأخيراً ، فان من الطبيعي الا يذكر هالدر ان روممل كان يسميه بالأبله ، وان روممل سأله ذات مرة عما اداه من خدمات للحرب ، ماعدا التهالك على مقعده ! .. ولعل هالدر لم ينس ذلك لروممل .

كانت قصة الحرب في شمال افريقيا ، صراعاً لاينتهي بين روممل الذي رأى امكان القيام بانتصار عسكري في الصحراء ، والذي حقق هذا الانتصار ، وبين القيادة العليا التي لم تنظر الى الحملة الافريقية نظرة جدية قط . فقد كانت كل الظروف ضده في هذه الحملة . فكان بعيداً عن المانيا ، يتوغل في الصحراء . والغائب ، كما يقول المثل ، مخطىء دائماً . لم يكن روممل ضابطاً في القيادة العليا ، ومن أجل هذا كان مثاراً لسخط الضباط المحترفين .

وفي المناسبات النادرة التي كان يلتقي فيها بهتلر ، لم يكن يجده وحده . وحتى عندما كان يجده وحده ، كان يجده مشغولاً بالحرب الروسية . ثم يربت هتلر على كتفه ، ويعده بمساعدة ، ولكن روممل ادرك ان أي تأثير يحدثه في نفسية هتلر ، سيمحوه هؤلاء الضباط الذين التفوا حول هتلر .

لقد كان كل من : كيتل ، وبودل ، وهالدر ، بالغي الحقد على روممل ، وعلى حب هتلر والشعب الالماني له ، وعلى سجله الرائع في الحرب . ولاشك في انهم حسدوه ايضاً على استقلاله في قيادته العسكرية ، بعيداً عن متناول هتلر ، وبعيداً عن منالهم ايضاً !

وكانت أسهل طريقة لدى كايتل وصحبه في الحط من شأن روممل ، هي اظهاره بمظهر الرجل الذي لايؤبه لآرائه عن الحرب ، رغم ان في استطاعته أن يصبح أحسن قائد في الميدان .

وكان روممل من ناحيته يحمل فكرة جد بسيطة عن كايتل وهالدر . ولم يكن في هذا النظر لوحده . فقد كان الأمير فون بسمارك يدعو كايتل بالأبله . وكان الفون هازل يقول عنه : انني وجدته غبياً ضيق التفكير غير ناضج سياسياً ، ومن ذوي الدرك المنحط في موقفهم أزاء الحزب» .

وقد وصف الفوهرر كايتل بأنه «رجل يحمل عقلية بواب قذر» .

أما هالدر الذي كان يبدو عليه انه يحتفظ بسيادة ممتازة بين ضباط هيئة الجيش العليا، فقد كان انطباع الفون هازل عنه ـ وقد رآه أول مرة سنة ١٩٤٠ ـ أنه : رجل خائر ذو اعصاب محطمة ، وهو لم يكن أكثر من خادم بالنسبة لهتلر ٠

وكان الفون بيك الذي تولى رئاسة هيئة الاركان العليا قبل هالدر يقول عن هالدر، انه محض مزاحم فني لاشخصية له البتة ٠٠ وان اشتراكه في مؤامرة ضد هتلر . أظهرته بمظهر من كان على شفا جرف هار ، وان كان غير راغب في الوقوع ٠

أما بودل الذي كان ينعم بعقلية وسلوك الكثيرين من افراد تلك الجماعة فقد اعتبر الحرب لعبة شطرنج ٠ فقد كان عمله انتاج الطائرات ، وليس طلب الأوامر ٠ وقد كان الثلاثة ، كايتل ، هالدر ، وبودل متأكدين من سياسة هتلر البربرية في روسيا وفي أي مكان غزاه ٠

وقد حوكم كل من كايتل وبودل في نورمبرغ وصدر عليهما حكم الاعدام شنقاً ٠ أما هالدر الذي اتهمه فون هازل بأنه هو الذي كان يصادق على أوامر التعذيب التي صدرت بحق الروس ، فقد كان أسعد حظاً من زميليه ٠ وقد يكون عدم شنقه يعود الى انه أمضى بضع سنوات في معسكرات الاعتقال ، او لأنه كان مرؤساً فيما سبق ، او لأن الحلفاء احتاجوا اليه لاستخدامه بمثابة شاهد ضد أسياده ، وهذا ماوقع فعلاً ٠

لقد احتقر روميل اولئك الثلاثة ، وكان يصفهم بأنهم جنود مقعدون لافائدة للحرب فيهم ٠ لقد احتقرهم بسبب تعلقهم بالحزب ، وعندما علم ماتم على أيديهم ازداد احتقاره لهم لأنهم لوثوا شرف الجيش الالماني ٠

وسترى كيف ان روميل لم يخف أن يحتج لدى هتلر على الفظائع التي يرتكبها الالمان ٠ وإذا صح ان يحكم رجال على عدو مبين لهم ، فأن هؤلاء الثلاثة كانوا خير دليل على عظمة روميل ٠ وقد كان من حسن حظ الحلفاء أنهم كانوا في ذلك الوقت متحصنين في مقر قيادتهم ٠

ولقد تحالف جميع اولئك المصابين بمرض في قلوبهم ، ضد روميل وخاصة بعد ان قويت صلته بالفوهرر ، وبعد ان عين قائداً للقوات الالمانية في ليبيا ، في الخامس عشر من شباط سنة ١٩٤١ ، وهو الذي انحدر من العوام ٠

وكان التلميح الوحيد الذي بدر منهم ، قد صدر من الفيلد مارشال براوشتش ، في تصريح أفضى به في برلين ، وقبل ان يرى روميل هتلر ٠ فقد قال الفون براوشتش لروميل ، ان مهمته في أفريقيا محض مساعدة الايطاليين ، الذين سيتولون القيادة العليا لجميع العمليات في

شمالي افريقيا ، ولمنع البريطانيين من التقدم الى طرابلس · والحقيقة ان القوات الالمانية كانت «وحدات محجوزة» ، وعندما تفحص رومل ماحواليه وجد ان من المستحسن ان يتقهقر ، وان يكتب للقيادة فيما إذا كانت بحاجة لتلك الوحدات فعلاً ·

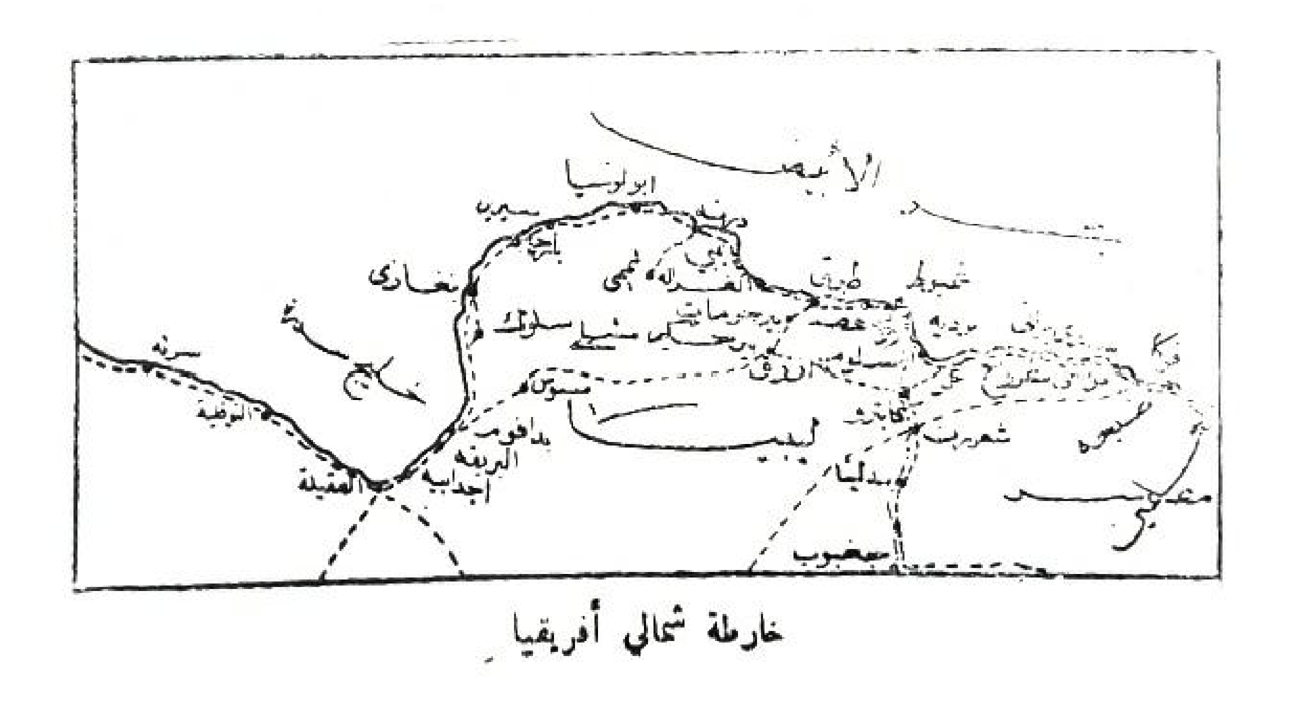
كان من المقرر ان يصحب رومل في سفره الى أفريقيا ، الجنرال شمتدت المساعد العسكري لهتلر ، ولكنه كان يشك في قدرته على تقديم تقرير الى الفوهرر قائم بذاته · وقد ثبت أن شمتدت كان صديقاً حميماً لرومل ، وانه كان يشفق على رومل ، لمحبته اياه ووثوقه به جهد استطاعته ·

كان شمتدت اصغر ضابط ، رائع المنظر ، ذكياً جداً ، حلو الكلام هادئه ، كثير الطموح والتطلع الى المجد · وقد عين في منصبه ذاك بناء على اقتراح تقدم به شقيق كايتل · وخلف شمتدت في منصبه العميد «هوسباخ» ، الذي استقال بسبب مضايقة دبرها هملر ضده ، إذ دفع «هملر» (فون فريتش) الى اتهام هوسباخ بتعاطي اللواط · ولم يكن أصدقاء شمتدت ليعرفوا عنه انه كان نازياً متحمساً ، غير انه أصبح قبلة أنظار الفوهرر نفسه ومن المعجبين به ·

ان هذه العلاقة مع شمتدت توضح لنا كيف كان رومل يحتفظ بتصوراته عن هتلر · فحتى من رومل ذاته ، لم يسمع شمتدت ولا كلمة واحدة ضد الفوهرر · وإذن فما أعظم الاخطاء التي وقع فيها كل من غورنغ وهملر وبورمان وكايتل وهالدر وبودل ؟ ·

فقبل محاولة اغتيال هتلر في ٢٠ تموز ١٩٤٤ بأيام - وكان رومل آنذاك في خلاف مع هتلر بسبب تشاؤمه من الحرب - بعث شمتدت ببرقية الى رومل يقول له فيها «كن على علم ان باستطاعتك الاعتماد عليَّ دائماً» · وقد كان شمتدت مع هتلر في غرفته ، عندما انفجرت القنبلة التي اريد بها اغتيال الفوهرر ، وقد توفي شمتدت بعد تلك الحادثة بشهرين ، وقيل في حينه انه مات متأثراً من جراحه ، ولكن رومل لم يصدق تلك الراوية مطلقاً ·

وفي الوقت ذاته كان رومل - كبقية كبار الضباط - غير مطمئن على سلامته · فعندما سمع بتعيينه في أفريقا ، كتب الى زوجه يخبرها بوجهة عمله ، ومما جاء في رسالته تلك قوله «الآن سيصبح في استطاعتي ان اعالج الروماتزم الذي اشكو منه» ذلك لأن زوجة رومل كانت تتذكر قول الدكتور الذي عالجه أثناء حرب فرنسا ، ونصيحته له بأنه يحتاج الى ضوء الشمس وان عليه ان يكون في أفريقيا ·



خارطة شمالي أفريقيا

الفصل الثالث عشر

ينتصر ولا تعرف انتصاراته

خط بياني متعرج - بين رومل وويفل - سيادة الألمان الجوية

الآن وقد صحبنا رومل في شمال أفريقيا أكثر من سنتين ٠ أصبح من السهل علينا ان نتتبع الخط البياني ، الذي يبين مدى ماأحرزه خلالهما من نجاح ٠

وسنرى ارتفاعاً كبيراً واضحاً ،في هذا الخط البياني ،وذلك حين أحرز رومل اولى انتصاراته في نيسان سنة ١٩٤٢ ،ثم يعقب هذا الارتفاع هبوط ضئيل ، حين لم يواته التوفيق في الاستيلاء على طبرق في اليوم الأول من أيار ،وبعد الهزائم التي مُني بها أمام الهجمات اليسيرة التي قام بها الجنرال ويفل في منتصف كل من أيار وحزيران ٠ تأتي بعد ذلك سلسلة من الهبوط والصعود السريعين ، كتلك التي يرسمها جهاز تسجيل الزلازل ، عند نهاية شهر تشرين الثاني وبداية كانون الاول ، ثم يعقب هذه السلسلة هبوط كبير ، حينما انهزم رومل هزيمة سافرة أمام الجنرالين اوكنلك وريتشي ، وارتد على عقبيه الى حدود برقة ٠ واخيراً نعود فنرى في ذلك الخط البياني صعوداً كبيراً آخر ، حين قام رومل بهجمات مضادة سريعة موفقة في كانون الثاني وشباط سنة ١٩٤٣ ، فارتد البريطانيون الى غزالة ، واستعاد رومل ثلثي الطريق الذي كان قد بلغه في نيسان السابق !

وفي نهاية شهر أيار ، نرى في الخط البياني هبوطاً استمر بضعة أيام ، وكان من الممكن ان يؤدي الى كارثة ، ثم نرى اعظم صعود في ذلك الخط عقب الانتصارات المثالية التي احرزها رومل في مدى شهر ، فاجتاز طبرق والحدود المصرية ، ومضى حتى بلغ العلمين وابواب الاسكندرية ، بعد سقوط مرسى مطروح والضبعة !

ومن هذه القمة التي اعتلاها رومل ، بدأ ، بعد ان اوقف الجنرال اوكنلك تقدم الالمان ، يتوالى انحداره في بطء لايكاد يشعر به ، وان كان نذير سوء ، ثم ازداد الانحدار بانتصارات الجنرال مونتغمري في الحلفاية في آب ، وفي العلمين في اوائل تشرين الثاني وظل الخط البياني يسجل استمرار ذلك الانحدار لرومل الى ان بلغ به نهاية الهاوية ، حين القت البقية الباقية من جنود الفيلق الافريقي سلاحها في تونس في الثاني عشر من شهر أيار سنة ١٩٤٣ ، وكان رومل قد طار الى المانيا قبل ذلك بشهرين ، ليحاول ان يقنع هتلر بعمل شيء لانقاذ حياة جنوده على الأقل ، ولكن محاولاته ذهبت مع الريح .

ولئن كان تتبع ذلك الخط البياني لمعارك رومل في الصحراء ، قد بدأ يسيراً هيناً كما رأيناه ، فان من العسير علينا حقاً ان نتتبع سيرتلك المعارك نفسها . بل انني لأعتقد ان ليس من المجدي هاهنا ان نصف هذه المعارك بالتفصيل مرة اخرى . فهؤلاء الذين يريدون ان يعرفوا اين كان اللواء المدرع الرابع ، عند فجر السادس والعشرين من شهر تشرين الثاني ، عليهم ان يلتمسوا ذلك عند المؤرخين الرسميين ، أو في السجلات التأريخية للجيش . اما الذين يريدون ان يروا صورة بارزة لتلك المعارك ، فخير لهم ان يقرأوا او يعاودو قراءة كتاب «الثالوث الافريقي» لمؤلفه «الان مورهد» ، او كتب بعض المراسلين الحربيين الممتازين الذي رافقوا القوات البريطانية ، وذلك لأنهم كانوا يكتبون وصف تلك المعارك تحت ضغط الحوادث ، وفي وقت سرت فيه الى نفوسهم روح الصحراء . على انني في قصة رومل قائد الفيلق الافريقي هذه ، لاأجدني بقادر على ان اطرح جانباً مادار من المعارك في شمال افريقيا . فعلى القارئ ان يربط بين ميداني بنغازي ، وبين الاماكن الغريبة التي طرقها المتحاربون ، ومنها الطريق الساحلية القديمة وطريق الصحراء العتيقة . كما ان على القارىء ان يعرف ان عليه ان يقطع جزءاً من تلك الطريق في سيارة نقل المانية .

وانني لاذكر هنا باني قد انبأت المستر «الان مورهد» بأنني افكر في تأليف هذا الكتاب ، فاقترح ان اتصل بفنان الماني اسمه «فسلز» كان مرافقاً لرومل في شمال افريقيا ، وكان من رأي «الان مورهد» بان اللوحات التي رسمها فسلز ، بالالوان المائية للصحراء الغربية ، هي اروع مارآه .

وقبل ان اهتدى الى عنوان ذلك الفنان الالماني ، سافرت الى المانيا كي امكث في معسكر الاعتقال العاشر في «ايزر لوهن» بضعة ايام ، وأقوم بالبحث عن فسلز هناك ٠

وعند وصولي المعسكر المذكور ، لقيني أحد الاصدقاء القدماء ممن كانوا ضمن اسرى الحرب الذين وضعناهم في معسكر الاعتقال التاسع والعشرين في ايطاليا ، وقد أنبأت هذا الرجل اني أود اللقاء بفنان الماني يدعى فسلز رافق رومل في حرب الصحراء ، فاخبرني ذلك الرجل بان فسلز يعيش في «ايزر لوهن» وفي عصر اليوم نفسه لقيت الرجل ، فوجدته فناناً ممتازاً ، ذا اخلاق محببة الى النفس ٠ ولما اخبرته بما اريد ، نصح لي بمقابلة الجنرال «فون ايزبك» الذي كان قائداً في فترة من الفترات للفرقة المدرعة الخامسة عشرة في الصحراء ، والجنرال «فون رافنشتين» قائد الفرقة الحادية والعشرين ٠ وقال الفنان الالماني : انهما يسكنان بيتين متقاربين على مدى خمسمائة ياردة من البيت الذي كنت فيه ٠

ورغم اني اشتركت في حربين ضد الالمان ، فلم أكن اعرف الكثير عن الالمان ٠ ومما لاشك فيه انني لم اقابل المانياً برتبة جنرال ، اللهم الا رومل ، وقد كان لقائي برومل رسمياً ولبضع ثواني ٠ وان كراهيتي لتلك الطبقة المسئولة الى حد بعيد عن تلك السنوات المرهقة العقيمة العشر ، لاتقل عن كراهية اكثر الناس لها ٠ ولكنني بعدما لقيت الجنرالين السالفي الذكر ، وجدتهما مقبولين الى حد غير قليل ٠

كان الجنرال «فون ايزبك» : شيخاً تقدمت به السن ، ظاهره الهدوء ، يعيش لوحده في حجرة في الطابق الاخير ، وقد علق على حوائط حجرته ، لوحات لأجداده في القرنين السابع عشر والثامن عشر ٠ ولقد جرح فون ايزبك في وجهه ، من جراء احدى شظايا قنبلة انفجرت بالقرب من طبرق سنة ١٩٤١ ٠ وبعد أن التأم جرحه ارسل الى الجبهة الروسية ، والقى القبض عليه حين حامت حوله الشبهة في ٢٠ تموز سنة ١٩٤٤ ، ثم اودع معسكرات الاعتقال ٠

اما الجنرال «فون رافنشتين» فأنت اذا رأيته في الطريق ، رأيت رجلاً ارستقراطياً ، ولكنه من طراز مختلف اشد الاختلاف ، ورغم انه اشترك في الحربين الماضيتين ، كان يبدو دون الخمسين من عمره ، ولا يزال قادراً على الاشتراك في حرب ثالثة ! ٠

وقد أبلى الرجل في الحربين بلاء حسناً ٠ وفي حزيران سنة ١٩١٨ ، منح وسام الاستحقاق لشجاعته في القتال ، بعد ان منح رومل ذلك الوسام بثمانية عشر شهراً ٠ وقد اعتزل الرجل عمله العسكري بين الحربين ، واصبح رئيساً لاحدى وكالات الأنباء في دويسبرغ ٠ ثم عاد الى الجيش برتبة عميد سنة ١٩٣٩ ، وقاد وحدة مدرعة في بولندا ٠ وبعد ان حارب في

بلغاريا واليونان في شهري آذار ونيسان سنة ١٩٤١ ، انتقل الى الصحراء ليقود احدى الكتائب المدرعة في الفرقة الحادية والعشرين المدرعة ، ثم قام بقيادة هذه الفرقة قبل معركة ممر الحلفاية والسلوم في حزيران ٠

وكان الفون رافنشتين هو الذي قاد الهجوم المشهور الذي قام به رومل في يومي ٢٤ و ٢٥ تشرين ثاني سنة ١٩٤١ ، ولكنه مالبث ان وجد نفسه فجأة ، وعلى غير ارادة منه ، في صفوف الفرقة النيوزيلندية ٠ وكان ذلك في فجر يوم ٢٨ من ذلك الشهر ٠ وقد قال لي : «لقد كان ذلك شيئاً مروعاً ، لانني كنت احمل معي خريطة رئيس اركان الحرب ، وفيها كل ماعددنا من خطط واستعدادت ، ولم تكن لدي فسحة من الوقت لتمزيقها او اتلافها ٠ ولما ايقنت انه ليس ثمة مخرج ، اعتزمت ان اسمي نفسي العميد شميت ، وكنت آمل ألا يفطن القوم الى ما اعلقه من شارات واشرطة تدل على رتبتي العسكرية ، ولكنهم اخطأوا فظنوني الجنرال فرايبورغ ٠ ولعلك تعرف اننا معشر الالمان نذكر اسماءنا عندما نقدم انفسنا ٠ وهذا ماحدث تماماً ، فقد ضربت زوج حذائي ببعضهما البعض ، ثم انحنيت ، وقبل ان اتمالك نفسي قلت : فون رافنشتين ، جنرال ! » ٠

ولقد بلغ فون رافنشتين كندا أخيراً ٠ وفي طريقه اليها اعد محاولة للاستيلاء على السفينة التي كانت تقله ٠ ولكن خطته اكتشفت في اللحظة الاخيرة من قبل ضابط برتبة نقيب وعلى الرغم من انه لم يعد الى المانيا الا في سنة ١٩٤٨ ، فهو لايشكو من شيء ٠ فقد عومل معاملة حسنة تماماً ٠٠ وبعد الحرب اعطيت له الحرية الكاملة ٠ قال وهو يحدثني بعد أول لقائي معه : «لانقص هناك فانا مازلت استطيع تزويدك بسيكار من تبوغ هافانا اذ انني مازلت احتفظ ببضع صناديق منها» ٠ فهو الآن يعيش في دار بمدينة ايزرلوهن ، في جو من الراحة والهدوء ، وان كانت تساكنه في تلك الدار عائلتان ٠ وهو لايزال يحتفظ بقطع جيدة من الاثاث ، وصور اجداده معلقة على الجدران ٠ وزوجته الكونتس البرتغالية اكثر اجادة للانجليزية والفرنسية منه ٠ وقد عاد من جديد رئيسا لوكالة الانباء التي كان يعمل فيها قبل الحرب ٠

ولما كانت الفرقة الهندية الرابعة قد قاست زمناً عصيباً ، على يدي فون رافنشتين عند سيدي عمر ، قبل ان يقع في الاسر ، فقد اقترحت عليه ان ابعث له بصور فوتوغرافية اخذناها ، أبان هجماته غير الموفقة علينا ، لسبع من دباباته وقد اشتعلت فيها النيران !

ثم قابلت الجنرال فريتس بايرلاين ، عن طريق مكتب القسم التأريخي الامريكي في

فرانكفورت . وقد وجدته ، وهو في الخمسين من عمره ، ممتلأ نشاطاً وحماسة ٠ وقد اشترك في الحرب العظمى الاولى وهو في السادسة عشرة من عمره ، جندياً عادياً ، وحارب ضد البريطانيين ، كما ساهم في الهجمات الالمانية حول كيمل في آذار سنة ١٩١٨ ، واشترك في المعارك الفاصلة على السوم وحول بابوم وكمباري في الصيف ٠ وبعد ان وضعت تلك الحرب أوزارها لم تكن لديه اية فكرة عن معاودة الاندراج في سلك الجندية ٠٠ ولكنه لم يجد شيئاً يعمله ، فعاد الى الجيش سنة ١٩٢١ ، ودخل إحدى الكليات الحربية من سنة ١٩٣٢ الى سنة ١٩٣٥ ، ثم انتقل بعد ذلك الى احدى الفرق المدرعة ٠

ولعل فريتس باير لاين كان أكثر من رومل والجنرالين السابقين ، اشتراكاً في حرب متصلة عنيفة في الصحراء الغربية ، فلقد جاء الى أفريقيا من جيش غودريان المدرع في روسيا في تشرين أول سنة ١٩٤١ ، ولم يغادر الصحراء إلا في أيار سنة ١٩٤٢ حينما جرح ، ثم طار الى المانيا قبل النهاية ٠ ولقد كانت تلك الشهور التسعة عشر ملأى بقتال مستمر ٠ وظل فريتس باير لاين ضابطاً في هيئة اركان حرب الفيلق الافريقي حتى أيار سنة ١٩٤٢ ، حين جرح الجنرال غاسي فأصبح هو رئيساً لهيئة اركان حرب رومل ، وظل في هذا المنصب حتى النهاية ، اللهم إلا خلال الاسابيع الخمسة الأخيرة بعد ان وقع الجنرال فون توما في العلمين ، فاقتاد هو الفيلق الافريقي اثناء تقهقره !

ومن الواضح تماماً ان يكون الجنرال باير لاين خير حجة في شؤون المعارك الافريقية ٠ ففي المقر الامريكي في «اوبر اوزل» ، نشر أمامي الخريطة المعتادة للصحراء ،من اجدابيه الى العلمين ، وذكر لي ان هذه هي المرة الاولى التي يسأل فيها عن افريقيا ، كما انها المرة الاولى التي يلتقي فيها بضابط بريطاني كان يحارب هناك ٠ ولقد كان الجنرال باير لاين حجة ايضاً في كل مايتعلق بالمارشال رومل ٠ ذلك انه قبل ان يعيش معه خلال تلك الشهور في الصحراء في أماكن متقاربة ، كان قد عرفه جيداً في مدرسة المشاة في درسدن ، من سنة ١٩٣٠ الى سنة ١٩٣٣ ٠ ولقد قضينا يوماً طويلاً نتذاكر الصحراء ، وانني أعتذر عن حبي للجنرالات الالمان ، فما ينبغي لي ان افعل ذلك ، ولكنني احببت الجنرال باير لاين في النهاية ! ٠ فمن هؤلاء القواد الثلاثة ، ومن غيرهم ، استقيت اخباري عن الجانب الالماني لسيرة رومل ٠

ذكرت من قبل ان الجنرال ويفل او هيئة اركان حربه ، قد اخطأ التقدير حين ارتأى ان رومل لن يتمكن من شن هجوم ، في ربيع سنة ١٩٤١ ، على هذه الصورة الباكرة التي قام بها ٠ واذا كانت هيئة اركان حرب رومل قد اخطأت ، فأن قلم المخابرات السرية البريطانية معذور ولاشك ، اذا نحن علمنا ان رومل لم يفاجىء قلم المخابرات فقط ، بل فاجأ حتى رؤساءه

في برلين · لانه شن هجومه في ٣١ آذار ، ولم تكن القيادة العليا قد طلبت اليه إلا في ٢١ من ذلك الشهر، ان يهيء خطة لاعادة الاستيلاء على برقة ، وان يعرض هذه الخطة للنظر فيها في موعد لايتجاوز العشرين من نيسان، لتكون خطة محكمة ·

وكانت القوات البريطانية العاملة ترى ان رومل لن يذهب الى ماوراء اجدابية ، إلا اذا وصلت الفرقة المدرعة الخامسة عشرة · ولا بد ان يكون هالدر وهيئة اركان حربه ، قد امضوا اسبوعاً او اسبوعين في دراسة هذه الخطة ، ناظرين اليها نظرة الناقد الذي يتسقط هفوات خصم له · ولكن الفرصة لم تتح لهم · فقبل ان تصل اليهم الخطة بتسعة ايام ، تمكن رومل من غزو برقة من جديد ، مع استثناء طبرق ، ثم بلغ الحدود المصرية !·

لقد قام رومل بأكثر مما كان منتظراً ان يطلب اليه او يحاول القيام به ، لو انه انتظر الاذن من برلين · ولقد تجاهل رومل حتى هتلر · وفي الثالث من شهر نيسان ابرق اليه هتلر ينصح له ، بان يكون حريصاً على الا يقوم بأي هجوم واسع النطاق قبل ان تصل اليه الفرقة الخامسة عشر المدرعة ، وكان عليه بصفة خاصة الا يعرض جناحه للعدو حين يستدير مهاجماً بنغازي ·

وقد كان ممكناً ان يغفل رومل الشق الأخير من أمر هتلر آمناً ، وذلك لأن بنغازي كانت قد اخليت في اليوم الذي وصلته فيه برقية هتلر ·

أما الفرقة الخامسة عشرة المدرعة ، فكانت قد نزلت الى طرابلس ، ويمكن ان يقال انها «قد وصلت» ·

وقد قال لي ضابط قدير كان يعمل مع قلم المخابرات السرية في القاهرة ، «ان رومل لسوء الحظ قد قامر وكسب · ولو انه اتبع القواعد والأوامر الصادرة اليه ، ماقام بمثل ذلك الهجوم وعلى هذا النحو من السرعة» ·

ولاشك ان مثل هذه اللهجة في الحديث عن رومل ، مما يروق للعميد «هالدر» ولقد كان أمير اللواء وليامز الذي صار فيا بعد رئيس قلم المخابرات الخاص بالجنرال مونتغمري ، فقائداً لفيلق الحرس التابع للفرقة المدرعة الثانية ، يشاطره في هذا الرأي ، إذ قال : انني اعتقد ان رومل بدأ بتكتيكات سريعة ثم وجد من اليسير عليه ان يستولي على «العقيلة» ، ذلك لأنني أتذكر هذا الأمر جيداً ، لأنني كنت في حصن العقيلة ، عندما استولى رومل عليه ، ثم بعد ذلك قام بخطة استكشافية انتهت الى هجوم موفق ·· ومما لاشك فيه ان رومل ماكان من الممكن له ان يجرؤ على مهاجمتنا بتلك السرعة التي قام بها» ·

وهكذا ظهر روميل لأول مرة على مسرح الصحراء فهذه السرعة التي غزا بها برقة ، كان لها أثر قوي حتى في نفوس الخبراء العسكريين ، بل كان لها أثر قوي مؤلم في نفوس عامة الناس الذين يقيسون الانتصارات على صفحات الخرائط ، مع ان الارض في الصحراء لاتعني إلا شيئاً تافهاً · ولكي يسهل عليك فهم هذه المعارك ، ماعليك الا ان تتصور انها معارك بحرية وليست برية · فالعدو الذي تتعطل دباباته ، يغير عليه اسطول الدبابات المنتصرة ، فيظل هذا الاسطول يجري الى اقصى مايسمح له البترول بذلك ·

اما الشيء الذي روعنا حقاً فهو تلك السيادة الهائلة التي نالها السلاح الجوي الألماني ، ذلك لانه من طراز رفيع · وقد ظلت هذه السيادة وذلك التفوق في السلاح ، الى ان وصلت البريطانيين دبابات شيرمان قبيل معركة العلمين ·

ولم تنل دبابات شيرمان تقدير القيادة العليا البريطانية ، ولا الوزارة البريطانية التي كانت ترى العبرة بالكم لا بالكيف ، أي ان كثرة الدبابات تغطي رداءة طرازها ولكن هذه النظرية ، لاتجدي في الصحراء على الاقل · ولقد امسك روميل بزمام قوته الدقيقة بجرأة وبراعة فائقتين · وله في ذلك خبرة طويلة هائلة، فلقد اقتاد بنفسه فرقة مدرعة في الحرب · واسبوع في القتال خير من ستة أشهر في المناورات ، وكان روميل يحارب جنوداً لا خبرة لهم ولا دراية ، وقادة لم يروا مناورات على نطاق واسع ، وذلك لنقص مالدينا من الدبابات ·

وفي كلمة واحدة ، نستطيع ان نقول ان روميل كان يعرف من أمر مهمته أكثر مما نعرف نحن ، وكذلك جنود دباباته !

ولقد قال أمير اللواء وليامز «انهم كانوا يحاربوننا بأسلحة اخرى وأحسن من أسلحتنا ، ولا أعتقد انه كان من السهل وقف تقدم روميل او صد زحفه» · كما قال كذلك «لم يكن لدينا إلا مدافع مضادة للدبابات زنة رطلين ، ومجموعة من الدبابات البالية» · وحتى لو كانت هذه الدبابات جديدة ، فانها كانت دون الدبابات الالمانية المدرعة في الكفاية والقدرة ·

ولقد التقى رأي روميل برأي الجنرال ويفل ، نظيره في الفن الاستراتيجي ، وكان الاصرار على استبقاء طبرق ، عملاً جريئاً في مثل هذه الظروف ، ولكن دفاع حاميتها ذلك الدفاع القوي ، كان ولا شك خطراً يتهدد مواصلات العدو ، ويؤدي الى منع تقدمه ، ولقد ادى الاحتفاظ بطبرق في الواقع الى هذه النتيجة ـ وربما يكون قد أنقذ مصر · ولطالما تحدث روميل مع ابنه منفرد عن الجنرال ويفل وقال له : «انه قائد من طراز ممتاز ، وهو عبقري من الناحية العسكرية» · ولقد وجدت في مكتبة روميل بعض الكتب عن شمال افريقيا لفوربنيوس ، ثم

كتباً اخرى لم تفتح أوراقها بعد ، ولكني وجدت مجلداً تدل صفحاته على ان رومل قد قرأه بعناية تامة .ذلك هو الترجمة الالمانية لكتاب ويفل عن «فن القيادة» ٠

ولما كان رومل يقدر أهمية طبرق هو الآخر ، فقد شن عليها هجوماً كاملاً في اول أيار ، حالما تم دعم قواته بالفرقة الخامسة عشر المدرعة ٠ ويقول النقيب الدنجر : ان الايطاليين رغم انهم كانت لديهم كل خطط الدفاع التي اعدوها بأنفسهم ، فقد رفضوا استخدامها أو تنفيذها ٠ وعلى أي حال فان الفرقة الاسترالية التاسعة، لم تكن ليفزعها رومل ولا غيره ٠ ذلك لأن هذا الفن من القتال الذي يعتمد على الجرأة والمبادأة التي تقوم بها الجماعات والافراد ، هو ذلك الفن الذي يتقنه الاستراليون ٠ ومن أجل هذا صدم رومل ، ورد بقوة ، متكبداً خسائر فادحة في الرجال والدبابات ٠ فوجدت القيادة الالمانية العليا فرصة للشماتة به ، وذكرته مرة اخرى بأن الاستيلاء على برقة ، هو المهمة الرئيسية الاولى للفيلق الافريقي ، وليس من المهم ان يستولي على طبرق والسلوم والبردية ٠ وان استمرار الزحف الى مصر ليس له الا اهمية ثانوية ٠

وفي منتصف أيار ، وقبل ان تنزل الى الشاطىء امدادات اخرى من الدبابات الجديدة الاتية من انكلترا ، رأى الجنرال ويفل «ان أمامه فرصة سانحة وظروفاً مواتية لمهاجمة جنود العدو الذين تقدموا على الحدود المصرية بالقرب من السلوم » ٠ فقام ويفل ببعض العمليات الصغيرة مستخدماً دبابات كروزو واخرى غيرها، «فاستولى على السلوم وكابوتزو ٠ وفي اليوم التالي قام رومل بقواته وارغم البريطانيين على الانسحاب ٠ وفي يوم ٢٧ أيار تقدم رومل في ممر الحلفاية ، وهو المكان الوحيد ، اذا استثنينا السلوم ، الذي تستطيع الدبابات ان تصعد فيه الى تلك الهضبة التي يبلغ ارتفاعها ٢٠٠ قدم ، وتمتد خمسين ميلاً الى الجنوب الشرقي في الصحراء الغربية ٠

وكان الجنرال ويفل مايزال مصراً على انقاذ برقة ٠ يضاف الى ذلك ان لندن كانت «تستحثه ان يهاجم دون ادنى تأثير» وليس من الصعب ان تحدس ، من الذي كان يستحثه في لندن ٠ وكان الجنرال ويفل حينئذ قد تلقى دبابات جديدة كافية ليزود بها الفرقة السابعة المدرعة ، التي لم تشترك في القتال كفرقة منذ الانتصار على غرازياني ٠ ولقد كانت هذه الفرقة تعاني النقص في معداتها ، بحيث انها لم تكن تملك دبابات ، ولا اجهزة للارسال لتواصل تمريناتها وتدريباتها العسكرية ٠ ولقد كان بعض هذه الدبابات الجديدة من طراز لم يشاهد في الشرق الاوسط ، كما ان بعضها كان يعوزه الاختبار للتحقق من صلاحيته ، وكان يجب ان تكون جميع هذه الدبابات مزودة بالاجهزة التي تحول دون نفاذ الرمال الى داخلها ، وكانت في حاجة الى

تمويه لتخفيها عن عيون الطائرات . وكان جنودها غريبين بعضهم عن بعض ، وكذلك كانت دباباتهم غريبة عنهم »

وكنا نقدر عدد الدبابات التي لدى الالمان بمائتين وعشرين دبابة متوسطة الحجم ، وسبعين دبابة خفيفة ، وذلك مقابل مائتين من الدبابات البريطانية تقريباً . ومن هنا كان العزم على الهجوم جريئاً ولاشك . يضاف الى ذلك ان الجنرال ويفل كان عليه ان يؤلف بين لواءين مدرعين : احدهما مزود بدبابات من طراز تتراوح سرعته بين ١٥ و ٢٠ ميلاً في الساعة ، واقصى طاقتها ان تعمل مسافة تتراوح بين ثمانين ميلاً ومائة ميل . والآخر مزود بدبابات من طراز «I» ، سرعتها خمسة اميال في الساعة ، واقصى طاقتها ان تعمل اربعين ميلاً . فكأن ويفل كمن اتى برجل وطفل ، واوقفهما جنباً الى جنب ،ثم ربط ساقيهما المتجاورتين ، وطلب اليهما ان يشتركا في سباق المائة ياردة !

وفوق هذا كله كان للالمان شيء آخر يعتزون به . اعني ذلك المدفع الجبار من عيار ٨٨ مليمتراً الذي يستخدم لغرضين خطيرين . فهو مدفع مضاد للطائرات سريع الحركة ، ويمكن استخدامه ايضاً ضد الدبابات ، ويضاف الى ذلك ان لدى الالمان عتاد حربي ينفذ في الدبابات المدرعة ، كما لو كانت قطعاً من الزبدة .

ويدل تقرير رومل عن «فرقة الاشباح» دلالة قاطعة ، على ان هذا المدفع الجبار لم يستخدم ضد الدبابات البريطانية الا بالقرب من آراس . ولكن المعلومات التي لدى البريطانيين تدل دلالة قاطعة ايضاً على ان هذا المدفع لم يستخدم في آراس ، واننا لم نصطدم به لاول مرة الا في ١٦ حزيران سنة ١٩٤١ في الصحراء الغربية . وعلى أي حال فلقد ظل ذلك المدفع سلاحاً مروعاً ، بل انه ظل كالسحر تماماً لقادة الدبابات ولغيرهم الى نهاية الحرب .

لقد كانت «عملية البلطة» بعد ان احرزت بعض النجاح اول الامر ، فاشلة غاية الفشل . فقد خسرنا فيها اكثر من مائة دبابة . وكان بعضنا في الوقت ذاته ، يحارب دون سند من دبابات أو من ستار من الطائرات ، في سوريا وتطارده الدبابات والمدافع المضادة للطائرات التابعة لفيشي الفرنسية .. ولاشك اننا ابدينا اشد الاستياء عندما علمنا ان مثل هذه العملية التي تبدو تافهة تماماً ، قد استخدمت فيها ستة اسراب من الطائرات المقاتلة ، واربعة اسراب من قاذفات القنابل ، ومائتين من الدبابات . ولذلك فمن الطريف ان يكون الجنرال فون ازبك والجنرال فون رافنشتين والدنجر قد قالوا ، كل على حدة :

«ان هجومنا قد اولاه رومل غاية الاهتمام والعناية ، واعتبره بالغ الخطورة» . ويرى الجنرال

فون رافنشتين اننا ارتكبنا خطأ جسيماً ، حين «هاجمنا اقوى نقطة لدينا ، وهي ممر حلفاية وحامية بالدبابات . وان التفافنا حول الطرف الجنوبي للهضبة ، كان يجب ان يكون اوسع نطاقاً، ولو تناهى الى علمنا أمر المدافع من عيار ٨٨ مليمتراً التي اختبأت هناك ، لكان من المحتمل ان نترك حلفاية وحدها ، وانما كان هذا المشط الهائل من صفوف دباباتنا هو الذي الزم دباباتنا من طراز «أ» التابعة للواء الرابع المدرع ، بما لها من مدى محدود ، بان تنحرف شمالاً الى كابوتزو ..

ومما يبعث على الرضى على الأقل ان «عملية البلطة» هذه قد ضايقت العدو . ولقد استمعت من الدنجر الى قصة غريبة عن تلك الفترة .

فعندما ذهبنا الى سوريا ، انكر الفرنسيون بشدة انهم يساعدون الالمان . لقد كان الفرنسيون يقاومون تقدمنا ، وكانوا على حد قولهم يفعلون ذلك لاننا نغزو ارضاً فرنسية . وانهم كانوا سيقاومون الالمان مثلنا تماماً أو اي غاز آخر .

ولقد قضيت ثلاثة ايام أسيراً ، بعد ان تحطمت سيارتي خارج «المزة» بالقرب من دمشق ، وسمعت مثل هذا التفسير من كثير من الضباط في القيادة العليا الفرنسية ، وكانوا يدلون به في قوة وفي اخلاص ظاهر . اما حقيقة هذا الأمر ، فلم اهتد اليها بعد ، فلقد علمنا ان الفرنسيين ، كانوا يمونون الطائرات الالمانية بالوقود في طريقها الى العراق ، لتشد ازر ثورة رشيد عالي الكيلاني . ولم يكن يبدو في ذلك الحين انه يوجد اكثر من نفر قليلين من الالمان بالملابس العادية في دمشق أو بيروت ..

اما قصة النقيب فهي انه قبل أو بعد «عملية البلطة» ، هبطت طائرة فرنسية في البردية قادمة من سوريا ، وادخل ملاحها فوراً الى رومل ومكث عنده أكثر من ساعة ، ثم عاد الى سوريا مرة اخرى ، فاذا صح هذا ، والدنجر لايكذب ، فمن المحتمل ان يكون هذا الطيار قادماً من الجنرال دنتز قائد قوات فيشي الفرنسية .

الفصل الرابع عشر

روميل يريد احتلال البصرة

رأيه في غزو مالطة - يهاجم طبرق دون أمر
يحاولون خطف روميل

ولت البقية الباقية من الصيف في هدوء ، وكان كل من الفريقين ينظم صفوفه ويستعد للقتال ، ولم تكن الظروف في ذلك الوقت مواتية لروميل . فالقيادة الالمانية العليا قد ركزت اهتمامها بالجبهة الروسية وحدها ، وتخلت عن سواها ، ولذلك فلم تكن تبدي ادنى اهتمام بالقتال في شمال أفريقيا . ولم يكن مستبعداً ان يشن الالمان هجوماً على قناة السويس او على ايران . ولكن هذا لم يكن لتفكر فيه القيادة الالمانية العليا على اية حالة ، إلا بعد ان تهزم روسيا، لأن مثل هذا الهجوم لايتيسر إلا عبر الاناضول والقوقاز .

وإذن فلم يكن الدور الذي يقوم به الجيش الالماني في ليبيا سوى دور ثانوي للتدعيم ، ولم يكن متوقعاً لذلك تزويده بفرق جديدة اخرى ، ولا كان في استطاعته تنظيم خطوط امداداته الا بمهاجمة جزيرة مالطة وإذن فليس على روميل الا ان يقصر جهوده على وضع خطة يستولى بها على طبرق . فاذا سقطت في يده ، كان ذلك حسبه ، وكان عليه ان يقف عند السلوم ، دون التقدم الى مصر ؟ اما ان فشل في الاستيلاء على طبرق ، فعليه ان يبني خطته على اساس الارتداد الى الغزالة !

وكان كل من الالمان والبريطانيين ينظرون الى رومل ، على انه ـ من الناحية العسكرية ـ ليس اكثر من شخص ماهر في اقتناص الفرص ، على انه قد يحسن التكتيك . ولكنه ليس اهلاً لأن تكون لديه افكار عن الفن الاستراتيجي .

والواقع ان القول بأن رومل كان أعرف بالتكتيكات الكبرى منه بالأعمال الاستراتيجية ، يكاد يكون صحيحاً . ولكن أليس من المدهش حقاً ان يعين رومل مدرساً في بوتسدام ، اذا لم يكن قادراً على استيعاب النظريات الاستراتيجية الكبيرة ؟ !

وهلا يكون ادعى للدهشة ألا يتعلم رومل شيئاً من هذه النظريات خلال تلك السنوات التي قضاها هناك ؟ !

لقد ابدى رومل خلال تلك الفترة ، من الخبرة الفنية الاستراتيجية اكثر مما يبديه الاستراتيجيون المحترفون !

ولقد ذكر لي «فون رافنشتين» ان الخطة التي وضعها رومل رسمياً في تموز سنة ١٩٤١ للاستيلاء على قناة السويس ، كانت خطة محكمة واسعة النطاق . وان ذلك الهجوم او التقدم الذي احرزه رومل حينذاك ، لم يكن سوى مقدمة لزحف آخر نحو البصرة ، وكان الهدف الذي يرمي اليه من وراء ذلك هو وقف تدفق الامدادات الامريكية الى روسيا عبر الخليج العربي . اما امدادات رومل الخاصة بعد هذه المرحلة الاولى ، فكان مقدراً لها ان تكون عبر سوريا . اضف الى هذا ان رومل كان يرى ان تركيا قد ترغم على الانضمام الى جانب المانيا اذا سارت الامور على مايرام في روسيا وشمال افريقيا لأن تركيا قد تهاجم وتستسلم فوراً .

وقبل ان يحكم القارئ على هذا المشروع بأنه وهمي او خرافي ، كما فعلت القيادة الالمانية العليا ، التي لم تر الا المرحلة الاولى منه ، عليه ان يقرأ رسالة الجنرال اوكنلك رقم ٣٨١٧٧ عن حوادث الشرق الاوسط من اول تشرين ثاني سنة ١٩٤١ الى ١٥ آب سنة ١٩٤٢ .

وسيرى القارئ كم كان لدينا من الجنود لنحتفظ بسوريا بعد ان استلمت قوات فيشي الفرنسية ؟ وكم كان لدينا من الجنود في العراق وايران ؟ وكيف كان من السهل على رومل ان يستولي على قبرص بجنود تنقلها الطائرات في اي وقت قبل صيف سنة ١٩٤٢ ، وكيف كانت جبهته الشمالية الشاغل الذي يشغله على الدوام . فقد كان رومل يخشى ان يشن هجوم من القوقاز . ولكن حيثما كان هذا الهجوم ومن اي ناحية اتى ، فان قواتنا كانت من الضعف بحيث لاتستطيع الوقوف في وجهه ، وخاصة اذا كان الهجوم قوياً . ومن المناسب ان نتذكر ارقام هذه الامدادات الامريكية التي بلغت روسيا عبر الخليج العربي .

اما رأي رومل في غزو مالطة ، فكثيراً ماذكر لهيئة اركان حربه ، كما ذكر لزوجته فيما بعد ، انه لايستطيع ان يفهم الاسباب التي جعلت القيادة العليا الالمانية تحجم عن الاستيلاء على مالطة · في حين كان الاستيلاء عليها ، في رأيه ، من الممكن ان يتم في اي وقت خلال صيف سنة ١٩٤١ باستخدام الدخان الصناعي والجنود الذين تحملهم الطائرات ·

ولعل من اسباب اهتمام رومل بالاستيلاء على ماطة ان ٥٣ في المائة من امداداته كانت قد اغرقت في آب ، وان ٦٣ في المائة منها اغرقت في تشرين اول ، ولم تصح القيادة الالمانية العليا عن غفوتها فتدرك اهمية مالطة ، الا عندما ارتفع مجموع ماغرق من امدادات رومل الى ٧٥ في المائة وحينئذ ادركت ان جزيرة مالطة تتحكم في البحر الابيض المتوسط ، فارسلت عدداً من زوارق الطوربيد ، وعززت سلاح طيرانها في صقلية · وكانت النتيجة ان الالمان في اوائل سنة ١٩٤٢ ، اي حينما وضع رومل خطة هجومه ، تمكنوا من الاشراف على المنطقة الوسطى للبحر المتوسط ·

ويرجع جانب من هذا النشاط الالماني الى مساهمة افراد الشبيبة الايطالية ، الذين شقوا طريقهم الى ميناء الاسكندرية ، واغرقوا السفينتين الحربيتين البريطانيتين والوحيدتين «كوين اليزابث» و «فاليانت» ، وهما في مراسيها ·

ولم تشأ القيادة العليا الالمانية ان تعزز قوات رومل بفرق المانية اخرى · كما يبدو انها لم تفكر حتى في تعزيز قوات رومل · ويرى كيسلرنغ ان القيادة الالمانية ، رغم تمكنها من عزل مالطة وتعطيل استخدامها كقاعدة بحرية ، لم تحاول قط الاستيلاء عليها · وظلت كذلك الى نهاية نيسان ١٩٤٢ حين أذن هتلر ، بتأثير «الاميرال رايدر» ، وبعد مباحثة مع موسوليني ، في أن يقوم جنود المظلات الالمان والايطاليون بهجوم مفاجىء على مالطة في اوائل شهر حزيران · ولقد كتب المندوب البحري الالماني في ذلك الاجتماع يقول : على الرغم من أن تأجيل غزو مالطة والاستيلاء عليها ليس مما يرحب به ، الا انني كنت مغتبطاً اشد الاغتباط ، حين رأيت هتلر مهتماً اشد الاهتمام بهذه المنطقة الخطيرة · فالامور الحربية جميعاً قد اصبحت موضع الاهتمام الشديد ، بعد ان ظلت حتى ذلك الحين مسألة ثانوية ، والانتصارات فيها تعد هبة سماوية ، دون القيام بأي شيء جدي «من أجل مسرح الحرب الايطالي» ·

على ان فكرة الهجوم قد ارجىء تنفيذها مرتين · ففي اول تموز وفي آخر [illegible] ارجأ هتلر غزو مالطة الى ان يتم غزو مصر · ولم يستشر في ذلك حلفاءه الايطاليين ، بل لم يستشر حتى القيادة البحرية الالمانية ، وربما كان قد استشار كيتل وبودل !



وفي اوائل صيف سنة ١٩٤١ شعر كبار ضباط الفيلق الافريقي ، بعد انتصارهم الاول ، بان القيادة الالمانية العليا تنظر الى مسرح الحرب في شمال افريقيا على اساس انه ميدان جانبي ، أو انه ليس أكثر من (التقاط «الكستنا» من النار ، واعطائها للايطاليين) ٠

لقد كانت التعزيزات الجوية ممكنة ولاشك ، فلماذا لم ترسل الى رومل أسراب اخرى من الطائرات المقاتلة ؟٠ لقد تحدث الجنرال فون ايزبك في ذلك فقال : اذكر ان الفيلد مارشال ميلخ ، من سلاح الطيران الالماني ، جاء في رحلة تفتيشية في أيار سنة ١٩٤١ ، ورحنا نضرع الى الله جميعاً ان يبعث الينا بسلاح الطيران الملكي البريطاني فيغير علينا غارة جوية عنيفة ليرى المارشال ميلخ بأم عينيه شيئاً مما لايعرف ٠ و[illegible]جاب الله لدعائنا ٠ وكان ميلخ يرتدي بزة بيضاء جميلة ٠ ولم أر نفسي مسروراً ، كما رأيتني حين نزل ميلخ في خندق ، فلما خرج من الخندق كان سروري أشد ، لان ذلك الخندق كان من الخنادق التي يلقي الخدم فيها فضلات المطبخ ! ٠

غير ان رومل كان قد اعتزم القيام بهجوم ، سواء أكان ذلك بتشجيع القيادة العليا أم بغير تشجيعها ، فكانت طبرق أول هدف رئيسي لهجومه ذاك ٠

وقد كتب الجنرال اوكنلك يقول : « ان سلامتنا من ارتباك خطوطنا في منطقة الحدود مدة اربعة اشهر ونصف شهر ، مردها الى حد كبير الى حماة طبرق ٠ فلقد كان حماة طبرق يدافعون عن هذه المدينة بحماسة بالغة ، وكانوا على استعداد دائم لان يقوموا بهجوم على العدو الذي يكاد يبلغ ضعفهم في قوته ٠ وقد حرصت حامية طبرق على ان تقلق بال العدو ، حتى تمكنت آخر الأمر من صد اربع فرق ايطالية وثلاث كتائب المانية عن منطقة الحدود ، من شهر نيسان حتى شهر تشرين الثاني» ٠

ولقد اتخذ الجنرال ويفل قراراً وسط جو من الاضطراب والعجلة ، وفي غمرة معركة خاسرة ٠ لقد كان قرار ويفل انه من غير الممكن ان يكون ثمة تقدم للعدو على الحدود المصرية وطبرق ماتزال في ايدي البريطانيين ! ٠

ولم يستطع رومل ان يحصل حتى على الاذن في مهاجمة طبرق الا بشق النفس ٠ ولقد اراد ان يجعل الهجوم على طبرق في تشرين اول او في تشرين الثاني ، غير ان هتلر وبودل وكيتل لم يوافقوه على ذلك ، حتى كانون ثاني سنة ١٩٤٢ ذلك لانهم كانوا لايريدون ان يقوموا بأية حركات عسكرية في شمال افريقيا ، في الوقت الذي لم ينفضوا فيه ايديهم من روسيا ٠

ولقد علم الايطاليون عن طريق عيونهم ووكلائهم في القاهرة والاسكندرية ، اكثر مما يعلم الالمان ، بالهجوم القادم الذي سيشنه الجنرال اوكنلك . كما ان الايطاليين وثقوا في اية حركة يقوم بها رومل بقيادتهم الاسمية . واخذ سلاح الطيران الالماني يلتقط صوراً فوتغرافية للخط الحديدي الذي مدته القوات البريطانية غربي مرسى مطروح . وذكر الجنرال فون رافنشتين انه كان حاضراً عندما القى رومل بهذه الصورة الفوتغرافية الى الارض مغضباً وقال : لن انظر اليها !» ثم جاء تقرير من الاميرال كناريس ، وفيه ان جندياً بريطانياً في مستشفى القدس ، أخبر ممرضة المانية تعمل جاسوسة للالمان ، بأن البريطانيين يتهيأون للقيام بهجوم قوي عاجل على رومل ، ولقد أدت هذه المعلومات التي بعثت بها هذه الجاسوسة الالمانية ، الى تزويد رومل بتعليمات من هتلر وبودل ، بالتزام الهدوء والتخلي عن طبرق ، والتهيؤ لملاقاة الهجوم الذي سيشنه اوكنلك . ويبدو ان هتلر وبودل لم يدركا مايترتب على ذلك من صعوبة ، فان من الصعب صد هجوم اوكنلك اذ ماظلت طبرق في قبضة البريطانيين .

ولكن رومل اصر على الاستيلاء على طبرق بأي ثمن . ولم يذعن لأمر هتلر وبودل ، وطار الى روما ومعه فون رافنشتين للمباحثة في هذا الامر . وكان فون رافنشتين في مكتب رينتلن ضابط الاتصال الالماني بين الالمان والايطاليين ، حين افرغ رومل كل مافي جعبته ، وراح يلعن رينتلن ، ويتهمه «بأنه جبان وصديق للايطاليين» ثم أمسك رومل بالتليفون واتصل ببودل نفسه ودار بينهما هذا الحوار :

قال رومل : «بلغني انك تريدني ان اقلع عن مهاجمة طبرق . انني مستاء لذلك اشد الاستياء !» .

فقال بودل : «إذن احتفظ بالفرقة الحادية والعشرين المدرعة لملاقاة الهجوم البريطاني ، في الوقت الذي يبدأ فيه الهجوم على طبرق» .

واراد بودل أن يتحلل من المسئولية فقال لرومل : هل تضمن لي انه لن يكون هنالك خطر ؟ » . فصرخ رومل قائلاً : «انني اؤكد لك ذلك على مسؤليتي الشخصية !» . ولما اصبح بودل غير مسئول عن هذا الهجوم الذي سيقوم به رومل ، لم يسعه الا الموافقة !

وحدد اليوم الثالث والعشرون من تشرين الثاني للهجوم على طبرق . وقد اعد كل شيء لذلك . وسافرت زوجة فون رافنشتين وزوجة رومل الى روما ، وبقي رومل في روما ليحتفل بعيد ميلاده في الخامس عشر من ذلك الشهر .

ولم ير روميل شيئاً من مباهج روما أو متاحفها . ولكنه شهد ، بدعوة من القيادة الايطالية في عيد ميلاده ، فيلما «اسمه الزحف من بنغازي» وهذا الفيلم يصف التقدم الذي حدث في نيسان الماضي . وقد اوضح هذا الفيلم بطولة الايطاليين وهم يحاربون بالحراب . وبعض الضباط البريطانيين وهم يولون منهم الادبار في هلع وفزع . ولم يبين هذا الفيلم المانياً واحداً في الميدان ! .

ولقد علق روميل على هذا الفيلم لمضيفيه بقوله : «انه فيلم ممتع حقاً ، وانني لادهش حقاً مما حدث في هذه المعركة !» .

محاولة اغتيال روميل

ولقد سرت على ألسنة الناس تلك القصة القائلة ، بأن تغيب روميل عن مقر قيادته العليا في (بيدا ليوتوريا) بالقرب من (اتشيريني) ، قد انقذ حياته من الموت ، او من الوقوع في الاسر ، أو اختطاف البريطانيين اياه .

والذي حدث ان جماعة من الفدائيين البريطانيين ، برياسة المقدم جيوفري كيز (الذي منح وسام صليب فكتوريا) كانت إحدى الغواصات قد انزلتهم على الساحل . فلقيهم هناك جون هازلدن الضابط البحري ، الذي قتل فيما بعد ، ودلهم على الطريق . ولما كان هازلدن يتنكر في ملابس الاعراب ، فقد تمكن من البقاء وراء خطوط العدو !

ولعلك تسأل أين كان يقع مركز القيادة العليا لروميل . لقد كان هذا المركز في مدخل إحدى القرى القريبة من اتشيريني ، حيث يطالعك الى اليمين مخزن صغير للغلال ، ثم بعد ذلك يأتي صف طويل من البيوت المنعزلة بعضها عن بعض ، ثم ترى وسط اشجار السرو بعيد عن الطريق العام ، بيتاً كبيراً مظلماً مؤلفاً من طابقين . في هذا البيت كان روميل يعيش في سنة ١٩٤١ . وفي منتصف الليل ، جاء المقدم جيوفري ومعه رجلان : كامبل ، وتيري ، ووقفوا جميعاً أمام الباب الخارجي للبيت ، ثم طلبوا الدخول فوراً ، وكانوا يتحدثون بالالمانية . ففتح لهم الحارس . ولكن عندما دخلوا البيت ، ابدى الحارس ارتيابه في امرهم ، وكاد يقتلهم لولا انهم تغلبوا عليه . وفي اثناء ذلك ظهر ضابطان على الدرج ، فاطلقت عليهما النيران . وكان البيت مطفأ الاضواء ، كما كان الصمت يحتويه في بردته . واخذ كيز يفتش الطابق الأرضي دون جدوى . وكذلك كان الطابق الاول خالياً تماماً ، ثم انطلق عيار ناري من الطابق الثاني ، أصاب كيز فهوى صريعاً . كما اصيب كامبل واسر ، غير ان تيري افلح في الهرب ... ولقد دفن

المقدم كيز في بيدا ليتوريا على أحد التلال جنوبي القرية ·

وفي اثناء ذلك كان رومل في روما · وحتى لو انه لم يكن في روما ، كان من الصعب ان يختطفه الفدائيون ، من ذلك البيت المظلم الذي أحاطت به اشجار السرو · ذلك ان هذا البيت لم يكن مقراً لقيادته العليا ، وانما كان مقراً لهيئة اركان حربه برياسة العقيد اوتو · اما مقر قيادة رومل فقد كان في الصحراء غربي درنة · وكان رومل في بعض الاحيان يأتي الى بيدا ليتوريا ، ولكنه لم يكن يبيت هناك ·

إذن لقد كانت معلومات جون هازلدن خاطئة ، لانه استقاها من بعض الأعراب ، وهؤلاء اما انهم لم يروا رومل قط ، واما ان الامر اختلط عليهم وظنوه من بعض الالمان الآخرين ·

ولقد سقط جيوفري كيز ميتاً متأثراً بجراحه على مسيرة ميل من القرية · بعد ان تمكن من ان يزحف على يديه ورجليه في الليل ، عندما اصيبت قدمه اصابة خطيرة ، وبعد ان جرحت الاخرى ·

ولقد ذكر لي الدنجر هذه القصة وقال : « ان كيز حقاً لشجاع» ·



الفصل الخامس عشر

كان رومل على وشك الانتصار

الانكليز يموهون على رومل ـ قوى المحور في افريقيا
رومل يهجم مفاجأة ـ جرأة ومخاطرة نادرتان

إذا كنا لم نفلح في مفاجأة رومل وهو في مقر قيادته العليا ، فان بداية الهجوم الذي شنه الجنرال اوكنلك ، قد فاجأ رومل وجنوده جميعاً مفاجأة تامة . ذلك ان الويتنا المدرعة مضت في فجر يوم ١٨ تشرين الثاني ، يتقدمها ستار من السيارات المصفحة لتخترق الاسلاك الشائكة على الحدود ، وتأخذ طريقها الى مراكزها في المعركة عند «طريق العبد» ، وقد انطلقت الى غايتها هذه في الصحراء الخالية .

ويعد هذا العمل الحربي الواسع النطاق ، اول الاعمال التي قام بها الجيش الثامن[١٩]. وحينما بدأت المعركة كان البريطانيون يعلقون عليها آمالا كبيرة ، بل ان المستر تشرشل نفسه كان اكثرنا آمالاً فيها ، وكان يتوقع ان تؤدي إلى انتصار مبين كذلك الانتصار الذي احرزه البريطانيون في بلنهايم أو واترلو !

---

(١٩) الجيش الثامن : هو الجيش الانكليزي الرئيس الذي قاوم الالمان في الصحراء الغربية وهزمهم ، بعد ان تولى مونتغمري قيادته .

ولكن الحظ السيء ابى ان تتحقق آمال المستر تشرشل على ذلك النحو ، بل ان هذه الآمال لم تتحقق تماماً ، وسرعان ماتلاشت في تضاعيف الضباب الذي اعقبها ٠

وقليلون من غير رجال الجيش الثامن ، هم الذين يعرفون كيف كان الجيش الثامن قاب قوسين أو ادنى من النصر المبين ٠ ذلك لان الناس دائماً لايعنيهم الا النتيجة ، أما احصاء خسائر الفريقين قبل ذلك ، فلا يكاد يعني به الا القليلون ! ٠

وما يقال مثله عن معركة ، يصح ان يقال مثله عن معركة العلمين !

وامامنا الارقام خير شاهد على صحة مانقول ٠ فمن مجموع مائة الف جندي يؤلفون قوات المحور في افريقيا ، بلغت خسائر المحور في الارواح ستين الفاً ، من بينهم ٢١ ألفاً من الالمان - قتلى وجرحى واسرى - أما الجيش الثامن الذي كان قوامه ١١٨ ألف مقاتل ، فلم تزد خسائره على ١٨ ألف ضابط وجندي ، اما في معركة العلمين فكان الجيش الثامن مؤلفاً من مائة وخمسين الفاً ، خسر منهم ١٣٫٥٠٠ ، بينما كان جيش المحور يعد ٩٦ الفاً ، خسر منهم ٥٩ الفاً منهم ٣٤ الف الماني ٠

وفي تشرين الثاني سنة ١٩٤١ كان عدد الدبابات البريطانية التي اشتركت في المعركة ٤٥٥ ، يقابلها ٤١٢ من الدبابات لدى رومل اما في العلمين فكانت لدى الجنرال مونتغمري ١٫١١٤ دبابة ، يقابلها ٥٠٠ أو ٦٠٠ من دبابات المحور ، وأكثر من نصفها دبابات ايطالية ٠

ولكن الارقام لاتروي القصة بتمامها ٠ فمن مجموع الالف والمائة والاربعة عشر دبابة التي كانت لدى الجنرال مونتغمري ، كانت ١٢٨ دبابة من طراز «غرانت» ، و ٢٦٧ دبابة من طراز «شيرمان» نصبت عليها مدافع من عيار ٧٥ مليمتراً ٠ ففي تشرين الثاني سنة ١٩٤١ لم تكن لدينا دبابات تستطيع ان تقف في وجه الدبابات الالمانية من طراز «مارك ٣» و «مارك ٤» ٠ ولقد كانت دباباتنا لاتستطيع ان تهاجم دبابات العدو بصورة قوية ، الا اذا كانت على مدى ٨٠٠ ياردة ، وحينئذ تطلق مدافعها الواهنة التي تزن قذيفتها رطلين ، وفي اثناء ذلك كانت مدافع دبابات العدو تصليها نيراناً حامية من مدافع ذات عيار ٥٠ مليمتراً (زنة أربعة ارطال) ، ومدافع من عيار ٧٥ مليمتراً ، ولا تملك الدبابات البريطانية بأزائها دفاعاً ولا مفراً ٠

ونستطيع ان نقول أيضاً انه لم تكن لدينا أية مدافع قوية مضادة للدبابات ٠ ولنا أن نتساءل الآن لماذا شن الجنرال اوكنلك هجومه مستعيناً بفرقة مدرعة ونصف فرقة ، بدلاً من الاستعانة بالفرق الثلاث التي كان يعتقد هو نفسه بانها لازمة لمثل هذا الهجوم الواسع النطاق ؟

قد يعود ذلك الى أن المحور كانت له قوات كبيرة في برقة ، فهناك إذن ولا شك خطر

مستتر يتهدد مصر . كما ان اوكنلك، لم يكن يستطيع أن يطمئن الى سلامة جناحيه الشمالي ، من خطر أي غزو قد يقوم به الالمان من القوقاز !

وربما كان ذلك لأن الحكومة البريطانية كانت ترى من الضروري أن يقوم اوكنلك بهذا الهجوم في اقرب لحظة ممكنة . وكلمة «ممكنة» مطاطة للغاية وخاصة في لندن !. وأياً كان الأمر ، فقد لقي قرار اوكنلك قبولاً عاماً ، ولم يكن ثمة غبار على خطته العامة . ولقد كانت فكرة صائبة حقاً ، تلك التي تقول بأن تركز القوة الرئيسية على جغبوب ، وأن تضرب ضربتها عبر الصحراء عن طريق «جيالو» ، لقطع خطوط مواصلات رومل ، فيتعرض بذلك جناح الجيش الثامن ـ اثناء تقدمه ـ لغارات لاتنقطع من المطارات الالمانية على الساحل في الشمال . كما تستطيع هذه الطائرات ان تشن تلك الغارات اذا اشترك معها في هذه الاعمال سلاح الطيران الالماني الذي يهب لنجدة رومل من مطارات اليونان وكريت .

وكان من الضروري ايضاً ان يقوم سلاح الطيران البريطاني بالاستعداد لكل هذه الاحتمالات من اجل سلامة الحدود ، والا قلب رومل خططنا رأساً على عقب وذلك بأن يهبط الهضبة التي تفصل الجيشين ، ويتخذ طريقه فوراً الى الاسكندرية ، وهذا بالضبط ماكان رومل يهدف اليه ، لو اننا هاجمناه من الجنوب . ولذلك فان الهجوم الذي قمنا به ببعض الجنود في اتجاه جيالو ، لم يكن سوى خدعة . ولقد كان لهذه الخدعة أثرها الفعال . فقد ذكر لي الجنرال «باير لاين» ان الالمان كانوا يتوقعون ان يكون هجومنا الرئيسي في الجنوب .

وكانت خطة البريطانيين هي التقدم نحو طبرق ، ومخادعة رومل في الوسط والجنوب . وكانوا يهدفون من وراء ذلك الى تحطيم قواته المدرعة ، فلقد كانت الفرقتان المدرعتان الخامسة عشرة والحادية والعشرون ، هما العمود الفقري لجيش رومل !.

فما هي اذن الوسيلة التي يمكن بها استدراج هاتين الفرقتين الى المكان الذي يناسب البريطانيين ؟ لقد رأى الجنرال اوكنلك ان الوسيلة الوحيدة هي محاولة رفع الحصار عن طبرق ، تمهيداً لاخراج رومل من برقة اولاً ، ومن طرابلس ثانياً ، وبذلك تساهم حامية طبرق نفسها في القتال . ولما كانت دباباتنا اقل من دبابات رومل ، فلم يكن بد من ان نهاجم بدبابات تفوق دباباته في العدد . وكانت الخطة ايضاً الا تقع فرقتنا المدرعة بين فكي فرقتي رومل المدرعتين .

وكان من الجوهري في هذه الخطة ، ان يفاجأ رومل بوقت الهجوم وباتجاهه ايضاً !

وباختصار كانت الخطة تقضي ان يبدأ الهجوم الرئيسي الفيلق الثلاثون بقيادة اللفتنانت جنرال (ولوباي نوري) ، مستخدماً في ذلك القسم الاعظم من مدرعاته (الفرقة السابعة المدرعة

واللواء المدرع الرابع) ، يضاف اليها لواءان من فرقة المشاة الاولى الخاصة بجنوبي افريقيا ، ولواء الحرس المدرع الثاني والعشرون ، الذي كان عليه ان يتمركز حول «قبر صالح» فيهجم في اتجاه الجنوب الشرقي أو الجنوب الغربي ٠ وحين يتيسر لهذا الفيلق ان يهزم رومل ، ينفك الحصار عن طبرق ٠ وحينئذ تقوم حامية طبرق (المؤلفة من فرقة المشاة السبعين ، ولواء الدبابات واللواء البولوني) بالهجوم على الالمان في الوقت المناسب الذي سبق ان قرره الجنرال ولوباي نوري ٠

وفي الوقت ذاته كان على الفيلق الثالث عشر الذي يقوده اللفتنت جنرال غودوين اوستن ، والمؤلف من الفرقة النيوزيلندية والفرقة الهندية الرابعة واللواء الاول للدبابات ، ان ينحدر الى الاسفل فيهاجم تحصينات القوات المعادية عن الحدود ، ومن ثم يتقدم غرباً نحو طبرق لمعاونة الفيلق الثلاثين ٠

اما اللواء المدرع الرابع التابع للفيلق الثلاثين ، فكان عليه ان يحمي جناحه الايسر ، واما لواء المشاة الهندي الحادي عشر المرابط في اسفل السلوم ولواء المشاة الهندي الخامس المتمركز فوقها ، فكان عليها ان يقابلا العدو وجهاً لوجه ، فيحميان قاعدتنا وخط مواصلاتنا الرئيسي ٠

كان ثلث قوات رومل في افريقيا من الالمان ، والثلثان الباقيان من الايطاليين ٠ وكانت هذه القوات مؤلفة من ثلاث فرق مدرعة ، وفرقتين آليتين ، وخمس فرق مشاة ٠ وكانت فرقتا الدبابات الالمانية الخامسة عشرة والحادية والعشرون وفرقة المشاة الخفيفة التسعون ، كانت هذه كلها تؤلف جحفل الدبابات الافريقي ٠ اما الفرقة المدرعة الحادية والعشرون فكانت على بعد ١٢ ميلا جنوبي جغبوب ، على طريق كابوتزو ٠ وكانت الفرقة المدرعة الخامسة عشرة وفرقة الآليات الخفيفة التسعون ، ترابطان حول العضم ، والدودة ،وسيدي رزق ٠ اما القوات التي كانت تحاصر طبرق فكانت مؤلفة من الفيلق الواحد والعشرين ، وبه أربع فرق ايطالية من المشاة ، تشد ازرها ثلاث افواج المانية من المشاة ٠ فالفرقة الايطالية المدرعة كانت ترابط عند غوبي ، وقد انشأت فيها مواضع للمدفعية ٠ أما فرقة الآليات فكانت عند (بئر حكيم) ، اما تحصينات الحدود في حلفايا والسلوم وكابوتزو ، فقد عهد بحمايتها الى أفواج من المشاة الالمان ٠ وكان سيدي عمر في حراسة فرقة سافويا ، ومعها بعض المدافع الالمانية ٠ وكانت حامية البردية تتألف من خليط من الالمان والايطاليين ٠

وكان الاستعداد لهذا الهجوم واضحاً تمام الوضوح ٠ فقد مد الخط الحديدي مسافة ٧٥

.ميلاً غربي مرسى مطروح . كما مدت الانابيب من الاسكندرية ، واختزنت مؤن زنتها ثلاثون الف طن تقريباً ، من الوقود ومواد الطعام ، في مناطق امامية قبل بداية المعركة . (وكانت هذه الكمية من المؤن تكفي لازالة الفرق بين الكميات المخصصة للاستهلاك والكميات التي تعطى فعلاً لمدة اسبوع) . وكان الاسطول وسلاح الطيران يواصلان من البر والبحر ، ضرب خطوط امدادات العدو . وقد تجمعت لدى البريطانيين معلومات دقيقة عن استعدادات العدو عند مراكزه ، بفضل سلاح الطيران ، ولكن الالمان لم يكونوا يدرون شيئاً عن حركات الاخفاء والتمويه التي يقوم بها البريطانيون ، ومن هنا كانت المفاجأة تامة موفقة .

ولقد كانت المعركة التالية حامية الوطيس . وكان الفريقان يحاربان في بسالة ، وفي استماتة اليأس . كان جنودنا يحاربون بروح عالية ، تجرفهم الرغبة العارمة في النصر ، ولا اذكر انني رأيت مثل هذه الروح القوية منذ المعارك النهائية للحرب العظمى الاولى .

وانني لازلت اذكر تلك الكلمة التي فاه بها عريف اسكتلندي جريح ، وقد ثنى ساقه وراح يشير الى بندقيته وهو يلوح بها وكأنها عصا . لقد كانت كلمته تلك : اعطني دبابة ... لقد انجزنا ذلك تماماً ياسيدي ، اننا نقذف بهم الى الجحيم » .

لقد كان ذلك الجريح على بعد مائة يارد فحسب من السيارة التي كان الجنرال نوري يمتطيها والذي تخلى عن مقر قيادته في نفس الوقت الذي استولى فيه جنود نيوزيلندا على مقر قيادة الفيلق الافريقي (الالماني) .

لقد كانت معركة عنيفة سريعة الحركات تطايرت فيها الرمال ، وانعقدت في سمائها سحب الدخان ، صاعدة من القنابل المتفجرة هنا وهناك ، ومن الدبابات التي تحطمت . وكانت الرؤية متعذرة ، وحتى أن المرء لم يكن يدري ماذا يجري أمامه على مسيرة ميل واحد !

وكان من الصعب ايضاً ان يلم المرء بالوضع ، من الخرائط التي كانت تنشر ساعة فساعة . وقد اتاحت الصدف هنا ظهور بعض الابطال ومنهم «كامبل» الذي قاد رتلاً من الدبابات عند سيدي رق وكان يركب سيارة مكشوفة وقد ظفر بوسام صليب فكتوريا تقديراً لشجاعته ، بينما كان هناك المئات ممن ساهموا في الظفر ، لم يذكر لهم شأن .

فمن منا مثلاً قد سمع عن مغامرة الفريق «دنس ريد» قائد اللواء الهندي الذي تقدم من جغبوب ، فاحتل «جيالو» بمفرده ، وأسر ستين ضابطاً ايطالياً وهم على مائدة الغذاء بينما لم يكن يحمل سوى مسدس ؟ .

وكانت «سيدي رزق» قلب المعركة ، كما كانت هي الطريق الرئيسي الى طبرق فهذه المنطقة صعبة قاسية للغاية . فدبابة تحارب دبابة ، ورجل يحارب رجلاً !

ومن الغريب أن رومل قام بهجوم اخترق فيه الحدود عند «بير شفرزن» وذلك عصر يوم ٢٤ تشرين الثاني .

فلماذا تخلى رومل فجأة عن المعركة الرئيسية ، واندفع بقواته الى الشرق ؟ هل كانت لديه خطة ؟ أم انه كان يذر الرماد في العيون ؟ هل كانت ضربته هذه ضربة معلم ؟ أم كانت مغامرة يائسة ؟ .

لقد تناقش في هذا الامر كثيرون من القادة العسكريين ، وكان من بين هؤلاء الفريق فولر واللفتننت جنرال السر جفرد مارتل . وقد خرجوا جميعاً من هذه المناقشات بنتائج متغايرة تماماً ، ولكنهم جميعاً اتفقوا على تقدير رومل بوصفه قائداً عسكرياً !

ولنا ان نتساءل بعد ذلك لماذا لم تشعل الدبابات الالمانية نيرانها في مستودعي الوقود الرئيسيين لقواتنا ، وقد كان أحدهما على مدى ١٥ ميلاً جنوب شرقي بيرغوبي ؟ والآخر على ١٥ ميلا جنوب شرقي قبر صالح ؟ وذلك على الرغم من أن الالمان كانوا على مدى ميل او ميلين من هذين المستودعين ؟ ولو قدر للالمان أن يشعلوا النيران في هذين المستودعين ، لتعطلت الفرقة النيوزيلندية ، ولانسحب الفيلق الثلاثون من سيدي رزق ، اذ لايبقى لحراسة ذينك المستودعين غير لواء الحرس .

والاجابة عن هذا السؤال الاخير ممكنة ، لأنها سهلة يسيرة . فعلى الرغم من ان مساحة كل من المستودعين كانت تبلغ ستة أميال مربعة فان الالمان لم يعرفوا مكانها

ولقد ابدى كل من الجنرالين : بايرلاين وفون رافنشتين ، دهشته حين علما بمكان هذين المستودعين . وقالا : لو كنا نعلم شيئاً عن هذه المستودعات لكسبنا المعركة . اما بالنسبة للسؤال الاول فان الجنرال باير لاين كان يعرف تماماً مادار في خلد رومل .

رومل والاستيلاء على طبرق

فقد كان رومل مايزال يصر على الاستيلاء على طبرق ، ولكنه لايستطيع ذلك في الوقت الذي كانت تهاجمه فيه القوات البريطانية . ولقد فوجىء رومل مفاجأة غير سارة ،

حين تقدمت الفرقة النيوزيلندية في طريق كابوتزو · ولو أن روميل ركز كل قواه ضد هذه الفرقة لحطمها بلا شك ، ولفتح الطريق من جديد الى مراكزه على الحدود · وبذلك ينفسح الوقت أمام الفرقة السابعة لتنظيم صفوفها · وفي أثناء ذلك كانت الفرقة السبعون على جناحه · ولو انه استدار بالفرقة السابعة المدرعة الى جنوب شرقي سيدي رزق ، لأدى ذلك الى ان تنضم الفرقة النيوزيلندية الى الفرقة السبعين · ولو انه آثر السلامة وعاد الى الغزالة ، لكان ذلك معناه ان يتخلى عن الحاميات التي رابطت على الحدود ، وعلى مخازن المؤن ومستودعات البترول على طول الساحل · والحق ان قوة روميل كانت تتركز في فرقتيه المدرعتين ·

ولكن اليس هنالك من سبيل لاستخدام هاتين الفرقتين ، لا لكي يخرج من موقف حرج أو مأزق أو اشعال نيران معركة حامية الوطيس حسب ، ولكن ليستعيد قوته ومبادأته من جديد ، وليحيل هزيمته الى نصر بسحر ساحر وفي ضربة واحدة ؟ ·

لقد اعتزم روميل ذلك ، اعني ان يتجه مرة واحدة نحو الشرق ، نحو خطوطنا الخلفية فيقطع خطوط مواصلاتنا ، وحينئذ يكون على الجنرال كننغهام ان ينسحب الى مراكزه الاصلية ، وبذلك يكون روميل قد تأخر في هجومه على طبرق بضعة ايام ، ولقد التفت روميل الى الجنرال فون رافنشتين بعد ان اصدر اليه اوامره وقال له :

«أمامك فرصة لانهاء هذه الحملة الليلة !» · وكان على فون رافنشتين ان يقوم بالهجوم على رأس الفرقة الحادية والعشرين المدرعة ، فتبرق هذه الفرقة وسط الاسلاك الشائكة الممتدة على الحدود ، «دون ان تلتفت يمنة أو يسرة» ثم بعد ذلك تميل الى اليسار حتى البحر عن طريق السلوم · وفي اثناء ذلك تقوم مجموعة من المقاتلين مؤلفة من فوج من المدرعات ، وسرية من الدبابات ، بهجوم على مقر القيادة العليا للجنرال كننغهام في مدالينا · كما تقوم مجموعة اخرى من الفرقة الخامسة عشر المدرعة فتواصل سيرها بان تهبط الهضبة الواقعة على الحدود ، وتستولي على كميات هائلة من البترول · ولو كان الطريق خالياً بين هذه الهضبة وبين الاسكندرية ، لانطلقت الفرقة الحادية والعشرون المدرعة قدما نحو مصر · ولكن روميل استبعد ان تكون هذه الشقة خالية من قوات حربية ، وكان مصيباً في ذلك · ولو فعل ذلك روميل لأدى هنا الى اضطراب وارتباك في صفوف الجيش ، ولاختلط الحابل بالنابل ، حين يرتد الجيش الثامن الى مراكزه الاصلية ·

والحقيقة انه لم يكن عند حافة الهضبة ووراء حقل من الالغام غير ، أحد الوية الفرقة الرابعة الهندية ، ولم يكن وراء هذا اللواء الا فرقة جنوب افريقيا الثانية ، وهي مؤلفة من

جنود لم يتدربوا قط وليس لديهم الاستعداد الحربي الكافي ، بل انهم لم يروا اطلاقاً نارياً واحداً ٠ وكان أقرب لواء من ألوية هذه الفرقة ، في مرسى مطروح !

لايستطيع انسان ان يقول : بأن هذه الخطة التي صممها رومل في معمعة القتال ، ليست خطة مبنية على الجرأة والمخاطرة ٠ فلماذا فشلت اذن ؟ والجواب ان هذه الخطة قد نجحت ، ولكن الى حد ما ٠ ففي ٢٣ تشرين الثاني رغب الجنرال كننغهام في انهاء هذه المعركة : وكان مما لاشك فيه انه سيفعل ذلك في الليلة التالية ، ولولا ان طار اليه من القاهرة الجنرال اوكنلك ، وحال دون ذلك ٠ وقد جاء في رسالة كتبها الجنرال اوكنلك في ليلة ٢٤ تشرين الثاني في القيادة العليا للجيش الثامن ، بعد ان قدر خطورة الاستمرار في القتال : «ان المرحلة الثانية التي ينبغي ان نقوم بها ، هي ان نواصل هجومنا بكل مافي وسعنا من قوة ، وان هذا الهجوم لينطوي على كثير من المخاطر ، ولكن يجب ان نتقبلها بصدر رحب ٠ وعلى ذلك فستواصلون الهجوم على العدو دون هوادة وبلا شفقة ، مستعينين بكل ما لدينا من موارد، حتى آخر دبابة» ٠

ولقد علق الجنرال فولر على هذا الامر الذي اصدره اوكنلك فقال : انه مثل رفيع عال، لما للقائد من نفوذ وتأثير في الاعمال العسكرية ٠»

وعلى العكس من هذا تماماً، ما حدث لرومل، فقد عطله واعاقه عن العمليات العسكرية ضابط من مرؤوسيه ٠ فلقد كان رومل كعادته في الخطوط الامامية للمعركة، فارسل الى الجنرال فون رافنشتين ظهر يوم ٢٥ تشرين الثاني، وهو مرابط وراء الحلفاية ومعه عشرون أو ثلاثون دبابة، هي البقية الباقية من دباباته الستين، طالباً منه ان يستعد للهجوم على مصر ٠ غير انه في الساعة الثانية مساء تلقي رسالة لاسلكية تقول : «كل الاوامر التي صدرت اليك، قد الغيت وعلى الفرقة المدرعة الحادية والعشرين ان تقتحم الخطوط الهندية في اتجاه البردية» ٠

ولقد ارتاب فون رافنشتين في قدرته على خرق الخطوط الهندية، وخاصة بعد ان قام بهجومين فاشلين بل غير ضروريين في صبيحة اليوم التالي وفي عصره، على اللواء الهندي السابع الذي رابط وراء حقول من الالغام في سيدي عمر ٠ ولكن فون رافنشتين عاد فأرسل ضابطاً على رأس رتل من السيارات الثقيلة، وهو يأمل ان يوهم بها البريطانيين في الظلام، فيظنوا بانها دبابات، وكانت مهمة هذا الرتل احداث ثغرة بين السلوم وكابوتزو، وبعدها تنطلق بقية الفرقة ٠ وفي صبيحة يوم ٢٦ تشرين الثاني كان فون رافنشتين في البردية ٠ وهنالك وجد رومل جالساً على مقعد في سيارته مستغرقاً في النوم !

ومال فون رافنشتين على رومل وقال له : «ياسيدي الجنرال انني سعيد حين اخبرك انني وفرقتي ها هنا !»

فانفجر رومل صارخاً : «ماذا تعني بقولك انك هنا ؟! ماذا تصنع هنا ؟ الم اصدر اليك اوامري بالاستعداد للهجوم من حلفاية في اتجاه مصر ؟!»
فأخرج فون رافنشتين نسخة من البرقية التي تسلمها ٠

فصرخ رومل قائلاً : «هذه فرية ! ان هذا أمر قد اصدره البريطانيون ٠ لابد انهم قد عرفوا الشفرة التي نتراسل بها !»

والحقيقة ان هذه الرسالة كانت من اللفتنانت ـ كولونل فستفال الذي اصبح فيا بعد رئيساً لهيئة اركان حرب الفيلد مارشال فون رونشتدت، ولكنه لم يكن في ذلك الحين إلا أحد الضباط بالقرب من طبرق ٠ ولقد رأى فستفال كل التقارير التي تأتي بها طائرات الاستكشاف الالمانية، فأدرك أن خطة رومل للهجوم مستحيلة التنفيذ، فألغى هذا الأمر على مسؤوليته الخاصة !

وكان رومل انساناً عظيماً فلم يثر ولم يغضب، وانما هنأه فيا بعد وقال : «لقد احسنت ٠ انني مدين لك بهذا الجميل !»

وفي اثناء ذلك كانت صيحات الاستغاثة صادرة من الفرقة الالمانية الخفيفة التسعين، وهي تحارب حرب اليائس المستميت ضد الفرقة النيوزيلندية، وتحاول جاهدة أن تحول بينها وبين بلوغ سيدي رزق وفي ليلة ٢٦ ـ٢٧ آب سقطت سيدي رزق في أيدي النيوزيلنديين، وفي عصر ذلك اليوم سقطت الدودة في يد الفرقة السبعين، ولأول مرة التقى الجيش الثامن بحامية طبرق ٠ وفي السابع والعشرين من شهر تشرين الثاني التقط الجنرال ريتشي الذي خلف الجنرال كننغهام برقية تقول ان الفرقتين الالمانيتين المدرعتين قد ارتدتا هاربتين !

وبذلك تكون الحملة التي اتجهت شرقاً قد انتهت ٠

ولم تحدث هذه الحملة إلا خسائر قليلة، وان كانت قد اوقعت الرعب وادخلت اليأس في نفوس جنودنا في المناطق الخلفية ٠ حتى ليقال : أن بعض سائقي السيارات لم يرفعوا ايديهم عن عجلة القيادة إلا عندما بلغوا مصر، وربما كان ذلك مبالغاً فيه، ولكن مع ذلك فالسيارات ما تزال تجري دون انقطاع رائحة غادية في مرسى مطروح ٠ ولقد مني رومل بالفشل في استعادة المبادأة التي دأب عليها ٠ ولما كان رومل قد خسر الكثير من سلاحه، وخاصة عند سيدي عمر

بأزاء مدفعية الفرقة الهندية الرابعة، فان حالته قد ساءت عما كانت عليه من قبل . ويعترف الجنرال اوكلنك صراحة بأن مباغته رومل بهذا الهجوم العام «كان صدمة قاسية» .

ولو قدر لهذا الهجوم الذي شنه البريطانيون أن ينجح، لاعتبره المؤرخون العسكريون تحفة حربية حقاً ..

الفصل السادس عشر

الانكليز يؤدون التحية لرومل

يحاول أسر كنغهام ـ الرمال تبتلع البترول

حينما يخلو الانسان الى نفسه ، ويعود بذاكرته الى تلك المعارك الحامية الوطيس بيننا وبين الالمان ، يجد ان هناك لحظات غاية في الامتاع حقاً ، وان هناك حوادث اغرب من الخيال والخرافة ، ولكنها وقعت فعلاً ٠

ففي مساء اليوم الرابع والعشرين من شهر تشرين الثاني ، عبر رومل الاسلاك الشائكة على الحدود في سيارته البريطانية المدرعة ، ومعه الجنرالان : باير لاين ، وكروفل ٠ كان رومل يركب سيارة بريطانية مصفحة تسمى «الماموث» وحين حاولوا العودة ، كان الليل قد أرخى سدوله ، وصعب عليهم ان يهتدوا الى تلك الثغرة التي نفذوا منها بين حقول الالغام ٠ واذكر انني نفضت يدي ذات ليلة من محاولة العثور على ثغرة بين نطاق الالغام، وآثرت ان انام نوماً هادئاً في سيارتي حتى اتبين طريقي عند مطلع الشمس، ولكن كم كانت دهشتي حين الفيت العجلتين الاماميتين للسيارة قد غاصتا في حقول الالغام !

ولكن رومل وزميليه لم يتمكنا من النوم الهادىء ، كما فعلت وسط الجنود الهنود ، وانما انطلقوا هاربين دون ان يقف في طريقهم أحد عند اول شعاع الفجر ٠

وقد حدث بعد ظهر اليوم السابق ، ان ذهب رومل الى أحد المستشفيات العسكرية وحين كان يتنقل بين اسرة المرضى ، لاحظ ان المستشفى مازال في ايد بريطانية وان الجنود البريطانيين هم الذين يتولون حراسته ورعايته ، بل لاحظ ان احد الاطباء البريطانيين العسكريين هو الذي كان يقوم بارشاده الى حجرات المرضى ، ولعل هذا الطبيب قد ظن ان رومل احد القواد البولنديين ، وكان الجرحى الالمان عندما يرون رومل يعتدلون في فراشهم ويحيونه ، وهنا همس رومل : «اظن ان من الافضل ان نبرح هذا المكان» وعندما قفز رومل في سيارته البريطانية المدرعة ، حياه الجنود البريطانيون !

ومن طريف ما ذكره لي الجنرال فون رافنشتين قوله : «ان رومل كثيراً ماحاول ، بل أصر على ان يأسر الجنرال كننغهام وهيئة أركان حربه . وكثيراً ماقال لي : ليس لدي متسع من الوقت لاسر أحد من الجنود ! وفي الحقيقة انني في كثير من الاحيان حين اتوغل بين الوحدات البريطانية وأرى الجنود يستسلمون ، فانني اصرخ قائلاً : ابتعدوا ! انني لاعبأ بكم ! فماذا عساني ان اصنع بالاسرى وما حاجتي اليهم ؟ » .

وأذكر انني كنت مع رومل فوق هضبة مرتفعة شرقي الاسلاك الشائكة ، عندما رأينا من خلال نواظيرنا ، عدداً من الضباط ومعهم خرائطهم . وهنا صرخ رومل : هذا هو الجنرال كننغهام ! اذهب وأت بهم ! وعندما حاولت ان آتي بدبابتين وسيارة مصفحة ، كان رومل قد نفذ صبره وقال : لاعليك ! سأذهب بنفسي وآتي بهم . وقفز رومل في سيارته ، وكان قد رفع منظاره فوق جبهته ، وراح يصرخ وينادي الجنود . ثم انطلق بثلاث سيارات غير مدرعة وعشرين دراجة بخارية . ولفتهم جميعاً سحابة من الرمال المتطايرة . سواء كان ذلك الضابط الكبير هو الجنرال كننغهام أم كان غيره ، فانه ولا شك حين رآهم ، والفى نفسه غير مسلح وليس له سند من جنود ، قفز الى سيارته وهو وهيئة اركان حربه ، وانطلقوا هاربين !» .

ولا زلت أجهل حتى الآن ماحل بتلك الجماعة المحاربة من الفرقة المدرعة الخامسة عشرة التي افترض انها تهاجم مادلينا . فالجنرال نيومن سلكوف المتولد من أم اسكتلندية ، والذي قاد تلك الفرقة فيما بعد كان قد قتل ولم يعرف أحد بمقتله حتى بعد مرور عشرة ايام . فقد كانت قيادة الجيش الثامن في ذلك الوقت منهمكة في تنظيم قوة دفاعية من الدبابات ، ولكنها لم تحصل على المؤونة الكافية ، وبذلك احبط الجزء المهم من الخطة التي وضعها الجيش الثامن آنذاك للهجوم . وبعد ذلك استؤنف القتال العنيف حول سيدي رزق .

وكان من الممكن ان تتحسن الاحوال الحربية اذا ماهب اللواء الاول من فرقة جنوب

افريقيا الاولى ، الى نجدة الفرقة النيوزيلندية ، الحديثة العهد بالصحراء والحرب فيها ، ومن أجل هذا حطم الالمان تماماً اللواء الخامس من ألوية هذه الفرقة ، عندما قام رومل بهجومه الممتاز المتقن قبل ذلك بأسبوع ٠

كان الفريق «بيانار» وهو من الضباط الذين اشتركوا في الحرب الاولى وعهدت اليه في هذا الحرب قيادة الفرقة النيوزيلندية ، كان هذا القائد متحرقاً للقيام بهجوم ماحق ضد الالمان ، غير انه خاف مغبة السقوط في ايدي الاعداء ابان المعركة ، ولذلك كان تقدمه بطيئاً هادئاً ٠ وعندما بلغت الفرقتان الالمانيتان المدرعتان الخامسة عشرة والحادية والعشرون مكان المعركة ، شنتا هجوماً عنيفاً ضد الفرقة الانكليزية السابعة المدرعة في مداخل سيدي رزق ، واذْ ذاك وجد الجنرال فرايبورغ قائد القوات النيوزيلندية نفسه غير قادر على الصمود فارتد عن سيدي رزق ٠

ولكن طبرق عـزلت في أول كانـون اول مرة اخرى ٠ ورغم ذلــك وصـل الجنرالان : ريتشي ، واوكنلك ، الى مداليـنا حيث مقر قيادة القائد النيوزيلندي ٠ واذ ادركا بحق ان رومل قد تحطمت خطوطه ، اعتزما مواصلة الهجوم عليه ، وارهاقه ماالستطاعا الى ذلك سبيلاً !

وقد حاول رومل محاولتين اخريتين : احداهما حين اراد ان يبلغ حامياته على الحدود ٠ فارسل رتلين مدرعين الى الشرق ، سار احدهما على طول الطريق الساحلي الى أن صده اللواء النيوزيلاندي ، وسار على طول طريق كابوتزو ، حتى انهزم أمام اللواء الهندي الخامس ٠

اما المحاولة الاخرى فكانت في صبيحة اليوم التالي أي في الرابع من كانون الأول ، حيث شن رومل هجوماً عنيفاً على خطوط طبرق ، وكانت تشد ازره في هذا الهجوم الهائل مدافع من عيار ٨٨ مليمتراً ٠ وتقدم رومل حتى غدا على مدى قريب جداً ، وكاد ان ينجح في هجومه ، ولو انه واصل هجومه على طبرق في اليوم التالي لبلغ مايهدف اليه ، وخاصة بعد ان احدث ثغرات عميقة في خطوطنا ومراكزنا ٠ ولكن رومل ادرك في تلك الليلة ان الجيش الثامن على وشك ان يعاود هجومه ثانية فبدأ ينسحب !

على ان انسحاب رومل لم يكن هزيمة مطلقاً ٠ فالدفاع العنيف الذي أظهره الايطاليون في حصن الغوبي والذي أثار الدهشة ، جاء دليلاً قوياً على ان رومل كان ينسحب ويقاتل في براعة وسهولة ٠ فلقد كان الجيش الالماني ينسحب تحت ستار كثيف من المدافع المضادة للدبابات ، وكان رومل يقود الانسحاب بمهارة ومقدرة مدهشة ، وكان يقاوم كل محاولة

للالتفاف حوله ، وكلما سنحت له فرصة لضرب العدو ، كان يتوقف أو يعود ليسدد اليه الضربات في قسوة ومهارة . ولا زلت أتذكر ذلك المساء القاتم من اليوم الخامس عشر من كانون الاول . عندما وقفت الى جانب إحدى سيارات اللواء الهندي الخامس في «علم الحازا» ، وسمعت آخر مخابرة هاتفية جاءت من لدن ضابط أحد الأفواج الانكليز والتي يقول فيها ان الدبابات الألمانية قد لاحقت فوجه فأضنته جرياً ومطاردة .

وكان رومل يطارد من كل مركز يريد التحصن فيه ، أو يحاول الوقوف عنده . وكنا نفوقه في ذلك الحين عدداً في الدبابات ووقوداً ، وخاصة بعد ان دمرت الكتيبة الافريقية الرابعة المدرعة ، أحد مستودعاته للبترول في الغوبي .

ومن ثم فلم يكن أمام رومل إذن إلا أن يحارب حرباً يعطل بها سيرنا ويكتسب بها الوقت . وفي الحادي عشر من شهر كانون الثاني احتمى رومل في مركز بالغ الحصانة والمنعة عند العقيلة ، حيث امتدت السلاسل الصخرية الى الجنوب خمسين ميلاً ، وحينئذ لم يبق لدى الجيش الثامن شيء يستطيع به ان يخرج رومل من هذا المركز الحصين !

ان هؤلاء الذين يرقبون الحرب في قلق من بعيد ، لايمكن ان يدركوا سر هذه التغيرات التي تعتري القتال ، تلك الفرص التي تسنح خلاله ، وكل مايعرفونه هو اليأس الذي يعتريهم ، وخيبة الأمل التي تنتابهم ، فاذا ماجاء النصر وانهارت مقاومة رومل في برقة ، فانهم لايستطيعون ان يدركوا ولا ان يقدروا اصرار رومل ذي القلب الصلب ، أو العزم الذي كان سبباً للنجاح في النهاية ! وقد كتب العقيد كارفر من الفرقة السابعة المدرعة يقول :

«واما هؤلاء الذين ساهموا في القتال ، فسيظل في نفوسهم ذلك الاحساس المرير ، فهؤلاء الذين حاربو بالدبابات يلعنون من بعثوا بهم الى القتال بدبابات واهنة ضعيفة الدروع ينقصها العتاد ، فتهوى امام دبابات العدو القوية . أما مشاتنا الذين كانوا يحملون مدافع مضادة للدبابات ، ويحاولون بها حماية دباباتنا ضد دبابات العدو ، فانهم ينظرون في حسرة حين يفشلون في القيام بهذه المهمة » .

وأستطيع من جانبي ان اضيف الى ذلك حقيقة اخرى ، ورغم اني ذكرتها في تقرير الجنرال اوكنلك الا ان أحداً من الذين لم يحاربوا في الصحراء لايستطيعون ان يدركوا الى أي حد يمكن ان تؤدي الاشياء البسيطة التافهة الى الهزيمة في الحرب . فالذين ارسلوا جنودنا ليقاتلوا ، ثم ارسلوا اليهم صفائح من البترول سعة كل منها اربعة غالونات ، هم المسئولون عن ذلك تماماً . ولقد قدر الجنرال اوكنلك ضياع ٣٠٪ من البترول بين المستودعات وبين استهلاك

الجنود . فاذا مانحن قدرنا ان ناقلات البترول تحتاج الى ١٨٠ الف غالون في اليوم ، فان مانخسره من البترول لاشك في انه يؤلف كميات هائلة . كما اننا لانستطيع ان نحصي عدد الدبابات التي تحطمت ، والجنود الذين قتلوا أو اسروا من جراء نقص البترول . لاشك ان هذه الصفيحة التي تتسع لاربعة غالونات ، قد ادت الى عرقلة كبيرة في وسائل النقل .

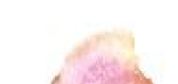
ولطالما تساءل الجنود : «ماذا نصنع بالصفيحة المثقوبة مادام الخزان ممتلئاً ؟!» وكان جواب الجنود الانكليز على مثل هذا التساؤل في الغالب قولهم «اقذف بها الى الطريق» . فكم من ملايين الغالونات ابتلعتها رمال الصحراء !

وحتى بعد ان عدت الى الهند في بداية سنة ١٩٤٢ ، شاهدت معملاً خارج مدينة القاهرة ، مازال منهمكاً في اعادة صنع تلك الصفائح . وقد يعود ذلك الاهتمام بصنع الصفائح الى الاشاعة التي راجت عن ان أحد موظفي وزارة التموين ، قد طولب بتسليم بضعة ملايين من تلك الصفائح ، فأصر على ان ينفذ ذلك الأمر وان تسلم الصفائح فعلاً !

وفي اثناء هذا الاضطراب وبتفوق في عدد الجنود المسلحين تسليحاً سيئاً ، وبدبابات لايعول عليها ، وليس لدينا القدرة الكافية على اصلاحها ، وبمدافع من عيار ٢٥ رطلاً ارغمنا على استخدامها ، لعدم وجود مدافع مضادة للدبابات ، لنقف في وجهه الدبابات الالمانية المدرعة ، وبفرقة كاملة لم تدرب قط على الحرب في الصحراء ، وبقوة من الجنود تكبر قوة العدو ، بكل ذلك تمكن الجيش الثامن من هزيمة رومل واخراجه من برقة . ولو كانت لدى الجيش الثامن مائة دبابة شيرمان لحطم العدو ، ولانتهت الحرب في شمال افريقيا . ولعل البقية الباقية من جنود الجيش الثامن لايستطيعون ان يحملوا الرقم ٨ ، ذلك ان الجيش الثامن لم يولد بحق ، ولم يقفز الى الوجود الا في ٢٣ تشرين الاول سنة ١٩٤٢ ، في معركة العلمين ، وعلى اي حال ففي استطاعتهم ان يفخروا بأنهم قد حاربوا تحت لوائه في ايام من اعظم ايامه !

واذا كانت لرومل مواهب وصفات ممتازة كثيرة ، فلاشك في ان مرونته كانت من أعظم صفاته ومزاياه . فهو كتلك اللعبة التي يلهو بها الاطفال ، لاتكاد تضغط عليها بيدك وتتركها ، حتى تستوي واقفة من جديد .

ففي الحادي عشر من كانون الثاني سنة ١٩٤٢ ، كان رومل مايزال يئن من جراحه عند العقيلة ، وفي اليوم نفسه استولى جنود جنوب افريقيا على السلوم ، على مدى ٣٠٠ ميل الى الشرق . وفي ١٧ كانون الثاني استسلمت حامية حلفاية ، بعد ان قطعت عنها امدادات المياه ،



وبعد ان تضور افرادها جوعاً . كما اخليت المعاقل الألمانية على الحدود بخسائر طفيفة ، وقد تأكد الألمان من مصيرهم بعد ان شاهدوا رومل وقد بدأ ينسحب .

وحتى ذلك الوقت كان قد تحطم ثلث جنود المحور ، وقد نجا مايقرب من نصف من جنود «الفيلق الافريقي» من الموت أو من الاسر أو من الاصابة بجروح خطيرة أما الروح المعنوية للبقية من الفيلق الأفريقي فلا يمكن أن يقال بأنها عالية جداً ،أما فيما يختص بالايطاليين فأذا كانت لديهم اية روح معنوية فلا بد انها قد هبطت الى الصفر أثناء الارتداد الطويل من طبرق . فكثيراً ماتشكي الايطاليون من أن الألمان قد وضعوا أيديهم على كل وسائل النقل . ولقد سحب رومل الفرقتين المدرعتين أو ماتبقى منهما ليعيد تنظيمهما وليزودهما بالمعدات والعتاد . ومن دبابات رومل الأربعمائة تحطمت ٣٨٦ دبابة، وبدت حطامها السوداء المحترقة متناثرة في الصحراء ، ومن طائرات رومل الألف اسقطت أو حطمت على الارض ٨٠٠ طائرة ، ولم يكن يبدو ممكناً تزويده باسراب اخرى من الطائرات الا بعد حين .

كذلك كان يبدو ان كل ماكان يأمل فيه رومل في تلك الفترة ، هو ان يقف عند العقيلة الى أن يخرجه منها الجيش الثامن ، أو يرغم على الانسحاب لنقص في المؤن والامدادات . كما ادرك الجنرال اوكنلك هو الآخر انه لن يستطيع التغلب على المشاكل الادارية ، وانه لن يتمكن من تركيز جنوده ليعاود الهجوم مرة اخرى إلا في فترة غايتها شهر شباط .

وفي ٢١ كانون الثاني قام رومل بهجوم قوي .

«لقد حدث مالم يكن محتملاً قط : وبدأت قوات المحور تتقدم دون انذار سابق» .

وربما كان رومل قد شن هذا الهجوم ليجس النبض ، وليتلمس مواطن القوة والضعف في عدوه ، كما فعل ذلك في ٣١ آذار سنة ١٩٤١ ، فهي اذن حركة واسعة النطاق . ولكن هذه الحركة لايقوم بها الا رجل قوي من الناحية المعنوية والجسمية ايضاً . ذلك لان رومل ، كقادتنا ، قد اشترك في حرب لم يقف القتال خلالها في شهرين كاملين ،وهو مثلهم ايضاً ،كان ينام في سيارته أو بالقرب منها ، دون ان يحظى بالهدوء اكثر من ساعة أو ساعتين . وهو مثلهم ، قد أكل ماستطاع وما شاء من الطعام في الوقت الذي يشاء . وهو مثلهم قد عانى البرد القارس والامطار والعواصف الرملية التي تحجب الرؤية وتعمي العيون . بل ان رومل كان اكثر منهم نشاطاً ، فهو لايكف عن التنقل بسيارته بين مختلف مراكزه على طول جبهة القتال .

ولم يداخل رومل الخوف أو الفزع ، وهو يتقهقر امام البريطانيين ، ولما بلغ العقيلة ،

كان مرهقاً ، وكان السير قد اضنى جنوده · ولكنه لم يشأ ان يحدد لجنود الفيلق الافريقي اي هدف · بل اعطاهم مؤونة ثلاثة ايام ، وكان عليهم ان يتبعوه بأقصى مافي طوقهم من سرعة ، وكان رومل يزحف بما لايزيد على مائة دبابة بعضها خفيف ، دون ان تغطيها بحق ، اسراب من الطائرات المقاتلة ، وكان يسير على هيئة ثلاثة ارتال ·

ويقول الجنرال اوكنلك : أن رومل ، كما تعودنا منه ، قد قام بسرعة وببراعة هائلة بأنجح هجوم قام به · فلقد تحول الهجوم الاستكشافي ، اوجس النبض ، الى هجوم حقيقي · فالفرقة الاولى المدرعة التي حلت محل «جرذان الصحراء» من الفرقة السابعة ، كانت حديثة العهد بالصحراء وبالحرب فيها · ففقدت مائة دبابة من دباباتها المائة والخمسين ، كما فقدت الكثير من مدافعها ، فاختل بذلك توازن الجيش الثامن !

وفي ٧ شباط عادت قوات رومل ، فوصلت الخط مابين الغزالة وبير حكيم ، دون أن تخسر في ذلك أكثر من ثلاثين دبابة · لقد كان ذلك من رومل جرأة ومخاطرة وبراعة في فن القيادة !

كوارث تهدد البريطانيين

وبدأ البارومتر يسجل هبوط درجات البريطانيين في برقة ، وفضلاً عن ذلك ، أخذت الرياح الباردة تهب من الشرق الأقصى أيضاً ، فهنالك نسمات تدل على وقوع كارثة كبرى · فاليابانيون يخترقون بسرعة هائلة «الاحراش المنيعة» في الملايو ··· وحتى قلعة سنغافورة أصبحت هي الاخرى على وشك أن يهاجمها اليابانيون من ذلك الجانب الذي لايمكن أن تهاجم منه · وفي بورما ارغمت فرقتان على الانسحاب ، ان وجدتا الى ذلك سبيلا ! ·

وهنا أخذت القيادة الالمانية العليا تختبر مدى مالمالطة من مناعة وأهمية استراتيجية في البحر المتوسط · فالغارات الجوية لاتكف ولا تنقطع عن هذه الجزيرة ، وكانت نتيجة ذلك أن رومل لم يفقد طناً واحداً من امداداته خلال شهر كانون الثاني · وتمكنت الطائرات والغواصات الالمانية من سد المنطقة الوسطى من البحر الابيض المتوسط في وجه قوافلنا · كما تكبد الاسطول البريطاني خسائر جسيمة ، فلم يتبق للأميرال كننغهام الا بوارج ثلاث والا بعض المدمرات · أما سفينة الأميرال فقد استقرت في قعر البحر عند الاسكندرية ! ·

هذه الحوادث كان لها رد فعل طويل ····

فكما أن الجنرال ويفل طلب اليه أن يساهم في الحملة على اليونان ، وأن يأخذ من قواته في الصحراء ، وبذلك يضعف موقفه أمام المحور ، كذلك حيل بين الجنرال اوكنلك وبين تقوية جيشه ، فطلب اليه أن يقدم معاونات لشد أزر البريطانيين في الشرق الاقصى . ففي كانون الأول وقبل أن يطرد روميل من الغزالة ، سحبت الفرقة الثامنة عشرة من الشرق الأوسط لترحل الى الملايو ، فوصلت الى سنغافورة قبل استسلامها ، فدخل لواءان من الويتها الى المعسكرات اليابانية دون اطلاق رصاصة واحدة ، وأوقف على أثر ذلك ترحيل الفرقة الهندية السابعة عشرة ، وتكبدنا خسائر كبيرة في الدبابات والمقاتلات والمدافع .

ولما كان من المؤكد بأن مالطة ستسقط في ايدي الالمان ، مالم نؤمن مطاراتنا في برقة الغربية ، ونغطي الجزيرة ونحمي قوافلنا اليها باسراب من الطائرات ، فان الوزارة البريطانية قد اصرت أشد الاصرار على القيام بهجوم في أسرع وقت ممكن . فما هو اذن اسرع وقت ممكن ؟ ولقد كانت وجهة نظر رئيس الوزراء ان الهجوم «يجب ان يبدأ اليوم لاغداً» ولكن الجنرال اوكنلك كان يرى ان هذا الهجوم يجب ان يبدأ حينما توجد فرصة لنجاحه . ذلك ان الهجوم المبتسر ، قد يفضي الى تحطيم القوات التي تحاوله تحطيماً كبيراً منظماً ، وحينئذ تكون اية محاولة لأنقاذ مالطة مؤدية الى ضياع مصر ، والشرق الاوسط . فكل يوم يمر على مالطة دون ان تتدخل في اعمال نقل الامدادات الى روميل يضعف فرص نجاح الهجوم على روميل ، وبذلك تم الدائرة المفرغة !

وفي شباط وصلت الى طرابلس قافلة تحمل عدداً من الدبابات الى روميل .

وطال النقاش بين اوكنلك وبين لندن ، فاضطر السير ستافورد كريبس والجنرال ناي ، الى المجيء الى القاهرة مادام الجنرال اوكنلك غير قادر على ان يترك الشرق الاوسط ويسافر الى لندن . وافلح الجنرال اوكنلك في ان يقنعها بان قواته في الدبابات ، والطائرات اضعف بكثير من ان تقوم بأي هجوم عاجل ناجح .

ولكن تم الاتفاق على ان يكون الهجوم في شهر ايار . وفي اثناء ذلك وصلت الى روميل دبابات كثيرة ، حتى لاصبح من المشكوك فيه ان نفوقه نحن في عدد الدبابات . وعلى اي حال ، كانت الوزارة البريطانية قد اعتزمت انقاذ مالطة ، ولو ادى ذلك الى ضياع مصر . وصدرت الاوامر الى الجنرال اوكنلك بألا يتأخر في هجومه عن منتصف حزيران ، ولكن روميل بدأ الهجوم في ٢٧ أيار بدبابات تكاد تماثلنا في عددها ، وان كانت تفوقنا في قوتها ومتانتها ، وحتى ذلك الحين لم يستول الالمان على مطاراتنا في برقة الغربية ، ولم تسقط مالطة . ذلك لأن هتلر قد ارجأ غزوها من الجو ، ولكننا كدنا ان نفقد مصر الى حد بعيد ..

الفصل السابع عشر

على ابواب الاسكندرية بأثنتي عشرة دبابـة !

رومل يريد احتلال طبرق بأي ثمن ـ نقطة التحول في المعركـة

كانت الكارثـة التي وقعت في شهر حزيران سنـة ١٩٤٢ ، صدمـة هـائلة للرأي العـام البريطاني · ولعل شيئاً لم يهزه كما هزه سقوط طبرق ، وان كان مما لاشك فيه اننا لم نكن نهدف الى الاحتفاظ بها اذا ساءت الامور ·

وروعت هذه الصدمـة جنوب افريقيـا ، حين استسلم جنودهـا ، كما روعت استراليـا · وحتى الجيش الثـامن الـذي ذاق طعم النصر في الايـام الاولى القليلـة ، لم يـدر هـو نفسـه كيف افلت الزمام من يده ·

ولكن أحداً لايعرف ان رومل كان على وشك ان ينهزم وان يستسلم !·

وقد صرح لي الجنرال بايرلاين فقال : كان منقلبنا الى اللواء المائـة والخمسين المرابـط في «غوط الحالب» · ولم نكن نعلم ان ذلـك اللواء كان يرابـط هنـاك · ولقـد كانت هجمتنـا الاولى فـاشلـة ، ولو اننـا لم نستولِ على هـذا اللواء في اليوم الاول من حزيران ، لكان من السـهـل على العدو بعد ذلك ان يستولي على الفيلق الافريقي كله · ففي مساء اليوم الثالث كنـا محـاصرين وكاد ينفدُ كل ماكان لدينا من البترول · وانها لمعجزة حقاً ان نتمكن في ذلـك الحين من الاتيـان بمواردنا ووقودنا عبر حقول الالغام !» ·

وقد كانت حقول الالغام هذه تمتد من الغزالة على الساحل الى بير حكيم على مدى ٤٠ ميلاً الى الجنوب في صميم الصحراء · وحقول الالغام وحدها لاتكفي لوقف الدبابات ، ذلك لان من الممكن شق طرق وسط هذه الحقول ، وإذن لم يكن بد من وجود دفاع وراء هذه الحقول · ولهذا فكر الجنرالان : اوكنلك وريتشي ، في انشاء سلسلة من المعاقل والحصون ، اولها عند الغزالة وآخرها عند بير حكيم · وقد احيطت هذه المعاقل بالاسلاك الشائكة والالغام ، واعدت للدفاع من كل الجهات ، فكانت بذلك حصوناً أو قلاعاً ، كما جهزت حامياتها بالمؤن لتتمكن من الاستمرار في القتال اذا ما حوصرت ، وزودت بمدفعية ممتازة في داخلها ·

وكانت لهذه القلاع مهمتان : احداهما حراسة حقول الالغام والحيلولة دون اختراقها من قبل الأعداء ، والاخرى ان تقوم هذه القلاع بما كانت تقوم به القلاع في العصور الوسطى ، اي تكون مراكز للمقاومة لابد للعدو من الالتقاء بها والتوقف لمقاتلتها ، والا اجتاحت جنوده ، وضربته من الخلف وقطعت طرق مواصلاته · وحينما يوجه العدو قواه نحو هذه الحصون ، تكون قواتنا الاخرى قد التحمت به والتفت حوله · وهكذا نستطيع اذا تيسر لنا استدراج العدو الى الميدان الذي يروق لنا أن نقوم بالهجوم عليه ، اذا واتتنا الظروف الملائمة ، وسيكون موضع «الغزالة» بالنسبة للجيش الثامن ، كميناء «سكابافلو» بالنسبة لمعركة بريطانيا البحرية ·

رومل يهدف الى احتلال طبرق

ولقد كان هدف رومل - كما أدرك الجنرال اوكنلك بحق - هو الاستيلاء على طبرق · فلن يجرؤ رومل على ان يتقدم الى مصر ، مالم يستولِ عليها : وكان عليه لكي يهاجم طبرق ان يختار بين امرين · اما ان يشق طريقه وسط حقول الالغام والحصون وينطلق الى طبرق ، واما ان يلتف حول حقول الالغام الممتدة من الغزالة الى بير حكيم ، ثم ينثني الى الشمال · واختار رومل الطريق الأخير · فكان على الفرق الايطالية المدرعة المسماة «اريتا» ان تستولي على بير حكيم في الليلة الاولى اذا أمكن ، وينطلق الفيلق الافريقي فيشق طريقه الى البحر · ولكي يستولي رومل على طبرق في اليوم الثالث ، كان عليه ان يهزم الجيش البريطاني ! وكان على الفرق الايطالية ان تحمي الجبهة ، وان تحول بيننا وبين الاتجاه غربي الغزالة ، أو حقول الالغام الممتدة من الغزالة الى بير حكيم · وكان على فرقة تريستا ان تشق لها طريقاً وسط حقول الالغام ، حيث يمتد طريق العبد · وكانت هذه الخطوة للاحتياط والتحرز ، كي يتسنى تقصير خطوط الامدادات اذا لم تسقط بير حكيم فوراً ·

ووراء حقول الالغام هذه كانت تقع قلعة اللواء المائة والخمسين ·

وقال لي الجنرال بايرلاين : «طالما اخبرت رومل ، بوصفي رئيساً لهيئة اركان حرب الفيلق الافريقي ، بانني غير مطمئن الى هذه الخطة ، واني أرى من المخاطرة البالغة ان نمضي هكذا دون ان نضرب بير حكيم ضربة قاضية · وكان رومل قد سألني قبل ستة اسابيع : ماذا كنت تستطيع ان تفعل لو كنت الجنرال ريتشي ؟ فأجبت قائلاً : كنت احتفظ بمراكزي الى الشرق بالقرب من العضم ، وارفض القتال في أول الأمر ·

فقال لي رومل : انت مجنون ؟ انهم لن يفعلوا ذلك قط ؟ » هذا رغم ان رومل نفسه ماكان ليصنع غير هذا بالذات !

ومضى بايرلاين فقال : «والحق ان استعدادات الجنرال ريتشي كانت ممتازة · فلقد فوجئنا مفاجأة هائلة بالدبابات الامريكية «جنرال غرانت» بمدافعها ذات عيار ٧٥ مليمتراً ، حتى لقد فقدت الفرقة الخامسة عشرة المدرعة مائة من دباباتها ، في أول يوم «وقد وجهت ضربة قاصمة الى الجنرال كوفل قائد الفيلق الافريقي ، فأجبر على الوقوف عند مواقع اللواء المائة والخمسين ، حيث اخذ هناك اسيراً · وجرح الجنرال جاسي رئيس هيئة اركان حرب رومل · واضطلع الجنرال «نهرنغ» بمهمة قيادة الفيلق الافريقي ، بينما أخذت أنا على عاتقي العمل الذي كان يقوم به الجنرال جاسي» ·

ولما فشلنا في الاستيلاء على بير حكيم ، واخفقنا في شق طريق لنا وسط الالغام ، طلبنا من رومل وتوسلنا اليه ان يكف عن هذه المعركة ، ولكنه لم يستمع لما قلناه له · ولقد كان ذلك ، فيما اذكر ، هو مساء ٣١ ايار وكان رومل في مركز بالغ الحرج ، اذ كانت ظهورنا الى حقول الالغام ، ولا طعام عندنا ولا ماء ولا بترول ، وكذلك لم يكن لدينا غير قليل من العتاد · وليس ثمة سبيل تسير فيه قوافلنا خلال الالغام · في حين عز علينا ان نأتي بامدادات من الجنوب لاستعصاء بير حكيم علينا ، يضاف الى هذا اننا كنا معرضين طول الوقت للغارات الجوية » ·

واختتم الجنرال باير لاين حديثه بقوله : «ولا شك اننا بعد أربع وعشرين ساعة اخرى ، سنضطر الى ان نلقي السلاح » ·

ولقد سمعت مثل هذه القصة تماماً بعد ذلك ببضعة ايام ، عندما كنت في أحد معسكرات الاعتقال · ففي اول يوم للهجوم لحق رومل باللواء الميكانيكي الهندي الثالث · ولقد تحطمت دبابة ضابط صديق لي ، فألقى بنفسه بين الاسرى الهنود بالقرب من مقر القيادة العليا

لروميل ، شرقي حقول الالغام . وكان روميل قد أحاط قواته بحلقة محكمة من بطاريات المدافع عيار ٨٨ مليمترا ليحول دون تقدم قواتنا ، وكان يحارب حرب اليأس ليستولي على قلعة اللواء المائة والخمسين ، كي يحصل على حاجته من الطعام والوقود . وفي اثناء ذلك كان الاسرى الهنود يتضورون جوعاً ويحترقون عطشاً ، وكانوا يقتتلون على قطرات الماء التي تعطى للجرحى . وكان من بين الاسرى المقدم ارشر ـ شي فطلب ان يقابل روميل وكم كانت دهشته حين ذهبوا به اليه . وكان يعرف بعض الكلمات الالمانية التي تمكنه من ان يدلي باحتجاجه الى روميل . فقال : «اذا لم يكن لدى الالمان من الطعام والماء مايكفي الاسرى ، فليس للالمان حق اذن في استبقائهم ، ومن الخير ان يردوهم الى الخطوط البريطانية» . وكان روميل معقولاً ولطيفاً إذ اجابه بقوله : «انك تنال من الماء مثل نصيب أي فرد في الفيلق الافريقي ومثل نصيبي انا تماماً ، فكل منا يحصل على نصف كوبة من الماء . وانني لأوافقك على اننا لانستطيع ان نستمر على هذا الحال . واذا لم تصل الينا الليلة قافلة تحمل الماء ، فانني سأستسلم للجنرال ريتشي . وانت تستطيع ان تحمل مني رسالة اليه ! » .

نقطة التحول في المعركة

ويبدو ان حالة روميل كانت قريبة من ذلك ، ولكن روميل لايستطيع مطلقاً ان يتصور ان يبلغ به الهوان الى حد ان يسعى الى الاسر بقدميه . ولكن الجنرال اوكنلك ، وهو في القاهرة ، ادرك قبل الجنرال ريتشي ، بان اسر الالمان للواء المائة والخمسين قد غير كل شيء ، وكتب اليه يقول : «انني مسرور حقاً حين اسمع منك ان موقفنا لايزال سليماً قوياً وآخذ في التحسن . ولكنني اخالفك في هذا ، ذلك ان تحطيم الالمان للواء المائة والخمسين المدرع ، وتماسك قوى العدو في منتصف مراكزك الامامية ، هو شيء خليق بان يبعث على القلق ، ولاشك في اننا اذا سمحنا للعدو بأن ينظم صفوفه وتماسك خطوطه ، فاننا لن نصبح قادرين على الاحتفاظ بالغزالة وبير حكيم ، حتى اذ لم يقم العدو بهجوم جديد. ومادام العدو في مركزه هذا ، فانه سيكون قادراً من حين الى حين على مبدأتنابالهجوم » .

ومن اليسير ان يصبح المرء حكيماً بالغ الحكة بعد ان يفرغ من القتال ! وهنا أود ان اسجل انني كنت على صواب فيما ذهبت اليه من قبل، بشأن هذه المعركة . لقد اعاد المستر «الان مورهيد» في كتابه «عام المعركة» ذكر ماسبق ان اوضحته له في اليوم الثاني أو الثالث من حزيران ، عن خوفي من اننا سنخسر المعركة اذا لم نأمر الفرقة الهندية الخامسة برئاسة الجنرال

«برغس» أن تقوم بهجوم ضد حقول الالغام . والحقيقة ان مثل هذا الهجوم كان قد فرغ من بحثه .

وفي اليوم الثاني من حزيران شاهدت الجنرال برغس في فترات متقطعة فأسفنا كلانا لتأخر الهجوم .

وفي اللحظة التي كنا فيها على وشك الهجوم ، كانت الفرقة الهندية بكاملها قد اتخذت سبيلها الى الجنوب من بير حكيم ، حيث تواصل حركتها من هناك الى (درنه) . فالخطأ الذي وقعنا فيه هو اننا بدأنا هجومنا في الخامس من شهر حزيران . وكان يجب ان يتقدم هذا الهجوم ثلاثة أيام . وعلى اي حال سقط معقل اللواء المائة والخمسين . وتمكن الالمان من شق طريق لهم وسط حقول الالغام . ونهض الفيلق الافريقي مرة اخرى واستوى على ساقيه ، فلديه البترول والطعام والماء والمؤن وكثير من مدافع ذات عيار ٨٨ مليمترا ، وورواءها حشد من الدبابات . ولقد افلح اللواء العاشر من الفرقة الخامسة ببعض حركات هجومية على العدو ، ولكننا فشلنا في استغلالها . وفي المساء قامت الدبابات الالمانية واللوريات التي تحمل الجنود بالالتفاف حول اللواء العاشر ، وتمكنت من النفاذ الى خطوطه الخلفية . وكذلك تمكن الالمان الذين كانوا يركبون سيارات بريطانية من مداهمة الفوج الوحيد الذي كان يحرس جناح اللواء العاشر ، دون ان يتنبه احد الى هذه الخدعة الالمانية ، وبعد ذلك جاءت الدبابات وتلتها اللوريات التي تحمل الجنود ! أما مقر قيادة اللواء والفرقة ذاتها فقد لفهما الدخان المتصاعد من الخيام المحترقة والسيارات المشتعلة ، حيث استطاع الجنرالان برغس و «مسرفي» قائد الفرقة السابعة المدرعة ، الافلات من الاسر . وكرامير اللواء «بوتشر» قافلاً الى مقر قيادته ، وقد كنت انتظره هناك ، فالفيته تبدو عليه دلائل التعاسة والأسى .

في تلك الليلة كان من السهل ان ندرك بان رومل يتهيأ للمبادأة التي كان قد انتزعها منه الجنرال ريتشي ، وظهر ان رومل لن ينزل عن هذه المبادأة ، ولقد كان الخامس من شهر حزيران نقطة تحول في هذه المعركة .

وارسل رومل الجنرال بايرلاين الى بير حكيم ، فاخذت تدقها المدفعية الالمانية وطائرات اشتوكا دقاً عنيفاً لاينقطع . ولكن الفرنسيين الاحرار مايزالون يتشبثون بمركزهم في بير حكيم . ومع ذلك لم يتمكنوا من المقاومة طويلاً ، واخيراً ارسل الجنرال ريتشي الى الجنرال كينغ ان يتخلى عن بير حكيم في العاشر من شهر حزيران ، وان يحاول الافلات من قبضة القوات الالمانية ، فانسحب الجنرال كينغ ومعه الجانب الاكبر من قواته ، وكانت تقود سيارته فتاة بريطانية .

أعظم معركة للدبابات

ولما اصبحت بير حكيم وراء قوات رومل ، تحول فوراً الى خطته الاصلية للاستيلاء على طبرق · وعند منتصف ليلة ١١ حزيران كانت الفرقة التسعون الخفيفة على مدى بضعة اميال جنوبي العضم ، واعقب ذلك يومان وقعت فيها، اعظم معارك للدبابات ، وقد القى رومل بكل سلاحه في هذه المعارك ، تحت ستار عنيف من المدافع المضادة للدبابات التي استخدمها رومل في هذه المعركة استخداماً لايدع مجالاً للشك في قوته وبراعته · وضعفت الالوية المدرعة البريطانية ، حين فقدت معظم دباباتها من طراز غرانت ، في محاولتها النفاذ من ستار المدافع الالمانية المضادة للدبابات ، لتلتحم مع الدبابات الالمانية المدرعة · ولقد افلحت المدفعية الالمانية في تحطيم الدبابات البريطانية ، فتساقطت واحدة اثر الاخرى · وفي منتصف ليلة الثالث عشر من حزيران كان معظم مدرعاتنا قد تحطمت وابيدت · يضاف الى ذلك ، ان العدو كان قد ثبت اقدامه في الميدان ، واصبح في وسعه ان يصلح دباباته ، اما دباباتنا فقد فقدناها الى الابد !

وبات من الواضح حينذاك ان مركز الغزالة يجب التخلي عنه · غير ان كلا من الجنرالين اوكنلك وريتشي ، ابى ان يعترف بان الجيش الثامن قد هزم ، ذلك لان الجيش ، وان كانت مدرعاته قد تحطمت ، فان قواته البرية ماتزال سليمة ·

وفي اثناء ذلك دعيت الفرقة النيوزيلندية من سوريا ، كما دعيت الفرقة العاشرة المدرعة ، وهي فرقة جديدة ، لتساهما في المعركة · وكانت هنالك حوالي ١٥٠ دبابة يجري اصلاحها في مصانع التصليح التابعة للجيش · فلا بد لنا من الحصول على دبابات اكثر عدداً من دبابات رومل · وكنا مانزال متفوقين عليه في عدد الطائرات · وعقدت النية على التخلي عن الغزالة ، والاحتفاظ بخط يمتد من طبرق الى العضم ، مع وجوب الاحتفاظ بقوة ميكانيكية الى الشرق ، والاتيان بقوة اخرى بالقرب من الحدود · وهذا معناه ان طبرق أو جانباً منها ، ستشمله هذه العمليات مما يخالف الخطة المتفق عليها ، بعد ان اعلنت البحرية انها لاتستطيع امداد طبرق بالمؤن أو العتاد ·

ولقد ذكر لي الجنرال باير لاين ان هذا القرار كان مميتاً ، وان الجنرال ريتشي كان ينبغي له ان يمضي قدماً الى الحدود ، بعد استيلاء الالمان على بير حكيم ، وتجاوزهم مركز الغزالة · وعلى اي حال كان ينبغي ان لايحتفظ بطبرق بما فيها من وسائل للدفاع غير كافية ، ورغم تعذر امدادها بالمؤن · أما إذا أصر الجنرال ريتشي على الاحتفاظ بطبرق ، كما كنا نظن ،

فكان لزاما عليه ان يحتفظ بها منذ البداية ، وأن يبث الالغام حولها ، وان يثبت بطارياته في مراكز منيعة وهكذا ·· وأولا وقبل كل شيء ، كان يجب ان يجعل حامية طبرق برياسة جنرال ذي كفاءة · فلو كان في طبرق الجنرال مورسهيد ، أو الجنرال غوت ، أو الجنرال فرايبورغ ، إذن لتغير الوضع ولجاءت النتائج مخالفة لما وقع ·

فقد كانت هنالك وحدات من قواتنا تقاتل بضراوة · اذكر منها فوج كاميرون الاسكتلندي الذي استمات في القتال بعد ان استلم الجنرال كلوبر ، ولكن يبدو انه لم تكن ثمة خطة منظمة للدفاع عن طبرق ·

على حدود مصر

وقد اثبتت الايام ان هذا القرار كان مميتاً حقاً· فبعد ان استولى رومل على سيدي رزق في ١٧ حزيران، وبعد ان هزم قواتنا هزيمة عنيفة في اليوم نفسه، هاجم حصون طبرق من الدودة في يوم ٢٠ حزيران، بالطريقة التي اقترحها في ٢٣ تشرين الثاني من العام السابق تماماً· واستخدم رومل طائرات اشتوكا لتلقي بقنابلها على حقول الالغام ولتشق له طريقاً بينها، وسرعان مانفذ الى هذه القلعة من جانبها الجنوبي الشرقي · ولم يكن في داخل هذه القلعة الا الفوضى والاضطراب، فالجنرال كلوبر قد تقطعت به الاسباب، ولم يستطع الاتصال بأحد، وفقد سيطرته على جنوده، وأفلت من يده زمام الموقف تماماً · وعندما انطلقت الدبابات الالمانية من بين حقول الألغام في طريقها الى الميناء، كانت تكتسح جيوب المقاومة الصغيرة واحداً بعد واحد · وكانت قوات جنوب افريقيا ترابط في الجانب الغربي، والجنوب الغربي، ولم تعرف شيئاً من أمر ذلك الهجوم حتى داهمتها الفرقة التسعون الخفيفة وطعنتها من الخلف، فلم يسعها إلا الاستسلام أسفة مبتئسة عند فجر اليوم التالي ، نزولا على أمر قائدها الجنرال كلوبر ، وقد ظل هؤلاء الجنود بضعة اشهر في معسكرات الاعتقال ، يجللهم الخزي والعار لاستسلامهم للالمان ·

وهكذا ، فالقلعة التي ظلت منيعة لاينالها أحد مدة تسعة أشهر كاملة في سنة ١٩٤١ ، سقطت في يوم واحد· ولاشك ان جنود جنوب افريقيا ملومون على ذلك ،ولاشك انهم يلومون الجنرال كلوبر أولا وقبل كل شيء !!

وفي الساعات الأخيرة ، كانت تكتنف طبرق سحب من الدخان القاتم تولول في سماء المدينة من جراء انفجار مستودعات البترول التي اندلعت النيران فيها قبل الاستسلام ·

فاحرقت ملايين من غالونات البترول كانت في المخازن والمستودعات الكبيرة ورغم هذا ، بقيت لدى رومل كميات من البترول تكفي لأن يزحف على مصر !

وكان الوقوف على الحدود بعد ذلك ، محاولة جاءت بعد فوات الأوان · وحينئذ طلب الجنرال ريتشي الاذن في ان يرتد الى مرسى مطروح · وقد قبل الجنرال اوكنلك ذلك ، كارها له . وان كانت الوساوس قد ساورته ، لأن مرسى مطروح لايسهل الاحتفاظ بها ، دون أن يكون لها سند من مدرعات قوية ·

وفي ليلة ٢٢ حزيران ، كان رومل مرة اخرى عند الاسلاك الشائكة المقامة على الحدود ·

فهل كان ينبغي لرومل ان يواصل زحفه ؟

يقول فون توما : « ان رومل قد خالف أمراً خاصاً جاءه من موسوليني يحمله اليه المارشال بادوليو ، بالوقوف عند الحدود بعد الاستيلاء على طبرق » · غير ان الجنرال بايرلاين ينفي ذلك · ويقول أيضاً : «ان اجتماعاً قد عقد في ٢٢ حزيران غربي البردية ، وانه جاء الى هذا الاجتماع عندما شارف نهايته · ولكن رومل اخبره بان الجنرال باستيكو رئيسه المباشر كان من رأيه ان لايحاول القيام بهجوم على مصر ·· ومهما يكن فانه لم يصدر الى رومل امر بالكف عن الزحف على مصر ، لا من القيادة الالمانية ، ولا من القيادة العليا الايطالية ، غير ان الجنرال باستيكو قد سلم بوجهة نظر رومل ، عندما اكد له هذا ان المارشال كيلرنغ سيمده بكل الامدادات التي يحتاج اليها · ولقد اتضحت هذه النقطة فيما بعد من مذكرات الكونت تشيانو · فقد كتب في ٢٢ حزيران يقول «ارسلت برقية من روما تنصحه بعدم المخاطرة الى ماوراء خط كبوتزو ـ السلوم» وفي اليوم التالي كتب تشيانو يقول :

«لقد علمنا من بعض البرقيات التي التقطت من المراقب الامريكي فيلزر في القاهرة ، ان البريطانيين قد هزموا ، وان رومل اذا واصل زحفه ، فأمامه فرصة طيبة ليذهب حتى منطقة قناة السويس · ومن الطبيعي ان موسوليني حريص على انجاز هذا الهجوم !» ·

إذن فقد كانت فكرة الهجوم على مصر من تصميم رومل ، اما الاقلاع عن غزو مصر فلم يكن من تصميه ·

وهذا امر بديهي · فان رجلاً له طباع رومل لايمكن ان يقف والجيش الثامن مايزال يرتد امامه ، وليس من المعقول ان يقف رومل ويتيح الفرصة للجيش الثامن ، ثم يبدأ القتال من جديد من الخط الذي وقف فيه منذ اربعة عشر شهراً مضت ؟ ··

وكان على القيادة الالمانية العليا وعلى القيادة الايطالية ، ان تمد روميل بكل مايحتاج اليه من امدادات ، خاصة بعد ان اصبحت مصر دانية القطوف ، ومن ورائها قناة السويس !

ويقول الجنرال بايرلاين :« ان أحداً لم يكن في استطاعته ان يدرك كيف يستطيع البريطانيون ان يستعيدوا بتلك السرعة ، اشرافهم على البحر الابيض ، ويفلحوا في وقف الشحنات والقوافل التي تصل الينا» . ولا يستطيع أحد ان يعرف أيضاً كيف ان هتلر ، وهو صاحب البداهة المشهورة ، ولا كيف ان كيتل وبودل وهالدر ، وهم ذوو العقول العسكرية المدربة ، لم يدركوا تلك الفرصة الذهبية التي سنحت لهم . فروميل كان يجب ان يواصل زحفه على مصر .

ومما لاشك فيه ان الفيلق الافريقي كان منهكاً مكدوداً . ولكن روميل بماله من حيوية بالغة ، يرى ان الجنرال الالماني يجب ألا يقعد عن مواصلة القتال في الجولة الأخيرة !

ومضى جنود روميل قدماً ، وفي سرعة هائلة . ففي مساء ٢٤ حزيران وصل روميل الى سيدي براني . وفي اليوم التالي كانت ارتاله على مدى ٤٠ ميلاً من مرسي مطروح . وفي هذه الليلة بالذات تسلم الجنرال اوكنلك بنفسه مقاليد القيادة للجيش الثامن . وقد قرر منذ اللحظة الاولى أنه يجب أن لايظل جانب من قواته محاصراً في دفاعات مرسي مطروح التي لم يكن لديه العدد الكافي من الرجال للدفاع عنها . كما قرر أن يوقف روميل ان أمكن ، في المنطقة بين مرسي مطروح والعلمين . وكان على الفيلق الثلاثين أن يحتل مركز العلمين كخطوة احتياطية . وفي مساء ٢٦ حزيران اقتحمت الدبابات الالمانية حقول الالغام الى الجنوب .

وفي اليوم التالي اصطدم الالمان بالفرقة النيوزيلندية الجديدة وكان الالمان يحاربون بحيوية وقوة ، كشأنهم دائماً . ولقد فقد الالمان الكثير من الاسلحة والرجال ، ولكنهم واصلوا زحفهم على الساحل ، وافلحوا في قطع طريق طوله عشرون ميلاً شرقي مرسي مطروح . وكان على الفرقة الخمسين والفرقة الهندية العاشرة التي وصلت أخيراً ، ان تقاتلا طول الليل لتفلتا من قبضة الالمان ، تاركتين وراءهما كميات من المؤن والمعدات . ولم يكن أمامهما من سبيل الا الانسحاب الى المركز الذي كان قد أعده الجنرال اوكنلك من قبل ! .

وفي الثلاثين من حزيران وصل روميل الى خطوط العلمين . وكانت الاسكندرية على مدى ٦٥ ميلاً من مراكزه وقد أكد لي الجنرال بايرلاين أنه حينئذ لم يكن باقياً لديه سوى ١٢ دبابة المانية !



الفصل الثامن عشر

رومل أصغر مارشال في الجيش الالماني

انسان من طراز فريد - يتنقل في الجبهة باستمرار

في صبيحة يوم ٢١ حزيران ، كان في استطاعة رومل ان يقول بحق : « طبرق في يدي » . وفي اليوم التالي علم رومل باللاسلكي من هيئة أركان حرب هتلر ، انه رقي الى فيلد مارشال ، وبذلك أصبح أصغر حاملي هذا اللقب سناً في الجيش الألماني كله ، ذلك انه لم يكن قد جاوز التاسعة والأربعين من عمره . وفي هذه الليلة أقام رومل حفلاً لهذه المناسبة فشرب كأساً من الويسكي ، وتناول بعض الاطعمة من مخلفات الجيش البريطاني التي تركها في طبرق . وبعد العشاء كتب الى زوجه رسالة قال فيها :

« لقد أنعم عليَّ هتلر برتبة فيلد مارشال ، وكنت أفضل أن ينعم عليَّ بفرقة من الجنود ! » .

وكان رومل ماتزال روحه المعنوية عالية على صورة غير عادية . وتلك إذن هي القمة التي بلغها رومل بوصفه جندياً وقائداً في شمال أفريقيا . وقد بلغ كل هذا المجد العسكري خلال أربعة عشر شهراً ، بعد نزوله الى طرابلس ، وكانت مهمته بالغة التواضع ، وهي الحيلولة دون استيلاء البريطانيين على منطقة طرابلس . على أن موقفه كان يحتم عليه ان ينسجم والاقليم الذي يعيش فيه الى اقصى حد ، فيتعود تلك الحياة الجديدة الغريبة في الصحراء ، وذلك النوع

الجديد من الحرب . وسرعان ماألف رومل حياة الصحراء كما تألف البطة الماء ، واصبح وكأنه بدوي امضى حياته كلها بين الرمال ! او مايوصف بكونه «اهلا للصحراء» ، وقد كانت هذه العبارة تطلق اول مرة على وسائل النقل الملائمة للسير في الصحراء ، ثم شمل استعمالها الوحدات العسكرية والافراد .

ويقول الجنرال بايرلاين : ربما لم يكن رومل استراتيجياً عظيماً ، ولكن لا مراء في انه أعظم خبير في الجيش الالماني كله بشئون الصحراء » .

ولئن كانت حرب الصحراء تتطلب نشاطاً وجلداً كبيرين لايتوافران الا للشباب ، فان رومل بفضل السنوات التي قضاها في الانزلاق على الجليد ، وتسلق الجبال ، كان ،وان جاوز الشباب ، ذا تكوين بدني من الطراز الاول . وقد قال عنه احد ضباط المظلات ، وكان بطلاً سابقاً من أبطال الانزلاق على الجليد : « ان رومل له قوة خارقة ، وانني لم أر في حياتي رجلاً له مثل نشاطه وجلده ، فهو لايشكو قط من قلة الطعام أو الشراب أو ساعات النوم . وهو يفوق الشبان الذين يصغرونه بعشرين أو ثلاثين عاماً ، في قوة تحمله ، ومن هنا كان قاسياً على نفسه وعلى غيره » .

والحق يقال ان رومل كان يمتاز بروح اسبارطية[٢٠] تجعله يفخر بان المتاعب والمخاوف لاتنال من نفسه ولا تقعد به عن اتيان اي أمر من الأمور العسكرية . فلم يكن الحر ، ولا البرد ، ولا الفراش الخشن الجاف ، لتؤثر فيه . وحتى رياح الخماسين المعروفة في الصحراء الغربية التي تثير الزوابع الرملية فتطرد أمامها الابل والأعراب ، والتي تنفذ الى العيون فتعميها عن الرؤية ، كان رومل ينظر اليها على انها شيء مبالغ فيه ! . وكان يركب طائرته المسماة «باللقلق» ، ويهبط بها وسط العواصف الرملية الهائجة في أول معركة يخوضها من معارك الصحراء . وكثيراً ماتعرض للموت عن طريق تلك الطائرة ، ذلك لأنه كان يدنو بها دائماً من مراكز البريطانيين ، وليس ثمة ثغرة واحدة في الجو يمكن من خلالها أن يرى شيئاً ويلمّ بما يعده البريطانيون .

انسان من طراز فريد

وكان رومل كنابليون في استطاعته أن يكتفي بأن ينام بضع دقائق ، جالساً في سيارته ، أو مستنداً برأسه الى إحدى المناضد ، ثم يصحو مستريحاً تماماً . ولقد سألت (غنتر)

---

(٢٠) اشارة الى اهل اسبارطة القديمة في اليونان الذين كانوا يربون ابناءهم تربية رياضية قوية جداً .

الجندي الذي أمضى في خدمته أربع سنوات : «هل كان رومل يتضايق اذا اوقظ من نومه ؟ ٠ فقال : كلا ٠ انه كان يصحو في لحظة واحدة ، وكان حين ينام ـ مهما يكن متعباً ـ لايكاد جفناه ينطبقان ، حتى اذا جاءته رسالة فسرعان مايصحو عادة قبل ان اوقظه ! » ٠

ولم يكن رومل يعني كثيراً بالطعام ، وكان يقنع تماماً حين يخرج ليقضي يوماً في الصحراء ، ببضع قطع من «الصاندويتش» ، أو بقطعة من الخبز وعلبة سردين ! ٠ وحدث ان دعا مرة قائداً ايطالياً الى تناول الغذاء معه في الهواء الطلق ٠ ثم علق على هذه المأدبة بعد ذلك فقال : لقد كنت محرجاً فلم يكن لدي الا ثلاث شرائح من الخبز الجاف ، ولكن لابأس فالايطاليون يأكلون كثيراً ! ٠»

وكان رومل يعتقد انه بقدر مايسرف الانسان في الشرب وهو في الصحراء يزداد عطشه ، ولذلك كثيراً ماكان يأخذ معه في تنقلاته زجاجة من الشاي المثلج الذي عصر عليه الليمون ، ثم يعود بها كما كانت دون ان يتناول منها شيئاً !

وفي الليل كان رومل يتناول طعام العشاء مع صديقه القديم الدنجر ، وكان يصر على ان يكون نصيبه من الطعام والمواد الغذائية ، مثل نصيب اي جندي من جنوده ٠

ولم يكن الطعام جيداً على اي حال ٠ولقد قال لي «فون ايزبك» المراسل الحربي : «أن أسباب مرض جنودنا ، وخاصة اصابتهم بفقر الدم ، هو ان المواد الغذائية التي كانت تصرف لهم ، لم تكن لتناسب جو الصحراء ٠ فأين خبزنا الأسود الجاف ، من خبزكم الابيض الطازج ؟ ٠ وكم تمنينا أن ننال شيئاً من هذا الذي يأكله جنودكم ٠ ومن لنا بالعصير البديع الذي تشربون ؟ ! لقد ظللنا أربعة أشهر أو خمسة دون أن نحظى بشيء من الفاكهة أو الخضراوات ، ولا بشيء من اللحوم غير اللحوم المعلبة التي ترد الينا من ايطاليا ٠ ! »

وكانت هذه العلب تحمل الحرفين «م.ا.» بصورة مكبرة مما دعى جنودنا الى أن يطلقوا عليها اسم «حمار موسوليني ! »[٢١]

ولم يكن ضباط الفيلق الافريقي يتشكون من قلة الطعام ورداءته٠ وحتى اذا ماتجرأ أحدهم وشكا تفاهة غذائه ، أجابه رومل بلطف «هل تتصور ان غذاءك أحسن طعماً لدي ؟ » والحقيقة ان رومل لم يكن يلاحظ طعم الغذاء ومذاقه ٠ فكل مايعرف عنه انه كان ينفر من الشاي والقهوة الممزوجة بالماء المالح ٠ ولذلك لم يبتهج رومل عند زيارته «جغبوب» لأن المياه تحتوي على كمية غير قليلة من الملح الافرنكي !

---

(٢١) M A اي حمار موسوليني MOSSOLINI ASS

وكان يحدث عادة بعد ان يتناول رومل طعام العشاء ، في حوالي عشرين دقيقة ، ان يتناول قليلاً من النبيذ ، ثم يستمع لاذاعة نشرة الأخبار . وعلى أثر ذلك يكتب رسالته اليومية الى زوجته . فاذا لم تكن لديه فسحة من الوقت لكتابة هذه الرسالة ، تولى كتابتها «غنتر» نيابة عنه !

كان رومل شديد الحرص على مراسلة أفراد فوجه الأول في الحرب العظمى السابقة ، ولم يحدث قط ان بعث اليه واحد منهم برسالة فلم يرد عليها .

وفي خلال الفترة الباقية قبل ان يذهب الى الفراش ، كان ينظر فيما لديه من الأوراق الرسمية ، وقد يقرأ بعد ذلك صحيفة أو كتاباً يعالج مسألة حربية . وكان يجد متعة في دراسة تاريخ شمال افريقيا . وكثيراً ماأعرب عن رغبته في معرفة شيء عن الآثار القديمة هناك .

أما القصة القائلة بأن رومل كان عالماً أثرياً يقضي أوقات فراغه في التنقيب عن الآثار الرومانية ، فهي مما اختلقته وزارة الدعاية الألمانية . ولقد كان «فون ايزبك» نفسه مسئولاً عن هذا الاختلاق !

فقد صرح لي ايزبك قائلاً :ـ «كان البعض منا يقوم بالتنقيب ، عندما عثرنا على قطع من المصنوعات الفخارية الرومانية . وبينما كنا نتفحصها أقبل رومل الينا ، وما ان عرضنا تلك القطع عليه حتى قال ياللجحيم ! ماذا انتم صانعون بكل هذه الانقاض ؟» .

وفي الأيام العادية ، كان رومل يستيقظ من نومه في الساعة السادسة صباحاً . وكان يترك لجنود الفيلق الافريقي ان يلبسوا مايحلو لهم في الصحراء . فكان الألمان منهم يلبسون كالجنود الاستراليين بنطلونات قصيرة وأحذية خفيفة ، ويضعون على رؤوسهم قبعات منتصبة الأطراف .

أما هو فكان لايبدو عادة إلا في ملابسه العسكرية الكاملة ، حليق اللحية والشارب . وما كاد يصل الى الصحراء حتى القى بالخوذة التي تستخدم في المناطق الاستوائية والحارة ، كما فعلنا نحن أيضاً مثل ذلك ، ولم يستعمل رومل قط تلك القبعة المستديرة التي تشبه العلبة المصنوعة من الصفيح . على انه كان يضع حول عنقه «كوفية» في الشتاء ، وتحتها وسام الصليب الحديدي ، كما هي عادة الألمان .

وهكذا يتبين ان رومل كان أكثر عناية بملبسه من قادتنا ، الذين لايمكن تمييزهم إلا بقبعاتهم الحمراء ، أو علاماتهم العسكرية ، حتى لقد حدث حين اسر الجنرال ماسرفي قائد الفرقة

السابعة المدرعة ، ان ظنه الألمان جندياً عادياً. ثم سأله أحد الضباط الألمان : «ألست من الكبر بحيث ينبغي ان تكون أكثر من جندي عادي ؟ » . فأجابه ماسرفي : « انني جندي احتياطي . وما كان ينبغي لهم ان يستدعوني للخدمة العسكرية ! »

وفي الساعة السادسة والنصف صباحاً ، كان رومل يبدأ جولته اليومية في مراكزه المختلفة . وفي بعض الأحيان كان ينتقل بطائرته التي يقودها بنفسه ، ورغم انه لم يحصل على شهادة أو تصريح بقيادة الطائرة ، كان طياراً ماهراً .

أما أثناء المعارك فكان يركب سيارته البريطانية المدرعة ، التي سماها «الماموث» . وفي كثير من الأحيان كان يركب السيارة الألمانية المعروفة باسم «سيارة الشعب[٢٢] ويقودها بنفسه . ولم يخطىء رومل طريقه في الصحراء منذ هبط اليها . ولم يكن يوجد في الجبهة الألمانية مركز واحد لايتوقع ان يزوره رومل ، فقد كان حريصاً على زيارة جميع المراكز مهما تكن بعيدة !

ومن الطريف ان رومل عاد من القتال ذات مرة الى أحد الخطوط الخلفية ، فشاء سوء طالع أحد الضباط الكبار هناك ، ان ضبطه رومل نائماً في الفراش بعد الساعة السابعة صباحاً . وما كاد الضابط الكبير ، وهو برتبة عميد ، يخرج للقاء رومل وهو يرتدي البيجاما ، حتى صرخ رومل في وجهه قائلاً : « يالك من ثعلب كسول أو تظن انك تنتظرني لآتي لك بطعام الافطار ؟ »

ثم التفت نحو صديقه «الدنجر» واستطرد يقول : انه لامر عظيم ان تصبح فيلد مارشال ، ومع ذلك ينبغي عليك ان تتذكر كيف تتحدث الى الضباط ، وكأنك رئيس عرفاء ! » .

ولم يكن رومل يزور الخطوط الامامية زيارة عابرة ، أو تنطوي على عدم الاكثرات أو التكلف ، ولكنه كان يزورها زيارة الفاحص المدقق الخبير ، فلا تفوت عينه النافذة الناقدة صغيرة ولا كبيرة . فهذا مدفع رشاش قد وضع في غير موضعه ، وهذه الغام لم يعن باخفائها تماماً ، وذاك موضع للمراقبة ينقصه شيء من التمويه ، وهكذا .

وحينما كان رومل لايرضى عن وضع مراكز جبهته ، كان يستقل سيارته الى مكان يبعد بحوالي ميل عن هذا المركز ، ثم ياخذ في تأمله من تلك المسافة بعين العدو ، ويسجل ملاحظاته على هذا الاساس ! بل كثيراً ماكان يطلق النار على ذلك الموضع ، ثم يعود الى جناح ذلك الموضع من جديد .

---

(٢٢) هي سيارة فولكس واغون VOLKSWAGEN الالمانية المشهورة حتى الآن .

وقد حدث ذات مرة ان كان رومل يزحف على يديه ورجليه في طريق أمتلأ بالالغام ، فاذا به يفاجأ بأطلاق النيران عليه ! · وقد علق على ذلك بقوله «ان هذه النيران قد صوبت اليّ ، لأنني كنت ازحف على يدي ورجلي بسرعة ، وكان ينبغي ان أزحف على مهل حتى لايلتفت اليّ أحد » !

ولاشك ان جنود رومل وضباطه قد تأثروا بشخصيته الى حد كبير ، ولا شك كذلك في انه اجتذب قلوبهم وعقولهم بعنايته الكبيرة بمشاكلهم ، وبعبقريته النادرة في تصميم التكتيكات الصغيرة السريعة الحاسمة ، وببراعته في التنقل بجيشه في الصحراء · والواقع انه كان محبباً الى نفوسهم كانه واحد منهم ، وكان يتودد اليهم ويتلطف كثيراً في حديثه معهم ·

ويقول فون ايزبك «لقد كان رومل دائم المرح حين يتحدث الى الشبان ، وكان يبتسم ويتفكه مع كل جندي يؤدي عمله · ولم يكن شيء أحب اليه من الحديث مع رجل من ابناء بلدته باللهجة الاسفابية · لقد كان رومل ذا قلب دافق بالحرارة والحماسة ، جذاباً على نحو لم أر له مثيلاً ! » ولاشك في ان جاذبية رومل هذه التي أثارت اعجاب فون ايزبك ـ وهو الكاتب الذي خبر المجتمع ـ لابد ان تكون جاذبية قوية خارقة ·

وحين يجد الجد ،ويلتحم الجنود وتبدأ المعركة ، كان رومل يبدو متيقظ الحواس روح معنوية عالية · فهو قائد بطبيعته ، وهو يعتمد اعتماداً غريزياً على ان يقود المعركة بنفسه · ولقد ادرك رومل ان حرب الصحراء كالحرب البحرية تماماً ، يجب أن يكون القائد فيها وسط المعركة · فلم يكسب قائد بحري معركة بحرية وهو على الشاطىء ! وكان سريع التفطن الى دقائق موقفه العسكري اثناء القتال الى درجة مدهشة · ولعل سر قدرته على اقتناص الفرصة السانحة ، وقدرته على احراز انتصارات سريعة ، انه لم يكن ينتظر حتى تأتيه المعلومات الرسمية عن قوافل امداداته وغيرها ، ولكنه كان يذهب بنفسه ليحصل على المعلومات التي يريدها في طائرته الخاصة ، أو دبابته الخاصة أو سيارته المدرعة الخاصة أو سيارة الشعب ، أو على قدميه ·

وهكذا تمكن رومل دون أن يستريح بعض الوقت من أن يجعل حركته الاستكشافية التي قام بها في نيسان سنة ١٩٤١ ، وكانون الثاني سنة ١٩٤٢ ، هجوماً قوياً موفقاً · وهكذا أيضاً تمكن من ان يستخرج من براثن الهزيمة ، بل ومن الطامة الكبرى التي كادت ان تحل به في نهاية ايار سنة ١٩٤١ ، هجوماً بقدر ماتسمح به موارده، حتى ليمكن أن يقال بانه الرجل الذي ركب الزوابع ليقود العاصفة ·

قدرته على الخروج من المآزق الحرجة

ولقد انتقد النقيب ليدل هارت ، وكثيرون غيره ، اقتحام رومل ميادين المعارك ، وابتعاده في بعض الاحيان عن هيئة أركان حربه · وربما كان في هذا الانتقاد بعض الحق · غير ان ليدل هارت نفسه يعترف بأن لرومل «براعة في الظهور عند بعض النقط الحيوية في المعركة ، وان له قدرة على حسم الامور في اللحظات البالغة الحرج» ·

أما المقدم فولرز فهو يرتاب في ذلك بعض الشيء · وقد كتب يقول : أما سرعة الحسم ومرونة الحركة فالألمان جميعاً يفوقون اعداءهم في ذلك · وكان رومل خاصة يتولى بنفسه ابلاغ أوامره الى مرؤوسيه ، كما يتولى قيادة الجيش · وليس معنى هذا ان القادة البريطانيين أقل قدرة أو كفاءة من الالمان ··· وانما هي تعاليمهم ودراساتهم العتيقة القائمة على حرب الخنادق التي ترجع الى الحرب العظمى الاولى ، لا الى الحرب المدرعة الحديثة التى دعوا الى خوضها دون استعداد سابق · ولقد حدث ان انهزم رومل مرتين حينما كان الجنرال اوكنلك يقود المعركة بنفسه ، ثم أفلت رومل من الهزيمة في حزيران سنة ١٩٤٢ ، لان مواصلاتنا كلها كانت بطيئة ، وكان ينقصنا الكثير من حسم الامور ! »

ولا أحد يستطيع ان ينكر ان القيادة الشخصية في المعارك الصحراوية لاتؤتى ثمارها المرجوة · ومن الخطأ ان نتصور رومل عصرياً كالأمير روبرت ، وهو يلوح بقبعته الى جنوده ثم يقود الدبابات في الهجوم على العدو · فالواقع انه كان على عكس ذلك تماماً · كان مقاتلاً قديراً ، يأبى الا ان يكون القتال على نحو مايريد هو ، لا كعادتنا نحن !

ولعل أهم ماداه رومل من خدمات تكتيك الدبابات ، استخدامه ستاراً من نيران المدافع المضادة للدبابات التي تدور من تلقاء نفسها ، ثم تتقدم بعدها الدبابات المدرعة · فقد كان في استطاعة هذه الدبابات ان تفعل ماتشاء مادام ذلك الستار المنيع أمامها ، فهي تستطيع ان تنسحب ، وان تزود بالوقود ، أو تقوم بالهجوم على العدو · هذا في الوقت الذي تتصيد فيه تلك المدافع دباباتنا واحدة أثر واحدة ·· ولقد حدث غير مرة ان وقعت دباباتنا في شرك المدافع الالمانية · وحدث غير مرة ان تمكن رومل بأسلحته المركزة من اقتناص اسلحتنا المبددة المتناثرة · ولقد كان رومل داهية ماكراً ، فعندما اصدر اولى أوامره بالنزول الى طرابلس كان يهدف من وراء ذلك الى تركيب دباباته الوهمية · وكان رومل يستخدم دائماً سيارات النقل كي تثير تراباً فيدخل في روعنا انها فرق مدرعة · وكان الالمان يستخدمون الناقلات وحاملات

الجنود التي يأسرونها ، لا لأنهم في حاجة الى وسائل المواصلات فقط ، وانما ليحدثوا اضطراباً في صفوفنا عندما يتقدمون في زحفهم علينا !

ولم يكن روميل يسير في اصدار اوامره وفق خطة مرتجلة ، كما كان يظن ، ولكنه لم يكن يندفع في خطوط المعركة ثم يصدر أوامره الى الجنود او التشكيلات الصغيرة ، الا بعد روية وحسن تبصر لعواقب الامور · ولولا هذا ما استطاع أن يقود مائة الف من الجنود على تلك الصورة الموفقة التي رأيناها !

لقد كانت أوامره تصدر شفوياً في كثير من الأحيان · وحينما يشتد القتال ، او حينما يدرك روميل ان العدو ليس لديه الوقت للاستفادة من اوامره اذا التقطها ، كان روميل يصدر أوامره الى الجنود باللاسلكي· ولكن الدنجر أكد لي أن الأوامر كانت تصدر اختزالاً وعندما يكون هنالك متسع من الوقت كانت تصدر موضحة كاملة· وعلى أي حال فأن هذه الأوامر كانت موجزة بينة الوضوح لا تقبل لبساً· ولم يشك روميل قط فيما يريد، كما أنه لم يكن يترك للشك سبيلاً الى اذهان مرؤوسيه ·

وكثيرة هي المخاطر الكبيرة التي عرضت لروميل اثناء القتال · فلطالما أشرف على الموت ، أو أصبح قاب قوسين او أدنى من الوقوع في الأسر · فمثلاً حدث ذات مرة أن قتل سائق سيارته ، والسائق الاحتياطي ، وكانا جالسين جواره ، فاضطر الى أن يقود سيارته المدرعة بنفسه · ولقد كان روميل شجاعاً الى درجة نادرة ، وكان رابط الجأش تماماً في خطوط النار ، ولكن ضباطنا الكبار كان من الممكن أن يكونوا مثله لو أنهم تعودوا ذلك كما تعود · فلم يكن بين رجالنا ، على مستوى واطىء ، أكثر شجاعة وجرأة من الجنرالية : فرايبورغ وكامبل (جوك) وغوت (سترافر) ·

لقد كان روميل بحق كنابليون وولنغتون ، يضطر الى المخاطرة مادام سيقود المعركة بنفسه مباشرة · وكذلك كان شأن مرؤوسيه · وهم يعزون مناعته ضد الموت والخطر ، الى حاسته السادسة التي تدرك ادراكاً واضحاً ماذا يقدم عليه العدو ، وما هو بسبيل أن يفعله !

ويقول الجنرال بايرلاين : « في ظهر يوم ٢٥ تشرين الثاني كنا في مقر هيئة اركان حرب الفيلق الأفريقي في جسر العبد · وفجأة التفت اليَّ روميل وقال : بايرلاين · انني انصح لك بمغادرة هذا المكان : انني لأستريح اليه · وبعد ذلك بساعة واحدة هوجم مقر هيئة اركان حربنا على صورة غير متوقعة ثم دمر ! واذكر أيضاً أنه في عصر اليوم ذاته كنا نقف معاً · وفي لحظة تلفت روميل اليَّ وقال : (لنتحرك بضع مئات من الياردات · انني اظن اننا سنكون هدفاً

لبعض القذائف هنا فأية قطعة من الصحراء تشبه الاخرى تمام المشابهة · ولم تمض خمس دقائق على ابتعادنا من ذلك المكان ، حتى هوت القذائف فوقه تماماً ! وكل الذين حاربوا مع رومل يروون قصصاً مشابهة لما أقول لك» ·

وحقاً ، لقد حدثني كل من لقيت ممن حاربوا مع رومل قصصاً تؤيد ماقاله الجنرال بايرلاين كل التأييد !

ربما كان من السهل ، ونحن ندرس طريقة رومل في القيادة والاشراف على المعارك ؛ من الناحية الاكاديمية ، ان ننسى هدفه الرئيسي وأثره القوي ، اعني بث الشجاعة في جنوده وتقوية ارادة النصر فيهم · وعلى ذلك تتوقف معاركه وحروبه · وربما خسرت المعارك من جراء سوء القيادة · ولكن القيادة مهما تكن قوية وممتازة لايمكن ان ترجح كفة الروح المعنوية الضعيفة في الجندي المقاتل · ولقد قال نابليون وغيره من القادة العظام :- «ان ثلاثة ارباع شؤون الحرب هي تلك التي تخص الروح المعنوية في الجند» · وربما كان تنقل رومل المستمر بين مراكزه الامامية ، يحدث الاضطراب لمرؤوسيه من الضباط · وكان من الممكن في بعض الاحيان ان يعكف على دراسة الخرائط والرسائل في مقر قيادته ، بدلاً من ان يندفع بسيارته وسط الرمال والاضطراب الذي يسود مثل هذه المعارك الحامية الوطيس ، على ان الفيلق الافريقي لم يبلغ مابلغه من قوة وجلد على القتال الا لان رومل نفخ فيه من روحه ، وأن رؤية الجنود لقائدهم القوي البنية الممتلىء ثقة في عمله ، لخير دافع لهم على القتال في شجاعة وايمان !

رجال الفيلق الافريقي

ولقد كنا نعتقد في ذلك الحين ان الفيلق الافريقي هو الفيلق من الصفوة الممتازة المختارين احسن اختيار من المتطوعين ذوي الابدان القوية ، والمدربين تماماً على حرب الصحراء · والواقع انهم ليسوا كذلك · فالجنود لم يكونوا متطوعين ، والا ، ـ على حد قول فون رافنشتين ـ كان الجيش الالماني كله من المتطوعين· كما انهم لم يتدربوا تدريباً خاصاً للحرب في الصحراء، اللهم الا ان بعض ضباطهم كانوا قد التحقوا بالايطاليين في الصحراء ليكتسبوا خبرة في شئون القتال· خلال الرمال وتحت ستار من الزوابع والعواصف ·

هذا ، والجندي الألماني الشاب ، جندي شجاع ، قوي العزيمة ، مدرب تدريباً ممتازاً

على استخدام اسلحته · ثم هو مطيع محب للنظام ، غيور على وطنه ، قوي الشكيمة · ولعله من الناحية الجسمية لم تكن تناسبه الاعمال في قيظ الصحراء المحرق · وحتى المحاربون القدماء في الحرب العظمى الاولى من الالمان ، لم يستطيعوا ان يتكيفوا مع الاحوال الصحراوية ، بالسهولة التي تَكَيَّفَ بها الاستراليون والنيوزيلنديون وجنود جنوب افريقيا والهنود والبريطانيون · ولذلك كانوا لايعرفون شيئاً عن افريقيا · وكان من الصعب اقناعهم بأنها لا يوجد فيها مشروع لتنقية المياه ·

ويقول فون ايزبك : « اننا طالما عانينا من جراء الدوسنتاريا[٢٣] وغيرها ، ولم يتمكن اطباؤنا واطباؤكم ان يعرفوا كيف يجعلون الجنود في حالة تناسب الصحراء ! فمستشفيات الميدان الالمانية كانت تختلف تمام الاختلاف عن مستشفياتكم ، ولم يكن فيها اول الامر من مادة «البلازما» مايستعمل في عملية نقل الدم ، وهكذا كان علينا ان نمضي وقتاً طويلاً كيا نتعلم كيف نواءم انفسنا والصحراء » ·

وكانت للفيلق الافريقي اسلحة خير من اسلحتنا ، وان كان دوننا في وسائل المواصلات ، وكان الفيلق اعرف منا باستخدام اسلحته ، كما كان يفضلنا بأن جنوده يطالعون الصحف ، اذ كانت لهم صحيفة خاصة به تسمى «الواحة» كما ان الالمان متجانسون جميعاً ، بينما كان الجيش الثامن خليطاً متعدد العناصر من مختلف الاجناس والالوان ·

وقد وصل الفيلق الافريقي الى شمال افريقيا وروحه المعنوية قوية ، واستطاع رومل وحده بتأثيره الشخصي ، وبالمثل التي ضربها لجنوده ، وبما قام به من مخاطرات ، ان يجعل من جنوده تلك القوة التي حاربت في مرونة وصرامة على النحو الذي رأيناه ! لقد كان رومل وحده يمثل الفيلق الافريقي وكان هذا الاعتقاد يغمر رجاله واعداءه على السواء ·

فرومل وحده الذي جعل منهم بسلاء، ممتلئين ثقة، حتى في اشد اهوال القتال ·

ورومل هو الذي علمهم ألا يعترفوا بالهزيمة ، وعلمهم ان يهبطوا الى ميناء السويس ، بعد ان وقعوا في الاسر ، رافعي الرؤوس ، يرتلون انشودة : «اننا نسير اليوم ضد انكلترا !» ، ولا يزال جنود الفيلق الافريقي في المانيا حتى سنة ١٩٤٩ ، يحتفظون في محافظ جيوبهم بصور زاهية لنخيل شمالي افريقيا ·

واذا سألت أحد الالمان الآن : «هل ذهبت الى شمال افريقيا ؟ » · فانه يجيب في

---

(٢٣) مرض التهاب الامعاء المعروف لدينا بالدزنتري المحرف عن الكلمة الانكليزية ·

كبرياء قائلاً : «نعم ، كنت في الفيلق الافريقي ، ولقد حاربت مع رومل ! » .

هنيئاً لهم ، لقد حاربوا في براعة ، وكما يقول الالمان ، ان العدو الممتاز صديق ممتاز ايضاً !



الفصل التاسع عشر

الفيلق الافريقي يعبد رومل !

الايطاليون لا يصلحون للحرب ـ رومل يحتقر الضباط الايطاليين
بين رومل وموسوليني

كان روميل معبوداً للفيلق الافريقي، يستمتع بجانب كبير من احترام الرؤساء والمرؤوسين، رغم انهم كانوا يرون فيه رجلاً قاسياً صلباً ليس من السهل التعامل معه !

والواقع ان روميل ـ وان اشتهر في المعارك بدقة الاحساس وسرعة التفطن لاتجاهات العدو، لم يكن كذلك فيما بينه وبين رؤسائه من كبار القادة والمسئولين، فكثيراً ما بدأ في معاملته لهم نافذ الصبر، ذا لسان قاس سليط، لا يرى مالا يحب ان يراه · ولا يحب ان يناقشه احد في امر يصدره، بل لا يطيق ان يسمع من احد من الناس كلمة «مستحيل» ·

واكثر من هذا، كان من العادات المتأصلة فيه انه يملي أوامره وتعليماته على مرؤسيه، غير ملق بالاً الى ما تقضي به الرسميات والتقاليد، كما كان من عاداته أيضاً ان يصطحب معه في تنقلاته بين خطوط القتال، رئيس هيئة اركان حربه، دون ان يترك من يخلفه في مقر قيادته، لحسم ما قد يطرأ من الامور ·

وفوق هذا وذاك كان روميل يولي بعض الامور الصغيرة عناية شخصية كبيرة، كما حدث عند ذهابه بنفسه لمحاولة اسر الجنرال كننغهام، وهي محاولة قلما يقوم بها أي قائد عام سواه ·

هذا الى ان روميل، خارج الميدان، كان رجلاً غير اجتماعي · وقد قيل في تفسير هذا الخلق عنده، أن روميل لم يستفد من حياته كما استفاد منها المارشالية الالمان أمثاله · وذلك لان الحياة لم تتح له من الظروف ما يجعله سهلا لينا يحسن الامتاع والمؤانسة ·

وفيا عدا هذه الملاحظات التي يرددها حاسدوه وخصومه، كان الجميع يقدرون، الى اقصى حدود التقدير، بقية ما توافر له من المزايا والصفات ٠

على اننا لو امعنا النظر في تلك الملاحظات نفسها، لوجدنا انها في الوقت نفسه من جملة محامده ومفاخره، وان أثرها كان ملحوظاً في نجاح قيادته لجنوده وحسن طاعتهم له. ذلك لان اصراره على أن يؤدي عمله بنفسه دون وساطة، جعله دائم الملاحقة لمرؤوسيه من القواد، لكي يملي عليهم أوامره وتعليماته، ويقف بنفسه على كل كبيرة وصغيرة من شئون جبهته ٠ وكان يقوم بذلك في غير تكلف ولا تعمل ٠

وكان من المحتم على كبار الضباط الالمان ان يعدلوا عن نظام الاتصال بالمرؤوسين، وهو النظام الذي كان يستخدمه نابليون، لان الحرب الحديثة جعلت هذا الاتصال مستحيلاً أو كالمستحيل ! ومن الانصاف ان نقول ان الحق معهم في العدول عن هذا النظام ٠ ولكن رومل كان من طراز آخر غير طراز هؤلاء الضباط، فهو الى شجاعته وجرأته وعبقريته، كان محبوباً من جنوده جميعاً الى درجة العبادة، كما كان يمتاز بحاسته السادسة التي اشرنا اليها ٠ ومن هنا كان من السهل التحدث اليه اذا ما فرغ من القتال، وهدأت نفسه، وكثيراً ما عاد فاعتذر عن استقلاله باصدار بعض الاوامر والتعليمات، بغير علم رؤسائه ومرؤوسيه، بل كثيراً ما كان يسخو في اطرائه لجنوده وضباطه، وفي الاعتراف بأي خطأ يقع فيه !

فهل يستطيع أحد بعد ذلك ان يقول : بان الضباط الالمان كان بينهم من هو اولى من رومل بقيادة الحرب في الصحراء ؟! ٠ ان خصومه قبل انصاره، ليشعرون بأن ليس في الجيش الالماني كله من يفوق رومل، أو يضارعه، أو يبلغ نصف مبلغه من البراعة والمقدرة والاقدام !

الايطاليون لا يصلحون للحرب !

وكان الفيلق الافريقي يسوده الانسجام العام ٠ فجنوده جميعاً متشابهون، متفاهمون، ممتلئون حماسة وقوة وشجاعة ٠ ولم تكن كذلك قوات المحور كلها في شمال افريقيا ٠ ويكفي انه كان بينها عدد كبير من الايطاليين !

مساكين هؤلاء الايطاليون فانهم في الغالب ينطبق عليهم المثل العسكري الذي اطلقناه عليهم في الحرب العظمى الاولى، عندما اسميناهم بالحلفاء العاجزين ٠

وكثيراً ما تحدث رومل الى ابنه «منفرد» عن الايطاليين، بالاضافة الى ما كان يقصه

النقيب الدنجر عنهم، وروى له الكثير من قصصهم · ومنها قصة الجند الذين ارغموا منهم على مهاجمة طبرق، فما كادوا يبلغون منتصف الطريق، ويجدون انفسهم بعيدين عن متناول الالمان، حتى القوا السلاح ورفعوا ايديهم مستسلمين، ثم سرعان ما ارتدوا على اعقابهم مذعورين. وأخذوا يصرخون لاهثين قائلين : «يا ماما انهم ليسوا بريطانيين، ولكنهم استراليون !» ·

وقد حدث ان زار رومل بعض الخنادق التي يكمن فيها الايطاليون، عندما قام الاستراليون بهجوم عليهم، واخذ الايطاليون يصرخون ويهوون الى الارض في فزع، مبتهلين الى الله ان ينقذهم من الهول · وحينئذ التفت رومل الى أحد الضباط الايطاليين وقال له : قل لهم ان هذا ليس وقت الدعاء، ولكنه وقت اطلاق النار على الاعداء !»

ويقال ان الاستراليين عندما وقع في ايديهم عدد كبير من الاسرى الايطاليين، لم يسعهم الا ان اطلقوا سراحهم، وأعادوهم الى خطوطهم ومعهم رسالة الى الالمان يقولون فيها : «اننا نريد عدداً مماثلاً من جنود الفيلق الافريقي !»

على انني انظر الى القصة بعين الارتياب · واذكر انه كان يقال ان الالمان قد فعلوا بالايطاليين سنة ١٩١٨ في (مرفي) مثل هذا الذي فعله بهم الاستراليون · اذ ردوا حينذاك جميع الذين اسروهم منهم، بعد ان وضعوا على ظهورهم علامات زرقاء مميزة، وبعثوا معهم برسالة قالوا فيها : «لا حاجة بنا الى هؤلاء الآن، واذا اقتضى الامر فسنأتي بانفسنا لنحصل على عينات من الايطاليين !»

وليس يخفى ما بين هاتين القصتين من تشابه غريب !

وعلى أي حال، يلوح ان رومل كان مقتنعاً بما ذكره أحد الجنود الايطاليين، حين قال له : «لماذا لا تقومون انتم الالمان بتحمل اعباء القتال، وتتركونا نعبد لكم الطرق ؟!»

ولكن رومل لم يكن يرى ان الايطاليين جبناء جميعاً · فلقد حاربت فرقة ارتريا المدرعة على أحسن وجه في الغوبي · ولم تكن فرقة «برسشيا» رديئة الى حد ما · وعدا عن ذلك فقد ابلى الفوج الذي كان يقوده المقدم مونتيرو بلاء حسناً · وكان رومل يرى ان الايطاليين لو زودوا بمعدات جيدة، وكان لهم ضباط ممتازون، فلا شك في انهم يكونون قوة لا بأس بها ·

هذا، والعتاد كالضباط تماماً، لا غنى عنه في الحرب · ولقد كانت الدبابات الايطالية الاولى «كعلب السردين» · كما كانت الدبابات والسيارات المدرعة غير مزودة بأجهزة الراديو، حتى اضطر الايطاليون الى ان يستعملوا الاعلام في المخابرة !

ولابد ان هذا لم يكن ليخفى على موسوليني، وقد جاء في يوميات «تشيانو» ما يؤيد ذلك. كما يؤيد ان موسوليني كان يضمر لقواده، ولكل مواطنيه العسكريين، كل احتقار. والعجيب بعد هذا أن موسوليني كان يتوقع من مواطنيه هؤلاء «أن يعيشوا كالاسود !»

على ان الايطاليين - وان لم يكن بينهم من يستطيع ان يكون اسداً الا ان البعض منهم كانوا يكنون لرومل كل اعجاب وتقدير. ولقد حدث في اجتماع لمجلس الوزراء الايطالي برياسة موسوليني، وكان هذا في اليوم السابع من شباط سنة ١٩٤٢ حدث ان موسوليني، بعد ان انحى باللائمة على القواد الايطاليين، راح يروى للمجلس كيف فتن الجنود الايطاليون برومل، حتى لقد حملوه على اعناقهم، وراحوا يهتفون : «ما دام رومل معنا، فلابد لنا من بلوغ الاسكندرية !» قد يكون من الجائز ان هذا الامر قد وقع مصادفة، ومع ذلك فان رومل كان يبدو لطيفاً مع «اصناف اخرى» من الايطاليين.

رومل يحتقر رؤساءه الايطاليين

اما ضباط القيادة العليا الايطالية فالواقع ان رومل لم يكن لطيفاً قط معهم، بل كان ينظر اليهم بعين الاحتقار، ولقد كاد رومل يذهل حينما علم ان هناك ثلاث درجات متفاوتة في توزيع الاغذية، اكبرها لكبار الضباط واصغرها للجنود. وشد ما كانت دهشته حين علم ان الضباط الايطاليين لا يكادون يعنون بشئون جنودهم، وقد عزا ذلك الى ان الايطاليين ليست لديهم تقاليد عسكرية، والى انهم بفطرتهم لا يميلون الى ان يكون لهم شئ من هذه التقاليد. وليس بدعاً إذن ان ينظر الضباط الايطاليون الى رومل «على انه فظ غليظ القلب يطلب المستحيل دائماً !»

ولما كان رومل، فيما تقضي به الرسميات، خاضعاً لقيادة الايطاليين، لم يكن بد من ان يتعرض لنقد كبار قوادهم. وقد كان الجنرال غاريبا لدى أول رئيس ايطالي لرومل ولكنه كان رجلاً طيباً لطيفاً، على اتم استعداد لان يدع رومل يقوم بما يشاء. ثم جاء بعده الجنرال باستيكو، فكان متعباً لرومل الى حد كبير.

ورغم ان الجنرال بايرلاين يصف باستيكو هذا بانه «لا شئ» غير اننا نرى ان له آراء خاصة ووجهات نظر لا بأس بها. فبعد معركة سيدي رزق في كانون أول سنة ١٩٤١، جاء باستيكو مع كسيلرنغ الى الغزالة، حيث تشاجرا مع رومل، واختلفا معه في شأن رغبته في الانسحاب الى اجدابية، لان هذا الانسحاب سيكون له أسوأ الاثر في ايطاليا، وربما ادى الى

ثورة . ولكن رومل أجاب بقوله : «انني على يقين من انني سأخرج بالفيلق الافريقي سالماً واذا رغب الايطاليون في ان يبقوا حيث هم، فهذا شأنهم !»

وكذلك كان الجنرال باستيكو ممن حاولوا من قبل، ان يحولوا دون تقدم رومل الى مصر !

وحينما تولى الجنرال كونت كافليرو رياسة هيئة اركان حرب الجيش الايطالي، بعد اعتزال بادوليو في كانون أول سنة ١٩٤٠، كان رومل في أول عهده به، يميل الى تصديقه والركون اليه، كما كان يعتمد عليه في امداداته . وكان كافليرو يجيد الالمانية اجادته للايطالية . ولقد وسمه تشيانو في مذكراته «بأنه أحد اللصوص أو قاطعي الطريق، وبانه تاجر جشع استطاع ان يجد السبيل الى قلب موسوليني، وهو على استعداد لان يسير في طريق الاكاذيب والدسائس . ولهذا يجب ان يوضع تحت المراقبة ، حتى لا تؤدي تصرفاته الى متاعب !» . وكذلك وصفه في مكان آخر من مذكراته «بانه لا يعرف الخجل، وبانه قد يحني هامته لاحقر الناس اذ رأى في هذا ما يوصله الى هدفه . كما انه خادم للالمان، وخائن للدوتشي !»

وحينما اقترح موسوليني ترقية كافليرو الى رتبة فيلد مارشال، اسوة بترقية رومل الى هذه الرتبة، وذلك «حتى لا يكون كافليرو بين رومل وكسيلرنغ كما كان المسيح بين اللصوص»، عارض تشيانو هذه الفكرة قائلاً : «اننا اذا رقينا باستيكو سنكون سخرية في أفواه الناس، اما اذا رقينا كافليرو، فان الناس سيشعرون بالمهانة والخجل !»

بين رومل وموسوليني

وبعد ذلك يجئ دور موسوليني نفسه في رياسة رومل . ومن المفيد لمن يزالون على اعتقاد بان الدكتاتوريات في استطاعتها ان تفعل ما تشاء، ان يدرسوا موقف موسوليني من رومل كما سجله تشيانو في يومياته . ففي أيار سنة ١٩٤١ كتب موسوليني احتجاجاً شخصياً لهتلر، بعد ان قرأ الأمر اليومي الذي أصدره رومل للقواد الايطاليين، وانذرهم فيه بأنه سيقدمهم للمحكمة العسكرية ! وفي ٥ كانون أول سنة ١٩٤١ كان موسوليني «فخوراً لأنه أسلم قيادة الجيش للالمان !»

وفي ١٧ منه، عندما سارت المعركة على غير ما يرام، راح ينحي باللوم على رومل ويتهمه بأنه «أفسد الموقف بتهوره .»

وفي ٧ شباط ١٩٤٢ بعد هجوم رومل، أخذ موسوليني يمجده، وينوه بأنه «البطل الذي يستقل دبابته، ويتقدم بها أرتال دباباته المهاجمة !»

وفي ٢٦ أيار كان موسوليني يجد متعة أي متعة في التفكير في الهجوم القادم في ليبيا ٠ وكان يرى «ان رومل جدير بأن يبلغ الدلتا ما لم يجد عائقاً في سبيل ذلك لا من البريطانيين، وانما من القادة الايطاليين» ٠

وفي ٢٢ حزيران كان الدوتشي في حالة جيدة، وكان يتهيأ للذهاب الى أفريقيا ٠ والواقع انه كان يعمل على القيام بذلك الهجوم الحاسم، رغم تحذيرات القيادة الايطالية العليا ٠ وكان يخشى ألا تدرك هذه القيادة أهمية الانتصار الذي أحرزه رومل، ومن ثم تفشل في الافادة منه ٠ ثم يصرح بأنه لا يثق إلا برومل ٠

وبعد ذلك بأربعة ايام كان الدوتشي سعيداً، بهذا التقدم الذي صاحب هذه العمليات العسكرية في ليبيا ٠ ولكنه استشاط غضباً لأن هذه المعركة تنسب الى رومل وحده، ولأن النصر سيبدو المانيا أكثر منه ايطاليا ٠ ثم يقول : «ان ترقية رومل الى فيلد مارشال انما أراد بها هتلر ان يؤكد ان المعركة كانت المانية !»

وفي ٢١ تموز كان موسوليني مرحاً، وكان على يقين من انه سيبلغ الدلتا، حتى انه ترك حقائبه في ليبيا، ثقة منه بأنه عائد اليها عما قريب ٠

وفي ٩ ايلول كان موسوليني «حانقاً على رومل» لأنه اتهم الضباط الايطاليين بافشاء الخطط للعدو ٠

وفي ٢٧ منه اقتنع موسوليني بأن «رومل لن يعود ٠ لأن روحه المعنوية قد هبطت، كما ان حالته الجسمية قد وهنت !»

وفي ٥ كانون الثاني سنة ١٩٤٣ «أخذ موسوليني يعنف كافليرو، ويعرض بذلك الرجل المجنون رومل، الذي لا يفكر في شئ إلا في الانسحاب من تونس !»

ان رومل ليس من طراز كافليرو، وانما هو من طراز آخر يصعب عليه ان يتفاهم مع الدكتاتوريين أو الطغاة ٠

ولقد أحب رومل موسوليني حينما التقى به أول مرة، وذلك لأنه رأى فيه يومئذ «رجلاً يفهم نفسه تماماً ويستطيع ان يصدر أوامر» ٠ وقد توهم رومل عن حسن نية، ان موسوليني صديق له ٠ ولم يدر ان صداقة الدوتشي تروح وتجئ مع الايام ! ٠

ولكن ما يزال ثمة شئ آخر. عن آراء الايطاليين في رومل .

انهم يذكرون ان رومل ماكر حريص وهذا صحيح، ولكن ليس هذا اقوى ما في رومل من صفات ومزايا . فعندما كان رومل يوشك ان يقوم بهجومه المقابل في كانون الثاني سنة ١٩٤٢، لم يشأ ان يخبر رؤساءه الايطاليين بذلك، حتى لا يتسرب الخبر الى احد . وانما كان يطلب الى هيئة اركان حربه ان تبعث بالاوامر التي يصدرها رومل الى القيادة الايطالية العليا، بعد ان يكون الهجوم قد بدأ فعلاً .

وكانت القيادة الايطالية تشعر بالمهانة حين تتلقى هذه الانباء المتأخرة . ولقد طلب رومل لمقابلة رئيسه الجنرال باستيكو، فاجاب رومل بانه في الخطوط الامامية، وانه يسره ان يرى الجنرال باستيكو هناك . ولكن الجنرال لم يذهب، وبعد ذلك ببضعة ايام، علم رومل ان باستيكو قد اقترح سحب القوات الايطالية جميعاً، وعلق رومل على ذلك بقوله : «ان هذا لا يهمنا في شئ، فبقاؤها وانسحابها سيان !»

ومن الامور التي أثارت بغض الايطاليين لرومل، مسألة تقسيم الغنائم، فقد كان هناك اتفاق رسمي وضع شروطه كافليرو، يقضي بان يسلم الايطاليون لحلفائهم الالمان كل ما يقع في ايديهم من غنائم في روسيا، على ان يقوم الالمان بمثل ذلك في شمال أفريقيا ولطالما شكا الايطاليون من ان الالمان لا ينفذون هذه الاتفاقية في افريقيا !

ويقول تشيانو في صيف سنة ١٩٤٢ «ان هناك سخطاً عنيفاً على الالمان من تصرفاتهم في ليبيا . انهم قد انشبوا أظافرهم في كل شئ، ووضعوا حراساً من الالمان على الغنائم والاسلاب. والويل لمن يدانيها.» .. ولكن أهم ما اثار غضب تشيانو ان «كافليرو» وحده قد افلح في ان يحصل على كثير من تلك الغنائم !»

وإذن ، فلم تكن ايطاليا والمانيا خير صديقين كما قيل !

ورغم هذا كله ، لم يسع رومل وهو يدلي برأيه في الايطاليين الى ابنه «منفرد» ـ الا ان يقول في عبارة لاتنم عن الطابع الالماني المألوف : «مما لاشك فيه ان الايطاليين ليسوا شيئاً في القتال . ولكن يجب الا نحكم الامور على اي انسان بما له من صفات عسكرية فقط ، والا لما كانت لدينا اية مدنية » .

الفصل العشرون

آراء رومل في القيادة البريطانية

الألمان يحاربون حرباً نظيفة ـ رومل يكره فرق ألاس أس
معاملة الاسرى

لم يكن موقف رومل من اعدائه موقف القادح المستنكر على طول الخط ، ومن هنا كانت معاملته لاسراه منهم ، اقرب الى معاملة الصديق للصديق ! ٠ ولقد كان رومل ، ككل الماني ، ينظر بعين السخط في اول الامر الى استخدامنا الفرق الهندية في الحرب ضد الاوربيين ثم تغيرت نظرته هذه بعد ان التقى مع الفرقة الهندية الرابعة ، وتبين ان الجندي الهندي ليس اقل من غيره من الجنود اطاعة للاوامر ، او قدرة على الحرب في الصحراء ٠

وقد كان رومل لايحتمل السخرية الهادئة ـ ولو لغرض الدعاية ـ من قبل الانكليز الملونين الذين رافقوا قوات جنوبي افريقيا ، وان كان على علم بان اولئك الانكليز غير محاربين ٠

وكان رومل يرى ان الاستراليين قساة . وانهم اشد قسوة على الايطاليين خاصة ٠ على ان هذه القسوة كانت من النوع الذي يروقه ويعجبه ٠ وقد صرح غير مرة بان الاستراليين جنود ممتازون . وبانه يود لو كانت لديه فرقة منهم ، ولكنه كان يعجب بهم حين يحاربون فرادى ، أما ان يحاربوا جماعة فأن قيادتهم في رأيه لمن اصعب المهام !

ما جنود جنوب افريقيا ، فكان رومل يرى انهم «خامات» لابأس بها ، ولكنهم مازالوا في حاجة الى الصقل والتهذيب . ويرى ان سياراتهم المدرعة قامت بدور كبير في حرب الصحراء ، اذ جربوا اخيرا في العلمين بصورة ممتازة» . أما عن النيوزيلنديين فكان اعجابه بهم قد بلغ درجة متناهية !

ولطالما صرح رومل لابنه منفرد ، ولصديقه الدنجر ، ولغيرهما ، بان النيوزيلنديين «ابدع جنود لدى البريطانيين» !

أما موقفه من البريطانيين انفسهم . فالثابت انه كان يصفهم بانهم «هواة حرب . يمكن الاعتماد عليهم الى حد كبير في العمليات الصغيرة المستقلة عن غيرها ، كما هو شأن قوة مصلحة الطيران الخاصة ، ورجال جحفل الصحراء ؛ فقد كان هؤلاء خيراً من الالمان الذين لم تكن لديهم نفس الثقة . أو ان يظهروا كثيراً من الاقدام خلف خطوط الاعداء» . وكان يصف التشكيلات البريطانية بأن فيها صلابة وشجاعة في الدفاع ، ولكنها ليست مدربة تدريباً كافياً ! » . وقد استثنى من ذلك الفرقة السابعة المدرعة ، وعلى الاخص فوجي حملة البنادق وفوج الخيالة الخفيفة الحادي عشر . وفيما يختص بحرب الدبابات كان يرى ان وحداتنا المدرعة ، ودباباتنا الفردية «تميل الى الاشتراك في القتال والهجوم في جرأة واقدام!»

أما فيما يختص بنظم القيادة البريطانية فكان رومل يتهمها بالبطء ، واضاعة الوقت سدى ، في اصدار الاوامر المكتوبة واعدادها وتوزيعها . وقد بحثت ونقبت كثيراً للوقوف على آراء رومل في القادة البريطانيين ، فلم أقف الا على رأي له في الجنرال ويفل ، قال فيه : ان حملته ضد الايطاليين يجب ان تدرس دائماً على انها أسمى مثل للدقة في التصميم والجرأة في التنفيذ لقائد ليست لديه الا موارد ضئيلة » .

وهكذا يتضح ان رومل كان يقيس منافسيه بمقياس عسكري صرف ، ويحكم عليهم حكماً منزهاً عن الهوى والعاطفة ، ومن هنا لم يعرف عنه انه أبغض واحداً منهم لشخصه ، بل يمكن القول بانه على عكس ذلك أحب كثيرين منهم ، وانه كان يحب النيوزيلنديين على الاطلاق ، أفراداً وجماعات !

حرب الجنتلمان !

وقد ادلى الجنرال يوهان كرامر ـ آخر قائد للفيلق الافريقي ـ الى مندوب صحيفة «التيمس» بعد أن وضعت الحرب اوزارها بحديث قال فيه :

« ان الحرب في شمال افريقيا كانت حرب الجنتلمان » .

وكان روميل فخوراً بتلك الصفحة النظيفة لسلوك جنوده وجنودنا ، ذلك لانه يرى وجوب مراعاة السلوك السليم السوي ، واتباع القوانين العسكرية . ولم يكن ذلك غريباً منه ، فان الآداب الحربية كانت مرعية تماماً من السواد الاعظم من الضباط النظاميين ، وبخاصة ممن التحقوا منهم بالخدمة العسكرية قبل سنة ١٩٣٣ . على ان هناك بعض استثناء من هذه القاعدة فيما يختص بفريق من أصحاب الرتب العليا ، أمثال كيتل وبودل وغيرهما ممن باعوا انفسهم لهتلر . وكانوا على استعداد تام لان ينفذوا أكثر أوامره قسوة وحماقة ، حتى إذا كان رأيهم فيها غير ذلك !

ومن هنا كانت دهشتنا شديدة حين رأينا آداب الفروسية معمولاً بها في دقة واضحة من قبل روميل وجنوده .

ولم نكن نعرف شيئاً من أمر العداء المستحكم بين حزب النازي والجيش في المانيا ، أو بعبارة اخرى حقد النازي على الجيش ، واحتقار الضباط للنازي ولكثير من القادة الخائري العزيمة أمام طغيان هتلر ، فكان من الطبيعي ان يختلط الامر علينا ، وان نضع الالمان جميعاً في كفة واحدة .

وليس يخفى ان الامم تؤخذ بجرائم حكوماتها ، وقد كنا نعلم ان المانيا اسلمت قيادها لهتلر ، كما اسلمت ايطاليا قيادها لموسوليني ، فلم يكن بدعاً ان نعد الالمان والايطاليين جميعاً من المجرمين . وهل كان الالمان يتوقعون منا نحن أعداؤهم أن نميز من يلبسون زي الجيش منهم ، عمن يلبسون زي النازي ؟!

وأياً كانت أعمال الجيش الالماني في بولندا وروسيا ، فلاشك في انه قد حارب حرباً نظيفة في جميع الميادين . بل لاشك في ان حربه العالمية الثانية ، كانت اكثر نظافة من حربه العالمية الاولى . وربما كان ذلك لان الضباط كانوا على علاقة طيبة بالجنود ، أو لأن الجنرال فون سيكت ومن جاءوا بعده ، قد بذروا في الجيش تقاليد جديدة أفضل ، فلم يحدث في الحرب الاخيرة ماعهدناه في الحرب الاولى من قتل الاسرى !

وعلى أي حال ، سرعان ماادرك البريطانيون ان الفيلق الافريقي يريد ان يحارب وفقاً للقوانين الحربية السليمة . ومن أجل هذا وضعت الثقة كلها في روميل ، الذي كان المثل الأعلى للفيلق الافريقي في كل شيء . والحق ان روميل كان جديراً بهذا كله وبما هو اكثر منه !

ويقول الجنرال بايرلاين : «اننا نحمد الله ، على انه لم يكن بيننا في الصحراء جنود من (فرق الدفاع)[٢١] والا فالله وحده يعلم ماذا كان يحدث · ولاشك في ان الحرب ماكانت لتجري بالصورة التي جرت بها » ·

وحدثني مرة اخرى فقال : «ان اي ضابط الماني لم يكن يستبعد ان يعين قائداً لفرقة من «فرق الدفاع» «الاس أس» في الميدان ، ولكن المستبعد حقاً ان يستطيع اخضاعهم له ، والزامهم بتنفيذ أوامره ، مهما تكن قدرته وبراعته ، وويل له ان حاول الاصرار على ذلك ، فأقل ماينتظر ان يبلغ أسمه الى هملر - المشرف الاول والأخير على تلك الفرق - فيكتب عنده في القائمة السوداء ! »

وحدث يوماً ان هبط الجنرال بايرلاين احدى محطات السكك الحديدية ومعه ملء قطار من جنوده · وهناك رأى بعض جنود فرقة الدفاع يسوقون أمامهم قطيعاً من الاسرى الروسيين ، ويضربونهم بمؤخرة بنادقهم · ولم يطق السكوت على هذا المشهد الوحشي ، فحاول منعهم من الاستمرار فيه ، وما كاد يفعل حتى تصدى له واحد من جنود فرقة الدفاع وقال له في وقاحة :

« ومن تكون انت ؟ وما شأنك وهذا ؟ » فلما انبأه بأنه جنرال في الجيش ، هز كتفيه وقال :

« اننا لانتلقى أوامرنا من جنرالات الجيش ، اننا جنود الدفاع · نتلقى أوامرنا من هملر وحده ! »

وأخذت الجنرال حمية العسكرية والفروسية ، فصرخ في ذلك الجندي الوقح قائلاً : «اذن تصعد الى هذه الشجرة ، لانني ، ان لم تطع ما آمرك به ، فسأشنقك ويتدلى جسمك منها خلال ثلاث دقائق !»

ولما كان الجنرال يصحب قطاراً مليئاً من جنوده ، لم يسع جندي فرقة الدفاع ، الا ان يكف عن ضرب الاسرى ، ويقدم اعتذاره للجنرال في الحال !

ولكن لم يمض اسبوعان حتى كان اسم فريتس بايرلاين بين الاسماء التي تحتويها قائمة هملر السوداء ، ويضيف بايرلاين الى ذلك قوله : «ولو ان مؤامرة ٢٠ تموز افلحت لوقعت حرب اهلية بين فرق الدفاع وبين الجيش في ايطاليا» ·

---

(٢١) فرق الدفاع هي التشكيلة النازية التي عرفت باسم فرق اس. اس. **S.S.** والتي اشتهرت بالقسوة والعنف

لم يكن أفراد الفيلق الافريقي اذن يضربون الاسرى ، بل كانوا على عكس ذلك يعاملونهم بشيء من الملاطفة واللين يذكرنا بعهود الفروسية القديمة ![٢٥]

ولقد التقيت في (غمبوط) بعد معركة أيار سنة ١٩٤٢ ، بأحد مصوري الجيش ، وكان اسكتلندياً ، وقد أفلح في الافلات من قبضة الالمان بعد ان اسروه بساعتين · فكان مما قاله لي : (أي قوم هؤلاء الالمان ؟ انني لا أكاد اصدق مارأيت · لقد جاءني ضابط الماني ، ثم طلب مني آلة التصوير ، فاعطيته اياها طبعاً معتقداً كل الاعتقاد باني فقدتها الى الابد ، فهذا أقل ماينتظر في مثل هذه الحال ، وشد ماذهلت ، حين وجدته يلاطفني وكأنه صديق حميم قديم ، ثم يسجل بجانب اسمي وصف تلك الآلة ، وتاريخ تسلمها مني · ويعدني بان ينظر في أمري وأمرها مع رئيسه المسئول عقب الفراغ من المعركة !) ·

بهذه القصة وامثالها كنت اتحدث عن معاملة الالمان للاسرى ، ثم جاء دوري انا الآخر ووقعت اسيراً في ايدي الالمان ، فماذا رأيت ؟ رأيت كثيراً مما هو أروع من ذلك · وكانت القصة الاولى قصة الجندي الالماني الذي فتشني · فقد رد الي في ادب جم علبة السجاير الذهبية التي وجدها بين ملابسي · ثم تلطف في الاعتذار من عدم استطاعته ان يرد الي ناظوري قائلاً : «ان علبة السجائر لا خير في تركها معك ، اما هذا المنظار فأنت تعلم انه من المعدات العسكرية ! »

وهكذا كانت معاملة جميع الاسرى في المعتقلات الالمانية ، اللهم الا اذا كان سوء حظ الاسير قد اوقعه في ايدي الايطاليين !

ومما هو جدير بالتسجيل ، ان الحوادث السيئة التي وقعت للاسرى البريطانيين في المعتقلات الالمانية بالصحراء ، كان اكثرها راجعاً الى اخطاء البريطانيين انفسهم !

وقد حدث ـ مثلاً ـ اننا اصدرنا امراً يقضي بالا يقدم الطعام للاسرى الا بعد استجوابهم ، وكان الهدف الذي يرمي اليه هذا الامر غاية في السذاجة فالمفهوم ان الاسير اذا استجوب عقب وقوعه في الاسر مباشرة ، فقد يؤدي ذلك الى نسيانه ، وهو في غمرة ذهوله ، معلومات قد تكون على جانب كبير من الاهمية · اما اذا استجوب بعد ان يأكل ويشرب ويدخن سيجارة ، فانه يكون قد ذهب عنه الروع ويستطيع ان يجمع شتات ذهنه والادلاء بما لديه من معلومات ·

---

(٢٥) لانقر المؤلف على هذا ابداً ، فلقد كشفت الحرب العالمية الثانية على مدى تعطش الالمان الى الدماء ، ومدى استهتارهم بكل القيم والمعايير · فالفظائع التي ارتكبوها في البلدان التي احتلوها ، وعلى الاخص الاتحاد السوفيتي وبولندا وغيرها ، قد دللت على وحشيتهم المتناهية وبرهنت على تفوقهم على الطليان والفرنسيين في هذه الوحشية ·

ولم يكن من الحكمة في شيء ان يطبع هذا الامر ، ويوزع في المناطق الامامية ، حيث يحتمل وقوعه في ايدي الالمان ٠ ولم اتحقق مدى مافي ذلك التصرف من حماقة ، الا بعد ان بلغت مطار التميمي ، وقد كاد يقتلني التعب والظمأ والجوع ٠

لقد امضيت اثنتي عشرة ساعة واقفاً في السيارة تحت اشعة الشمس المحرقة ، دون طعام ولا ماء ، ولم اكن ذقت طعاماً قبل ست ساعات او سبع من وقوعي في الاسر ، منذ اربع وعشرين ساعة ٠ فلا عجب ان انصرفت كلياً الى التلهف على قطرات من الماء ، وكسرة من الخبز الجاف !

ولم تكن حال زملائي الاسرى خيراً من حالي بكثير ! ٠٠ ولكن نقمتنا على الالمان الذين تركونا نعاني كل هذا الحرمان ، لم تكن شيئاً مذكوراً ، بالقياس الى نقمتنا على من اصدروا ذلك الامر السخيف من قادتنا الاجلاء ! ٠

فقد صرح لنا به الضابط الالماني الشاب الذي كان يشرف على نقلنا ، وكان يجيد الانكليزية ، اذ قال لنا بلهجة تقطر اسفاً : «آسف ياسادة ، ليس باستطاعتي ان اقدم لكم طعاماً أو شراباً ٠ فما دمتم في اوامركم المطبوعة قد ابيتم الا ان يتضور الاسرى الالمان جوعاً ، ويحترقوا ظمأ الى ان يبلغوا القاهرة ، ويتم استجوابهم هناك ثم فاننا مضطرون الى ان نعاملكم بالمثل ، فلن تنالوا شيئاً من الطعام او الماء الا بعد استجوابكم في بني غازي ! والا اذا ماوجدت الحكومة البريطانية ان من الأصلح لها أن تلغي هذا الأمر ، وقد طلب اليها ذلك) ٠

وفعلاً فقد الغت الحكومة البريطانية ذلك الأمر وقد تحققنا من الغائه حين بلغنا (درنة) في اليوم التالي ، فأعطانا القوم بعض الشراب ، ووجبة من الطعام قبل الاستجواب !

وقد يعد هيناً ذلك البلاء الذي ترتب على اصدارنا ذلك الأمر ، اذا ، قارنا بينه وبين النتائج ، التي تربت على أمر بريطاني آخر ، وجد مع ضابط فدائي اسر اثناء قيامه بهجوم على طبرق في آب سنة ١٩٤٢ ٠

ولم اطلع على النص الانكليزي لهذا الأمر ، ولكنه كما علمت كان يرمي الى تأكيد أهمية تكبيد العدو خسائر في الارواح ، وان اسر جنوده ليست له مثل هذه الاهمية ٠ ولكن الترجمة الايطالية لهذا الأمر جعلت معناه وجوب قتل الاسرى اذا لم يمكن نقلهم في سهولة !

ومهما يكن من خطأ الترجمة الايطالية ، فقد كان على حضرات ضباط أركان الحرب الذين يتولون أصدار مثل ذلك الامر ، ان يتذكروا ان الظلال الجميلة للمعاني ، قد لايوجد لها

نظير في اللغة التي تترجم اليها ، كما كان عليهم ان يتذكروا أن اوامرهم معرضة لان تقع في ايدي العدو ، وحينئذ يدفع مواطنهم من الاسرى ، ثمن تلك الحذلقة غالياً · وهذا هو ماحدث مع الاسف الشديد ، إذ وضعت الاصفاد في ايدي جنودنا المأسورين ، بعد أشهر من الاغارة على دييب ، وذلك لان الاوامر التي أصدرناها بوضع القيود في ايدي الالمان ، وقعت في ايدي الالمان انفسهم !

هتلر لايرحم اعداءه

وكانت النتيجة المريرة أن أصدر هتلر أمره المشهور في ١٨ تشرين أول سنة ١٩٤٢ وفيه يقول :

«من الآن فصاعداً يجب ان يقتل جميع الاعداء الذين يحاربون الالمان في أوربا أو افريقيا سواء أكان أولئك الاعداء في ملابسهم العسكرية أم كانوا من جنود التخريب والفدائيين ، وسواء أكانوا مسلحين أم غير مسلحين · وليس ثمة أي فرق بين هؤلاء وبين الجنود الذي تنزلهم السفن الى الشاطىء أو الذين ترمي بهم الطائرات للقيام باعمالهم العسكرية ، أو يهبطون بالمظلات · ويجب الا يقبل منهم أي عذر ، ولو أبدوا استعدادهم لان يسلموا انفسهم قبل قيامهم بأي عمل عدواني !»

وفي فقرة اخرى من هذا الأمر ، استثنى هتلر ممن يجب تطبيقه عليهم ، جنود العدو الذين يؤسرون أو يستسلمون في المعارك العادية (كأعمال الهجوم الواسع النطاق ، وعمليات النزول الى الشاطىء ، أو الجنود الذين تحملهم الطائرات) ·

وختم هتلر ذلك الأمر بقوله : وسأحمل تبعة عدم تنفيذ هذا الأمر أمام القانون العسكري ، كل القواد والضباط الذين يتجاهلون واجبهم في ابلاغه الى الجنود ، أو الذين يحجمون عن تنفيذه ايما كانت الاسباب »

وفي الثامن عشر من شهر حزيران سنة ١٩٤٦ مثل الجنرال فستفال أمام محكمة نورمبرغ ، وتضمن استجوابه مايلي :

س - هل كنت في الجبهة الافريقية ؟

ج - نعم ، ولبثت هناك اكثر من سنة ونصف السنة ·

س - وكيف كان سير القتال ؟

ج - استطيع ان استطيع ان اجيب عن ذلك في عبارة واحدة ، هي ان المعارك كانت تسودها كلها روح الفروسية ولا غبار عليها ·

س - من كان رئيسك ؟

ج - المارشال رومل ·

س - ألم يصدر أوامر او يتخذ عقوبات فيها خرق لقوانين الحرب ؟

ج - كلا ·

س - اي منصب كنت تشغله في تلك الجبهة ؟

ج - كنت رئيس أركان حرب رومل أخيراً ؟

س - اذن فقد كنت على اتصال دائم به ؟

ج - نعم

س - هل تذكر الامر العسكري الذي اصدره هتلر في ١٨ تشرين اول ١٩٤٢ ؟

ج - نعم اذكره ·

س - هل تسلمتم هذا الامر في الجبهة الافريقية ؟

ج - نعم تسلمنا هذا الامر في الصحراء بالقرب من سيدي براني ، على يد ضابط اتصال ·

س - ماذا كان موقف المارشال رومل حين تسلم الامر ؟

ج - لقد قرأت الأمر أنا والمارشال واقفين الى جوار سيارتنا ، فأتفقنا على الا ننشره واحرقناه في المكان الذي كنا فيه · وكانت لدينا أسباب وجيهة لذلك ، رغم علمنا بالبواعث القوية التي دفعت هتلر الى اصداره ، ومن بينها الأوامر المماثلة التي أصدرها البريطانيون ووقعت في ايدينا · فقد قالوا في أحد هذه الاوامر :

اقتلوا الألمان حيثما وجدتموهم !

وأصدر لواء بريطاني مدرع أمراً صريحاً بالا يعطي الاسرى أي شيء يشربونه ! ·· ورغم هذا كله لم يشأ المارشال رومل أن يبلغ ذلك الأمر الذي أصدره هتلر الى جنودنا ، تلافياً لما يؤدي اليه ذلك من فظائع يقترفها الفريقان · فكان ان احرقناه بعد مضي عشر دقائق على تسلمنا اياه · وما أظن ان قائداً في الشرق أو في الغرب ،كان يستطيع ان يفعل حينذاك أنبل مما فعلناه ! والحقيقة ان رومل لم يكن الجنرال الالماني الوحيد الذي تجاهل مثل ذلك الأمر واضرابه ·

وكذلك سئل الجنرال فستفال عن الحكاية الغريبة التي رويت عن ابن اخت الفيلد مارشال الكسندر ، الذي اسره جنود رومل خلال اشتراكه في بعض الاعمال الفدائية . فأجاب الجنرال فستفال بقوله :-

في خريف سنة ١٩٤٢ وقع في الاسر وراء الخطوط الالمانية فدائي بريطاني شاب ، كان يلبس قبعة من قبعات الفيلق الافريقي ، ومعه مسدس الماني . وكان المفروض ان يقتل ذلك الفدائي رمياً بالرصاص لمخالفته قوانين الحرب . ولكن المارشال رومل اصدر أمره بأن يعامل هذا الفدائي كما يعامل بقية الاسرى العاديين . وذلك لان ذلك الفدائي ابن اخت المارشال الكسندر ! وحينما اقترح على رومل أحد ضباطه بأن يطلق الرصاص على ذلك الاسير ، صرخ رومل في وجهه قائلاً : «يالك من أبله ! .. ألم تعلم بأنه ابن اخت المارشال الكسندر ؟ . هل تريد فرقاً اضافية اخرى يحاربنا بها البريطانيون ؟ »

ومن الطريف ان ذلك الفدائي الأسير لم يكن من أقارب الفيلد مارشال الكسندر . ولكن رومل وفستفال قد صدقا ادعاءه ذاك . وقد روى رومل لاسرته قصة ذلك الفدائي على ذلك الاساس !

ولا يتسع المقام لسرد كل القصص التي تروى عن حسن معاملة رومل للاسرى ، وهي كلها تحسب من حسناته ومزاياه . ومن أروع تلك القصص مارواه لي أمير اللواء ج.هـ. كلفتن الذي قاد اللواء النيوزيلندي في احدى المعارك فأسره رجال رومل ، وأودعوه في معسكر الاعتقال التاسع والعشرين . وفي الليل حاول كلفتن الهرب من المعتقل بأن أدلى نفسه من شباك الطابق الثاني الى جدار يقع وجهاً لوجه أمام مكان الحرس ، وإذ أحس الحارس بوجود حركة بالقرب منه أدار كلفتن وجهه الى الجدار ، حتى اذا مالبتعد الحارس عن المكان ، أخذ يزحف على بطنه داخل منطقة الاسلاك الشائكة ثم واصل سيره بسرعة هائلة فبلغ محطة «بونت دوليو» ومن هناك استقل القطار الى ميلانو وعندما وصل محطة «كومو» وقع في غلطة فاضحة . فقد عزم على ان يتبع الطريق التي تمر بمدينة «فيلاديست» - كما حاولت أنا ذلك - ومن هناك يجتاز الحدود الجبلية الى سويسرا .

ولكي لايذهب وقته سدى ، فقد استأجر عربة من محطة «كومو» وفي اللحظة التي كان يحاول الصعود اليها ، اطبق عليه شرطيان كانا يراقبان حركاته من قبل ، وهكذا اعيد الينا كلفتن ثانية ومن هناك نقل الى المانيا في عربة قطار يحرسه فيها جنديان ، وقد حاول المروق من نافذة العربة أثناء سير القطار .

وعندما التقيت بارملة روميل كان اول سؤال وجهته هو قولها هل :
تعرف أمير اللواء كلفتن ؟ اين هو الآن وهل استطاع الافلات من الاعتقال ؟ لقد كان زوجي يحمل رأياً طيباً عنه وكان يتوقع هربه من ايطاليا دائماً » .

ولكي اوجز في بيان الروح التي كانت تسود حرب الصحراء ، أنقل هنا بعض ماأورده فون رافنشتين عن ذلك في مذكراته ، قال : « حينما بلغت القاهرة ، استقبلني أحد مساعدي الجنرال اوكنلك ، في لطف ملحوظ ، ثم اوصلني الى الجنرال اوكنلك نفسه في مكتبه . فصافحني وقال : انني اعرف اسمك جيداً . لقد حاربت انت وفرقتك حرب الفروسية ، واحب ان اعاملك على احسن صورة ممكنة» .

ومضى فون رافنشتين فقال : وقبل ان ابرح القاهرة بلغني ان الجنرال كامبل ، قد منح وسام صليب فيكتوريا ، فاستأذنت في ان اكتب اليه مهنئاً ، وسرعان ماحصلت على هذا الاذن . ولاتزال عندي صورة من الرسالة التي كتبتها اليه وهي :

«العباسية في ١٠ / ٢ / ١٩٤٢

عزيزي الفريق كامبل

«لقد قرأت في الصحف انك كنت خصمي الشجاع في معركة الدبابات عند سيدي رزق في يومي ٢١ و ٢٢ تشرين الثاني سنة ١٩٤١ . ولقد كانت فرقتي الحادية والعشرون المدرعة ، هي التي تنازل فرقتك السابعة المدرعة التي اكن لها أعظم الاعجاب والتقدير . ان مدفعيتك قد جعلت القتال عسيراً علينا ، ولن انسى قط القذائف التي اسقطتها حولنا ..

«ان زملائي من الالمان ليبعثون اليك بأحر تهانيهم على منحك وسام صليب فكتوريا .

«وتقبل تحيات من كان في الحرب عدواً لك» .

فون رافنشتين

ولقد قتل كامبل بعد ذلك بقليل ، عندما انقلبت سيارته عند «بقبق» ، وما أظن انه قد تلقى هذه الرسالة . ولو انه تلقاها لفرح بها !! .

ايزنهاور يحتقر الاسرى

وهناك رايان مختلفان في المحافظة على روح الفروسية في الحرب ٠ وانا اكتفى هنا برأى للجنرال ايزنهاور ذكره في كتابه «الحرب الصليبية في اوربا» فقال :

«عندما جيء الينا بفون ارنيم من الجزائر في طريقه الى المعتقل ، راى بعض الضباط في هيئة اركان حربي ، ان عليَّ - مراعاة للتقاليد الحربية التليدة - ان آذن له في ان يزروني ٠ ولكني رأيت ان تلك التقاليد ، كان لها مايبررها في العهود الماضية حين كان المحاربون اكثرهم من المرتزقة ٠ فكانوا يحاربون رغبة في المال او رغبة في القتال ، دون ان تكون هناك عداوة بين الفريقين ، ومن هنا كان القائد الذي يقع في الاسر في القرن الثامن عشر ، ينزل لدى اسيره ضيفاً معززاً مكرماً ، ويبقى كذلك اسابيع او شهوراً ٠٠ ولكن هذه الحرب العظمى الثانية ، فيما ارى ليس فيها مجال لمثل تلك العواطف ٠ وانني لازداد يقينا يوماً بعد يوم ، بان القوى التي تدافع عن الصالح الانساني وحقوق الانسان ، قد واجهتها في هذه الحرب مؤامرة شريرة لم يحدث مثلها من قبل ، فلا ينبغي لذلك ابداء أي تهاون في عقاب القائمين بها ، مادمنا مؤمنين بأنه لاسلامة للعالم الا بالقضاء على مؤامرتهم٠ وعلى هذا ، لم اسمح قط بأن يزورني ، ولا بأن يراني ، أحد من اولئك القواد الاعداء الاسرى ، ولقد اتبعت هذا الاسلوب حتى نهاية الحرب ٠ فلم اتحدث الى جنرال الماني واحد ، أللهم إلا الفيلد مارشال بودل الذي وقع شروط الاستسلام في ريمس سنة ١٩٤٥ ، بل لقد حرصت في ذلك الحين على الاكتفاء في حديثي معه بكلمات اوجزت فيها كل ماالراده ، من انه سيكون المسئول الأول عن تنفيذ شروط التسليم » ٠

والجنرال ايزنهاور رجل حكيم طيب ، لايمكن ان يختلف معه الانسان مختاراً ٠ ولكنني رغم ذلك اقرر ان هناك كثيرين من كبار القواد مازالوا يرون ان تلك التقاليد الحربية الماضية جديرة بالتقدير والاجلال ، وتستحق البقاء ، ولا سيما اننا ، بعد انتهاء الحرب ، لابد لنا من أن نعيش معاً في عالم واحد يسوده السلام !



الفصل الحادي والعشرون

رومل يدق أبواب الاسكندرية

الانكليز يقررون الانسحاب الى العراق - مونتغمري يؤجل الهجوم
لِمَ لم ينسحب رومل ؟

تركنا رومل في نهاية شهر حزيران ، يدق أبواب الاسكندرية ، وقد وجد نفسه إذ ذاك في مركز لاعهد له بمثله في الصحراء · أو - بعبارة أصح - وجد أعداءه في مركز منيع ليس من السهل ان يزحزحهم عنه !

فقد كانت ميمنة البريطانيين تشرف على البحر ، وكانت ميسرتهم تقع على مدى ٤٠ ميلاً الى الجنوب ، أي على رمال منخفض القطارة التي لايمكن اجتيازها ·

وقد وجد «رندال بلنكت» نفسه غير مرغوب فيه من لدن مركز قيادة القاهرة . عندما نجح في سحب سياراته المدرعة عبر واحة «سيوة» اثناء عملية الانسحاب · وليس من شك في أن الالمان لم يكونوا يتوقعون أن يكون مركز البريطانيين على ذلك النحو الذي بدا لهم أخيراً ، من المناعة والاستعداد ·

والواقع أن موقف الجيش الثامن ، في ذلك المركز ، كان أعظم من أن يوصف بأنه موقف دفاع · وكان ذلك التحول السريع اشبه بالمعجزات · فحتى ذلك الحين كان الشعور السائد في انكلترا ، أن رجال الجيش قد ارتدوا عن الحدود المصرية مهزومين مدحورين · وان

الخوف والخور قد استوليا على قلوب الجنود المرابطين في العلمين . وفي الوقت نفسه راح المسئولون من رجال الجيش في القاهرة ، يحرقون جبالاً من الوثائق العسكرية وغيرها ، ويعدون العدة للتقهقر الى فلسطين او شرق أفريقيا ، بعد أن فقدوا الأمل ، ونال منهم الرعب والفزع أي منال ، واذ ذاك انتشرت الاسطورة المحبوبة : لقد هبط مونتغمري من السماء ، وقد خلق المعجزة الساحرة ، بأن احال الاندحار الى انتصار، غير أن تلك الاسطورة لم تكن محببة الى رجال الجيش الثامن ، بل انها في الواقع كانت مناقضة للحقائق وللاعمال التي قام بها ذلك الجيش .

الانكليز يقررون الانسحاب الى العراق

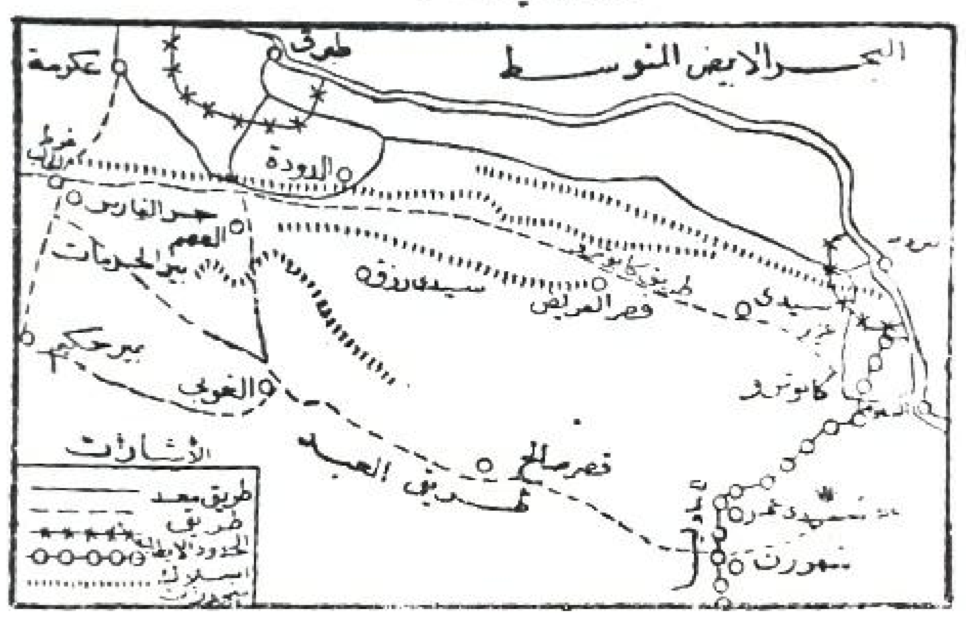
وفي ذلك اليوم الذي عرف بأربعاء الرماد ، نظراً لما احرق فيه الكثير من الوثائق ، أخذت السلطات البريطانية في ترحيل كثير من المدنيين والنساء . وغادر الاسطول مياه الاسكندرية حتى لايكون هدفاً مباشراً لقنابل الطائرات المغيرة ، واتخذت الاستعدادات للدفاع عن الدلتا اذا افلح الالمان في اختراق خطوط العلمين ، بل تهيأ البريطانيون للانسحاب من الدلتا بعد ذلك ، على أن يواصلوا القتال خلال انسحابهم ، في فلسطين ، أو العراق اذا اقتضى الامر ذلك . وكانت هناك خطط واستعدادات اخرى للطوارىء ، الفت للقيام بها هيئات عسكرية خاصة. ومما لاريب فيه أن خططاً اخرى كانت تعد لمواصلة القتال في كندا ، اذا ماارغمت الحكومة البريطانية على مغادرة انكلترا .

والواقع أن الجنرال اوكنلك لم يكن اكثر ميلاً للتخلي عن العلمين من المستر تشرشل للجلاء عن لندن، ويمكن القول بأن الجيش الثامن ظل طوال شهر تموز، يواصل هجومه على العدو قصد انتزاع المبادءة منه، وتحطيم مراكزه. وقد بدأ ذلك الهجوم في اليوم الثاني من شهر تموز، أي في اليوم التالي مباشرة لفشل رومل في الهجوم على العلمين، واستمر القتال والالتحام بين الفريقين بضعة أيام، وما منع الفيلق الثالث عشر أن يواصل تقدمه إلا نقص الاحتياطي الذي لديه !

وفي اليوم العاشر من شهر تموز تمكنت الفرقة التاسعة الاسترالية من الاستيلاء على مركز (تل العيصي) المهم غربي العلمين، والاحتفاظ به ضد الهجمات المضادة القوية المتكررة. وفي الرابع عشر من شهر تموز قامت الفرقة النيوزيلندية واللواء الهندي الخامس بهجوم ليلي، انتهى بالاستيلاء على مركز حيوي جديد هو هضبة الرويسات. وفي ليلة اليوم السادس عشر من شهر تموز استولى الاستراليون على هضبة (المخاض) الى الجنوب !

ولقد رد رومل بعنف على توغلنا في خطوطه، ولكننا قمنا برد هجماته على هضبة الرويسات في يومي ١٨ و ١٩. وبعد يومين اثنين كان الاستراليون يقومون بالهجوم في الشمال، في حين كانت الفرقة النيوزيلندية، بتأييد بعض قواتنا المدرعة، تقوم بمحاولة جريئة لدق اسفين في مركز العدو وشطره الى شطرين. ورغم فشل هذه المحاولة، وهزيمة قواتنا المدرعة، كنا قد استولينا على أماكن لها قيمتها !





وفي شمالي تل العيصي قامت قواتنا بهجوم كبير أيضاً، ولكن الالمان تمكنوا من صده بهجوم مضاد قوي. وقد قيل ان مرد الفشل الذي منيت به قواتنا في ذلك الهجوم، هو ان المشاة لم يفلحوا في تطهير الثغرات التي فتحناها بين حقول الالغام، لتتقدم دباباتنا عبرها. ولكن السبب الأول لذلك الفشل هو اننا لم يكن لدينا العدد الكافي من الجنود المدربين الذين يستطيعون ان يحتفظوا بقوة الهجوم واندفاعه !

مونتغمري يؤجل الهجوم

وفي اليوم الثلاثين من شهر تموز، قرر الجنرال او كنلك، على مضض منه، بان ليس في استطاعته القيام بعد ذلك بأي هجوم الا بعد منتصف ايلول، أي بعد ان يكون قد تسلم الفرقة الرابعة والاربعين التي وصلت أخيراً من انكلترا، واعيد تسليحها بدبابات أمريكية متوسطة الحجم، والفرقة العاشرة المدرعة التي يعاد تدريبها وتزويدها بالعتاد .

وعلى الرغم من ضغط الوزارة البريطانية فيما يختص بتعجيل الهجوم، فلم يسع الجنرال الكسندر والجنرال مونتغمري، حين تشاوروا في هذا الشأن، الا ارجاء الهجوم، لأكثر من شهر!

ولا يفوتنا ان نذكر هنا ان الجنرالين الكسندر ومونتغمري، قد توليا القيادة في ١٥ آب سنة ١٩٤٢ .

وكان مفهوماً ان الجنرال مونتغمري سيكون لديه في ذلك الموعد الذي حدد للهجوم، فرقتان آخريان، وبعض الدبابات والمدافع الجديدة التي لم يشهدها الجيش الثامن من قبل .

ولا ريب في ان ذلك الارجاء الذي عمد اليه مونتغمري، قد برره فيما بعد، بانه قد استفاد من تينك الفرقتين، وتلك الدبابات الجديدة الى أقصى حد، حين بدأ هجومه على رومل، ذلك الهجوم الذي انتهى باندحار المحور على الصورة المعروفة. على انه مما لا ريب فيه أيضاً ان ثقة مونتغمري بنفسه تلك الثقة الهائلة، كان لها أثرها السحري في جنوده، كما انه كان قائداً جديداً. وبذلك اثار في نفوس جنوده حب الاستطلاع ثم الاعجاب. ولا شك ان مونتغمري خليق بالاعجاب !

وعلى أي حال، فليس ثمة ما يحملنا على أن نغلو في الحديث عن مواهب مونتغمري الشخصية، الى حد اغفال الاعتبارات الاخرى التي أدت الى ذلك النصر العظيم . وليس حقاً ان يقال بان الجيش الثامن لم يكن قوة محاربة موجودة حينما تسلم مونتغمري قيادته. فهذا الجيش نفسه قد تمكن قبل ذلك من ان يأسر سبعة آلاف من الأعداء في شهر تموز السابق. كما تمكن قبل ذلك من وقف زحف رومل على الدلتا، ومهد السبيل للقيام بهجوم كبير، لم يستطع هو اتمامه في ذلك الحين لنقص في العدد والعدة، لايد له فيه .

ومما هو جدير بالذكر، ان الالمان انفسهم لم يبخسوا مواقف الجيش الثامن حقها من التقدير، وقد قال لي الجنرال باير لاين: «كثيراً ما اخذتنا الدهشة، واضطربت خطوطنا للطريقة التي هاجمتونا بها طوال شهر تموز. ولقد اوشكتم ان تنجحوا في اقتحام مركزنا بضع مرات بين اليوم العاشر واليوم السادس والعشرين من ذلك الشهر، ولو انكم واصلتم الهجوم بضعة ايام اخرى لحالفكم النجاح التام» .

ويمضي باير لاين فيقول : «لقد كان اليوم السادس والعشرين من شهر تموز يوماً حاسماً. فلم تكن لدينا في ذلك الحين اية مؤونة لمدفعيتنا الثقيلة، وصمم رومل على الانسحاب الى الحدود اذا استؤنف القتال ..»

وما عدا الاعتبارات الشخصية نقول، لقد كان من الخير لنا والضرر لرومل، ان ذلك القتال لم يستأنف. ذلك ان رومل رغم قصر خطوط مواصلاته، وتركزه في موقع دفاعي طبيعي حصين، كان في حاجة ماسة الى قدر كبير من المداورة والتراجع. فهو على أكثر احتمال كان يستطيع تفادي الهزيمة الساحقة التي ادركته، منذ ان لم يعد هنالك اي مانع سياسي أو نفساني يحول دون تراجعه عن الحدود .

وأياً كانت الحال فان مصيره النهائي كان قد أرجئ ، بعد ان اصبح من اللازم علينا الاستعداد في مواقع تبعد عن مراكزه ثلثمائة ميل الى الغرب .

والحق يقال ان استعداداتنا تلك ما كانت لتنجز قبل الانزال الذي قام به البريطانيون والامريكيون في شمالي افريقيا في الثامن من شهر تشرين الثاني . ففي تلك الحالة أدرك رومل الخطر، فانكفأ الى تونس على الفور .

لِمَ لَمْ ينسحب رومل ؟

وقد يسأل سائل بعد ذلك : لماذا لم ينسحب رومل حينما تحقق بانه لا يستطيع أن ينطلق الى القاهرة ؟ والجواب عن ذلك نجده عند كثير من النقاد البريطانيين والالمان أيضاً . فقد اجمع هؤلاء وهؤلاء على أن رومل كان يجهل منطق الارقام، وقد بالغ في ذلك ميلتون شولمان اذ قال في كتابه «الهزيمة في الغرب» : «ان ضعف رومل الواضح في الادارة ليجرده من أية صفة للقائد العظيم» ولكن (ليدل هارت) كان اكثر اعتدالاً ورفقاً اذ قال: (ان عيب رومل الوحيد هو ميله الى اغفال الجانب الاداري من الاستراتيجية) .

ويبدو أن هذه الانتقادات مرجعها الى أن رومل كان قد قال مرة لهالدر : (أن مشكلة الامدادات هي من اختصاصك أنت !) وإذن يمكن القول بأن هذه الانتقادات ليس لها أساس مادي واضح وليس ثمة ما يدل على أن رومل لم يكن يدرك اهمية المنطق الرياضي في الحرب .

ومشكلة التموين او الامدادات هي اولاً وقبل كل شئ، مشكلة القيادة العليا الالمانية والايطالية. وما كان لرومل، وهو منعزل في الصحراء، الا ان يتحدث عما هو في حاجة اليه، وحسبه انه استمر في اصراره على ان تجاب مطالبه. وهل كان في وسع رومل ان يترك جيشه، ويمضي لمراقبة اعمال الشحن الخاصة بامداداته؟ وهل كان في وسعه ان يرغم الايطاليين على ان يبعثوا اليه بالفائض من حاجتهم من البترول في جنوب ايطاليا؟ او يرغم القيادة العليا الالمانية على ان تمده ببعض الفرق الالمانية التي كانت في فرنسا حينذاك، ولا تكاد تقوم بأي عمل ؟!

كان كل ما يستطيعه رومل هو ان يناقش وان يحتج باستمرار، غير عابئ بمضايقة الايطاليين والقيادة العليا الالمانية. فلم يكن رومل إذن في ذلك المركز السعيد الذي كان فيه الجنرال ايزنهاور، حين اراد تركيز قواته في احد المراكز في شمال افريقيا في العام التالي .

ويقول الجنرال ايزنهاور: (لقد عارضت الهيئات الاحصائية هدفي .. ذكرت ان مواصلاتنا لا تستطيع ان تقوم بنقل اكثر من فرقة واحدة مدرعة وكتيبة واحدة. ولكنني على الرغم من ذلك أمرت باحتشاد أربع فرق وطلبت ايجاد وسيلة لتموين هذه الفرق .)

ولم يقل أحد: ان الجنرال ايزنهاور كان يجهل منطق الارقام والاحصاء! وهناك مقطع آخر من كتاب «الحرب الصليبية في اوربا» يستحق الاقتباس هنا لانه يوضح لنا مدى ما تنتجه الادمغة التي تفكر بسرعة من أعمال .

«كان من نتائج العمل الواسع الذي تم اعداده في واشنطن، ان شحنت كمية اضافية من سيارات النقل يبلغ عددها ٥٤٠٠ سيارة، وقد عززت هذه السيارات لدى وصولها الميدان مواصلاتنا، وحسنت من وضع التموين عندنا، وكان لها تأثير عميق في المعارك التي حدثت مؤخراً .
وقد تطلب شحن هذه السيارات تهيئة قافلة خاصة من السفن، في وقت كانت فيه السفن التجارية والبواخر الحربية لا تقدر بثمن.

وقد حدث آنذاك ان زار الجنرال «سمرفيل» مقر قيادتي، وهناك اوضحت له شدة حاجتنا الماسة الى شحن تلك السيارات، وقد اوضح لي الجنرال سمرفيل ان باستطاعته تحميل تلك الشحنة من أحد الموانئ الامريكية في مدى ثلاثة ايام، اذا ما هيأت ادارة البحرية سفن الحراسة وفي التو ارسلت طلباً بذلك الى الاميرال كنغ، الذي قدم فيما بعد الى كازا بلانكا، وبعد بضع ساعات تسلمت منه جواباً بالموافقة، وهكذا شرعت السيارات تتدفق على افريقيا بعد مرور ثلاثة أسابيع على الطلب الذي تقدمت به» .
أما الجنرال هالدر حين طلب اليه رومل امداده بالرجال والعتاد فانه لم يستطع أن يكتم ابتسامة وقحة لاحت على شفتيه !

ولو علم رومل ان مطلبه لم يكن مقبولاً، أو لو ان القيادة العليا صرحت له بذلك، لما كان ثمة عذر له في الالحاح، ومعاودة طلب الامدادات من حين الى حين. ولكن أحداً لم يقل له شيئاً. والحق انه كان من السهل في سنة ١٩٤٢ امداد رومل بالجنود الذين يحتاج اليهم ليستولي على القاهرة. ذلك لان الجنود والمؤن ومختلف الامدادات، كان من الممكن ان تبلغ آمنة سالمة في

ذلك الحين. وفي صيف سنة ١٩٤٢ حينما استعاد البريطانيون اشرافهم وسيطرتهم على المنطقة الوسطى من البحر الأبيض، وأصبح من الصعب ان تمر القوافل الالمانية بالقرب من مالطة دون ان تتعرض للخطر، كان رومل ما يزال مخدوعاً بوعود كسيلرنغ وكافليرو، وكانا ما يزالان يؤكدان له ان كل القوات التي يحتاج اليها سترسل اليه، وان مشكلة الامدادات هي في طريق الحل.

وفي السابع والعشرين من شهر آب اي قبل معركة علم الحلفا، عقد اجتماع، فيه قرر الرجلان لرومل ٦٠٠٠ طن من البترول، تنقل الطائرات اليه الفامنها، ومما قاله لهما رومل يومئذ: «هذه هي حالتي، والمعركة كلها تتوقف على البترول» فاجابه كفليرو قائلاً: «تستطيع ان تواصل القتال، فالامدادات في طريقها اليك».

وعلى اي حال فان هذه التأكيدات ما كان ينبغي - على الاقل - ان تعطى من كسيلرنغ، فقد كان يعلم اكثر مما يعلم اي انسان آخر، ان هذه الامدادات الضرورية لرومل ليس الى وصولها من سبيل !

ولقد ارتابت هيئة اركان حرب رومل في شأن كسيلرنغ، اذ كان يكتب دائماً الى غورنغ بما يسئ الى رومل والفيلق الافريقي، وكان يؤكد لقيادة الجيش ان كل شئ يسير على ما يرام في شمال افريقيا !

ولقد اخبرت فيما بعد ان كسيلرنغ لم يكن يستطيع ان يقوم بشئ الا عن طريق الايطاليين. ويقول تشيانو في التاسع من شهر ايلول سنة ١٩٤٢ (ان كسيلرنغ ذهب الى برلين ليشكو من رومل!) وقبل ذلك باسبوع كان كفليرو ما يزال يكرر عباراته المتفائلة، ويؤكد انه خلال اسبوع، سيستأنف السير الى الدلتا !

وربما كان في تعليق تشيانو على النتيجة بعدئذ، ما يجلو كل تلك الامور، وذلك انه يقول : (ان النصر يجد مئات من الآباء دائماً .. أما الهزيمة فطفل يتيم !»

ولا يفوتنا ان نذكر ان كسيلرنغ كان القائد الأعلى للقوات الالمانية في الجنوب، اي انه كان الرئيس المباشر لرومل، فكان في استطاعته ان يأمره بالا يتقدم الى العلمين، وان يأمره بالا يهاجم او الا ينسحب، كما يشاء.

رومل مريض بتضخم الكبد !

ولقد ايقن الجنرال اوكنلك في نهاية تموز، ان رومل يجب ان يهاجم قبل نهاية آب،

وذكر ان رومل لن تتيسر له القوة الكافية لمحاولة غزو الدلتا، فلن يقوم بهذه المحاولة الا اذا شاء ان يقامر بالبقية الباقية لديه من الرجال والعتاد !

ولقد حارب رومل في معركة علم الحلفا، التي بدأت في ٣١ آب، وكانت ظروفه فيها سيئة للغاية، هذا بالاضافة الى انه كان يهاجم عدواً في مراكز دفاعية اعدت من قبل. وعلى الرغم من ان قوات رومل كانت اكثر عدداً الى حد ما. وكان بينها ست فرق ايطالية. وهذه الفرق الايطالية لم يكن بد من أن تدعم وتسند بالالمان، كفرقة المشاة ١٦٤، ولواء رامكة لجنود المظلات. اما المدافع والاسلحة، فلم يكن رومل يملك منها مثل ما نملك. وكان سلاح الطيران الملكي البريطاني يسيطر على الجو تماماً، هذا الى ان مركز العلمين بطبيعته، جعل من المستحيل على رومل أن يقوم بمباغتة اعدائه، أو ان يستفيد من براعته في المناورة !

وأخيراً كان رومل نفسه مريضاً، فقد اصيب انفه بالتهاب، وتضخمت كبده. فلم يكن ليستطيع أن يغادر سيارته. وكان ذلك أكبر عائق لقائد مثله، يعتمد اكثر ما يعتمد على ملاحظاته الشخصية اثناء سير المعركة.

ولقد حاول رومل ان يحسم الموقف بالوسيلة الوحيدة التي يمكن القيام بها، وذلك بان يخادع اعداءه في الشمال، ويوقف تقدمهم في الوسط، ثم يركز كل جهوده الرئيسية في الجنوب. وكان هدفه أن يخترق المراكز البريطانية شمالي منخفض القطارة، ثم يضرب ضربته الى الشمال، أي الى البحر، وبذلك يتسنى له أن يلتف حول ذلك المركز كله، كما التف من قبل حول مركز الغزالة منذ ثلاثة أشهر. ولو أفلح رومل في ذلك، لحوصر الجيش الثامن كله. ولانقطعت مواصلاته. ولكن شاء سوء حظ رومل، الا ان يدرك ذلك الجنرالان: الكسندر، ومونتغمري !

ومنذ ان وصل الجنرال مونتغمري الى الصحراء، لم يأبه لميسرة رومل. وراح يدعم هضبة علم الحلفاء التي لا يجرؤ رومل على اجتيازها، والقى بأسلحته وقواته المدرعة فيها. وقد استدعى لذلك كل الفرقة الرابعة والاربعين، وحفر لها الخنادق على الهضبة، وثبت مدفعيتها هناك. وارسل الدبابات لتشد أزرها، ثم لفق خريطة للتضليل، وتعمد أن تقع في أيدي الالمان، ليفهموا ان السير جنوبي علم الحلفاء سهل يسير، في حين انه في الواقع جد عسير !

ولكي ننصف رومل نقول: ان حاسته السادسة قد أسعفته فوراً، على الرغم من انه مريض في سيارته. ويقول بايرلاين: (أن رومل كان يريد ان يكف عن القتال، ما دام لم يفلح في مفاجأة العدو. وكنت انا الذي اقنعته بأن يواصل القتال) ويضيف الجنرال بايرلاين الى ذلك قوله: (ان قوة تحصينات هضبة علم الحلفاء، كانت مفاجأة تامة لي، فقد كنت على يقين من أني سأخترقها. وظللت اهاجمها من اجل ذلك!)

ولما اطلعت الجنرال بايرلاين على احدى فقرات كتاب (الان مورهد) عن حياة مونتغمري. وهي التي يصف فيها كيف وضع مونتغمري اصبعه على علم الحلفا، وهو يرى الخريطة لأول وهلة، نظر بايرلاين في اسف وقال : (هذا رائع ! هذا ممتاز !) قالها في لهجة القائد الذي يكن الاحترام لزميل له. ثم قال: (انها لبراعة في القيادة حقاً!) ومن الانصاف أن تقول: أن قصة مونتغمري هذه مبالغ فيها الى حد بعيد. فركز علم الحلفا كانت الالغام قد بثت فيه. واعد لمواجهة الطوارئ. قبل ان يصل مونتغمري الى الصحراء، وكل الذي صنعه مونتغمري انه استمر في تنفيذ الخطة التي وضعت من قبل !

وقد اثنى الجنرال بايرلاين على سلاح الطيران الملكي البريطاني. وقال: (لقد كانت الطائرات تغير علينا في قسوة، كل ساعة من الليل والنهار، وقد كبدتنا خسائر افدح واكثر مما تكبدناه لأي سبب آخر. ان تفوقكم الجوي كان مهماً جداً، بل ربما كان الحاسم الأول في المعركة!)

وحينما فشلت مقامرة رومل في الثالث من شهر أيلول، بدأ الانسحاب. ولم يحاول الجنرال مونتغمري، وكان حكيماً في ذلك، ان يتعقب رومل، ذلك لأن من الخير له ان ينتظر.



الفصل الثاني والعشرون

رومل يهاجم وهو مريض

سلاح سري خطير - شتومة يموت بالسكتة
مونتغمري يخدع رومل - رومل يضرب ضربته الأخيرة

أضطر رومل، بعد ثلاثة اسابيع من مرضه دون اي تحسن، الى ان يبلغ السلطات العليا امر مرضه. وللمرة الثانية ترك جيشه وطار الى المانيا للعلاج. وكانت المرة الاولى حين جرح من قبل !!

على انه قبل ان يدخل المستشفى في اتسميرنغ، اجتمع بهتلر في مقر قيادته العليا، وصرح له بان جيشه يقف امام باب الاسكندرية، ولكن من المستحيل عليه ان يدفع الباب ويفتحه، مالم تتحسن حالة الامدادات وتشد ازره قوات جديدة.

وحرص رومل خاصة على ان يؤكد لهتلر ان هذه القوات لن تستطيع ان تقوم بشئ دون أن يكون لديها ما تحتاج اليه من البترول.

وفي اليوم الثاني من ايلول نجد تشيانو يقول في يومياته «ان ثلاثاً من ناقلات بترولنا قد أغرقت خلال يومين». وفي اليوم الثالث منه نجده يقول: «أن اغراق سفننا لا يزال مستمراً فقد أغرقت الليلة سفينتان» ثم يقول في اليوم التالي «أغرقت الليلة سفينتان آخريان» !

والثابت ان هتلر لم يدخر وسعاً في ارضاء روميل، اذ قال له: سوف نعطيك، فيعطي الفيلق الافريقي كل ما يحتاج اليه، وستدخل الاسكندرية عما قريب! والثابت كذلك ان هتلر روى لروميل قصة السفن العجيبة التي أمر بأن تنتجها المصانع الالمانية بالجملة خصيصاً لقوات افريقيا، وقال له: ان مائتين من هذه السفن، والزوارق قد تم انتاجها، وستزود بمدافع من عيار ٨٨ ملليمتراً، ثم تبدأ فوراً مهمة نقل البترول الى افريقيا، حيث تستطيع المشي في سبيلها مستترة بالظلام، وتكون أقل تعرضاً للخطر من الناقلات الكبرى للبترول، وبذلك ستحل مشكلة البترول.

على ان حديث هذه الزوارق الجديدة، لم يرد ذكره في مؤتمرات الشئون البحرية التي عقدها هتلر سنة ١٩٤٢، وكل ما هنالك انه أشار الى قطع بحرية خفيفة الحجم، غير صالحة تماماً للعمل في البحر، كانت ما تزال راسية في الموانئ للقيام بما تحتاج اليه من اصلاحات.

واذن، فلم تكن هناك زوارق حربية جديدة تنتجها المصانع الالمانية بالجملة ولا بغير الجملة، ولم يكن الأمر الا خيالاً في خيال!

بيد أن هتلر بعد ان اجتمع بروميل، اصطحبه معه الى حيث أراه نموذجاً لدبابة النمر، ونموذجاً لمدفع المورتار العنيف الذي فوجئنا به بعدئذ في ايطاليا. وكانت المصانع الالمانية تنتج هذين السلاحين بالجملة حقاً في ذلك الحين. وقد صدق هتلر ما وعد روميل به. فكانت افريقيا أول ميدان ارسل اليه هذان السلاحان، كما صدق هتلر وعده بارسال مقادير من ذلك المدفع الجديد الى أفريقيا، واستخدمت في ذلك كل وسائل النقل الجوي الممكنة!

سلاح سري خطير

ولم يكتف هتلر بذلك، بل أسر الى روميل سلاحاً سرياً جديداً، يبلغ من قوة قصفه انه يسقط عن ظهر الجواد أي فارس يسمعه على بعد ميلين!

ولم يستطع روميل ان يكتم الضحك اعجاباً بهذا التعبير، أو عجباً من أمر ذلك السلاح الخطير.

ولعل هتلر لم يكن يلقي الكلام على عواهنه حينذاك. فقد ثبت بعد أول تجربة للقنبلة الذرية في نيو مكسيكو، أن أحد الأبنية، التي تبعد عن مركز الانفجار أربعة أميال، قد ارتفع عن قاعدته المصنوعة من الاسمنت المسلح، بمقدار قدمين!

وأياً كان الأمر، فقد أخذ رومل كل وعود هتلر مأخذ الجد، ولا سيما بعد أن رأى بعينه دبابات النمر، ومدافع المورتار. وفي ذلك ما يفسر ذلك الحديث المتفائل الذي أدلى به رومل الى الصحفيين في برلين في الثالث من شهر تشرين أول، وقوله لهم فيه: «ان الالمان سيبلغون الاسكندرية عما قريب !»

ويرى الجنرال «فون توما» ان رومل لم يكن يعني تماماً ذلك الذي أعلنه عن ايمانه بالنصر، ولكنه تعمد ذلك لتقوية الروح المعنوية، لدى جنوده، ولا سيما الايطاليين منهم، وكان هذا الحديث قبل مقابلته لهتلر.

ولم يبدأ الشك يساور رومل في تلك الوعود الا بعد اسبوعين. اذ قال لزوجته: «لست أدري، هل هتلر ما زال عند وعوده لي، أم انه أدلى بها الي للتهدئة والترضية ؟!»

وتلك هي المرة الاولى التي وجد الشك في اقوال هتلر، سبيله الى نفس رومل !

وفي ذلك الاجتماع استقر الرأي على الا يعود رومل الى شمال افريقيا بعد ان يغادر المستشفى، اذ رأى هتلر ان صحة رومل في حاجة الى تغيير الجو، واشار بان تسند اليه قيادة احد الجيوش الالمانية في جنوب اوكرانيا، على ان يخلفه الجنرال اشتومه في افريقيا.

ولعل هتلر كان يرمي من وراء ذلك ايضاً الى ان لا تنكشف خدعته لرومل! على ان هتلر عاد فاتصل برومل في مستشفى اتسميرنغ ظهر يوم ٢٤ تشرين اول وقال له: «هناك اخبار سيئة تتتابع من افريقيا. وان الموقف فيها ليبدو جد قاتم، ولا يدري احد ما الذي يحدث لاشتومه !»

ثم اختتم حديثه معه معرباً عن امله في ان تكون صحته قد تحسنت الى حد يمكنه من العودة الى افريقيا !

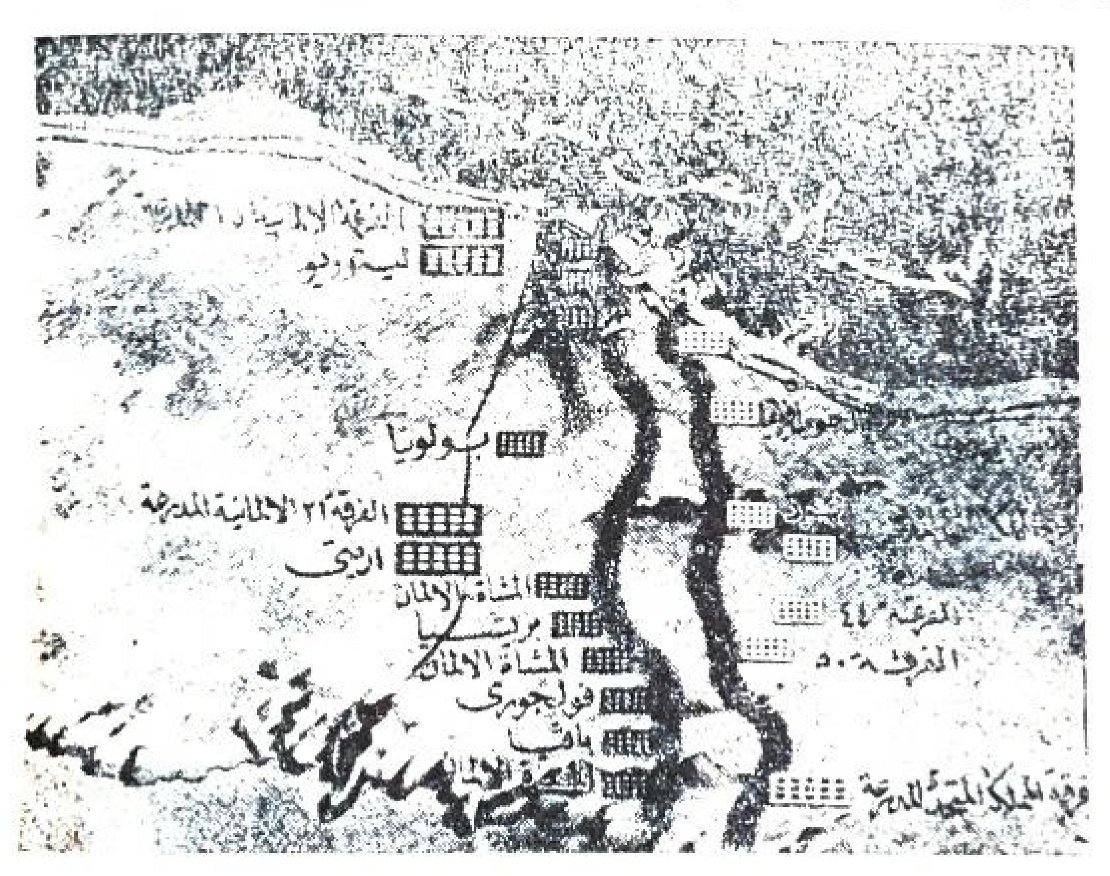
وكان رومل ما يزال مريضاً جداً. ولم تتقدم صحته خلال الاسابيع الثلاثة التي قضاها في المستشفى، فلم يكن هناك اي امل في استطاعته العودة الى الميدان والاشتراك في القتال.

ولكنه ـ رغم ذلك ـ لم يخطر بباله قط ان يرفض العودة: انه كان بجسمه فقط في المستشفى، اما قلبه فكان مع الفيلق الافريقي.

وفي الساعة السابعة من صباح اليوم التالي، كان رومل يمتطي احدى الطائرات في طريقه الى الميدان! وعرج في طريقه على ايطاليا، حيث تحدث مع المسئولين في شأن امداده بالبترول. ثم هبط مرة ثانية في كريت. وفي الساعة الثامنة مساء كان في مقر قيادته العليا في شمال افريقيا !

ويقول الجنرال فون كريمر: «لقد خسرنا معركة العلمين قبل ان نحارب فيها، فلم يكن لدينا بترول» ويقول الجنرال بايرلاين هو الآخر «لم يكن في طوق روميل ان يفعل شيئاً لتغيير النتيجة المحتومة، فقد تسلم قيادة المعركة وهو لا يملك اية قوة احتياطية. إذ ان كل الاحتياطي الذي كان لدينا، كنا قد استخدمناه في الميدان !»

والواقع ان قوات المحور كانت، لنقص عددها وعدتها، ولليأس من وصول الامدادات اليها، ولا سيا البترول، قد زايلتها الثقة بقدرتها على القتال. وليس ادل على ذلك من انها لم تصنع شيئاً ما، حين اكد لها قلم المخابرات الالماني، ان البريطانيين لن يستطيعوا القيام بأي هجوم خلال شهر تشرين اول، وقد جاءها ذلك النبأ في بداية الشهر، على يد ضابط خاص مرسل من القيادة العليا لهذا الغرض !



توزيع قوى الحلفاء والألمان في ميدان العلمين

شتومة يموت بالسكتة القلبية

وليس عجيباً، بعد هذا ان يموت الجنرال شتومة بالسكتة القلبية، قبل ان يقوم الجنرال مونتغمري باغارته الهائلة، بأربع وعشرين ساعة. وكان اشتومة قد فوجئ باحدى الغارات

الجنوبية البريطانية التمهيدية، وهو في عربته خارج مقره، فلما عاد سائقها مسرعاً، لم يتنبه الى ان الجنرال ليس فيها، الا بعد حين. وهكذا وجد الجنرال ملقي على الرمال وقد سكت قلبه الى الأبد. وليس يدري أحد اسقط من العربة ام قفز منها خلال عودتها !

ومن الانصاف للجنرال اشتومة ان نذكر هنا انه ورث نظم الدفاع عن رومل . فقد اكد لي الجنرال بايرلاين ان رومل، لم يغادر افريقيا الا بعد أن اعد كل شئ ورتبه بالتفصيل وفق طريقته الخاصة !

وكان جلياً ان الخطة التي سار عليها رومل، لم تكن تتسق مع ما عرف عنه هو نفسه، وذلك لأنه مزق شمل قواته المدرعة، فجعل الفرقة الخامسة عشرة المدرعة في اقصى الشمال،والفرقة الحادية والعشرين المدرعة في اقصى الجنوب، وقسم كل فرقة منها الى اقسام عدة .

ولكن رومل لم يفعل ذلك الا مضطراً. فقد كان لا يثق بالفرقة الايطالية. ولا شك في أنه كان على حق في هذا، وقد ثبت فيا بعد أن الايطاليين ما كادوا، حين بدأ الهجوم، يجدون أن أكثر من الف مدفع تصوب عليهم نيرانها باستمرار، حتى تملكهم الرعب والفزع، ولم تبق لديهم أية رغبة في القتال، ولولا أن بعض المشاة وجنود المظلات الالمان كانوا بين صفوفهم، لكانوا اسرع الى القاء الى السلاح والاستسلام منهم في المرات السابقة !

مونتغمري يخدع رومل

وينبغي الانغفل من الحساب ان الجنرال مونتغمري كان في هذه المرة متفوقاً الى حد كبير في عدد الجنود والدبابات والمدافع، وفي وفرة المؤن الحربية. ويمكن القول بان معركة العلمين، كانت قائمة على العتاد والرجال، كا كان الشأن في المعارك الحربية القديمة تماما. ثم ان هذه المعركة سبقتها من جانبنا استعدادات كبيرة للتغطية. فكانت لدينا كل الاحتياطات الممتازة اللازمة لتغطية الهجوم المزمع القيام به في الجنوب، ولاخفاء الاستعدادات الخاصة بالهجوم الحقيقي في الشمال، ولبيان ان الترتيبات التي اتخذت في الجنوب ما تزال آخذه في الازدياد .

وقد استخدمنا الخدع الحربية على اوسع نطاق، فغطينا الدبابات في مناطق احتشادها بهياكل السيارات، ووضعت اللوريات الكاذبة في مراكز مدافع الميدان، لكي يتيسر تحرك هذه المدافع ونقلها تحت جنح الليل مستترة بهياكل اللوريات، وكذلك وضعت الدبابات الوهمية بدلاً من الدبابات الحقيقية، كا وضعت مدافع زائفة بدلاً من المدافع الحقيقية في الخطوط الأمامية، وشرعنا في انشاء مستودعات وهمية للبترول في المنطقة الجنوبية، وكان هذا الانشاء يجري في بطء

ملحوظ لايهام الالمان بانه لن يتم قبل تشرين الثاني. ونشرت شبكة واسعة من اللاسلكي تبعث برسائل وهمية للتضليل. هذا الى مد أنابيب وهمية للبترول، واقامة محطات ومستودعات للبترول، وهمية أيضاً. كما روعي في حركات السيارات ايهام الاعداء بانها تسير في غير الطرق الصحراوية المألوفة !

ولقد خدع الالمان بهذه المظاهر التي احكم تنفيذها الى أقصى حد، فلم يدركوا أي شئ عن تاريخ الهجوم أو اتجاهه، ولا عن مراكز احتشاد اسلحتنا المدرعة. وكان النصيب الاوفى من تلك المظاهر الخادعة المضللة، يعود لسلاح الطيران البريطاني، فقد تعمد ان يترك الفرصة لسلاح الطيران الالماني كي يقوم باستكشافاته الجوية، ليسجل تلك المظاهر المضللة الكاذبة على انها حقائق لاشك فيها. وقد عزز الخداع الالمان بها، ما كانوا قد تلقوه من المعلومات الخاطئة من قلم مخابراتهم!. كذلك كان من اكبر الخدع التي جازت على الالمان، وكان لها أثرها في نتيجة المعركة، ان استطاع البريطانيون اخفاء ٢٤٠ مدفعاً و ١٥٠ دبابة اخرى و٧٫٥٠٠ طن من البترول، داخل الفيلق الثالث عشر الذي يرابط في الشمال !

وقد كتب الفيلد مارشال الكسندر في ذلك يقول: «لم يحدث ان ركز العدو دفاعاً قوياً جدياً ضد المنطقة التي سنهاجم فيها، الا في السادس والعشرين من شهر تشرين الاول !».

ففي ذلك اليوم اعتزم رومل القيام بهجومه. ولعل من المستحسن هنا ان نحزر ما اذا كان رومل قد خدع حقيقة بتضليلاتنا طيلة شهر تشرين الأول. اما انه لم يعتمد على قلم المخابرات السرية الالماني فذلك عائد الى الفكرة السيئة التي اخذها عنه.

رومل يضرب ضربته الأخيرة

ولقد اعترف رومل لبايرلاين وحده بانه قد خسر المعركة. ولكن هذا الاعتراف لم يمنعه من القيام بمحاولة يائسة للاحتفاظ بالموقف. ففي الشمال كانت الفرقة الخامسة عشرة المدرعة، مبددة تعاني من الضربات التي يكيلها لها الفيلق العاشر المدرع باحتشاداته القوية. ولم يكد يبلغ رومل الصحراء، حتى قام خلال بضع ساعات بجمع البقية الباقية من الفرقة الحادية والعشرين المدرعة، وجعلها تنطلق من الجنوب الى الشمال، كما أمر الفرقة التسعين الخفيفة، بالاتجاه الى الشمال أيضاً، وبذلك يكون رومل قد وجه حركاته الهجومية المضادة الى النقطة الحقيقية للهجوم البريطاني في الشمال !

ورغم ان رومل كان طريح الفراش في مستشفى انسيرنغ قبل ذلك بيومين، فقد خرج

في عصر ذلك اليوم، والشمس وراءه، ليقود بنفسه ذلك الهجوم المضاد بالدبابات، ومن ورائه فرقتاه الوفيتان اللتان طالما تبعتاه في كل هجوم. وما من شك في ان رومل كان يدرك حقيقة الموقف تماماً، اذ وجد متسعاً من الوقت ليفكر فيه وهو على متن الطائرة التي أقلته الى الجنوب. ورغم السرعة التي تم بها رسم خطة ذلك الهجوم المضاد، وتنفيذها، كان الجهد الذي بذله رومل فيه، يدل على ما اتصف به من الجرأة والبراعة .

على ان هذا الهجوم مالبث قليلاً حتى توقف تحت ضغط نيران المدفعية والغارات الجوية البريطانية، قبل ان يبلغ اهدافه ويضرب ضرباته الكبرى . وقد تمكن رومل من أن يستأنف هجومه مرة أخرى في اليوم التالي، ولكنه اضطر الى التراجع مرة اخرى على يد لواء البنادق الثاني والفرقة الاسترالية، بعد ان فقد عدداً كبيراً من البقية الباقية لديه من الدبابات دون ان يكون عنده أي أمل في الحصول على غيرها !

واعقب ذلك قتال عنيف بالغ القسوة بين الفرقة الاسترالية التاسعة التي اتجهت الى الشمال مرة اخرى وبين الصفوة الممتازة من الالمان. وحينئذ قام الجنرال مونتغمري بتوجيه دفة هجومه صوب رومل، فقام في الساعات الاولى من اليوم الثاني من شهر تشرين الثاني بضربته القاصمة عند اتصال الالمان بالايطاليين . واخترق المشاة ثغرة بينهم طولها ٤٠٠٠ ياردة فمهدوا الطريق بذلك أمام القوات المدرعة. على ان الطريق مع ذلك لم يكن بالسهولة التي توقعتها هذه القوات ، ففقدت الفرقة التاسعة المدرعة ٧٨ دبابة ، بفعل الستار القوي الذي نصبه رومل أمامها من نيران مدافعه المضادة للدبابات !

لقد قاتل رومل في ذلك الحين قتال الجبابرة، رغم انه كان موقناً بالامل في تدارك الموقف. ولقد استخدم في ذلك كل ماله من براعة وخبرة طويلة في القتال بالاسلحة المدرعة، وكاد ان يخترق خطوطنا !

وفي تلك الليلة صمم رومل على الانسحاب. وكان عليه ان ينقذ الالمان بكل مالديه من وسائل النقل. اما الايطاليون فعليهم ان يسيروا على اقدامهم، ولكن اكثرهم آثروا الوقوع في الاسر، على غارات سلاح الطيران الملكي البريطاني في طريقهم الى العودة !

وفي اليوم الثامن من شهر تشرين الثاني، عندما بدأ الانسحاب، جاء امر من القيادة الالمانية العليا يقول: «ان الموقف يقتضي الاحتفاظ بمركز العلمين حتى آخر جندي. فلا ينبغي ان يكون هنالك انسحاب، ولا الى مليمتر واحد !. النصر أو الموت !» وكان هذا الامر بامضاء «ادولف هتلر» !

الفصل الثالث والعشرون

رومل ينسحب من العلمين

اسر الجنرال فوق توما وسقوط طرابلس - مع غورنغ الى ايطاليا

كان امراً يبعث على الحيرة والحنق والضحك معاً، ذلك الامر الذي اصدره هتلر الى رومل، والزمه فيه بأن يستمر في القتال، والا يتزحزح عن العلمين قيد انملة، فاما انتصر، واما خسر آخر جندي معه !

ورغم ان رومل كان قد اعتزم الانسحاب، بعد ان افرغ كل ما في جعبته، وفشل مرتين في الهجوم المضاد الذي قام به، ورغم انه كان على يقين من ان تنفيذ امر هتلر لا يعني الا ان تحيق الكارثة بالفيلق الافريقي، لم يشأ ان يتجاهل هذا الامر، وامر بتوزيعه على جنوده ! ٠

ولم يكن كذلك رأي الجنرال بابرلاين ولا رأي الجنرال فون توما، قائد الفيلق الافريقي، وقد استأذن هذا الاخير في الانسحاب بالفيلق الى الفوكة والضبعة فلم يأذن له رومل ٠ ورغم هذا، فما ان ارخى الليل سدوله على الميدان حتى سارع فون توما الى التراجع بجنوده قائلاً: انني لا استطيع ان احمل مسئولية تنفيذ امر كهذا، ان هتلر يأمرنا بالانتحار !

ولقد علم رومل بما صنعه توما وسمع مقالته، ولكنه سكت متجاهلاً وتركه يواصل الانسحاب !

وفي صبيحة اليوم التالي خرج فون توما ليتوثق من صحة ما قيل من ان الارتال البريطانية قد اقتحمت الخطوط الى الجنوب، فأصبحت بذلك غرب القوات الالمانية ٠ ولم يشأ رومل ان يصدق ذلك، فلما حان وقت الظهر دون ان يرجع فون توما، استقل الجنرال بايرلاين سيارته الخاصة، وانطلق في اثره يتنسم الاخبار، فلما اقترب من هضبة المنسر، ارغمته النيران الشديدة على مغادرة سيارته، والذهاب الى الهضبة راجلاً ٠ وهناك على مدى مائتي ياردة منها، رأى دبابة تندلع منها النيران، والى جوارها فون توما واقفاً يتطلع في حسرة الى ما تناثر حوله من حطام الدبابات الالمانية والمدافع المضادة للدبابات ٠ ولم يطل بكل منهما الوقوف، اذ جاءت احدى ناقلات الجنود البريطانية الى حيث كان فون توما واقفاً، فحملته وانطلقت عائدة به من حيث أتت ٠ وفي الوقت ذاته عاد بايرلاين من حيث جاء !

وفي تلك الليلة، تناول فون توما طعام العشاء مع الجنرال مونتغمري في مقر قيادته العليا، وكان مونتغمري حفياً الى اقصى حدود الحفاوة بضيفه الخطير ٠ ورد فون توما هذه التحية بمثلها، فطلب الى مونتغمري ان يبقى معه في المانيا بعد الحرب !

ولقد كانت هذه المجاملات اللطيفة التي تبادلها القائدان الكبيران، مثار نقد عنيف في انكلترا ٠ على انها لم تكن شيئاً جديداً ولا غريباً على متتبعي أمثالها في حرب شمال افريقيا أو «حرب الجنتلمان» !

باير لاين يقود الفيلق الافريقي

وفي اليوم التالي كان بايرلاين قد اصبح قائداً للفيلق الافريقي، وان لم يكن لهذا الفيلق وجود حقيقي في ذلك الحين ٠ وقد سأل بايرلاين حينئذ رومل قائلاً «ترى ماذا استطيع ان اصنع بهذا الامر الذي اصدره هتلر؟» فأجابه رومل في دبلوماسية بارعة قائلاً: لا استطيع ان امنحك السلطة التي تخولك عصيان هذا الامر !»

ولم يكن ثمة شك في ان رومل القائد المريض، قد اثرت فيه الهزيمة الساحقة، فبدا واهن البنية، لا تكاد هيئة أركان حربه تستطيع التفاهم معه الا بشق الانفس ! ٠٠ ولكنه رغم ذلك كله استطاع ان يقود ذلك الانسحاب في براعة فائقة ٠

ولم يكن في استطاعته ان يتوقف في هذه المرة، ليكر على البريطانيين الذين يتعقبونه ٠ فالقوات التي كانت باقية لديه لم تكن تزيد الا قليلاً على فرقة منوعة، ولم يكن يملك اكثر من ثمانين دبابة، في حين لا تقل الدبابات البريطانية عن ستمائة دبابة !٠

وفي ليلة اليوم السادس من تشرين الثاني، هطلت الامطار بغزارة خلال ذلك الانسحاب، فأحالت الصحراء الى مستنقعات، وحالت دون تقدم القوات البريطانية التي ارسلت لتقطع خطوط مواصلات رومل، وتعوق انسحابه، ولولا هذه الامطار لحوصرت قوات رومل عند مرسى مطروح !!

ولو ان وسائل النقل الجوية كانت قد تقدمت في ذلك الحين، كما تقدمت بعدئذ على يد الجنرال سليم في اشد الاحوال تعقداً في بورما، اذن لهبط الجنود البريطانيون وراء خطوط رومل، وتوالت عليهم الامدادات من الجو، فلم يستطع الالمان الافلات منهم !

وأخذ كثير من الالمان والبريطانيين، على مونتغمري قعوده عن اللحاق برومل. وقال لي الجنرال بايرلاين: «ما اظن ان الجنرال باتون كان يتركنا نتراجع بمثل تلك السهولة»! وكثيراً ما كان بايرلاين يشبه باتون بغودريان، ومونتغمري برونشتيدت، على انه اضاف الى ذلك قوله: «ان اعظم عمل قام به رومل في شمال افريقيا، هو انسحابه من العلمين!!»

والحق، انه ليس هناك ما يستحق ان يؤخذ على القائدين البريطاني والالماني في ذلك كله، فالبريطانيون قطعوا المسافة بين العلمين وبنى غازي - وهي تبلغ سبعمائة ميل - في خمسة عشر يوماً، وكانت الاوامر الصريحة التي تلقاها رومل، تقضي بالا يقف عند العقيلة .

وفي الثامن من شهر تشرين الثاني نزلت قوات الحلفاء في شمال افريقيا . فأصبحت بذلك طرابلس ذات اهمية ثانوية . ولم يتسلم رومل اية امدادات تشد ازره، اللهم الا تلك القوات التي كانت تتدفق براً وبحراً، والتي اصبحت كلها بعد ستة اشهر لا اكثر، اسيرة في ايدي الاعداء! ...

وشد ما ألم رومل وحز في نفسه، ان رأي القيادة الالمانية العليا، تفيق من سباتها بعد فوات الاوان، وتنطلق محاولة ان تكسب قضية خاسرة، بعد ان خسرت بتهاونها قضية رابحة !

ففي شهر تشرين الثاني ارسلت القيادة الالمانية الى افريقيا، كتيبتين من الجنود على متون الطائرات، ثم ارسلت فوجاً من سلاح المهندسين، فوحدات من المشاة والدبابات والمدفعية، فتجمعت للقوات الالمانية من ذلك فرقة كاملة !

وفي منتصف كانون الاول وصلت الفرقة العاشرة المدرعة . وبعد ايام قليلة وصلت فرقة المشاة (٣٣٤) كما وصلت ايضاً كتيبة من قاذفي القنابل اليدوية من كريت، ثم وصلت الكتيبة ٥٠١ من الدبابات الثقيلة، (دبابات النمر التي وعد بها رومل من قبل) . ثم وصلت

وحدات المانية اخرى. وقيل ان فرقة غورنغ المدرعة كانت في طريقها ايضاً الى رومل • وهذا كله عدا التشكيلات الايطالية التي ارسلت قبل النهاية بقليل •

فما الذي كان يحدث ؟! •• أوما الذي كان رومل يستطيع القيام به لو ان نصف هذه القوات ارسلت اليه قبل خمسة اشهر او ستة اشهر ؟!

سقوط طرابلس

واياً كان الامر. فلم تكن هناك اية جدوى من وراء تعقبنا رومل. وتقدم الجيش الثامن في منطقة طرابلس •

ولقد كان رومل يتقهقر بدباباته الستين، وعليه ان يحمي ظهره ٢٥ الفا من الايطاليين. وعشرة الاف من الالمان •

وعرف رومل كيف يستفيد في براعة فائقة من بث الالغام وتخريب الطرقات، ومن استخدام مختلف الخدع في اعاقة متعقبية • وكان عليه ان يتخلى عن اكثر استحكاماته مناعة، لانه لا يملك قوات تكفي للاحتفاظ بها، وهكذا تنحت الفرقة التسعون الخفيفة عن طرابلس نفسها، ثم قام ضحايا رومل القدامى في سان فاليري فامتطوا ظهور دباباتهم، وقاموا بالهجوم على طرابلس في ضوء القمر. فتمكنوا من احتلالها دون ادنى مقاومة، ودخلوها في الثالث والعشرين من شهر كانون الثاني. وكان لواء الخيالة الخفيفة الحادي عشر اول من اقتحم الاسلاك الشائكة التي اقامها الايطاليون، فدخل طرابلس قبل غيره من الوحدات •

حقاً، ان اشد ما يبتلي به جندي أو قائد في الحرب، لهو الانسحاب الطويل المدى، امام عدو متفوق في العدد والقتال • وانها لمعجزة حقاً ان استطاع رومل ان يحتفظ بشئ من قوة الروح المعنوية في جنوده المنسحبين !

ولقد كان رومل، مع ذلك محطم النفس، عليل الجسم، طوال فترة ذلك الانسحاب الطويل، وقد حرص على ان يكافئ كل الذين اخلدوا لهتلر، ودانوا له بالطاعة والولاء •

وفي نهاية شهر تشرين الثاني، دعي رومل الى المانيا ليقابل هتلر، ولاول مرة قابله هتلر بجفاء بل عامله بقسوة وازدراء ! •••

ولقد صارحه رومل بأن الموقف في شمال افريقيا ميئوس منه تماماً • وقال: ان الحكمة تقضي بان يضحي بالعتاد والمؤن في سبيل انقاذ الفيلق الافريقي ليواصل قتاله في ايطاليا •

ولكن هتلر صرخ في وجهه مقاطعاً واتهمه وراح يكيل له التهم جزافاً. فرماه بأنه من دعاة الهزيمة وبأنه وجنوده جبناء . ثم قال له أخيراً: «ان القادة الذين ظهروا بمثل هذه الروح في روسيا قد ألصقت ظهورهم بالحائط واطلقت عليهم النار» وقد لا يصنع هتلر برومل ما صنعه بهؤلاء، ولكن على روميل ان يأخذ حذره بطلاقة !

اما بالنسبة لطرابلس فكان من المهم الاحتفاظ بها بأي ثمن كان، وإلا اضطر الايطاليون - في حالة فقدانها - الى عقد صلح منفرد مع الحلفاء .

ووجه رومل سؤالاً الى هتلر «ايهما افضل: ان نفقد طرابلس ام الفيلق الافريقي ؟» فصرخ فيه هتلر قائلاً : «ان الفيلق الافريقي لا اهمية له على الاطلاق !!»

وحينئذ ادرك رومل لاول مرة - كما اخبر بذلك زوجته فيما بعد - ان هتلر لا يعبأ بمن يحاربون من اجله، وانه لا يكن للشعب الالماني وقواد جيشه وجنوده غير الاحتقار !!

وذكر رومل لزوجته ان نفسه حدثته بان يطلب الى هتلر ان يذهب وحاشيته الى أفريقيا ليريه كيف يقود المعركة، وكيف يحيل الهزيمة الى انتصار، ولكن هتلر لم يمهله واستطرد في تأنيبه وتهديده، الى ان انهى مقابلته له قائلاً : اذهب ! فلدي ما هو اهم من التحدث اليك! .

ولم يزد رومل على ان اعتدل في وقفته، ورفع يده بالتحية لهتلر ثم استدار خارجاً في سكون !!

وبعد ان جاوز الباب، انطلق هتلر وراءه حتى لحق به، ووضع يده على كتفه ملاطفاً، ثم قال له «يجب ان تعذرني . انني في حال لا املك فيها اعصابي . ولكن ثق بان كل شئ سيكون على ما يرام . فتعال غداً لنتحدث في هدوء . ولتعلم من الآن ان من المستحيل ان افكر في تحطيم الفيلق الافريقي العظيم !»

مع غورنغ الى ايطاليا

وفي اليوم التالي مضى رومل لمقابلة هتلر فوجد عنده غورنغ . وبعد حديث طويل في جو هادئ لطيف، قال هتلر لغورنغ «يجب ان تمد الفيلق الافريقي بكل ما يحتاج اليه رومل من عتاد ورجال !» وقال له غورنغ :
« تستطيع ان تشيد القصور على كتفي هاتين . وسأتولى ذلك بنفسي ! » ..

ورأى غورنغ، او مارشال الرايخ، ان يثبت لرومل انه رجل اعمال لا أقوال، وانه منجز ما وعد به دون أي اهمال وامهال، فدعاه وزوجته الى محطة ميونخ، ليستقلوا منها قطاره الخاص الى روما، وهناك يعد لرومل كل ما يريد !

وتروي زوجة رومل قصة هذه السفرة فتقول : «حينما التقينا في محطة ميونخ كان غورنغ يرتدي بذلة رمادية لها «قلابات» من الحرير الاخضر . وكان رباط عنقه يمسكه دبوس من الزمرد . وكذلك كان غطاء ساعته مطعماً بالزمرد . على ان ما اثار دهشتي ودهشة رومل حقاً، ان غورنغ كان يتحلى بخاتم به قطعة كبيرة من الماس . وقد اخذ يريني خاتمة هذا مزهوا به منذ اللحظة الاولى لتلاقينا. فقال عنه انه من اغلى الاحجار الكريمة في العالم . واقطع من هذا ان اظافر غورنغ كانت مجلوة ملتمعة على نحو ما تفعل النساء» !

وكان مما قاله غورنغ لرومل وزوجته خلال السفر: «انهم يسمونني مايسنوس، تشبيهاً لي بذلك المستشار القانوني القديم، والحق اني كذلك بالنسبة للرايخ الثالث !» ثم راح يصف لهما ما يقتنيه من التحف الثمينة، ومن بينها تمثال لافروديت اهداه اليه بالبو .

ولم يذكر غورنغ شمال افريقيا طوال الطريق بخير ولا بشر، وكان يقاوم كل محاولة يبذلها رومل ليغير مجرى الحديث عن التحف والتماثيل والحلى، الى الامدادات . ولم يكن في عرض له غورنغ ما يتصل بالحرب أو الجيش اللهم الا «صليب الطيران» الذي عرضه على رومل وزوجته مفاخراً بمنحه اياه . وكان هذا الصليب هو الآخر مزداناً بالماس !

ولما بلغوا روما بقي غورنغ مشغولاً كل الوقت بالتفرج على التماثيل واللوحات. وبقي حديثه كله مقصوراً على التفكير في هذه «التحف» وعلى أمانيه في ان يملأ بها قطاره الخاص ويضيف رومل الى ذلك قوله «ولم يحاول غورنغ قط ان يقوم بأي شئ من اجلي» !

ولقد لاحظ غورنغ ان رومل في حالة غير عادية، فقال لزوجته «ان رومل يبدو عليه اليأس !» فقالت له حقاً انه ليس على سجيته، ولكنه عادة متفائل جداً، وان كان ينظر الى الامور من الناحية الواقعية! فرد عليها غورنغ قائلاً: «يبدو، انه لا يفهم الموقف كله كما افهمه، وعلى كل حال سنعنى به، وسنعمل كل شئ من أجله !»

ثم مضى غورنغ يزهو بنفسه، وبما حقق في ماضيه وحاضره ومستقبله، وهكذا ظهر غورنغ أمام زوجة رومل بمظهر لم يدع لديها شكاً في اصابته بجنون العظمة .

واذا نحن استبعدنا عناية غورنغ باللوحات الفنية الى حد ما، لم نجد ثمة ما استحق

شأنه خارج نطاق الأعمال العسكرية، غير السكك الحديدية . ولعل هذا يفسر لنا، لماذا عي ... حضور غورنغ مرتدياً ملابس زي أحد حراس السكك الحديدية ومعه علم أخضر، وقد نشرت في روما قصة تقول بأنه ذهب الى احدى الحفلات التي اقيمت في روما وهو يرتدي الزي الروماني القديم !

ولقد صبر رومل على غورنغ ثلاثة أيام اخرى . ثم قال له : «انني لا أفعل شيئاً هنا هنا، اللهم الا فقدان أعصابي، وخير لي ان أعود الى الفيلق الافريقي !»

وفي اليوم الرابع، طار رومل الى افريقيا، وهو معتقد كل الاعتقاد ان غورنغ مجنون، وان هتلر ليس أحسن حالاً من غورنغ !

وكانت هذه هي المرة الثانية التي انكشف فيها الغطاء عن عيني رومل، فرأى حقيقة ذلك الوهم الذي كان غارقاً الى ذقنه فيه !



الفصل الرابع والعشرون

انتصار جديد يحرزه رومل

معركة علم الخلفا - يقود جنوده وهو مريض
استسلام الفيلق الأفريقي

اذا كانت طرابلس قد سقطت في ايدي البريطانيين رغم ارادة هتلر، ورغم ما اصدره للاحتفاظ بها من اوامر وتعليمات، فليس معنى هذا ان قيادة رومل لقوات المحور في شمال افريقيا قد انتهت، وكل ما هناك ان لقبه العسكري ابدل به لقب آخر جديد · ومن الطريف ان اللقب العسكري لرومل تغير ثلاث مرات ابان سنة ١٩٤٢ · فحتى الواحد والعشرين من شهر كانون الثاني من تلك السنة كان رومل يحمل لقب «قائد الجحفل الافريقي المدرع» ·

ثم اصبح لقبه بعد ذلك «القائد الاعلى للقوات المدرعة في افريقيا» · وظل كذلك حتى الرابع والعشرين من شهر تشرين اول، حين عاد الى العلمين بعد موت اشتومة، يحمل لقب «القائد العام للجيش الالماني الايطالي المدرع !»

وفي الثاني والعشرين من شهر شباط تألف جيش افريقيا، وعين رومل قائداً له · وكان هذا الجيش يتألف من الفرقة الخامسة المدرعة بقيادة الجنرال فون ارنيم، وقوامها القوات الجديدة التي ارسلت الى تونس، ومن الجيش الايطالي الاول بقيادة الجنرال ميسه، وكان هذا الجيش يشتمل على الفيلقين الايطاليين العشرين ، والواحد والعشرين، وعلى الفيلق الافريقي الذي

سحب اخيرا من ليبيا، اي ان الجيش الايطالي الاول، لم يكن في الحقيقة الا الجيش الالماني الايطالي المدرع !

وهكذا رأينا رومل بدلاً من ان «يلصق ظهره بالحائط وتطلق عليه النار» كما هدد هتلر، قد رقي. واسندت اليه قيادة قوات المحور في تونس. حيث كانت قيادة الالمانية العليا تعتقد ان في امكانه تعطيل عدد كبير من قوات الحلفاء، عن طريق الاحتفاظ برأس جسر حول تونس وبيزرته، كما حدث في سالونيك في الحرب العظمى الاولى .

ومما يبعث على الدهشة حقاً، ان تسند الى رومل قيادة الاعمال العسكرية الخاصة بتنفيذ هذه الخطة. في حين انه كان آخر من يؤمن بصحتها أو فائدتها .

ومما يبعث على الدهشة من ذلك، ان رومل قبل ان يعلن رسمياً نبأ تعيينه في منصبه الجديد، ابى الا ان يقوم على عادته بحركة خاطفة. فانسحب من طرابلس الى خط مريت . وكان الفرنسيون قد حصنوا استحكامات هذا الخط. وجعلوا منه خط ماجينو آخر في افريقيا. ليحول دون اي تقدم ايطالي من ليبيا . وكانوا يعتقدون ان اختراقه يستحيل على اية قوة تهاجمه من الامام، كما ان الالتفاف حوله يعد كذلك في حكم المستحيل. لانه يقتضي القيام بحركة تمتد الى حوالي ١٥٠ ميلا !

وقد ادرك رومل بحق ان الجنرال مونتغمري ليس لديه وقت للتفكير في هذا الموقف . يضاف الى ذلك ان رومل لم يكن قد فقد روح الهجوم، وانه بطبعه ـ لم يكن يميل الى الاخلاد والسكون والانتظار حتى يهاجمه الاعداء، وهكذا رأى ان يقوم بتلك الحركة الهجومية الخاطفة الجريئة ولم يكن من الضروري لرومل ان يجابه الجيش الثامن، فقد كان الى جانبه الجيش الاول الحليف الذي لابد وان يهاجم رومل من المؤخرة عندما ينحدر الى الاخدود الذي يفصل بينه وبين مونتغمري .

واختار رومل اضعف النقط ليوجه اليها هجومه . وهناك في القطاع الجنوبي من جبهة الجيش الاول، عبر وادي فيض بين جنصه وفندق، كان يرابط الفيلق الامريكي الثاني امام ممر قصرين. وكانت المراكز الدفاعية قد اعدت اعداداً سريعاً. وقد تناثرت الفرقة الامريكية المدرعة الاولى وراء الجبهة، ونصفها الى الشمال تجاه فندق، حيث اكد قلم المخابرات ان اي هجوم يشن في هذه المنطقة سيكون مآله الفشل .

على ان تلك القوات الامريكية كانت حديثة عهد بالحرب، ولم تجرب القتال من قبل. ولم تكن لقيادتها ادنى خبرة بوسائل الحرب الحديثة !

وهكذا عرف رومل كيف يتخير فريسته، او كيف يضرب ضربته ! ولقد سحب رومل الفرقة الحادية والعشرين المدرعة، تلك الفرقة الوفية التي طالما تبعته في كل هجوم قام به، ثم عاد تسليحها بالدبابات، بفوج مستقل جديد ارسله لتعزيز مراكزه في تونس . ثم هاجم بها الفرقة الامريكية المدرعة في الرابع عشر من شهر شباط، مائة دبابة تحت ازيز طائرات الشتوكة. وسرعان ما اقتحم المراكز الامامية، وتداعت امامه استحكامات ممر قصرين التي شيدت على عجل السرعة . وزاد في اضطراب المدافعين انهم كانوا خليطاً من الجنود البريطانيين والفرنسيين والامريكيين. فلم تكن ثمة اية خطة متناسقة للدفاع، فضلاً عن اضطراب قيادتهم !

وافلح رومل في دق اسفين كبير في خطوط الحلفاء . كما تمكن من ان يطهر المراكز التي امامه ويفتح جبهة واسعة. فلم يبق أمامه الى الشمال إلا بعض عقبات طبيعية ضئيلة. واصبح في استطاعته ان يقوم بمثل المحاولة التي قام بها حينما كان في مركز العزالة !

كان هذا هو الموقف حينما تولى القيادة الجنرال الكسندر . وقد كتب في ذلك يقول: لقد اصبح من الواضح لي تماماً ان رومل لديه افكار وخطط أوسع نطاقاً ومدى من تأمين جبهة مؤخرته بتحطيم الفيلق الثاني، وبذلك يتهيأ لملاقاة الجيش الثامن .

واني لأعلم من تجاربي السابقة ان رومل لا يحجم عن محاولة النجاح بكل الوسائل الممكنة. وان محاولاته الجريئة قد تبلغ حد التهور، وخاصة بعد ان لاحت امامه مخايل نصر تكتيكي !

وفي العشرين من شهر شباط بدت الامور قاتمة أمام الجنرال الكسندر. حتى انه ابرق الى الجنرال مونتغمري طالباً اليه «ان يقوم باي شئ يحدث تحولاً في الموقف» . فوافق مونتغمري على ذلك ووعد بان يجيب الجنرال الكسندر الى طلبه فوراً . ثم أضاف الى ذلك قوله: «ولن يمضي وقت طويل حتى نجعل رومل يجري بيننا كالدجاجة التي انتزل ريشها !»

ولقد ادرك الجنرال الكسندر بفضل براعته في القيادة ان رومل سيتجه شمالاً. حيث تراءى امامه شباح النصر . فتمكن الحلفاء بذلك من صد اندفاعه الى الشمال بعد ذلك بيومين. واضطروه الى الانسحاب، مخلفاً وراءه تسع دبابات، وكثيراً من الالغام التي تعوق تعقبنا له !

وقد اعترف الجنرال الكسندر في رسالة بان «معركة قصرين لم تخل من لحظات شديدة الحرج . وذلك لان رومل يستغل دائماً ـ والى اقصى حد مستطاع ـ كل فرصة تسنح له، كما فعل خلال تقدمه الى العلمين. ولانه كثيراً ما يرمي بنفسه في وضع أسوأ من أي وضع سابق، توصلا

الى احراز نصر كبير، ولئن جاءت النتيجة كارثة بالنسبة له. فان أحداً لا يمكن ان يلومه. لأن النصر، لم يكن مستحيلاً عليه !

معركة علم الحلفا

وليس ادل على ان رومل خلال انسحابه الطويل لم يفقد اعصابه. ولم يغير عاداته في القتال، من تلك الحادثة التي وقعت في ذلك الحين ورواها الدكتور ليفلر - احد القناصل الالمان - في محاكمة نورمبرغ، وكان يعمل في سلاح الدبابات بالجيش الالماني في تونس، قال:

«كان رومل يستقل سيارة القيادة تحت وابل من نيران مدفعية العدو · وحدث ان كان قائد إحدى كتائب الدبابات، واقفاً بدبابته عند مدخل احدى القرى، وقد جلس في داخلها مطبقاً غطاءها عليه · فمضى رومل اليه، وطرق غطاء الدبابة سائلاً: «ماذا تصنع هنا ايها القائد ؟» · وفتح هذا غطاء الدبابة، ثم اجاب بقوله: «من المستحيل أن أتقدم !» · ثم سرعان ما اطبق غطاء الدبابة كما كان، لان نيران المدافع البريطانية التي انطلقت من حولها تكفلت ببقية الجواب · ومضت عشر دقائق، لم يخالج قائد كتيبة الدبابات خلالها ادنى شك في ان رومل قد مات · وشد ما كانت دهشته حين سمع طرقاً جديداً على غطاء الدبابة · وكان الطارق هو رومل نفسه، وقد عاد اليه بعد ان مضى بسيارته متفقداً اطراف القرية. ليقول له في هدوء :

«انك على حق فيما ذهبت اليه · فهناك اربعة مدافع مضادة للدبابات عند الطرف الآخر للشارع · ولكن عليك في المرة الثانية ان تحصل بنفسك على هذه المعلومات !»

ولم تكن هذه المعركة هي الأخيرة لرومل في أفريقيا، فقد تلتها معركة مدنين التي وقعت في الخامس من شهر اذار ولاشك في ان حركات رومل جاءت متأخرة عن حركات مونتغمري · فعندما قامت الفرقتان المدرعتان الخامسة عشرة، والحادية والعشرون، بهجومها العنيف، كانت تنتظرهما من جانب الحلفاء قوات قاسية الضربات ·وهكذا تكررت مأساة معركة علم الحلفا، فدارت الدائرة على رومل، بعد ان كان قوي الامل في الانتصار !

ويقول الفريق دي غونغان رئيس هيئة اركان حرب الجيش الثامن : ان القتال كان سجالاً بين الفريقين · فالمشاة الاقوياء يتشبثون بمراكزهم ضد المشاة الاقوياء، وضد هجمات الدبابات، ولا عاصم لهم من اسلاك شائكة أو الغام · وكانت مدافعنا المضادة للدبابات تركز نيرانها على دبابات العدو بدلاً من ان تحمي المشاة، وبذلك اخفق رومل في اختراق مراكزنا،

وتضطر الى الانسحاب مخلفاً وراءه اثنين وخمسين دبابة من المائة والاربعين دبابة التي شن بها هجومه، في حين لم نفقد نحن دبابة واحدة · ولم تزد خسائرنا في الارواح على ١٣٠ رجلاً من جميع الرتب بين قتيل وجريح، وكانت معركة دفاعية من الطراز الاول» ·

يقود جنوده وهو مريض !

ومما ذكره الجنرال دي غونغان رئيس هيئة اركان حرب الجيش الثامن: ان الاسرى يقولون ان رومل راح يتنقل بين الجنود ليلهبهم حماسة، ويؤكد لهم اهمية هذه المعركة، ولكنه كان في ذلك الحين رجلاً مريضاً، تحيط الضمادات بعنقه، وانتشرت في وجهه القروح الصحراوية !

ونقل الجنرال الكسندر ـ نقلاً عن شاهد عيان ـ انه رأى رومل يخطب في جماعة من الجنود وقفوا حوله فقال لهم: «انتنا، ما لم نكسب هذه المعركة فستذهب سدى كل آمالنا في افريقيا !»

وبعد ذلك باسبوع سافر رومل الى المانيا · وهناك تفسيرات عدة متغايرة لهذا السفر المفاجئ قبل معركة خط مريت · ولعل أبعد التفسيرات عن التصديق، ما قاله الجنرال هوايتوورث من ان رومل قد افلت حتى لا يشهد الكارثة النهائية، بعد ان تنبأ «رومل بوقوعها، ورأى من خيرانه وهو المريض ان يهرب بجلده» · ولاشك في ان رومل تنبأ بما لابد من وقوعه · ولكن انساناً ممن تتبعوا سيرة رومل حتى تلك اللحظة من حياته، لا يرى ان رومل يمكن ان يحول الهرب على تلك الصورة ·

ويقال ان الايطاليين طلبوا الى رومل الانسحاب، ولكن ليس ثمة دليل واضح على ذلك · ومن التفسيرات التي يمكن السكوت عليها ان رومل ساءت صحته، واحتاج الى علاج آخر ·

اما ان هتلر استدعاه خوفاً من ان يقع في الاسر، فيؤثر ذلك في الروح المعنوية للشعب الالماني، فهذا التفسير بعيد الاحتمال، وذلك لان هتلر لم يكن قد ايقن بعد بأنه قد خسر تونس · ولم يحدث، قبل الثامن من شهر أيار ان اصدرت القيادة الالمانية العليا امرها بالتخلي عن أفريقيا، أو بأن القوات الالمانية والايطالية يجب ان تنسحب عن طريق البحر · وفي ذلك الحين، لم يكن من الممكن ان ينفذ أمر هتلر، شأن كثير من اوامره، ولقد حدث الاستسلام بعد ذلك بأربعة أيام !

اما التفسير الذي ادلى به رومل لاسرته، فهو انه طار الى المانيا بمحض اختياره، ودون ان يصدر اليه أي امر بذلك، وكان يهدف من وراء سفره المفاجئ الى ان يعاود التوسل الى هتلر ليأذن في انقاذ الجنود الالمان على حساب العتاد العسكري · ولقد رفض هتلر مرة اخرى مطلب رومل، واتهمه بأنه من دعاة الهزيمة الجبناء ·

ولما اقترح رومل ان يعود الى افريقيا ليتباحث في الموقف هنالك، رفض هتلر مطلبه ايضاً · ولست ارى ما يجعلني ارتاب في هذا التفسير ·

غير ان الفيلق الافريقي لم ينس رومل لحظة من ليل أو نهار · فلقد حاربت فرقه القديمة في عناد واصرار كما لو كانت تحارب بقيادته، وما كانت ذكرى رومل بالتي تنمى أو تتلاشى حتى من رؤوس خصومه، فلطالما ذكر الجنرال دي غونغان في كتابه «عملية النصر» انه ترك افريقيا قبل معركة خط مربث · ولكنه رغم ذلك بقي، على غير شعور منه، يذكر جو رومل !

وبعد ان سقطت تونس، دعي رومل الى «عرين الذئب» أو مقر قيادة هتلر في راستنبورغ في بروسيا الشرقية · وكان هتلر بادي اليأس، غير ان اعصابه لم تكن ثائرة · وقال لرومل: «كان ينبغي ان انصت اليك من قبل أما الآن فقد ضاعت افريقيا» · وأخذ رومل يشرح الموقف العام للقوات الالمانية ثم سأل هتلر فجأة «هل تظن اننا نستطيع ان نحرز النصر التام الذي كنا نهدف اليه ؟» · فأجابه هتلر قائلاً : «لا · !»

وعاد رومل فسأل هتلر: «هل تدرك تماماً ما وراءه الهزيمة ؟» · فقال هتلر: «انه لابد من ان تكون هناك شروط للصلح من أي جانب، ولكنني لا اتقدم بطلب شروط الصلح !»

وعندما كان رومل يروي لزوجه وولده نتائج هذه المقابلة، حرص على ان يقول: «ان هتلر هو لويس الرابع عشر في العصر الحديث، فهو غير قادر على ان يميز بين رغباته الشخصية ورغبات الشعب الالماني · ولهذا لم يخطر بباله قط ان ينزل عن الحكم اذا كان الحكم عقبة في سبيل السلام !» ثم أضاف رومل الى ذلك قوله: «عندما يكون هتلر يائساً تماماً، فانه يمكن التفاهم معه» ·

ولقد تحقق رومل من ان الكراهية والحقد، هما لب لباب شخصية هتلر · ومن هنا كان اذا كره انساناً، لا يستطيع ان يضبط اعصابه أو يتحكم في ارادته، فكل ما يشتهيه هتلر هو ان يكون قاتلاً ·

انتهاء معركة افريقيا

ولقد ذكر الجنرال الكسندر ان الفرقتين: الخامسة عشرة المدرعة، والتسعين الخفيفة، كانتا تقومان بأحسن قتال اشتركتا فيه خلال هذه الحرب في وادي (العكاريت)، وقد تمكنتا من الافلات مؤقتاً من كارثة كادت تحل بها، ولكن لم تتيسر لها الحيلولة دون اتصال الجيشين الاول والثامن وفي التاسع والعشرين من الشهر ذاته اظهرت تينك الفرقتان والفرقة الحادية والعشرون المدرعة، روحاً عالية في القتال رغم الخسائر الفادحة التي الحقت بها · وفي الثلاثين منه كان على الجيش الاول ان تشد ازره أحسن تشكيلات الجيش الثامن، ولقد اختار الجنرال مونتغمري الفرقتين: السابعة المدرعة، والرابعة الهندية، اللتين أحرزتا أول نصر في أفريقيا بقيادة الجنرال ويفل، وكان معهما اللواء رقم ٢٠١ ·

وفي السابع من أيار دخل «جرذان الصحراء» تونس · وفي الثاني منه استسلم الجنرال غراف فون اشبونك بفرقته التسعين الخفيفة لاقدم اعدائه أي الجنرال فرايبرغ، وللجنود النيوزيلنديين · اما البقية الباقية من الفيلق الافريقي، فقد وقعت في الاسر وحدها دون قائدها·

وبذلك تكون حرب الصحراء الغربية قد انتهت ·

نعود الآن الى آراء كبار قادة الجيش الالماني في معركة افريقيا فنقول ان المارشال كيتل صرح وهو على فراش الموت: ان اعظم الاحداث التي مرت بنا قد وقعت في العلمين · ويمكنني ان اقول اننا في ذروة الحرب كنا على قاب قوسين أو ادنى من النصر الحاسم، منه قبل أي وقت آخر أو بعده · لما كان علينا سوى خطوات حتى نفتح الاسكندرية، ونندفع الى الامام نحو قناة السويس ففلسطين ·

أما الجنرال هالدر فقد ظل غير آسف لما حدثْ ففي كتابه الركيك العبارة الكثير المبالغة والذي اسماه «أمير الحرب هتلر»، حاول أن يلقي تبعة هزيمة المانيا كلها على عاتق هتلر، وان يجرد من التبعة «القيادة العليا» التي كانت ترى ان ضرب انكلترا في شمالي افريقيا أمر مستحيل، ذلك لأن سيطرة انكلترا على خطوط التموين عبر البحر الأبيض المتوسط لا يمكن انتزاعها منها، ولأن الغواصات الالمانية لا تبلغ تلك المناطق الا بعد ان تخسر النصف من موجوداتها، في حين ان الواقع هو ان الالمان فقدوا غواصتين من مجموعة ستين غواصة · وكذلك يقول هالدر ان باستطاعة بريطانيا ان تحصل على كل شئ تريده عن طريق البحر الأحمر،

وفاته ان يدرك ان السفن البريطانية لم تستطع المرور من قناة السويس، وانما كانت تمر بطريق رأس الرجاء الصالح .

ويضيف هالدر الى ان حرب افريقيا كانت منذ البداية مسألة وقت فحسب، والحقيقة انه كان من حسن حظ الانكليز ان تضم القيادة العليا الالمانية رجالاً من أمثال هالدر !!

الفصل الخامس والعشرون

هتلر يتوقع استسلام الايطاليين

رومل يقود جيشاً في ايطاليا - حائط الاطلنطى من ورق
بين رومل وروندشتدت

وفي صيف سنة ١٩٤٣ كان رومل في مركز يحسده عليه كل القواد الالمان في مختلف جبهات القتال، وخاصة قواد الالمان في روسيا . ذلك انه كان على رأس جيش الماني في شمال ايطاليا، وكان مقر قيادته العليا على ضفاف بحيرة غاردا ..!

وكان بعد عودته من شمال افريقيا، قد دخل المستشفى في استمرئغ من جديد، ولبث فيه بضعة اسابيع، ثم عين بعد ذلك «مستشاراً عسكرياً» في هيئة اركان حرب هتلر، ولكن هتلر لم يكن يستشير رومل في أي شيء !.

واخيراً اضطر هتلر الى ان يرسل رومل الى اليونان، على أثر الاشاعة التي راجت عن اعتزام تشرشل غزو اوربا من طريق البلقان . على انه لم تمض على وجود رومل في اثينا ٢٤ ساعة، حتى عاد هتلر فاستقدمه بالتليفون، وكان ذلك حين ما علم بسقوط موسوليني في الخامس والعشرين من شهر تموز .

وكان هتلر يرتاب في نوايا الايطاليين ويرى انهم على وشك ان يستسلموا او ان ينضموا الى الحلفاء ضده .

وقد اثبتت الايام صحة رأي هتلر في الايطاليين، وتجلى ذلك حين ذهب روما والمارشال بودل، الى مقر قيادة بادوليو ليتباحثا معه في شأن ارسال قوات المانية اخرى الى ايطاليا . فقد راح الجنرال رواتا ـ رئيس هيئة اركان حرب بادوليو ـ يبذل كل ما في وسعه ليحول دون ارسال تلك القوات، بحجة ان وجودها يثير الشعب الايطالي . كما انه احتج على وضع حارس على بيته من جنود فرقة الدفاع «S.S»، وتساءل مستنكراً: «أي حق لبودل في ان يأتي بجنود سياسيين الى ايطاليا ؟ وهل يقبل بودل ان يكون حراسه هو شرذمة من اليهود الذين يحتقرونه ؟!»

واصر بودل على ابقاء جنديي فرقة الدفاع، يحرس رواتا، وحينما سمع بانه وروما معرضان لان يدس لهما السم في طعامهما، لم يعر ذلك أي اهتمام !

رومل في شمال ايطاليا

وكان الجيش الألماني الذي يقوده رومل، موجوداً حول ميونخ حيث يقوم بعض التدريبات، فرأى ان من الحكمة ان يعجل بتحرك هذا الجيش الى ايطاليا . وكان مرور دبابات النمر وقد اتيح لي ان شاهدها يوم ٩ ايلول وهي تتحرك على طول شارع ريغيو في طريقها الى احتلال بياتشنزا .

وتناهت الينا ونحن في معسكرات الاعتقال، انباء استسلام الايطاليين بلا قيد ولا شرط .

ولقد قررت أن أحتفل بذلك الحادث، فأسرعت في ارتداء بدلة جيدة مصنوعة من قماش «الباكا»، ووضعت على رأسي قبعة قش كبيرة. وما لبثت ان قمت باستطلاع الموقف وكنت في ملبسي هذا لا افرق قيد أنملة عن أي فلاح ايطالي . ولشدة سروري عندما استطعت أن أميل بجسمي على جدار الحديقة، وأن انعش نفسي بتقبل اشعة الشمس، وتذوق طعم الحرية بعد ستة عشر شهراً قضيتها في الاسر .

على أن ظهور الدبابات الالمانية في بلدان ايطاليا، لم يكن يرحب به . فقد كانت هذه الدبابات تخترق شوارع المدينة، فتثير عاصفة من الكراهية لدى الايطاليين .

اما الشيء الذي أثار حنقي، فهو ظهور رجلين من فرقة الدفاع الالمانية، ومعهما رشاشات «تومي» في الحديقة وعلى قيد بضع خطوات مني . فلم أشأ والحالة هذه الا ان

بسرعة فائقة تحت اشجار الكرم، فأختفي بينها، ومن هناك اجتزت الحقل وعدت قافلاً الى معسكر الاعتقال لأروي لأصدقائي ما شهدته ·

ولقد علمت فيما بعد، ان كل ما رأني ـ عدا رجال الأس أس لحسن الحظ ـ قد دهش من مغامرتي، واحتار فيما كنت اريد ان افعله وانا ارتدي مثل تلك البدلة ·

ولقد علمنا ونحن في معسكر الاعتقال، ما لم يعلمه افراد دائرتنا السرية. لقد علمنا قبلهم بان الالمان كانوا يتوقعون استسلام ايطاليا · ذلك ان أحد حراس فرقتنا قد انبأنا قبل استسلام ايطاليا باسبوعين على أقل تقدير، ان الفرق الالمانية تتدفق على ايطاليا عبر ممر برنر، ولم نكن نتوقع ان يكون رد الفعل لدى الشعب الايطالي كبيراً وبمثل تلك السرعة ·

والحق يقال ان البعض منا كان يأمل ان يغادر معسكر الاعتقال في الحال، فيأخذ القطار من بياتشنزا ذلك المساء، الى روما فجنوبي ايطاليا ·

ولما كان معظمنا قد أسر في شمالي افريقيا، واذ علمنا بان رومل هو الذي يقود الحملة الالمانية في ايطاليا، فقد تخلينا عن الاسراف في التفاؤل والآمال التي عقدناها على استسلام الايطاليين · لقد كنا نحن الاسرى الانكليز، والبالغ عددنا خمسين الفاً، نعيش في معسكر الاعتقال في معزل عن العالم، ولم تصلنا اية أوامر أو معلومات عن الهدنة مع ايطاليا · وكانت نتيجة ذلك ان ظل معظمنا يتمسك بالأوامر التي صدرت اليهم منذ ستة أشهر بالمكوث، حيث تم نقلهم فيما بعد الى المانيا · وقد استمرت مفاوضات الاستسلام مع المارشال بادليو، من شهر تموز حتى شهر ايلول، واذ ذاك اطلعنا على اطراف من الوضع المحيط بالالمان والحلفاء على السواء ·

وقد سار رومل في حركاته بشمالي ايطاليا، على نفس الخطة التي سبق له ان استعملها في شمالي افريقيا، ذلك انه وجه اهتمامه قبل كل شئ الى البترول والزيت فالماء فالطعام، وأخيراً الاسرى الذين اعتادان يقول عنهم «اننا سنلتقطهم مؤخراً !»

ولقد شدد الالمان قبضتهم على شمالي ايطاليا، فابدوا اهتماماً كبيراً بسلب حلفائهم الايطاليين، كل مالديهم من طعام وآلات، وبعثوا بالشباب الايطالي وبوفرة هائلة، الى المانيا للعمل الاجباري ·

وكان ابغض شئ الى رومل، تعيينه في هذا المنصب الذي تغمره الراحة والسكون، فضلاً عن بغضه العودة الى العمل تحت امرة المارشال كسلرنغ، فكانت امنيته الكبرى ان يتول قيادة احدى الفرق المحاربة، ولم يكن قضاء الصيف في البحيرات الايطالية لينفق وآراءه عن الحرب ·

وفي الفترة التي أعقبت استسلام الايطاليين، عانى رومل كثيراً من مضايقات جنود فرقة الدفاع، ومضايقات قائدم سب ديتريش !

وبلغ الامر مداه حين ترامت الشائعات مهولة فيا يقوم به جنود فرقة الدفاع من اعمال النهب والسلب، وما اليها من الامور المشينة، في ميلان وغيرها من مدن شمال ايطاليا . وحينئذ لم يجد رومل بدا من ان يتدخل لحسم هذه الامور، ووقفها عند حد، فارسل الى الجهات المختصة بياناً باسماء طائفة من ضباط تلك الفرقة، طالباً معاقبتهم فلما رأى ان ذلك لم يجد نفعاً، اضطر الى ان يصدر هو نفسه أمراً يقضي باخراج كل من كانوا في ميلان من ضباط تلك الفرقة وجنودها !

وكان طبيعياً ان يغضب هملر، المشرف الاول والاخير على تلك الفرقة، وقد حدث ان سأل هملر بعد ذلك رومل: كيف تسير الامور في ميلان؟ فاجاب رومل بقوله: «لاشك في انها الآن احسن كثيراً مما كانت عليه، وجنود فرقة الدفاع يعيثون فيها الفساد!»

حائط الاطلنطي من ورق ؟

وفي بداية شهر تشرين الثاني، عهدت الى المارشال رومل مهمة جديدة، فقد اسند اليه الفوهرر مهمة القيام بتفقد الاستحكامات الساحلية في الغرب، والممتدة من مضيق سكاجراك في الشمال حتى الحدود الاسبانية . وكان لابد لرومل من الاستعانة ببعض الخبراء البحريين . وقد نصحه الجنرال غاسي الذي كان رئيس حرب أركان رومل في افريقيا الى ان جرح في الواحد والثلاثين من ايار ١٩٤٢، نقول نصحه غاسي بأن يصطحب معه الفيس أميرال «روغه»، الذي قاد فيا بعد القوات الالمانية البحرية في ايطاليا، والذي كان يشرف قبل ذلك على أعمال كنس الالغام من البحار .

وقد اعتقل روغة بعد الحرب العالمية الاولى لاشتراكه، في اغراق الاسطول الالماني في مضيق «سكابافلو» ببريطانيا .

ولقد التقي غاسي بالاميرال روغة فتعرف اليه، واحبه ووافق رومل على اصطحاب روغة معه، بناء على توصية غاسي . لقد اختار فأحسن الاختيار . ولا يزال الفيس أميرال روغة يعيش الآن في كوكسهافن، ويقوم بتعليم الالمانية لضباط البحرية الانكليزية .

وروغة هو المثل الأعلى للضابط البحري، الذي تحتاج اليه البحرية البريطانية . فهو

وليد الاسطول. وقد اجتمعت فيه كل الصفات التي يتطلبها عمله من خبرة طويلة. وجلد وذكاء وبراعة ممتازة. وقد اطمأن رومل اليه. فاصبح في مدة قصيرة رفيقه المقرب اليه. والذي يضع كل اعتماده عليه.

ولقد شعر الاميرال روغه. من ناحيته. بالميل الشديد الى رومل منذ لقائهما الأول. حتى بعد ان عاد رومل وعلى غير انتظار الى مقر قيادته وهو يرتدي سترته القديمة ويضع شالاً حول رقبته. لقد سألت روغه عن رومل في عمله الجديد فساعدتني اجابته على سؤالي ذاك، في استجلاء شخصية رومل وتفسير غوامضها، لكثير من القراء الانكليز. لقد كان جواب روغه هو: ان رومل من ذلك الطراز الذي يلتقي المرء به في الخدمة البحرية أكثر من أية خدمات اخرى!

وقد يكون سبب تفهمي لشخصية هذا الجنرال الالماني غير الاعتيادي، ان والدي كان بحاراً، واني نفسي قد انفقت الشطر الأول من حياتي في البحار.

ان الميزات التي ابرزها المارشال رومل في الصحراء وفي اي مكان آخر، ليست غريبة عن البحارة. فالجنود بدورهم يستطيعون ان يكونوا ذوي عزم وشجاعة، وتحمل للمصاعب والمتاعب. وان باستطاعة هؤلاء ان يصبحوا ذوي عقول نيرة وآراء صائبة، دون ان يقرأوا الكثير من الكتب أو يعنوا بالفنون.

وبعبارة مختصرة اقول ان كلا من رومل وروغه. يتمم أحدهما الآخر. فكلاهما عنود لا يتزحزح قيد أنملة عن رأيه. ومع ذلك فان كلا منهما يفهم الآخر فهماً تاماً.

وفي العاشر من شهر تشرين الثاني أرسل روغه الى برلين، ليقوم بجمع الخرائط والوثائق والمعلومات عن حائط الاطلنطي، غير ان هذه الاوراق والخرائط التي جمعها ما لبثت، ان ضاعت اثناء وقوع غارة جوية.

ولم يستطع رومل وروغه بدء رحلتهما الا في كانون أول، حين سافرا الى الدانيمارك!

وقد استغرقت رحلتهما التفتيشية للساحل الدانمركي عشرة ايام، ثم نقل رومل مقر قيادته الى فونتنبلو، وشرع في تفقد الساحل الفرنسي. وشد ما كانت قاسية، هي الصدمة التي فوجئ بها هناك وهو يتفقد الاستحكامات الساحلية، أو «حائط الاطلنطي العظيم»، الذي طالما طبلت له وطنطنت بمناعته الدعاية الالمانية، وظلت تغالي بقيمته الدفاعية حتى صدقها الحلفاء والالمان!

لقد تبين روميل ان تلك الدعاية لم تكن سوى فرية متقنة هائلة، وانه ليس ايسر على الحلفاء من ان يقتحموا تلك الاستحكامات التي كأنما هي من ورق !

صحيح ان البحرية الالمانية نصبت بطارياتها لحماية الموانئ الرئيسة، وان هذه البطاريات اتصلت بها الى حد ما، بطاريات المدفعية الساحلية . ولكن الكثير من هذه المدافع الساحلية كانت ظاهرة في العراء هدفاً طيباً لقنابل الأعداء .

وقد اوضح الاميرال روغه ان القيادة الالمانية لم تكن لتوافق على تركيز مدافعها في مواضع مسلحة، وذلك بسبب تجديد ميادين المدفعية . فمنذ سنة ١٩٤٢ فما بعد، ادى نقص الفولاذ في المانيا الى استحالة الحصول على ابراج المدافع .

اما بالنسبة للمواقع القوية على الساحل، فقد تركت في العراء دون ابنية واقية مسلحة، وكانت مثل هذه المواقع تمتد بصفة خاصة بين نهري «اورن» و«فير» . واذا وجدت مثل تلك الأبنية الواقية فانها غير مجدية، إذ لم تكن لتخفي اكثر من ستين سنتمتراً من رؤوس البطاريات، وفي الوقت ذاته لا تستطيع القيام بعمل ما ضد القصف الجوي المتوقع عليها .

ومن الغريب حقاً ان الاحتياطات الاولية تجوهلت تماماً، فلم تكن هناك حول النقط الهامة على الساحل، حقول كافية من الالغام، ولم يزد ما بثه الالمان منها خلال السنوات الثلاث السابقة، على مليون وسبعمائة الف لغم . ولم يزد المعدل الشهري من الالغام عند وصول روميل الى فرنسا، عن اربعين الف لغم، وهو لا يساوي غير جزء ضئيل مما تركناه نحن بين السلوم والحلفايا، عند انسحابنا سنة ١٩٤١، كما انه لم تكن هناك الغام في المياه الضحلة، وكانت الالغام التي وضعت بالقرب من الساحل غير كافية ايضاً . هـذا الى ان العقبات التي وضعت على الخلجان ومداخل السواحل، كانت من الوهن بحيث لا تقوى على درء دبابة، بل كانت لا تحول حتى دون تقدم المشاة !

فالالمان اذن لم يقوموا باية محاولة جادة لان يجعلوا من الساحل الفرنسي حائطاً دفاعياً ضد اي غزو ! فلم يحصن الالمان تلك المواقع، الا بعد غارة الكوماندو البريطاني على ميناني سانت نازير وديبب .

ولقد عتب الاميرال روغه على الجنرال الذي كان منوطاً به الاشراف على سلاح المهندسين، لانه لم ينهض بعبء واجبه، ولم يفكر في حماية السواحل على نطاق واسع، ولا في صنع شئ ما لتنسيق اعمال الجيش والبحرية . والحقيقة ان القيادة الالمانية العليا، هي الملومة أولاً على هذا الاهمال، لانها تركت الحبل على الغارب للقادة الذين تشرف عليهم. ولم تسأل أحداً

ب عما فعل. فمضوا يقدرون الامور كما يحلو لهم، وينفذون من الخطط ما يروق لهم أن ينفذوه !

وهكذا نمكن القول بأن فرنسا في ذلك الحين. كانت بمثابة ملجأ للقادة والمحاربين الالمان لذي جهدهم القتال العنيف في روسيا . فالحاميات الالمانية في فرنسا حينذاك كانت تنقصها الكفاءة والقدرة، ولم يكن بين جنودها وضباطها من يصح الاعتماد عليهم، وذلك لانشغال الاكفاء بالعمل في الميادين الهامة الاخرى، وانهاك الموجودين منهم في المانيا، في اصلاح ما حطمته الغارات الجوية من خط سيغفريد !

تحت الثلوج والأمطار !

وبدأ رومل عمله لوضع الامور في نصابها، قبل عيد الميلاد، فراح يطوف بسيارته، ومعه اركان حربه. على القطاعات والاستحكامات المختلفة على الساحل، ويفحص كل شئ بنفسه في دقة ونشاط . وحينما كان الشتاء يحول دون مواصلة التفتيش. كان يعقد الاجتماعات والمؤتمرات لمشاورة كبار الضباط .

ويقول الاميرال روغه : ان رومل كان يستيقظ في ساعة مبكرة، وكان ينتقل بسرعة عجيبة، ويفطن الى مواطن الضعف بسرعة اعجب . ويبدو لي ان رومل يمتاز بحاسة خاصة تهديه الى السبق في هذا المضمار . واني اضرب لذلك مثلاً احدى الرحلات التي صحبته فيها . فقد كان الوقت شتاء بارداً، وقد وصلنا بشق النفس الى بيبنيان في ساعة متأخرة من الليل، فبدأ رومل تفتيشه الدقيق دون ان يستريح، وفي الساعة السادسة من صباح اليوم التالي، كنا في الطريق الى بايون بالسيارة، قبل ان نفطر . فبلغناها في الساعة الثانية بعد الظهر، عبر بحر من الجليد والامطار والاوحال . ولبثنا فيها ساعة، أتم فيها رومل تفتيش كل شئ هناك، ثم امر بمواصلة الرحلة الى سان جان دي ليز على الحدود الاسبانية، دون ان تتناول طعام الغذاء، ففتش ما فيها من البطاريات .

وفي الساعة السابعة مساء، كنا في بوردو، حيث تحدثنا مع الجنرال فون بلاسكوفيتس . ثم بدأنا بعد ساعة تناول طعام العشاء . وكان رومل يعتزم مواصلة الرحلة عقب العشاء مباشرة، ولم ينقذنا من ذلك الا استغراق قائد سلاح المهندسين في النوم العميق، وهو جالس الى المائدة !»

ولقد كان رومل ينقض على الضباط المشرفين على البطاريات، كما تنقض ريح الشمال

الثلجية على الاماكن الدافئة، بغيضة قاسية غير محببة الى النفوس، وعندما انتقل مقر قيادته الى روش غايون شمالي غربي باريس، لم يكن رومل ليشاهد فيه الا قليلاً اثناء الليل . ذلك ان مقر القيادة كان يقوم في قلعة ضخمة قديمة فخمة ملأى بالتحف والآثار التاريخية، انها قلعة «لاروشفوكو» ودوق روش غايون .

رومل وروندشتدت

على ان رومل لم يكن مطلق اليد بحيث يستطيع ان يفعل ما يريد، فلم يكن في استطاعته - مثلاً - ان يصدر اوامر مباشرة الى الجنود، بل كان عليه ان يعد مقترحات تعرض على الفيلد مارشال فون روندشتدت القائد العام للقوات الالمانية في الغرب، أو تعرض على القيادة الالمانية العليا .

ومن عجب ان رومل وفون روندشتدت لم يختلفا كثيراً، كما كان متوقعاً .

والواقع ان روندشتدت، رغم انه ضابط ارستقراطي وقور من المدرسة الالمانية القديمة ، ورغم براعته الاستراتيجية الممتازة، فانه لم يكن قاسياً جافاً كما يدل على ذلك مظهره، بل كان لطيف المعشر ذا روح مرحة، ولهذا لم يضايقه ما ضايق غيره، من طفرة رومل الذي لم يتدرب على الحرب الاوربية، وقفزه فجأة الى رتبة فيلد مارشال !

وقد صرح روندشتدت للنقيب ليدل هارت، وكان ذلك بعد موت رومل بوقت طويل، بقوله : «ليس لدي ما آخذه على رومل، لقد كان ينفذ فوراً كل ما اصدره اليه من تعليمات . واذا لم يكن لدى رومل في رأيي القدرة الكافية لان يكون قائداً أعلى، فهذا لا يمنع قط انه كان قائداً بارعاً، وشجاعاً الى اقصى حدود الشجاعة !»

والثابت ان روندشتدت ما كاد يعين قائداً أعلى للقوات الالمانية في الغرب سنة ١٩٤٢، حتى ادرك ما ادرك رومل بعد ذلك، من ضعف حائط الاطلنطي، وفقد الأمل في دعمه ليكون عقبة ضد الغزو، أو ضد قوات الحلفاء اذا بدا لها النزول الى الشاطئ .

ولم يتمكن رومل من ان تكون له قيادة مستقلة .. الا في بداية سنة ١٩٤٤ . وفي نهاية كانون الثاني من تلك السنة، اصبح قائداً للجيوش الالمانية فيما بين هولندا واللوار، ومن بينها قوات الاحتلال في هولندا، والجيش الخامس عشر المرابط فيما بين الحدود الهولندية ونهر السين، والجيش السابع المرابط بين السين واللوار .

وكان الجنرال بلاسكوفيتس قائداً للجيش الأول المرابط على خليج بسكاي والبرانس. والجيش التاسع عشر المشرف على ساحل البحر الأبيض . أما رونشتدت فكان قائداً أعلى لكل هذه القوات كما تقدم .

وسواء أكان رومل صاحب الاقتراح الخاص بهذا النظام، كما أكد ذلك الاميرال روغه، أم كان رونشتدت هو الذي اقترحه، فالثابت ان رونشتدت كان لا يرى فائدة من محاولة اصلاح حائط الاطلنطي السالف الذكر، ولكنه لا يعارض ان يقوم رومل على مسئوليته الخاصة بما يعن له من هذا القبيل .

ولقد بذل رومل في هذا السبيل جهوداً جبارة.ماكان احد غيره يستطيع القيام بها في مثل تلك الظروف الشديدة التعقيد .
على انه ـ لحسن حظ الحلفاء ـ لم تتح له فرصة كافية لاستكمال تلك الجهود .

ويقول الأميرال روغه : «كان رومل يملك بعض النفوذ والتأثير الى حد ما. فيما يختص بالبحرية . اما فيما يختص بسلاح الطيران، فلم يكن له أي نفوذ أو تأثير !»

ولم يتمكن رومل من أن يكتب الى فون رونشتدت إلا في أول تموز، أي بعد ابتداء الغزو بثلاثة أسابيع .[٢٦]

وقد جاء في كتابه ذاك قوله :ـ

«بالنظر لما يتطلبه توحيد قيادة الجيش، وتركيز جميع القوات، فانني اقترح بأن أتولى أنا بنفسي قيادة المصالح الاخرى العاملة في منطقة الجيش والمتعاونة معه .»

ذلك أن التعاون الوثيق بين سلاح الجو والوحدات البحرية والقوى البرية الثقيلة، لا يمكن ضمانه إلا عن طريق أكثر القيادة شدة وضبطاً من مقر الجيش ذاته . اما ازدواج الأوامر فانه لا ينجم عن غير انصاف الحلول !

لقد كان رومل مصيباً في فكرته تلك. غير أن الاختلاف الناشئ بين المصالح ونظام الجيوش الخاصة التي تتبع كلاً من هملر وغورنغ واضرابهما، كانت من أعظم الاسباب التي أدت الى هزيمة المانيا .

---

(٢٦) يقصد المؤلف بذلك الغزو الذي قامت به القوات الامريكية والبريطانية لاوربا في اوائل سنة ١٩٤٤ ، وهو ماعرف بساسم فتح الجبهة الثانية في اوربا وكان نجاح هذا الغزو مقدمة لانهيار المانيا وانتصار الحلفاء .

وفي الثاني والعشرين من نيسان عاد رومل فكتب الى رونشتدت يقول :

«تدل رحلتي التفتيشية في القطاعات الساحلية على ان تقدما غير عادي قد حقق . على اني لاحظت خلال الرحلة ان بعض الوحدات لا تدرك مدى خطورة الموقف الراهن، كما ان بعض هذه الوحدات لا تنفذ اوامري، أو تهمل تنفيذها، فالاوامر التي اصدرتها باعداد الالغام على طول الساحل، لم ينفذ منها شئ، وفي بعض الحالات اصدر أحد القواد الصغار امراً يبطل ما اصدرته من اوامر، وفي حالات اخرى ارجئ تنفيذ اوامري بضعة ايام . وكثيراً ما تدرك بعض الوحدات اهمية اوامري، ولكنها لا تقوم بتنفيذها، هذا في الوقت الذي احرص فيه ان لا اصدر اي امر الا اذا كانت هناك ضرورة ملحة لاصداره وتنفيذه» .

وهكذا فقد رومل تلك الطاعة التي كان يجدها من الفيلق الافريقي في الصحراء، حيث كانت اوامره تجد سبيلها بسرعة الى التنفيذ !

وصحيح انه تعود قبل ذلك الا يجد سنداً من رؤسائه، ولكنه لم يتعود الا تحمس مرؤوسيه لتنفيذ ما يصدره من الاوامر والتعليمات !

ورغم ان هذا كله مما كان عونا للوقت ضد رومل، فلم يكن هناك من هو خيراً منه في احياء الروح المعنوية وتقويتها بين الجنود المتعبين الذين اعياهم الارهاق .

ويقول الاميرال روغه : «كان رومل حيثما توجهنا في فرنسا، يتحدث دون ادنى كلفة مع الجنود من مختلف الرتب، وكان يعرب لهم عن وجهات رأيه، ويبثهم ذات نفسه في صراحة وجلد عجيبين . وكان طبيعياً ان يحسنوا الاستماع له، فهو الى جانب شهرته، كان ذا رأي واضح، وفهم صحيح لدقائق الامور، وروح مرحة في احرج الظروف . وكان بفطرته سريع التفطن للجانب الانساني من كل شئ، وهي مزية قلما تتوافر في كبار الضباط من هيئة اركان الحرب . ومن هنا سرت روح جديدة في الجنود، وبدأ العمل والاعداد لمقاومة الغزو»

بين رومل ومونتغمري

وهناك على الجانب الآخر من القنال الانكليزي، كان الجنرال مونتغمري يتحدث الى جنوده الذين سيقومون بالغزو، بمثل ذلك الاسلوب السهل البعيد عن كل تكلف، وكذلك كان يتحدث الى عمال المصانع الذين يتوقف نجاح الغزو على ما يبدونه من همة ونشاط في امداد القوات الغازية بما تحتاج اليه من مؤن وعتاد !

ولا شك في ان مونتغمري، كان هو الآخر لا يجد من يقدر اسلوبه هذا من السلطات العليا . فالصحف البريطانية ـ على حد قول مورهد مؤلف كتاب مونتغمري ـ كانت تشجعها تلك السلطات على ان تكف عن الدعاية لمونتغمري[٢٧] . وكذلك كانت مصلحة الدعاية الالمانية في سنة ١٩٤١ تتلقى الاوامر من الجنرال هالدر، بان تكف عن الحديث عن رومل . وحينما طلب البارون فون ايزبك السماح له بالذهب الى شمال افريقيا، بوصفه مراسلاً حربياً، قوبل طلبه بالرفض !

والواقع ان كلا من رومل ومونتغمري كان يدرك فائدة استغلال اسمه في الدعاية للجيش وتقوية روحه المعنوية .

ومما يؤثر عن رومل قوله ذات يوم لمصوره الخاص : «لك ان تصنع بي ما تشاء، اذا كان في ذلك ما يؤخر الغزو، ولو لاسبوع !» .

ويقول الاميرال روغه عن رومل : «انه لم يكن مغروراً، بل لم تكن لديه ادنى رغبة في ان يرفع نفسه، ويدفع بها دفعاً الى الامام !»

---

(٢٧) كان مونتغمري ارلندياً ولذلك فان الكثيرين من الانكليز كانوا يحسدونه بل ويمقتونه لانه من ابناء ارلندا .



الفصل السادس والعشرون

وسائل دفاع روملية جديدة !

حيل لتضليل الأعداء - يقترح استعمال الصواريخ يتنبأ بخطة الحلفاء

استطاع رومل ان يتغلب على الحزازات الشخصية، فلم يعبأ بها، وذلل العقبات التي القتها في سبيله، ما عدا عقبة قلة العتاد، فلم يتمكن من التغلب عليها ٠

وفي تلك الفترة كانت الحاجة ماسة الى مقادير كبيرة من الصلب والاسمنت المسلح. لاستخدامها في انشاء مكامن للغواصات، وقواعد تنطلق منها القنابل الصاروخية «ف ١» و «ف ٢» وكان هتلر يعتمد على هذه الأسلحة السرية الجديدة لكسب الحرب، أو إطالة أمدها الى أجل غير مسمى ٠ ومن هنا كانت هذه الأسلحة تعطى الأولوية على ما عداها من الاستحكامات وغيرها ٠ وكان رومل يستفيد الى أقصى حد من كل ما يقع تحت يديه، لكي ينفذ تعليمات هتلر الخاصة بأن تقام كل البطاريات الدفاعية في الساحل، على قواعد من الاسمنت المسلح، وان تكون لها كذلك سقوف من الاسمنت المسلح سمكها ستة أقدام ٠ ولكن الحصول على الاسمنت لم يكن من الميسور لرومل في تلك الفترة، لقلة الموجود منه ٠

ولما بدأ الغزو، وهاجم الحلفاء حائط الاطلنطي، كان الكثير من البطاريات الساحلية عارياً من الغطاء، فسهل على الطائرات المغيرة ان تسقط عليها قنابلها وتبيدها !

ومن الانصاف لروميل ان نذكر هنا انه وفق الى انجاز كثير من اعمال الدفاع على صورة ممتازة بارعة، كشفت عن مواهبه وقدرته على اتخاذ الاستعدادات لدرء خطر الغزو · وقد استطاع في اشهر قليلة ان يبث اربعة ملايين من الالغام، في مقابل مليوني لغم بثها الالمان خلال السنوات الثلاث السابقة. وقد حدث هذا رغم ما اعترض سبيل روميل من قلة الامدادات. وصعوبات النقل، والغارات الجوية المستمرة · ولو انه وجد فسحة من الوقت، لاحاط كل المعاقل بالالغام الارضية البعيدة الغور، لتكون شركا مروعاً ضد اي هجوم بالدبابات. ولنفذ ما تضمنه برنامجه في هذا الشأن، فبث من الالغام ما يتراوح بين خمسين مليوناً ومائة مليون. وحول بذلك كل المناطق الفرنسية الى مستنقعات من الالغام !

ولم تبرز هذه النقطة في المؤتمر الذي عقده الفيلد مارشال مونتغمري في كمبرلي خلال أيار ١٩٤٦، وان كانت تلك النقطة قد انكشفت لقائد مشهور، وتلميذ لامع من تلامذة الحرب، هو اللفتننت جنرال السر فرانسيس توكر، بل قد يكون الجنرال باتون نفسه قد احتار في أمر تلك المسألة ونعني بها مسألة الالغام ·

فقد كانت الالغام، كغيرها من مواد العتاد الاخرى، غير متيسرة، ولكن روميل استطاع بعبقريته الفذة ان يحصل على ذلك العدد الهائل منها · وذلك انه خلال اغارته على المستودعات الحربية والترسانات، كان يستولي على ما يجد فيها من اغلفة القنابل والمقذوفات القديمة ثم يحيلها الى الغام، على صورة بدائية تشبه الى حد ما تلك الالغام التي استعملها اليابانيون في بورما ·

غير ان اليابانيين كان لهم نظامهم الفدائي الخاص في تفجير الالغام، وذلك انهم كانوا يضعون اللغم والى جواره أحد الفدائيين ليفجره مضحياً بنفسه حينما يحس ان دبابة تسير فوقه أو على مقربة منه !

ولم يلجأ روميل الى النظم المألوفة في بث الالغام، لان خطته كانت تقوم على ان يبثها في انحاء متفرقة، وعلى صور شتى، ليتعذر على العدو التقاطها أو تفاديها · ويعلق الأميرال روغه على ذلك بقوله : «ان روميل كان يقوم هذه المرة بحرب ضد سلاح المهندسين، فهؤلاء كانوا يأبون الا ان يسيروا في عملهم وفقاً للقواعد والقوانين المسطورة في الكتب، في حين كان روميل ينشد التغيير والتجديد !»

والحقيقة ان كلا من روميل والأميرال روغه كانا يدرسان تكتيك الالغام على الشواطئ والبحر، عندما فوجئا بغزو الحلفاء لاوربا ·

وقد وصف روغه شعوره نحو رومل في تلك الفترة بقوله : «لقد وجدت فيه رجلاً عسكرياً غير عادي، فهو يخالف جميع ضباط هيئة اركان الحرب في ولعه الشديد بالامور الفنية، وفي انه سرعان ما يوفق الى الحلول المبتكرة الطريفة · فاذا عرض عليه اي تصميم جديد، أو فكرة جديدة لأحد المشروعات، وكان ذلك في المساء، فان الصبح لا يكاد يطلع حتى يكون رومل قد تحدث في التليفون الى المختصين وابلغهم تعليماته المتصلة فيا يختص بتنفيذ التصميم أو المشروع الجديد ! ولم اعرف قائداً له ما لرومل من ولع بالميكانيك وخبرة بها، ولقد كانت كل الاقتراحات التي يبديها عادة، جديرة بالاعجاب والتنفيذ !»

ونلمح في عدد كبير من «استنباطاته» تلك، آثار رومل الشاب الذي ما كان يشتري دراجة بخارية حتى يفكها ويعيد تركيبها من جديد ·

حيل لتضليل الأعداء

ولقد قام رومل بحيل وخدع على الساحل تجعل نزول الجنود والدبابات صعباً، وهي جميعاً تذكرنا بذلك الخصم العنيد الماكر الذي عرفناه في شمال افريقيا ·

ومن بين الحيل التي اتخذها روس في فرنسا، تلك الالغام العائمة التي بثها هناك مدلاة من اعمدة خشبية مزودة بقوائم حديدية مدببة، وكانت توضع فوقها الالغام ايضاً في بعض الاحيان ·

ومنها استعماله في تعويق هجوم المشاة، تلك الخوازيق الحديدية التي كانت تتخذ فيا مضى لتعويق سير الدبابات · وبثه كثيراً من الالغام في المياه الضحلة، واقامة اعمدة طويلة في الحقول، مزودة في اعلاها بالغام تتصل باسلاك خاصة لتفجيرها عند محاولة الطائرات الشراعية الهبوط في تلك الحقول !

على ان الكثير من هذه الحيل وغيرها، لم يكن قد تم حتى السادس من شهر حزيران، وذلك لصعوبات الامداد والنقل والعمل ·

ولم يكتف رومل ببث حقول الالغام الوهمية المألوفة، فامر بجعل بعض الماشية ترعى فوقها، تضليلاً لطائرات العدو الاستكشافيه، وكذلك برع رومل في اعداد البطاريات الوهمية، حتى لقد اغارت عليها طائراتنا فيا بعد اغارات عنيفة ·

وذلك لانه امعانا في التضليل والتمويه، لم يكتف بتغطية مراكز هذه البطاريات بالعشب

الاخضر والشباك السوداء، كما كان المتبع في مثل هذه الحال، بل رأى اتخاذ تدابير اخرى جديدة من ابتكاره، هي تغطيتها بالاعشاب واوراق الشجر الجافة، ثم احراقها بحيث يتصاعد منها دخان يوهم العدو بأنها بطاريات حقيقية ! وهذا لتعذر الحصول على الاجهزة الكافية الخاصة باثارة الدخان !

وقد اصدر تعليماته الى قادة المشاة والبطاريات بأن يكونوا على استعداد لاطلاق ذلك الدخان من البطاريات والقواعد الوهمية، والخنادق التي تقع وراء الخطوط، لتضليل مدفعية العدو عن المراكز الحقيقية المقامة على السواحل !

وحتى الثاني والعشرين من شهر نيسان لم ترد اية تقارير من اي مكان تدل على اتخاذ شئ من تلك الاستعدادات ٠

يقترح استعمال الصواريخ

اقترح رومل لمواجهة الغزو الذي تبين الا معدى عنه، استخدام القنابل الصاروخية «ف:١» ضد احتشادات البريطانيين في جنوب انكلترا ٠ ولكن هذا الاقتراح رفض رغم وجود الكثير من القواعد لهذه الصواريخ، لان الالمان لم يكن لديهم من الصواريخ نفسها ما يكفي لموالاة اطلاقها على العدو ٠

وقد لا يكون في استخدام تلك الصواريخ في ذلك الحين ما يغير النتيجة التي حدثت، ولكن الجنرال ايزنهاور اعترف بان الالمان لو افلحوا في استعمال هذه الاسلحة الخطيرة قبل ذلك بستة اشهر، وركزوها ضد منطقة «بورتسموث ـ سوثهامبتون» خاصة، لتعذر على الحلفاء غزو اوربا، بل لاصبح الغزو في حكم المستحيل !

وكذلك رغب رومل في ان تقوم البحرية الالمانية ببث الالغام في القنوات الملاحية، وان يقوم سلاح الطيران بالقاء الغام الاعماق الجديدة حول جزيرة وايت، ولكن البحرية لم توافق على وضع الالغام بالقرب من الساحل. كما رفض هتلر استخدام الالغام الجديدة، اذ لم تكن هناك وسيلة لالتقاطها، ولان الحلفاء قد يبثون الغاماً مماثلة لها، وبذلك تصبح مخارج الموانئ معلقة تماماً !

رومل يتنبأ بخطة الحلفاء

وعلى اي حال، لم يكن هناك من يخالف رومل في وجوب الاستعداد لمقاومة الغزو،

وان الخلاف كله محصوراً في اختيار الوسائل الكفيلة بهذه المقاومة على أحسن صورة ممكنة · ولم تكن تساور رومل اية شكوك حين قال : «يجب ان نوقف العدو في الماء، ونحطم كل معداته قبل ان يغادر ظهور سفنه» · وكان يرى ان الساعات الاربع والعشرين الاولى من مقاومة الغزو، ستحدد الموقف تماماً، وان الحلفاء اذا افلحوا خلال هذه الساعات في تأمين رأس جسر، بمعونة طائراتهم المتفوقة في العدد، فلن يمكن ردهم الى البحر، أو الحيلولة دون تقدمهم !

ولم يكن رومل قد نسي بعد، ان سلاح الطيران البريطاني اضطره في شمال افريقيا الى ان يبقى هو وجنوده الثانون الفاً ملتصقين بالارض يومين أو ثلاثة ايام !، اضافة الى يقينه من ان القوة الجوية التي سترافق الغزو ستكون هائلة على نحو لا مثيل له، فلن تتاح الفرصة لوصول الطائرات الالمانية التي وعد غورنغ، بارسال الامدادات عليها، وستكون الطرق والسكك الحديدية معرضة لان تحطمها طائرات الاعداء، كما يستحيل القيام باية حركة في المناطق الخلفية، لان حركات الاعداء الهجومية المنتظرة لابد ان تكون واسعة النطاق، ولن تكون من ذلك النوع العتيق الذي يصل فيه الجنود مضطرين أو متأخرين ·

وهكذا استقر رأي رومل على ان يكون الساحل نفسه هو خط المقاومة، وعلى ان ينهض كل جندي في الفرق الامامية للقتال فوراً اذا حاول العدو انزال جنود في منطقته الساحلية · كما رأى ان يكون الاحتياطي وجميع القوات المساعدة الاخرى، وراء الجنود · فضلاً عن قيام الاسلحة المدرعة بشد ازرهم، حتى تتمكن مدافع الدبابات من تطهير الساحل من الغزاة ·

وكان من رأي رومل ان هذا الخط من المقاومة اذا لم يستطع الصمود في وجه الغزاة، فانه على الأقل سيؤخرهم لبعض الوقت ·

وليس ثمة ما يمكن ان يؤخذ على الاجراءات التي اتخذتها القيادة الالمانية العليا، والقائد العام للقوات الالمانية في الغرب، وهيئة اركان حربه، ومعظم قاد الفيالق والفرق، لمواجهة ذلك الغزو · فقد تم تحصين خط ساحلي طوله ٣٠٠٠ ميل، واستخدمت في ذلك ٥٩ فرقة اكثرها من الدرجة الثانية ومن بينها عشر فرق مدرعة · ولما كان المكان الذي سيهبط الحلفاء فيه غير معروف يقيناً، فقد أرتؤي ابقاء القوات الاحتياطية، ومن بينها الفرق المدرعة، في المؤخرة، الى ان يتبين الاتجاه الرئيسي للغزاة، وحينئذ يقوم الالمان بهجوم مضاد واسع النطاق في الوقت المناسب ·

وقد اثبتت الايام صحة تقدير رومل لمدى قوة سلاح الطيران البريطاني، وأثره في سير

الغزو ونتيجته. إذ حال هذا السلاح دون استطاعة القوات الالمانية الموجودة وراء الجبهة، ان تتحرك محاولة اي تقدم، اللهم الا في الليل، وفي تشكيلات صغيرة. وقد قطعت احدى هذه الفرق المسافة من جنوب فرنسا حتى نورماندى، وقدرها اربعمائة ميل في اثنين وعشرين يوماً. وكان عليها ان تقطع اكثر هذه المسافة سيراً على الاقدام !

كان الجنرال بايرلاين يقود فرقة «لير» المدرعة، على بعد تسعين ميلاً جنوبي مدينة «كان» على الساحل الفرنسي، وقد امضى اكثر من ثلاثة ايام، وفقد خمس دبابات ومائة وثلاثين سيارة نقل. حتى استطاع بلوغ ميدان المعركة، رغم ما بذله في تدريب أفراد فرقته. واستعمال مختلف وسائل التضليل والتمويه ٠

ويقول الجنرال ايزنهاور : «ان الطرقات والحقول كلها وجدت ملأى بالاسلحة المدمرة، وجثث القتلى والحيوانات، وكان يستحيل ان يسير المرء هناك مائة يااردة دون ان تعثر قدمه ببعض الاشلاء المتعفنة المتروكة هناك !»

وعلى أي حال قد يؤخذ على رومل مبالغته في تقدير الفرص التي رآها كافية للاحتفاظ بحائط الاطلنطي، ومن ذلك قوله مثلاً في نهاية نيسان : «يجب علينا، في هذا الوقت الباقي لدينا، ان نجعل استحكاماتنا الدفاعية من القوة بحيث تقف في وجه اي هجوم مهما تبلغ قوته !»

فالواقع انه لكي يحقق هذا، كان عليه ان يبدأ العمل قبل ذلك بسنتين على الأقل. وان يستخدم مواد اكثر من المواد التي استخدمها مئات المرات. ويملأ الساحل على طوله، بالرجال والمعدات. اما ذلك «الطوق الدفاعي» الذي تمكن من اعداده، فما كان من الممكن بحال ان يصمد في وجه ذلك الهجوم الهائل ! وكان ذلك درساً له ولفرقته «الاشباح» تعلموه جيداً سنة ١٩٤٠ ٠

ولا يفوتنا هنا ان نشير الى ان الاستحكامات التي اشار رومل باتخاذها، لم يتم الا أقل من ربعها ٠ يضاف الى ذلك ان ثقته بمن كان يقودهم في هذه المرة، لم تكن في قوة الثقة التي اولاها لرجال الفيلق الافريقي !

لقد كان جنود رومل في اوربا اضعف كثيراً من جنوده في افريقيا. فكلهم أو أكثرهم جئ بهم من الجبهة الشرقية متعبين، وكان بينهم كثيرون ما زالوا في طور النقاهة. أو الشبان الصغار الذين لا خبرة لهم، ولا جلد على تحمل الغارات الجوية والغزو البحري ٠

وكان من الممكن ان تظل لرومل شهرته كاستراتيجي من الطراز الاول، لو انه وافق فون رونشتدت على اقتراحه بالجلاء التام عن جنوب فرنسا حتى اللوار ٠ فلو ان هذا الجلاء تم،

لاستطاع رومل ان يحارب على النحو الذي يتفوق فيه عادة ٠ ولكن خطته هذه، كما علم من بعد، كانت خطة متفقاً عليها ٠ وعلى اية حال فهناك فرق كبير بين مهمة الانسحاب والتراجع التي برع رومل فيها، وبين مهمة الدفاع عن حائط الاطلنطي ٠

ومهما يكن من أمر، فسنرى فيما بعد، ان من الانصاف لرومل الا نصدر احكامنا عليه، تبعاً لما قال أو صنع في هذه الفترة ٠

مونتغمري يتنبأ بخطة رومل

ولم يكن الجنرال مونتغمري يرتاب فيما سيقوم به رومل، وانه لرائع حقاً تحليل مونتغمري لخطط رومل خصمه القديم ولشخصيته فقد قال عنه في شهر أيار «أصبح رومل في شهر شباط الماضي قائداً للقوات الالمانية من هولندا الى اللوار، ولا شك في أن هدفه الجديد هو أن يهزمنا على الساحل ٠ وانه لقائد قوي حازم حاسم، وقد تبدل الموقف تماماً منذ ولي هذه القيادة ٠ وهو خير من يقوم بهجوم للتخريب والتعويق، وبراعته كلها تتركز في قدرته على التمزيق ٠ ولهذا ارى انه سيبذل اقصى جهده لكي يعيد معركة دنكرك، فهو لن يقوم بمعركة الاسلحة المدرعة على الارض التي يختارها، ولكنه سيتفادى ذلك الى اقصى حد، وسيحول دون تقدم دباباتنا، مستخدماً في ذلك دباباته هو، وسيحاول في يوم الغزو أن يصدنا عن الساحل أولاً، ثم يعمل على الاحتفاظ بكل من : كان وبابييه ٠ وكارنتان، وبعد ذلك يوالي هجماته المضادة» ٠

ثم يضع مونتغمري خطته للانتصار على رومل فيقول : «وعلى ذلك يجب أن نشق طريقنا الى الساحل، ثم نحتفظ بمكان آمن للهبوط قبل أن يجلب رومل قواته الاحتياطية فيحول دون ذلك، ويجب أن تتوغل أرتالنا المدرعة في خطوط الالمان بسرعة، لكي تستولي على مكان في داخل هذه الخطوط ٠ وفي الوقت نفسه يجب ان يحول سلاح الطيران دون نقل أي احتياطي للعدو بالقطارات وفي الطرق العامة، الى منطقة هبوط قواتنا ٠ وستكون المعركة البرية مروعة حقاً، وسنحتاج الى مؤازرة سلاح الطيران لنا دائماً، كما يجب الهبوط على جناح السرعة !»

ولقد حدث الغزو كما تنبأ الرجلانْ فلقد حاول رومل أن يعيد معركة دنكرك كما قال مونتغمري ٠ وكان سلاح الطيران مسيطراً على الموقف، وكانت الساعات الأربع والعشرون الاولى للغزو حاسمة، كما قال رومل !



الفصل السابع والعشرون

سبب نكبة الالمان في فرنسا

رومل ورونشتدت يتفقان

ولو بدرت من الحلفاء اية غلطة ـ اثناء تأسيسهم رؤس جسور لهم في الشاطئ الفرنسي ـ لكان مصيرهم ان قذف الالمان بهم الى البحر ٠

فهل كان في استطاعة رونشتدت ان يهزم الحلفاء في حرب مكشوفة بعد ان تخلصوا منها ؟

لقد كان يبدو على رونشتدت انه عاجز عن ان يلحق الهزيمة بالحلفاء، ما دامت القوات التي تحت تصرفه قليلة، وما دام الحلفاء يمسكون بزمام السيادة الجوية ٠

وفضلاً عن هذا لم يكن الجنرال مونتغمري ذلك الرجل الذي يمنح خصمه فرصة الانقضاض عليه ٠ واذن فقد يكون التقدم بطيئاً غير ان المرء يشعر مع ذلك بانه امر مؤكد تمام التأكيد ٠

والواقع ان الخطط التي وضعت لمقاومة الغزو، لم تجر تجربتها ٠ كما ان كلا من رونشتدت ورومل، لم يكن مطلق اليدين ليفعل ما يشاء !

فقد كان هتلر يرى رأي رومل، في ان الخط الاساسي لمقاومة غزو اوربا، يجب ان يكون على الساحل . ولهذا لم يتمكن فون رونشتدت من تنفيذ ما كان يراه من وجوب تنظيم جيش خاص للقيام بالمناورات .

ولما كان فون رونشتدت، على النقيض من تنبآت هتلر ورومل، يرى ان انزال الجنود البريطانيين سيكون عند «كاليه»، وهي اقرب نقطة في الساحل الفرنسي الى انكلترا، وعلى رأس الطريق المباشر الى الروهر، لذلك فان رومل لم يتمكن من تركيز قواته المدرعة وراء سواحل نورمانديا مباشرة، حيث كان هو وهتلر يتوقعان ان يبدأ الغزو من هناك . ولم تكن لدى رومل سوى ثلاث فرق ضعاف تقوم على حراسة الجبهة من شلدت الى اللوار . أما البقية الباقية من القوات فكانت احتياطية يشرف عليها اسما «فون رونشتدت القائد العام للقوات الالمانية في الجبهة الغربية. ولكنه لا يستطيع تحريكها الا بعد وقت طويل، ريثما يوافق على ذلك كل من هتلر وكيتل وبودل !»

وكان رومل على رأس الفرقة الحادية والعشرين المدرعة في المنطقة الامامية من نورمانديا. وقد اعيد تنظيم هذه الفرقة فلم يكن فيها من جنودها وضباطها القدامى الا القليلون .

وقد ذكر فون ايزبك المراسل الحربي ان هذه الفرقة قد انضمت الى القوات المدرعة الاخرى التابعة لقيادة فون رونشتدت، ثم اسندت قيادتها الى الجنرال «فويختنجر». وارجأ رونشتدت استخدامها ليستفيد بها فيما بعد، وافلح في اليوم الاول للغزو في ان يحول دون استيلاء الحلفاء على «كان» . غير ان رومل لم يكن ليشعر ـ أن خطأ أو صواباً ـ ان فويختنجر كان يتحلى بنفس العزم الذي كان يتحلى به الجنرال فون رافنشتين في الصحراء الغربية . فالذي ذكره فون ايزبك ان رومل كان قد اجتمع بهتلر في اليوم السابق للغزو . فلما عاد الى الجبهة وجد الفرقة قد اعاقتها القوات البريطانية، التي نقلتها الطائرات، عن التقدم . وهنا سأل رومل الجنرال فويختنجر عن عدد الطائرات الشراعية المعادية هناك، فاجابه هذا بقوله : «مئات ومئات !» فعاد يسأله : «وكم طائرة اسقطت منها ؟» فلما علم ان كل ما اسقطه منها لا يتجاوز ثلاثاً أو أربعاً، قال له : «لقد أضعت الفرصة !»

على ان فويختنجر اعتذر بانه كان حتى عودة رومل ممنوعاً من القيام باية حركة، الا اذا صدر الامر اليه بذلك، وقد حاول الحصول على هذا الامر فلم يستطع !

واذن، فالذنب في ذلك لم يكن الا ذنب القيادة الالمانية العليا، التي أبت الا ان تسير في

الجبهة الاوربية، على نفس الخطة التي سارت عليها مع رومل في شمال افريقيا، فأصرت على تركيز السلطة العليا في يدها، ثم لم تستعمل هذه السلطة الا في اهمال مطالب القادة المختصين، وشلهم عن الحركة بالتقاعد عن أصدار الأوامر اليهم، أو ارسالها ولكن بعد فوات الأوان !

ولقد حاول رومل كثيراً قبل الغزو باسابيع ان يحصل من القيادة العليا على الأذن له في نقل فرقة الدفاع «S.S» المدرعة الثانية عشرة، المؤلفة من شبيبة هتلر، الى مصب «الفير» بالقرب من كارنتان، حيث هبطت القوات الامريكية فيما بعد، ففشلت كل محاولاته ! وقد تنبأ الجنرال مونتغمري بان رومل لابد ان يحصن كارنتان هذه كي ترتكز عليها قواته ·

ولا شك في ان فرقة الدفاع السالفة الذكر، قد ابلت بلاء حسناً بقيادة كورت ماير زعيمها النازي المتطرف، حين انضمت الى القوات النازية المدافعة في «كان». وقد قيل : انها لم تكن لتستطيع ان توقف هبوط القوات التي تحملها الطائرات، وهذا صحيح ولكن رومل لم يكن يريد منها اكثر من هذا الذي فعلته، اي وقف تقدم الغزاة !

ومن الانصاف لفون رونشتدت ان نعفيه من اللوم على انه لم يجب طلب رومل فيما يختص بهذه الفرقة، ذلك لان رونشتدت كان يتلقى الأمر من بودل، وكان هذا يتلقى الأمر من هتلر، ولم يكن في مقدور اي جنرال ان يسيطر على المعركة في مثل هذه الأحوال ·

رونشتدت يقر رأى رومل

وقد تلاقت وجهة نظر رونشتدت بوجهة نظر رومل، بعد ان صح ما تنبأ به هذا، وتمكن الحلفاء من تأمين رأس الجسر الذي اعدوه في بداية الغزو ·

وحينما سأل النقيب ليدل هارت فيما بعد، رونشتدت : هل كان لديه أمل في تحطيم الغزو في اية مرحلة من مراحله ؟، اجابه بقوله : «لم يكن لدينا أي أمل في ذلك بعد الايام القليلة الاولى من الغزو، فقوات الحلفاء الجوية شلت حركتنا طول النهار، وجعلتها صعبة عسيرة في الليل، وقد افلحت هذه القوات في تحطيم الجسور القائمة على نهري اللوار والسين، فاغلقت المنطقة كلها بذلك في وجهنا، وكانت من اهم العوامل التي أخرت احتشاد قواتنا الاحتياطية هناك، وجعلت نقلها الى الميدان يستغرق ثلاثة أمثال الوقت المقرر لذلك !»

وثبت من الوثائق التي وجدت بعد وفاة رومل، صحة تحليله للموقف، وسلامة الخطط التي اقترحها من قبل، والتي لم تتح له الفرصة لتنفيذها !

ويروى الاميرال روغه ان رومل، قبل هذا الحادث، صرح له برغبته في انهاء الحرب بأي ثمن، وقال له : «من الخير ان ننهي هذه الحرب، وانه لخير لالمانيا ان تعيش دولة من دول الدومنيون البريطاني، من ان تتحطم بيتاً فبيتاً في هذه الحرب اليائسة !»

ثم يقول الأميرال روغه ايضاً : «لقد تحدثت مع رومل ساعتين في اليوم الحادي عشر من شهر حزيران، وصارحته بما اراه، من ان على هتلر ان يعتزل الحكم أو ينتحر ليفتح الطريق للصلح، فقال رومل : انني اعرف هتلر فهو لن يعتزل الحكم ولن ينتحر، ولكنه سيمضي في الحرب دون ان يقيم أي وزن للشعب الالماني ولن يهمه في شئ ان لا يبقى بعد ذلك في المانيا بيت واحد !»

على ان التقارير التي أرسلها رومل الى السلطات العليا، كانت كلها تتسم بالحصافة والحرص . ففي اليوم الثاني عشر من شهر حزيران، بعث رومل بتقرير استهله بالأعراب عن شدة الموقف، ثم نوه بالمقاومة العنيفة التي يبديها الجنود كالعهد بهم، ضد قوات الحلفاء، وبعد ان أشار الى تمكن الجنود في القطاعات الساحلية من تعويق تقدم الغزاة، مضى فقال في لهجة بالغة التشاؤم : «ان قوات العدو على البر تزداد على نحو يبدو أسرع كثيراً من الوقت الذي نحصل فيه على حاجتنا من القوات الاحتياطية، وعلى هذا يبدو انه سيتعذر، أو يستحيل علينا ان نقوم بعمل مجيد في نورمانديا، ازاء التفوق الجوي الهائل للحلفاء، وأزاء مدفعيتهم البحرية الثقيلة !»

ثم يمضي رومل في تقريره على هذا النحو المتشائم ثم فيقول : «ولطالما اوضحت انا وهيئة أركان حربي، وبعض قواد الوحدات مثل «سب ديتريش»، ان العدو متحكم تماماً في جبهة المعركة، بل هو متحكم كذلك فيما لا يقل عن ستين ميلاً وراء الجبهة ! ... فوسائل النقل في الطرق وعبر الحقول، قد عرقلتها قاذفات القنابل المقاتلة نهاراً، وأسراب قاذفات القنابل ليلاً . وفي الوقت الذي يتحرك فيه العدو نهاراً وليلاً في ميدان القتال كما يشاء، لا تستطيع قواتنا ان تتحرك حتى في الليل الا بمقدار ! . وفضلاً عن تعذر وصول ما نحتاج اليه من المؤن والامدادات، تتعرض مراكز مدفعيتنا كما تتعرض دباباتنا المنتشرة هنا وهناك، للتحطيم والابادة بما ينهال عليها من قنابل الاعداء ويضطر جنودنا وضباطنا الى الاختباء طول النهار . وليس في طوق سلاح الطيران الالماني القيام بعمل جدي لوقف تلك الهجمات القاصمة المدمرة التي يقوم بها سلاح طيران العدو . كما ان المدفعية البحرية الثقيلة للعدو جعلت من المستحيل على جنودنا المشاة وعلى قواتنا المدرعة، القيام بأي عمل حربي . يضاف الى هذا ما يمتاز به الاعداء من وفرة العتاد والاسلحة الجديدة، واستطاعتهم استخدام عدد كبير من جنود المظلات وغيرهم

بالطائرات ! ولذلك اصبح من العسير على قواتنا ان تدافع عن نفسها، وكان من سوء الحظ ان اصبح السلاح الجوي الالماني غير قادر على العمل ضد هذه التشكيلات الجوية المعادية، والتي حسبنا حسابها من قبل، ومنذ ان استطاع العدو تعطيل وحداتنا السيارة عن العمل بهجمات سلاحه الجوي اثناء النهار، بالاضافة الى العدد الهائل من قواته البرية، منذ ذلك الحين اصبح مركزنا في منتهى الحراجة والدقة، وكل ما اطلبه هو أن يكون الفوهرر على علم بهذا الأمر !» ٠

واذا كان رومل قد ظن ان هتلر سيقتنع بهذه الآراء «الانهزامية»، ما دامت مؤيدة بموافقة نازي مقرب من هتلر، مثل «سب ديتريش»، فلا شك في ان ظنه هذا كان قائماً على الوهم والخيال ٠ ذلك لان هتلر ما كان لينسى ذلك الاجتماع الذي عقده في اليوم السابع عشر من شهر حزيران سنة ١٩٤٠ في مقر القيادة بمارجيفال قرب سواسون، حيث كان مقدرا ان يقود هتلر حملة غزو بريطانيا من هناك ٠ ففي ذلك الاجتماع تحدث رومل ورونشتدت الى هتلر، مؤكدين له ان الالمان سيلقون بالعدو الى البحر ! ولذلك لم يكن باستطاعة الالمان عمله حينذاك غير امل الانسحاب وراء نهر «الاورن»، ومتابعة الخط الى «غرانفيل» على الجانب الغربي من شبه جزيرة كوتنتان، ذلك لان هذا الخط الذي يمتد في الريف، وبشكل صفوف متعرجة في الشرق، ينتهي اخيراً في تلال تكتنفها الغابات، ان مثل هذا الخط يمكن الاحتفاظ به باستخدام قرات المشاة ٠

اما القوات المدرعة فقد يمكن فيما بعد، إعادة تنظيمها والاحتفاظ بها احتياطاً ٠

لقد كان جواب هتلر بعدم الانسحاب جواباً اتوماتيكياً في الغالب ٠

غير ان رومل لم يستطع تحسين الجو، وذلك بأن احتج الى هتلر عن حادث «اورادور سير غليد» الذي وقع قبل اسبوع من ذلك الاجتماع ٠

فقد حدث ان قتل الفرنسيون ضابطاً المانيا فما كان من فرقة الدفاع الالمانية الا ان ساقت عدداً من النساء والاطفال الى كنيسة قرية «اورادور سير غليد» واشعلت النيران فيها وعندما فزع النساء والاطفال الذين كانوا داخل الكنيسة وقد احاطت بهم السنة اللهيب من كل جانب، عندما فزع هؤلاء الى الخارج تصدى لهم الالمان بنيران الرشاشات فاجبروهم على العودة الى الكنيسة المشتعلة، وكان عدد القتلى والحرق في ذلك الحادث يزيد عن ستمائة طفل وامرأة[٢٨]

وقد طلب رومل الى هتلر ان يقوم بانزال العقاب في الجنود الالمان المسؤلين عن ذلك

---

(٢٨) هذا مثال واحد من مئات الامثلة عما فعله الالمان في فرنسا فماذا فعلوه ياترى في اوربا الشرقية وغيرها وهو يفوق ذلك مئات المرات ؟.

الحادث، وخاطبه قائلاً: ان مثل هذه الحوادث من شأنها ان تثير السخط والحنق على أي الماني. فهل تعجب بعد هذا من تعاظم المقاومة الفرنسية وراء خطوطنا ما دام رجال فرق الدفاع يزيدون - باعمالهم - من عدد الفرنسيين المنضمين الى المقاومة ؟» وهنا رد هتلر على رومل غاضباً: ذلك امر لا يهمك انه خارج نطاق عملك ٠ ان مهمتك هي ان تقاوم الغزو فحسب !»

وعندما تجرأ كل من فون رونشتدت ورومل على البدء بالحديث عن قضية مفاتحة الدول الغربية، انفض المؤتمر بسرعة، وعلى اي فلم يكن توديع الفوهرر لهما ودياً خالصاً ٠

وبعد انتهاء المؤتمر بلحظات اصاب احد الصواريخ «ف ١» العائدة الى المانيا مقر القيادة ولحسن الحظ لم تحدث اية خسائر في الارواح ٠

وكانت التقارير التالية التي بعث بها رومل الى القيادة العليا بعد ذلك المؤتمر باسابيع، مقتصرة على وصف المعارك الجارية دون ان تتعرض الى ما يجب عمله في المستقبل ٠ فقد كانت تلك التقارير تردد ان «الجيش الثاني سيستمر في محاولاته لاحباط جميع الجهود التي يبذلها العدو للاندفاع داخل خطوطنا !»

وعندما اشار رومل في احد تقاريره الى ان خسائره من الجنود والضباط قد بلغت بين اليوم السادس من حزيران والسابع من تموز (١٠٠ر٠٨٩)، وان عدد الذين ارسلوا الى الجبهة في تلك المدة لم يزد على ٨٣٩٥ ضابط وجندي انذر ٥٣٠٣ منهم بالنقل الى جبهة اخرى، عندما اشار رومل الى هذه النقطة كان تعليقه عليها هو «ان وضعية الاستبدال تؤلف اساساً في القلق والاضطراب الذي يحدثه تعاظم الخسائر بين قواتنا» ٠

وفي التاسع والعشرين من شهر حزيران استقدم هتلر اليه في برختسغادن كلا من: رومل، ورونشتدت، واعلن اليهما ان القوات الميكانيكية الالمانية يجب الا تتدفق على الجبهة حتى لا تتعرض لقنابل طائرات الحلفاء، ويكفي انشاء جبهة للوقوف في وجه العدو وحجزه عند رأس الجسر الذي اقامه، ثم العمل على تحطيمه تماماً باستعمال كل ما يمكن من اساليب حرب العصابات !

ثم أضاف هتلر الى ذلك قوله لرومل، وعلى مسمع من كيتل وبودل: «ان كل شئ يمكن ان يتم على ما يرام اذا انت حاربت في صورة احسن !»

ولقد عاد رومل يؤمئذ مغضباً الى مقر قيادته في «لاروش غيون» وهناك ادلى الى الجنرال الدكتور هانس اشبيدل، رئيس هيئة اركان حربه، بتفصيل ما دار بينه وبين هتلر، في ذلك الاجتماع التاريخي المشئوم !

كان الجنرال اشبيدل قد التحق بالجيش الالماني سنة ١٩١٤، وهو في السابعة عشرة من عمره. وقد ساهم في معارك الجبهة الغربية وامضى جزءاً من خدمته في احد الالوية كما كان رومل تماماً. ولم يسرح من الجيش بعد الحرب الاولى، إذ انه كان يحاول الالتحاق بكلية الاركان. غير انه في الوقت ذاته اغرم بدراسة التاريخ والفلسفة، فالتحق بكلية توبنغن فنال منها شهادة الدكتوراه في الفلسفة في شباط ١٩٢٥.

وكان اشبيدل يمتاز بقوة الحافظة وبصحة التحليل. ولذلك كان النجاح حليف آرائه ونظراته دائماً.

وفي سنة ١٩٣٣ عين اشبيدل ملحقاً عسكرياً للسفارة الالمانية في باريس. ثم اصبح رئيساً للفرع الغربي عند عودته الى برلين.

ومما يذكر عن بعد نظر اشبيدل انه عندما شهد المناورات التي قام بها الجيش الفرنسي سنة ١٩٣٧، وضع كتيبا عن تلك المناورات قال فيه «ان الجيش الفرنسي لا يستطيع ان يخوض غمار حرب هجومية حديثة غير ان بامكانه وقادته، القيام بمقاومة متقطعة اذا ما غزيت فرنسا».

وقد اخذ الدكتور اشبيدل على هتلر، اصداره الامر بمنع فون بوك من استخدام فيلقي : غودريان، وفون كليست المدرعين ضد البريطانيين في دنكرك. ورأى ان استخدام هذين الفيلقين كفيل بالا يمكن بريطانياً واحداً من مغادرة الشاطئ الفرنسي ! ولم يمض على ذلك وقت قليل حتى كان هو والجنرال دنتز يكتبان معاً صك استلام فرنسا !

وكان شبيدل يرى ان الجنرال دنتز «رجل وطني وجندي فرنسي ممتاز».

وهذا عكس رأينا نحن فيه، ولا سيما بعد مسلكه الأخير في باريس. وقد حكم الفرنسيون عليه بالاعدام أول الأمر، ثم استبدلوا ذلك بان يسجن مدى الحياة.

وبعد ذلك اصبح اشبيدل رئيساً لهيئة اركان حرب الجنرال اشتيلبناغل، الحاكم العسكري لفرنسا. وظل كذلك حتى سنة ١٩٤١، حين يئس من استطاعته القيام بشئ أمام اصرار (جنود الدفاع) على ان تكون كلمتهم هي العليا. فطلب نقله من فرنسا. وكان له ما أراد. ولعل في هذا ما يلقي بعض الضوء، على شخصية اشبيدل. فقد نقل من فرنسا الى الميدان الروسي. وهناك وقف مع الجيش الخامس أمام موسكو. وكان مسؤولاً عن تصميم الهجوم في الجنوب في صيف سنة ١٩٤٢. وهو الهجوم الذي كاد النصر يكتب فيه للالمان !

ولقد سألت الدكتور اشبيدل عن الأحوال في روسيا، فقال : لقد كان البرد قاسياً حقاً.

ويمكن ان يقال ان هذا البرد جعل من المستحيل على الضباط ان يكتبوا أوامرهم !» ولما سألته : «أكان هذا من أسباب فشلهم ؟» قال : «نعم ·· مع، كثرة الروسيين ووجود هتلر !»

والدكتور اشبيدل في الواحدة والخمسين من عمره وهو يحاضر في الفلسفة في جامعة تيبنغن ·

روميل يجرح

وفي اليوم السابع عشر من شهر تموز هاجمت طائرات الحلفاء روميل في الطريق. ولم يكن ثمة أي شئ غريب فيما حدث له · فلم تكن سيارته الا واحدة من الوف امثالها ضربتها طائرات الحلفاء في طرق نورماندیا، في تموز سنة ١٩٤٤ · وقد فصل هذا الحادث النقيب هلموت لانغ. وكان مع روميل في تلك السيارة، وأكد بانهم كانوا سيئ الحظ الى حد كبير. حين ساروا في طريق معرض طول الوقت لاغارات طائرات الاعداء !

ومن الطريف ان نذكرها هنا ان مجلة «ريدرز دايجست» الامريكية قد خصت مقالا لكوتس فالدك قالت فيه : «ان الطائرة التي هاجمت روميل حينذاك. كانت طائرة المانية تحمل العلامات البريطانية، وان هتلر هو الذي بعث بهذه الطائرة لتقضي على روميل بوصفه من دعاة الهزيمة. وكان قد ارسل اليه انذاراً نهائياً في ١٥ تموز !»

وليس هناك ما ينهض دليلاً على صحة الرواية، بل هناك بعض قرائن اخرى تدل على ان هذه الرواية ليست دقيقة تماماً !

وقد كتب هلموت لانغ يقول : « ان روميل كان يقوم على عادته بجولة تفتيشية في جبهة القتال في يوم ١٧ تموز، وبعد ان تفقد فرقتي المشاة ٢٧٦ و ٢٧٧ خلال هجوم عنيف عليهما، زار مقر قيادة فرقة الدفاع «S.S» المدرعة، وتحدث الى الجنرال بتريش وسب ديتريش قائدها بعض الوقت · وكان علينا طول هذه الرحلة ان نحذر الطائرات المعادية التي لم تكن تكف عن التحليق فوق ميدان القتال، وكان الغبار الذي تثيره السيارات على طول الطريق مما يجلب انتباه تلك الطائرات، وفي الساعة الرابعة مساء غادر روميل مقر قيادة ديتريش. وكان حريصاً على العودة الى القوات الالمانية في الشمال، لان العدو قد أفلح في اقتحام منطقة هناك · فظللنا طول الطريق وعيوننا لا تقع الا على وسائل النقل التي اندلعت فيها النيران · ومن حين الى حين كانت قاذفات قنابل العدو ترغمنا على السير في الطرق الضيقة · وفي الساعة السادسة مساء، كانت سيارة المارشال روميل بالقرب من ليفارو، وعن اليمين والشمال أكداس من

حطام وسائل النقل، في حين كانت قاذفات القنابل المنقضة تواصل ضرب جنودنا وعرباتنا ٠ وهذا هو السبب الذي جعلنا نأوى الى طريق جانبي نتقي فيه خطر الطائرات المعادية، لنعاود مواصلة السير في الطريق الرئيسي، على مدى ميلين ونصف ميل من فيوتيه ٠

ولما بلغنا ليفارو، رأينا ثماني قاذفات منقضة تحوم فوقها، وعلمنا فيها بعد ان هذه القاذفات كانت تهاجم مواصلاتنا منذ ساعتين، ولما اعتقدنا بانها لم تتنبه لسيرنا، واصلنا اتجاهنا من ليفارو الى فيوتيه ٠ وبعد قليل حذرنا دليلنا «هولكه» من ان طائرتين تتجهان الينا، فطلبنا الى السائق ان ينحرف بسرعة الى أحد الطرق الى اليمين، على مدى ٣٠٠ ياردة منا، لعلنا ان نحتمي فيه ٠

وقبل ان نبلغ هذا المنحنى، كانت احدى طائرات العدو تحلق فوقنا بسرعة هائلة، ثم عندما اصبحت على مدى ٥٠٠ ياردة منا، اطلقت نيرانها علينا ٠ وكان المارشال رومل ينظر الى الخلف في تلك اللحظة ٠ وقد اصيب الجانب الايسر من السيارة، وأطارت احدى الطلقات كتف السائق وذراعه اليسرى ٠ واصيب المارشال رومل في وجهه بشظايا الزجاج الذي تحطم وتناثر، كما اصيب بصدمة في الجانب الايسر من وجهه، وكسر في كل من عظمة وجنته، وجمجمته !

وفي الوقت نفسه لم يتمكن السائق المصاب من قيادة السيارة فاصطدمت بجذع شجرة، وانزلقت الى اليسار حيث هوت في أحد الخنادق وتمكن النقيب لانغ والعريف هولكه، من ان يقفزا من السيارة ويحتميا في الجانب الايمن من الطريق ٠

وعندما بدأ الهجوم أمسك المارشال رومل بمقبض الباب، ولما انحرفت السيارة، سقط على الأرض فاقد الشعور على مدى عشرين ياردة من السيارة ٠

ولقد حاولت طائرة اخرى ان تلقي قنابلها على رومل ومن معه ممن انبطحوا على الارض ٠ وعلى أثر ذلك سارع النقيب لانغ والعريف هولكه الى رومل لحمله الى مكان يحتمي فيه، وكان ممدداً على الأرض فاقد الشعور، وقد تخضب وجهه بالدماء التي كانت تسيل من الجروح الكثيرة التي اصابته، وبخاصة من عينه اليسرى وفمه والتي غطت الجانب الايسر من وجهه ٠

«ولم يستعد رومل شعوره، بعد نقله الى مكان أمين أخر، وحاول النقيب لانغ، أن يجد معونة طبية لاسعاف رومل، وظل ثلاثة ارباع الساعة يبحث عن سيارة، فلما وجدها ذهب بها الى أحد المستشفيات الخيرية، وعاد منه بطبيب فرنسي لتضميد جراح رومل ٠ ولكنها كانت

بالغة الخطورة، وأكد الطبيب انه لا أمل في الشفاء منها · ثم حمل رومل بعد ذلك، وهو ما زال فاقد الشعور الى مستشفى برناي على مدى ٢٥ ميلاً · وهناك قام الاطباء بفحصه جيداً فوجدوا كسراً في أسفل رأسه، وكسرين في صفحة الوجه، عدا كسر عظمة وجنته اليسرى، والجرح الذي أصاب عينه اليسرى، من جراء تحطم زجاج السيارة وسقوطه على الأرض !

ومات السائق خلال الليل، رغم اسعافه بنقل كميات من الدم وغير ذلك · «وبعد بضعة ايام نقل رومل الى مستشفى البروفسور ايش في فينيه بالقرب من سان جرمان» ·

رومل يتوقع الهزيمة !

وفي اوائل تموز اعفي الفيلد مارشال فون رونشتدت من منصبه، وكان ذلك نتيجة للنصيحة التي اسداها لكيتل بعقد صلح مع الحلفاء، وقد خلفه الفيلد مارشال فون كلوغه الذي كان يومئذ في الجبهة الروسية ·

وهنا حاول رومل مرة اخرى ان يرد هتلر الى صوابه، غير عابئ بما وصمه هذا به من انه «من دعاة الهزيمة»، فارسل قبل ان يجرح بيومين، الى فون كلوغه تقريراً كتب مشروعه الدكتور اشبيدل، راجياً ان يعرضه فون كلوغه بنفسه على هتلر، وكان هذا التقرير اكثر تشاؤماً من التقرير السابق الذي كتبه رومل في ١٢ حزيران، وقد استهله بقوله : «ان الموقف في جبهة نورماندیا مازال يزداد حرجاً يوماً بعد يوم، ولن يمضي وقت طويل حتى نكون في أزمة !»

ثم أشار رومل الى تفوق الحلفاء، في الجو والمدفعية والاسلحة، والى عدم دراية الفرق الالمانية التي جلبت الى المعركة، والى تحطيم الحلفاء للمواصلات والطرق، واستطاعتهم نقل الامدادات الى خطوطهم في سهولة تامة وبمقادير وفيرة، في حين لم يفلح سلاح الطيران الالماني في القيام بشئ ما، خلال هذا النزال الجبار ·

وختم رومل تقريره بقوله : «وفي هذا الظرف يجب ان نتوقع قرب تمكن العدو من أقتحام جبهتنا الرقيقة، وخاصة في قطاع الفرقة السابعة المدرعة، وحينئذ يدخل العدو فرنسا، وليست في ايدينا اية قوة ميكانيكية احتياطية تستطيع ان تقف في وجهه، كما ان قواتنا الجوية لن تستطيع ان تصده أو تعرقل تقدمه ·

«ان جنودنا يحاربون حرب الابطال، ولكن هذا لا يحول دون وقوع النتيجة التي بدت للعيان في تلك المعركة غير المتعادلة !»

ثم اضاف رومل بخط يده الى ما جاء في ذلك التقرير قوله : «واني اتوسل اليك ان تدرك اهمية المعنى السياسي لهذا الموقف · اني اشعر بأن واجبي بوصفي قائداً عاماً، يقضي بأن اقول هذا في صراحة !»

ورغم الآمال الكبيرة التي علقت على فون كلوغه، لم ينج من غضب هتلر عليه، كما غضب من قبل على فون رونشتدت ورومل. وقد كتب كلوغه الى هتلر في ٢١ تموز رسالة جريئة جديرة بالتقدير لم يعهد مثلها من قبل في هيئة أركان حرب هتلر · وفيها يقول له :

«يازعيمي ابعث اليك مع رسالتي هذه تقريراً من الفيلد مارشال رومل، بعثه الي قبل حادثته الأخيرة. وقد تناقشت معه فيه · واني هنا منذ اربعة عشر يوماً اتباحث مع القادة المسئولين في مختلف الجبهات، وخاصة قادة فرقة الدفاع (S.S) وقد انتهيت من مباحثاتي هذه الى ان الفيلد مارشال رومل، كان لسوء الحظ، على حق فيما قال · فليس ثمة من سبيل على الاطلاق لان نمضي في القتال، وللعدو مثل هذه القوة الهائلة في الجو، دون ان نرغم على الاستسلام في البر · ولاشك في ان الاثر النفسي لهذه السيول المنهمرة من قنابل العدو على مشاتنا، لابد ان يكون هائلاً. ولابد ان يكون موضوع الاعتبار ايضاً ·· ولئن استطعنا المقاومة وقتاً آخر، فلاشك في ان مقاومتنا لن تلبث ان تشل وتنهار ·

«ولقد جئت الى هنا ولي هدف واحد، هو ان انفذ بكل ما وسعني من قوة امركم بوقف العدو بأي ثمن · ولكن الثمن الذي سندفعه لن يكون الا دماراً مؤكداً لجنودنا، ومن بينهم فرقة شبيبة هتلر التي تستحق الاعجاب ·

«واني لأرى من واجبي، بوصفي قائداً، ان اضع هذا كله تحت عيني زعيمي في الوقت المناسب» ·

ولم تمض على ذلك خمسة اسابيع حتى اعفي كلوغه من منصبه، ثم اطلق على نفسه الرصاص، وكانت اخر كلماته انه يأسف لانه خيب ظن زعيمه، ولم يتمكن من السيطرة على المعركة !



الفصل الثامن والعشرون

الروح النازية في المانيا

رومل بعد معركة العلمين ـ مؤامرة لاغتيال هتلر
رومل ينتخب خليفة للفوهرر

بعد ان انفجرت القنبلة الذرية في بكيني، صعد بعض البحارة الامريكيين الى ظهور السفن التي اتخذت هدفاً لتجربتها، كي يزيلوا الآثار التي ترتبت على ذلك الانفجار · ورغم اتخاذهم كل وسائل الوقاية، لم يستطيعوا ان يصرفوا عن انفسهم ما تملكها من الروع والرعب والفزع وراحوا يتساءلون «كيف نستطيع الوقوف على ظهور هذه السفن اكثر من بضع دقائق، في حين اننا لا نستطيع ان نستنشق الهواء الا من خلال كامات، ولا ان نقرب الماء للاستحمام او سواه، كما يستحيل علينا ان نمس سمكة واحدة فضلاً عن اكلها · اي عالم لعين هذا الذي نعيش فيه ؟!»

ولم يكن هذا غريباً · فالواقع أن طبقة الطلاء التي غطت تلك السفينة نتيجة الانفجار الذري، لم يكن ثمة من سبيل الى ازالتها بالوسائل العادية المألوفة، كما أن الالينوترونات والاشعاعات الخطيرة التي ترتبت على الانفجار، لا يستطاع الاهتداء اليها بوساطة عداد «جيجر»، وإذن ستظل نذيراً بخطر داهم فتاك · كما أن التفكك الذي يصيب الذرات سيظل مصدراً للرعب من ذلك الموت الذري الجديد !

وليس الانسان في حاجة الى أن يكون عالماً نفسياً، او مرهف الحس الى اقصى حد، لكي يدرك أن شيئاً خطيراً. لا يمكن أن يسجله عداد جيجر، ما برح عالقاً بسماء المانيا حتى الآن !!

ان المدائن والقرى الالمانية قد اصبحت الآن نظيفة جميلة. لا تنعقد في جوها سحب الدمار والتخريب وويلات الحرب الأخرى ٠ وقد أخذ الالمان بعد أن نفضوا أيديهم من ذلك الشقاء، يعاودون التوجه الى اعمالهم في مرح وهدوء ٠

وحتى فنادق القرى هناك، لا يكاد أحدها يخلو ليلة ممن يرتادونه فرادى وجماعات. للاستمتاع باحتساء الجعة والرقص والغناء ٠

وما من شك في أن الالمان يبدون أكثر منا استمتاعاً بالمرح والهدوء ٠ على أن مما لا شك فيه أيضاً، انهم يضمرون البغضاء، والكراهية لقوات الاحتلال !

وقد تسأل : لماذا ـ إذن ـ لا تجد بين الالمان الآن من يتبسط معك في الحديث ؟ والجواب ان هذا مرده الى ما فتئ مستقراً في نفوس الالمان من انتشار رجال الغستابو، وجنود فرقة الدفاع هنا وهناك ٠

والواقع ان كثيراً من هؤلاء الخطرين ما زالوا منبثين في كل مكان بالمانيا، ويحملون بطاقات شخصية مزيفة، تبيح لهم ان يسرحوا ويمرحوا كما يشاءون. واثقين من ان الذين يملكون اتهامهم قد غيبتهم القبور او دفنوا تحت الانقاض !!

ان ذلك الشاب المؤدب الذي يقدم لك الشراب والطعام في الفندق، ووجهه يشع رقة وادباً، ليس بعيداً ان تكن يداه قد لوثتهما دماء مئات من الضحايا الابرياء !!

ولقد حار البوليس في امر مجرم مجهول اقترف ستين جريمة قتل، واخيراً دلت التحريات على ان ذلك المجرم السفاح، ليس سوى احد رجال الغستابو القدماء. ومن عجب انه حين ضبط، كان يعمل مترجماً في معسكر بريطاني، ويؤدي عمله في مرح وارتياح !

فالروح النازية ـ إذن ـ لم تختف من المانيا باختفاء قوادها وزعمائها الذين انتحروا او اعدموا. واكبر الظن أن تلك الروح لن تمحى من الوجود بموت آخر المتواطئين مع اولئك القواد الزعماء ٠ ولكنها ستظل بعيدة الغور في نفوس الشعب الالماني، بجانب ما استقر فيها من حذر التجسس الذي لم يكن يقف عند حد، ومن الرعب الذي خلفه الاعتقال عند الفجر، ومعاناة الوان التعذيب، ونزعات التشفي والانتقام، وتعود الرياء والنفاق، وتملق رجال البوليس !!

وما أشبه الآثار الخفية لعواطف الالمان الآن، بآثار ذلك الطلاء، الذي كسا السفن التي

اتخذت أهدافاً للقنبلة الذرية · فكلاهما لا يمكن الوقوف عليه، ولا ازالته بالوسائل العادية المألوفة · ولا يزال شبح هتلر والنازي يرين على المانيا ككابوس هائل مخيف، يبعث على مثل تساؤل البحارة الامريكيين الذين ذهبت باحلامهم آثار القنبلة الخفية : «اي عالم لعين ذلك الذي نعيش فيه ؟»

ذلك كله ما كنت أشعر به، وما كان يدور بخلدي وانا استمع لقصة الايام الأخيرة في حياة روميل، والاسلوب الذي استقبل به مصيره، وتلقى نهايته !

ولم تكن الظروف التي رويت لي فيها هذه القصة، يكتنفها أي ظل للريبة أو الغموض · فلقد تعددت مصادر الرواية، واتفقت مع ذلك كل الاتفاق · ولم يكن هناك ما يؤخذ على أحد الرواة، بل على العكس من ذلك كنت أشعر مثلاً، وأنا جالس مع الجنرال اشبيدل في بيته المشرف على الغابة السوداء عند مدينة فرويد نشتات، بشئ من الحنين الى طفولتي التي عشتها في العهد الفيكتوري، وعهد الملك ادوارد · ونحن الانكليز قد تعودنا ان نعيش في مثل ذلك البيت الذي يحوي اثاثاً حديثاً بعض الشئ، منظماً تمام التنظيم، كما تعودنا ان نعيش مثل تلك الحياة المنظمة، حريصين على استثمار الاموال في الشركات، وعلى الايمان بالله والحكومة، وعلى ان في البيت بعد ذلك خادم خفيف أمين، ومقعد بقرب المدفأة، وعلى ان يكون هناك خارج البيت رجل من رجال البوليس · أو على الأقل، كان هذا ما نريده منذ اربعين عاماً في شمال اكسفورد !!

وكذلك كان البيت الصغير الذي استمعت فيه لقصة روميل من ارملته «لوتسي ماريا» · فرغم انه مليء بآثار روميل، وقد حفلت جدرانه بصوره الفوتوغرافية واللوحات الفنية التي اعجب بها، كان يسوده جو محبب من السكينة والهدوء ·

وفي استطاعتي أن أقول مثل هذا، مع التأكيد التام، فيما يختص ببيت «الدنجر» وبيت الدكتور «شترولن» آخر من رجعت اليهم في قصة الايام الأخيرة في حياة روميل · وهكذا، كانت ظروف كل رواة القصة عادية، لا غرابة فيها، مما يؤيد صحتها ويؤكدها كل التأكيد ·

وفي كل بيت من هذه البيوت، كان يقطع علينا حبل الكلام · ويضطرني الى جميع اوراقي، ذلك المفرش الجميل الذي ينشر على المنضدة، ليقدم رب البيت عليه اقداحاً من الشاي ··

فقد كان يبدو على الجنرال شبيدل انه اشبه بزعماء الاسبان، وقد كان ذلك في الواقع ·

ما زوجه فكانت صغيرة السن. فقد اصبحت اماً وهي في السابعة عشرة من عمرها. وكان اولادها ظرفاء جميلي الطلعة وافري التهذيب ·

اما الدخير وزوجه فقد كانا نموذجاً لحياة المجتمع الذي ينشأ في المدن الصغرى · بينما لم يكن يظهر الدكتور شترولن، الا بمظهر الشخص الذي اعتاد السلطة والمنصب ·

وكانت لوسي ماريا ارملة رومل تبدو ـ رغم الخطوط الظاهرة في وجهها القاسي ـ بمظهر من لم يقاس التجارب في حياته · وكان منظرها ينم عن طابع سكان شمالي ايطاليا، أكثر من الالمان · فهي بشعرها الفاحم وعينيها الدعجاوين، قد تجردت من رقة الاحساس والحنو، الذي تجده عند كثير من الالمان ·

وحينما كانت أرملة رومل تتحدث عنه بكلمة زوجي «mein Mann»، كانت تلفظها في كثير من الزهو والابتهاج · ولا غرو، فقد سعدت في حياتها الزوجية معه ثلاثين عاماً، دون ان يقلل من سعادتها شيئاً، قيام حربين عظميين خلال هذه الاعوام !

وانها لعلى استعداد دائماً، لان تتحدث اليك عن مصير زوجها، ما دامت قد وثقت بك · ولن تلحظ في حديثها أية مرارة أو ثأرة من الأسى والألم، ولكنك ستحس في عباراتها ولهجتها، احتقاراً بالغاً لاولئك الذين كانوا مسئولين عن ذلك المصير · على انني استشعرت ما تكنه جوانحها من اللوعة لفقد زوجها، رغم مضي خمس سنوات على وفاته، حين اقلتنا السيارة ذات يوم الى «هرلنغن» لزيارة بيت رومل القديم الذي حول الى مدرسة · فقد تركتني اهبط من السيارة وحدي وقالت : سأنتظر في الحديقة، فاني احب ارى الاطفال يلعبون في الحديقة ولا اريد ان ادخل البناء مرة اخرى !» ·

أما «منفرد» بن رومل، فهو الان يدرس القانون في جامعة تيبنغن وهو شاب متزن تماماً، يهب كل وقته، بعد الدرس، لامه ولذكرى ابيه، وليست في حياته قط اية «عقدة»، ولم تنل من نفسه تلك الاحداث التي شهدها، ولما يجاوز الخامسة عشرة من عمره !

نعود مرة اخرى فنقول : ان رومل غادر شمال افريقيا في اذار سنة ١٩٤٢، وهو يعلم قبل ذلك بامد بعيد، ان كيتل وبودل عدوان لدودان له، لا بوصفه منافسا عسكريا لهما حسب، ولكن لشخصه أيضاً · وكان رومل يحتقر غورنغ، ولا يثق به، ويرى انه، تأثراً بكسيلرنغ، يحقد عليه، وعلى الفيلق الافريقي ·

ولم يكن لرومل صديق بين المقربين الى هتلر سوى الجنرال اشمونشدت · ولقد حذره

هذا من هبوط اسهمه عند هتلر، منذ اصطدمت اتجاهاته باتجاهات زعماء حزب النازي، وخاصة بورمان الذي له تأثير سحري في هتلر ·

وقد بقي رومل، الى ما بعد معركة العلمين، يعتقد ان هتلر لو تخلص من حاشيته والملتفين حوله ممن يتملقونه، فأنه سيكون قادراً على العمل السليم وعلى التبصر بالامور ·

وحينما انجابت الغشاوة عن عيني رومل، وتكشفت له الحقائق في وضوح تام · حز في نفسه كثيراً ما تحققه، من ان هتلر ليس من طباعه الانصاف ولا الشفقة ولا الوفاء، حتى لمن يتفانون في الاخلاص له، وتنفيذ مطامعه وشهواته، وانه ليس لديه اي استعداد للنقاش في اي شأن من الشئون ·

ولم يكن غريباً ان تكون هذه الصدمة قوية الاثر في نفس رومل، وهو الرجل اللطيف المعشر، الذي لم يألف «اللف والدوران» اللهم الا في القتال · ولما كان رومل منصرفاً الى الشئون العسكرية وحدها، بعيداً كل البعد عن الشئون الحزبية والسياسية، فانه تلقى هذه الصدمة على انها موجهة الى شخصه، والى صميم فنه العسكري، وذلك لانها افقدته ايمانه بذلك الذي كان يعده صديقه وراعيه، فضلاً عن كونه رئيساً اعلى للقوات المسلحة، ولم يدرك رومل، الا فيما بعد، وبالتدريج، ان هناك ما هو اعظم من هتلر، اعني المانيا نفسها، وانها في طريقها الى الهاوية أو الهزيمة الساحقة، متأثرة باخطاء هتلر نفسه ·

ويمكن القول بأن رومل تفتحت عيناه على هذه الحقائق أبان الاشهر القليلة التي قضاها في المانيا، قبل ان يصبح قائداً في الجبهة الغربية · ففي تلك الفترة اخذ رومل يبدي استياءه من تلك «الشرذمة»، وذلك بعد ان استمع لاول مرة من الضباط الالمان هناك، العشرات من القصص عما اقترفه الغستابو، وفرقة الدفاع، من الآثام والفظائع في بولندا وروسيا، وعما يرتكبونه من وحشية في الدول المحتلة من اوربا الغربية، ولاول مرة وقف رومل على حوادث تسخير جنود الاعداء في العمل، وحوادث القضاء على الاسرى · كما علم بالوان التعذيب المبتكرة كحجرات الغاز وغيرها، مما لوث به النازيون تاريخ المانيا العسكري · وكان رومل حتى ذلك الحين مازال عالقاً بسمعه ما قيل من ان المانيا حاربت في شمال افريقيا «حرب الجنتلمان !»

وكان من الطبيعي وهذه اخلاق رومل ومقوماته النفسية، ان يذهب الى هتلر بنفسه، ويطلعه على كل هذا الذي تكشف له ·· وقد كان مما قال رومل لهتلر حينذاك :

«انك ان تركت الامور تسير على هذا النحو فسنخسر الحرب» · ثم اقترح عليه حل هيئة الغستابو، وتوزيع افراد فرقة الدفاع على القوات العسكرية الاخرى، ثم اشار عليه بأن

يكف عن حشد الصغار قائلاً : «انه لجنون حقاً ان تؤدي بالزهرات اليانعة من ابناء المانيا الى هلاك !!

ولابد ان تكون هذه الاقتراحات التي ابداها رومل، قد صدمت هتلر، ولابد انها كانت مثار سخرية هملر رئيس الغستابو، حين نقلها هتلر اليه ٠ وقد يكون عجيباً ان يذهب التواضع بهتلر الى حد مناقشة هذه الامور جميعاً مع رومل ولو الى حد ما ٠ ولكن الثابت انه لم يدع في ذهن رومل ادنى شك في انه لن يعدل عن تلك النظم !

مؤامرة اغتيال هتلر

وامضى رومل صيف تلك السنة مفكراً في هذه الأمور ولاول مرة في حياته راح يفكر تفكيراً سياسياً. ثم انتهى به تفكيره الى ما انتهى اليه قبله بعض القادة الالمان، فأيقن ان هتلر يقود المانيا الى الخراب ٠ وانه مادام مؤيداً من حزب النازي وفرقة الدفاع والضباط وبعض رجال الجيش. فليس ثمة من سبيل للتخلص منه، دون حرب أهلية ٠٠٠

واخيراً. استقر رأي رومل على وجوب كف ايدي مستشاري هتلر عن العمل، على ان يبقى هتلر رئيساً رمزياً دون ان تكون له اية سلطة حقيقية، ومضى برسم الخطة لتنفيذ ذلك ! ٠٠٠

على انه قبل ان يخطو خطوة واحدة في هذا السبيل. عين قائداً في الجبهة الغربية، ثم انتقل الى شمال ايطاليا ثم الى فرنسا. فاضطر مؤقتاً الى ارجاء تنفيذ تلك الخطة، والاهتمام بما هو مكلف به كما هي عادته !!

ومهما يكن من أمر. فقد كان هناك غيره من القواد الآخرين الذين رأوا في هتلر ما رآه هو، ولم يثنهم عن المضي في سبيلهم مثل ما أثناه ٠

وكان على رأس هؤلاء القواد رجلان، احدهما الدكتور غوردلر محافظ ليبزغ ٠ والآخر الكولونل جنرال بيك الذي كان قائداً عاماً من قبل. ولقد ادركا، ان هذه المؤامرة لن يتم لها النجاح الا اذا وجدا من يخلف هتلر في زعامة الشعب الالماني ٠
وقد قررا ان هذا الذي يخلف هتلر، لابد ان يكون ذا شخصية محبوبة من الشعب، كما يجب ان يكون من طراز هندنبرغ اخر، ولكن من طراز حديث ٠ وان يكون متمتعاً بثقة الرأي العام، بعيداً كل البعد عن ان يتهم بالعمل لاغراض شخصية، كما يجب في الوقت نفسه ان يكون جندياً يتبعه الجيش كله ٠

راح هؤلاء يستعرضون اسماء كثيرين من الزعماء والقواد، ثم يستبعدونهم واحدا بعد واحد · فالجنرال بيك ـ مثلاً ـ شخصية ممتازة، ولكنه لا يصلح لهذا المركز، لان الاغلبية العظمى من الشعب الالماني لم تعد تسمع به منذ نحاه هتلر عن منصبه سنة ١٩٣٨ ·

وأخيراً لم يجدوا بين الشخصيات الالمانية الكبيرة من هو خير من روميل، فهو اشهر شخصية في المانيا بعد هتلر، وليس هناك ما يؤخذ عليه من الناحية السياسية · ثم ان الدعاية الالمانية كانت قد قدمته للرأي العام على انه نازي ممتاز ، وان كان ذلك قد ضايق روميل بعض الوقت · وقد عرف الرأي العام الالماني، ان البريطانيين يكنون الاحترام لروميل، وانه يستطيع ان يتعامل معهم عندما تتحرج الأمور · ولم يعرف الا قليلون من الالمان ذلك الاختلاف القائم بين هتلر وروميل في وجهات النظر · ومن هنا، اختير روميل بالاجماع لرئاسة المؤامرة العسكرية الرامية الى اقصاء هتلر عن تصريف الامور في المانيا !! ·· أو على الأصح لرئاسة الرايخ !



الفصل التاسع والعشرون

يتآمرون على هتلر في بيت رومل

اقتراح باعتقال هتلر ـ يطلبون عقد الهدنة مع الحلفاء

اتصل المتآمرون على اقصاء هتلر، بالدكتور كارل شترولن، الذي ظل محافظاً لمدينة اشتتغارت منذ سنة ١٩٣٣، ولقد عرفه العالم خارج المانيا قبل الحرب، منذ كان رئيساً للاتحاد الدولي لبناء المساكن وتخطيط المدن ٠

والدكتور شترولن شخصية محببة لدى أهل اشتتغارت لكفاءته ولنشاطه، كما كان أحد الأوائل الذين شدوا ازر هتلر وحزبه، وعلى هذا يمكن القول بأنه نازي ٠

ولقد كتب القنصل الامريكي العام في مدينة اشتتغارت سنة ١٩٤٨، عن الدكتور شترولن، بعد ان عرفه سبع سنوات كاملة، من سنة ١٩٣٤ حتى سنة ١٩٤١ فقال : «انه رجل له مبادئ انسانية رفيعة، ومما يؤيد هذا ما سمعته من الامريكيين والالمان على السواء، عن نبل اخلاقه، وجهوده المتواصلة، لانقاذ المظلومين والمنكوبين، وما الى ذلك، مما يدل على نزاهته وعدالته وسموه عن الاغراض الشخصية، واستحقاقه اكبر التقدير والاجلال ٠» ٠

ولعل السبب الرئيسي الذي اثار الدكتور شترولن على هتلر هو ذلك العدوان النازي على تشكو سلوفاكيا، كما يمكن القول بان صداقة الدكتور شترولن للدكتور غوريدلر هي التي جعلته احد المتآمرين على الزعيم النازي، وأنه رغم اصراره على ان يظل محافظاً لاشتتغارت حتى تضع الحرب اوزارها، كان يعمل ضد النازية منذ سنة ١٩٣٩ ٠

ويروي عنه بعض رجال المقاومة الفرنسية انه انقذ واحداً وعشرين فرنسياً حكم عليهم بالاعدام في الالزاس، وهذا دليل على ما لهذا الرجل من ذكاء وشجاعة عظيمة ٠

ولقد عمل الدكتور شترولن برتبه نقيب في الحرب العظمى الاولى، واشترك مع روميل سنة ١٩١٨ بعد ان جرح مرتين، في الفيلق الرابع والستين، وسرعان ما توطدت بينهما الصداقة، لانها كانا من جنود الصفوف الاولى في الميدان، ولأنهما لم يكونا في وفاق مع القيادة الالمانية ٠ ورغم ان شترولن كان اوسع افقاً واكثر مشاغل فيا بين الحربين، الا انه ظل على صداقته لروميل، واعانه على ان ينقل اسرته من فينر نويشتادت الى فيرتمبرغ ٠ ولقد بدأ شترولن العمل بالاتفاق مع زوجة روميل ٠

ففي آب ١٩٤٣ بلغ من شجاعة شترولن ان وضع اسمه على وثيقة كتبها الدكتور غوردلر يطلب فيها الكف عن محاكمة الابرياء وعن الاعتداء على الكنائس، وان تعاد الحقوق المدنية، ويقصى حزب النازي عن الحكم ٠

وقد أرسلت هذه الوثيقة الخطيرة الى وزارة الداخلية ٠ وتلقى شترولن انذاراً بأنه سيقدم للمحاكمة «بتهمة ارتكاب جرائم ضد الوطن اذا لم يلزم السكون» فعلق على ذلك بقوله : «انني اقتنعت الآن على الأقل بانه لا يمكن ان تنجز شيئاً بالوسائل المشروعة !»

ولقد بعث الدكتور شترولن بنسخة من هذه الوثيقة الى زوجة روميل ٠ وفي نهاية تشرين الثاني حين كان روميل في اجازة قصيرة في عيد الميلاد، قامت زوجته باعطائه هذه الوثيقة، فكان لها أعظم الاثر في نفسه، ذلك لانه هو الآخر كان يفكر في مثل ذلك ٠

وفي كانون الاول تمكن شترولن من زيارة زوجة روميل في هرلنغن، عندما علم ان غاسي رئيس هيئة اركان حرب روميل سيكون هناك ٠ وكان يهدف الى ان يتمكن من مقابلة روميل، ولكنه وجد غاسي هو الآخر من المتآمرين ضد هتلر، وكان عليه ان يتفق مع بعض الضباط الكبار ٠

وتم الاجتماع الحاسم في بيت روميل في هرلنغن، عند نهاية شباط سنة ١٩٤٤ ٠ وكان على شترولن ان يتخذ طريقه الى هناك خفية ٠ ولقد حذره رئيس بوليس اشتغارت وصرح له بانه سيكون في اوائل من سيقضى عليهم، اذا قامت حركة مقاومة عامة في المانيا ٠ وعرف شترولن ايضاً ان تليفونه مراقب، وان أحاديثه مسجلة !

اقتراح اعتقال هتلر

واستمر الاجتماع وقتاً يتراوح بين خمس ساعات وست ساعات، ولا يزال شترولن يذكر كل ما دار فيه · وقد كتب في ذلك يقول : «بدأت حديثي بأن ناقشت الموقف السياسي والعسكري في المانيا، فوجدنا انفسنا جميعاً متفقين في كل وجهات النظر · وحينئذ قلت لروميل : اذا كنت متفقاً معنا في الموقف فيجب عليك ان ترى ما يحتاج اليه من تدبير · وذكرت له ايضاً أن بعض كبار الضباط في الجبهة الشرقية يقترحون اسر هتلر، وارغامه على ان يعلن في الراديو انه تخلى عن الحكم · وقد وافق روميل على هذا · والحق ان روميل لم يكن في ذلك الحين، ولا في أي وقت، يعلم بأمر خطة لاغتيال هتلر !»

وكذلك روى الدكتور شترولن انه ذكر لروميل انه من اعظم القواد الالمان،وانه اشهرهم واكثرهم استمتاعاً بتقدير خصوم المانيا، فهو وحده الذي يستطيع ان ينقذ المانيا من نشوب حرب أهلية فيها، ولكن شترولن يعترف بانه في ذلك الحين لم يشأ ان يذكر لروميل ان اسمه اقترح ليكون رئيساً للرايخ الالماني ؟ ثم يمضي في حديثه فيقول :

«وقد سألت روميل : هل ترى ثمة فرصة لكسب الحرب، بالاستعانة بالاسلحة السرية ؟ فأجاب بأنه لا يعرف شيئاً عن هذه الاسلحة السرية، اللهم الا ما ذكرته الدعاية الالمانية عنها، ولكنه مع ذلك يرى ان ليس ثمة اية فرصة لكسب الحرب · فالحرب من الناحية العسكرية قد خسرتها المانيا ! ولما سألته : ايعلم هتلر كيف ساءت الامور ؟ اجاب بقوله : انني اشك في ذلك، وعلى أي حال، فهو رجل يعيش على الأوهام !

« ثم سألته : اكان في استطاعته ان يطلب مقابلة هتلر، ويحاول ان يفتح عينيه على هذه الامور ؟ فقال : لقد حاولت ذلك مرات عدة، ولكنني لم اوفق في كل مرة · وسأحاول مرة اخرى ، ومما لا شك فيه ان حاشيته ترتاب في امري · ولهذا لن يتركوني اتحدث اليه وحدي · فذلك الشخص العجيب بورمان، هنالك دائماً» ·

ويختم شترولن روايته بقوله :

«واتفقنا حينئذ على ان يحاول روميل مرة اخرى، مقابلة هتلر في الوقت المناسب، لكي يرده الى صوابه · فاذا لم يوفق في ذلك، فليكتب اليه رسالة يكشف له فيها عن جلية الموقف كله، ويعرب له عن استحالة كسب الحرب، ثم يطلب اليه ان يفكر في جميع النتائج السياسية التي تترتب على ذلك ·

واخيراً، كان على رومل ان يتخذ خطوة مباشرة · وقد فكر في ذلك بعض الوقت ثم قال : اني اؤمن بان من واجبي ان انهض لانقاذ المانيا ! ولم يخالجني في ذلك اي شك · ولم يكن رومل رجلاً مفكراً عالياً، فهو لا يفهم الكثير في السياسة ولا في الفنون · ولكنه رجل شريف، لا يحنث في وعد اضافة الى انه، بعكس الكثيرين من القادة، كان شجاعاً الى أبعد الحدود !»

يطلبون عقد الهدنة

وفي نيسان وجد الدكتور شترولن حليفاً آخر هو الجنرال الدكتور اشبيدل الذي عين رئيساً لهيئة اركان حرب رومل · وسرعان ما اصبح الجنرال اشبيدل وثيق الصلة بالمتآمرين · وراح شترولن يوالي اتصالاته باشبيدل اما بوساطة البريد، واما بوساطة رومل نفسه · وكذلك اخذ اشبيدل يتباحث مع رئيسه السابق الجنرال هينريش فون اشتيلبناغل الحاكم العسكري لفرنسا، ثم مع الجنرال فالكنهاوزن الحاكم العسكري لبلجيكا · وساهم رومل في جانب من هذه المباحثات، وكان يقف دائماً على كل المعلومات والتفاصيل · وكان اشتيلبناغل في صميم هذه المؤامرة · كما كان كل من اشبيدل واشتيلبناغل قد اتفق على الخطوط الرئيسية في مشروع الهدنة، مع الجنرالين ايزنهاور ومونتغمري · فاذا لم ينح هتلر، فستوقع هذه الهدنة دون علم منه · وكان شروط الهدنة جلاء قوات الاحتلال عن المناطق الغربية، وتضييق نطاق الجبهة في الشرق ·

غير ان الحلفاء الغربيين، ما كان في استطاعتهم ان يقبلوا هذه الشروط، ذلك لانهم تعهدوا الا يعقدوا صلحاً منفرداً دون ان يشركوا روسيا معهم · على ان الحلفاء كانوا حريصين على ان يكون التسليم بلا قيد ولا شرط، وقد اتفقوا في الدار البيضاء على ذلك، وان كانوا يعلمون ان هذا «سيؤدي الى التفاف الالمان تحت لواء الصليب المعقوف» كما انه سيؤدي الى تقوية هتلر، واطالة امد الحرب، ويكلفهم بضعة آلاف من البريطانيين والامريكيين ·

وعلى أي حال فقد كان اشبيدل واشتيلبناغل يريان، بان المستر تشرشل والرئيس روزفلت، سيرحبان بهذه الفرصة التي اتيحت لهما للحيلولة دون تقدم الجيش الأحمر الى الجبهة الغربية، على أساس ان الهدنة لن توقع مع هتلر أو مع أحد من النازيين ·

وفي ٢٧ أيار انعقد اجتماع آخر في بيت اشبيدل في فرويدنشتادت· وكان هذا الاجتماع اجابة لرغبة رومل · وقد شهده بالنيابة عنه اشبيدل. كما شهده شترولن وفون نويرات الموظف بوزارة الخارجية الالمانية حينذاك، والذي كان حاكماً من قبل لتشكوسلوفاكيا، ممن حكمت عليه

محكمة نومبرغ فيما بعد بالسجن ١٥ عاماً ٠ ولابد انه يكون قد سخر من هذا العقاب الذي وقع عليه، والذي يراه انه اقسى من عقاب هتلر له !

ولقد نهضت واقفاً في دهشة عندما قال لي الدكتور اشبيدل : «لقد اجتمعنا ها هنا حول هذه المائدة، وكان فون بو يرات يجلس حيث تجلس انت !»

ولقد كتب الدكتور شترولن مذكرة خاصة، جرياً على عادة الالمان في الولع بكتابة الوثائق والمذكرات ٠ وروى لي شترولن ان هذه المذكرة كانت تتناول عرض الموقف عرضاً تاماً، وكان الهدف من هذه المذكرة ارشاد رومل وتوجيهه ٠وسألته : «هل افهم من هذا انك سجلت ذلك كله على الورق ؟»

فأجاب بقوله : «نعم، فلقد كتب أحد موظفي مكتبي نسختين ٠ ولقد بلغ من خوف هذا الموظف ان احرق «ورق النشاف» فيا بعد ٠ ولقد حمل الجنرال اشبيدل نسخته في جيبه، وحملت نسختي معي الى اشتتغارت، وكان حامل هذه المذكرة كمن يحمل قنبلة نزعت كبسولتها !»

ولم يكن رومل حريصاً متحفظاً في حديثه، فكان دائم التحدث مع جنوده وضباطه وهيئة اركان حربه عن الحرب وعن هتلر ٠ وكان النقيب هلموت لانغ، يدون مذكراته يوماً فيوماً، وكان يشعر بأن من واجبه أن يسجل بجانب الوقائع «حيثيات الحكم» ايضاً، وكل شئ يعمله الفيلد مارشال رومل !

وكان رومل كثيراً ما يطرب عندما، يرى المذكرات تبدأ على هذا النحو : «الساعة السابعة صباحاً ـ طعام الافطار «اومليت»[٢٩] الساعة السابعة والنصف ـ معركة (كان) تبدأ» ٠ وكثيراً ما يضحك رومل، عندما يجد في المذكرات شيئاً على هذا النحو : «خرج رومل مع النقيب لانغ للنزهة والفيلد مارشال فون كلوغه» ولم يكن رومل يسر، عندما يتصفح اليوميات ويجد مثل هذه العبارات : «ان اوامر هتلر هراء : لابد ان يكون الرجل مجنوناً ٠ فكل يوم يكلفنا ارواحاً لا ضرورة لازهاقها، لابد من عقد معاهدة للصلح» ٠ وكان يقول للنقيب لانغ : «ايها الرجل، انك تريد ان تذهب بي الى المشنقة !» ٠ ولقد اشار رومل على الدنجر بأن يعد نسخة منقحة مصححة من هذه اليوميات ٠ ولقد أحرق كل من منفرد ابن رومل، والدنجر النسخة الاصلية لهذه اليوميات، بعد ان كان الدنجر يريد ان يستبقيها ضمن اوراقه ومحفوظاته ٠ والالمان من عادتهم ان يسجلوا كل شئ على الورق، ويحتفظوا بأكثر الوثائق خطورة وتعرضاً للقتل، وهذه العادة قد ادت بالكثيرين من المتآمرين الى المشنقة ٠

---

(٢٩) «اومليت» هو البيضة نصف الطازجة ٠

وفي الاجتماع الذي انعقد في ٢٧ أيار، قام الجنرال اشبيدل بعرض وتصوير للموقف العسكري . ولما فرغ من ذلك تحدث فون نويرات فقال : «اننا لا نستطيع ان نعقد صلحاً مع خلفاء عن طريق هتلر. ويجب عليك ان تطلب الى رومل ان يقوم بشئ على مسئوليته الخاصة» . لقد كان ذلك هو شعور المجتمعين جميعاً، وتلك كانت الرسالة التي حملها شبيدل معه الى رومل في مقر قيادته في لاروش غيون !

الفصل الثلاثون

رومل يضع معاهدة سرية !

يريد استخدام القنبلة الذرية ـ آخر رسالة لرومل يريد محاكمة الفوهرر

كان من نصيب رومل أن وجد في تلك الفترة الحرجة، تأييدا من انسان غريب ما كان يخطر بباله ان يؤيده حينذاك . ونعني به «ارنست يونغر» مؤلف كتاب «عاصفة من الصلب» وهو جندي من الطراز الاول، وقد ظل يعتقد ـ حتى بعد الحرب العظمى الاولى ـ ان الحرب انبل عمل قام به الانسان، كما انه كان من اوائل الكتاب الذين كتبوا ضد النازية، وذلك في قصته الرمزية التي صودرت وعنوانها «الصخور المرمرية» .

وقد قام يونغر باعداد مشروع معاهدة سرية للصلح، تقوم على أساس أن اوربا يجب أن تتوحد، وتلغى فيها الحدود في ظل الديانة المسيحية، فهذا هو الحل الوحيد للقضاء على البولشفية .

ولقد وجد رومل ان هذه المعاهدة مقنعة، ولكنه ابدى قلقه بشأن نشر هذه المعاهدة في الوقت المناسب . وكان عليه هو نفسه أن يخلق المناسبة الملائمة لنشرها .

ومنذ شهر شباط ورومل يجد نفسه في موقف بالغ الحرج والغرابة، لم يقع في مثله أحد من القادة . فهو من ناحية كان القائد المختار للدفاع عن حائط الاطلنطي، وقد اولاه هتلر كل

ثقته ان في استطاعته صد غزو الحلفاء على السواحل، وعلى هذا الأساس كان ينظر اليه من ناحية الصحف الالمانية والجيش الالماني، بل ومن الحلفاء أيضاً ·

ولكنه من ناحية اخرى كان مقتنعاً بأن الغزو لا يمكن دحره او تحطيمه، ومن هنا اتهم بأنه سيتقدم خفية بشروط الهدنة الى الجنرالين ايزنهاور ومونتغمري، اذا ما نجح الغزو الحليف ·

يريد استخدام القنبلة الذرية

وهذا الموقف الشديد الحرج، طالما استغرق من رومل مباحثات طويلة مع الاميرال روغه · وكان رومل يقول : «ان مواصلة القتال جنون، فكل يوم يكلفنا مدينة من المدن، لا لشئ الا لجعل الشيوعية اكثر تمكناً من اكتساح اوربا فلنأتي بالدول الغربية مرة اخرى معاً لتحاربها. واذا كانت لدينا القنبلة الذرية فانني ارى ان من واجبنا، ان نستخدمها لصالحنا. فأول من يملكها هو اول من يستخدمها · على انني اعتقد ـ رغم كل ما يقال ـ باننا لا نملك القنبلة الذرية. ولهذا يجب علينا ان نتقدم للصلح» ·

وفي الوقت نفسه ادرك رومل انه لا فائدة من التفكير في محاولة التقدم للصلح دون تدخل هتلر، ما لم يفلح الغزو ·

ويقول رومل : «في افريقيا كنت سيد نفسي، وكان الجنود يتسابقون الى تنفيذ أوامري، اما الآن فأنا مندوب هتلر !»

ولما كان الجيش الالماني خاضعاً لتأثير الدعاية الالمانية القوية، ويعتقد اعتقاداً راسخاً بان الاسلحة السرية هي التي ستنهي الحرب لصالح الالمان، لذا فان اي انسان يفكر في الاستسلام، لابد وان ينظر اليه على انه خائن للوطن، ولابد من ان الضباط الصغار لن يستطيعوا ان يسيروا وراءه، وهكذا لم يجد رومل بدا من القيام بمحاولة لدحر العدو واحباط الغزو، كما انه في الوقت نفسه لم يجد بدأ ايضاً من اتخاذ التدابير للتقرب من الحلفاء ·

ولقد استطاع رومل بعقله المتزن، وبراعته الفائقة، ان يركب هذين الجوادين المتنافرين معاً في وقت واحد ! فمن الناحية الحربية بذل اقصى ما في وسعه لاحياء همم جنوده وتقوية روحهم المعنوية في الجبهة الغربية، ليحولوا دون نزول القوات الغازية، كما انه كان يعمل ليلاً ونهاراً لتدعيم الاستحكامات الضعيفة في حائط الاطلنطي · ولهذا اعلن في اوامره ان هذا الحائط، سيكون منيعاً لا ينفذ منه شئ، فصدقه حتى قواد الحلفاء انفسهم ·

وحينما افلح الحلفاء في انزال قواتهم، ظل روميل يقاتل قتـال المستميت ليلقي بـالغزاة الى البحر، ويبعدهم عن الساحل . ولم يكن في وسع اي انسـان مطلق الحرية في تصرفـاتـه ان يفعل خيراً مما فعل روميل، رغم القيود الكثيرة التي احاطت به . وكذلك لم يكن في وسع اي قائـد ان يعرض نفسه للخطر اكثر مما فعل روميل، فقد وضع كل ثقته واملـه في الجيش، ولم تكن قيـادتـه تتسم بالتردد قط، بل كان حاسماً حازماً . ورغم انه كان حريصـاً دائماً على ان لا يضحي بجنوده دون مبرر، فـانـه كان يلقي بهم في الهجمات المضـادة، وكان يقـول لـلاميرال روغـه : لم ابعث في حياتي برجالي الى الموت المؤكد، كما افعل اليوم !»

ولقد نفذ روميل تنفيذاً تاماً، كل ما وعد به في اجتماعه بالدكتور شترولن في شهر شبـاط بتضمين التقرير الـذي بعث بـه الى هتلر في ١٢ حزيران عن الموقف قولـه «ان الامور تحرجت الى اقصى حد، وان التفوق الجوي للحلفاء لم يدع الا املا ضئيلاً في الحيلولة دون هزيمة الالمان !»

وفي ١٧ حزيران تمكن روميل من الاجتماع بهتلر في سواسون طبقاً لذلك الاتفـاق أيضـاً، فذكر له أن «الموقف يقتضي اما الاستـسلام والتقدم لطلب الصلح، واما اتخاذ خط للـدفـاع وراء الاورن» . ولما رفض هتلر ذلك، أخذ روميل وفون رونشتدت يتدارسان معاً مسألة عقـد الهـدنـة مع الدول الغربية !

آخر رسالة لروميل

وأخيراً ارسـل رومـل آخر رسـالـة لـه الى هتلر في يـوم ١٥ تموز، ولكنـه جرح قبـل أن يتلقى الرد عليها، وقبل أن يتخذ الخطوة الحاسمة للاتصال بقواد الحلفاء، وبـذلـك يكـون روميل قد وفي بما وعد به كله، أللهم إلا في هذا الاتصال !

ولقد أبدى روميل مرة اخرى مرونته وجلده وحيويتـه، فـالبـارون فون ايزبـك المراسل الحربي المشهور، والذي نجا هو الآخر من الموت بـأعجوبـة، والـذي كان يرافق روميل، لم يـأو الى مقر القيادة إلا في ١٧ تموز ليكتب شيئاً عن روميل، وقـد زار روميل في مستشفى فينيـه يوم ٢٣ تموز، وكان روميل جالسـاً على حافة السرير . ولم يكـد روميل يراه حتى قـال لـه : «انني مسرور لرؤيتـك . كنت أخشى أن تكون الطبيب . فـانـه لا يـأذن لي في الجلوس على هـذا النحو !» واضاف الى ذلك قوله : «انني على يقين من ان الـدكتور يرى انني ميت لا محـالـة ولكن ليست لدي أية رغبة في أن أموت . وخير لك أن تلتقط لي صورة !»، ثم نهض روميل وارتـدى سترتـه العسكرية فوق البيجاما، وجعل فون ايزبـك يلتقـط الجانب الأيمن من وجهـه، ذلـك الجـانب

الذي لم تحطمه الجروح واخطار القتال . ثم قال رومل : «في استطاعة البريطانيين أن يروا أنهم لم يحطموني بعد !»

ثم راح رومل يتحدث الى فون ايزبك في صراحة، فيا كان قد حدثه عنه يوم ١٢ تموز، أي بعد أن أرسل الى هتلر تقريره الذي انذره فيه بأن المانيا خسرت الحرب ويقول فون ايزبك : «كان رومل شديد الأسف، ولا سيا على الفشل الذريع الذي مني به سلاح الطيران الالماني، ولم يشأ أن يذكر رومل شيئاً عن محاولة الاعتداء على حياة هتلر» .

ولقد زاره أيضاً كل من اشبيدل وزوجه، بعد أن جرح ببضعة أيام، فوجداً أنه قد افلح في أن يحلق لحيته بنفسه، رغم مرضه ! . ولم يكد الطبيب الذي يحمل رتبة فريق يطلب الى رومل أن يلتزم الهدوء، حتى ثار رومل في وجهه قائلاً : «لا تقل لي ما ينبغي أن أعمل وما لا ينبغي ان أعمل، فانني اعرف ما استطيع عمله !» وكان الاميرال روغه يزوره كل يوم ليقرأ له . وقد روى انه ذهب اليه يوماً، واخبره بانه قرأ كتاباً اسمه «النفق» تحدث فيه كيلرمان مؤلفه، عن بناء نفق يصل اوربا بالولايات المتحدة، وكان رومل كالعهد به يبدي اعجابه بهذا اللون من التفكير، ولا يمل الحديث «عما بعد الحرب»، كما انه كان شديد التأثر لارتفاع المد ارتفاعاً هائلاً، وانخفاض الجزر انخفاضاً كبيراً على ساحل بريطانيا، واعرب عن رغبته في أن يدرس باهتمام مشروعاً لاستنباط القوى من المد والجزر لاستغلالها .

وليس ادل من هذا على ان رومل كان في تلك الفترة تواقاً الى القيام بأي عمل فني، ينفق وقته فيه .

يريد محاكمة الفوهرر

وكان رومل يتحدث مع الاميرال روغه عن المؤامرة لاقصاء هتلر في صراحة تامة . وكان يقول له : «ان هتلر هو الشيطان مجسماً، فلماذا نجعل منه بطلاً أو شهيداً ؟ . يجب ان يقبض عليه الجيش، ويقدمه للمحاكمة، فان اسطورة هتلر ستظل عالقة باذهان الشعب الالماني دون ان تنكشف اسرارها، مالم يطلع الشعب الالماني في الوقت المناسب على حقيقة هذا الرجل !»

ويقول الاميرال روغه . «انني كنت اخشى على حياة رومل، وكنت آمل ان يكون وقوعه في ايدي البريطانيين، على اني لم اجد لدي الجرأة الكافية لكي احدثه في شئ من هذا !»

وفي الثامن من شهر آب اصر رومل على ان ينقل الى بيته في هرلنغن، رغم معارضة البروفسور رايسن، كبير اطباء مستشفى فينيه، والدكتور شيننغ أحد اطباء القوات الالمانية في الغرب ٠

وتقول زوجة رومل : «لقد أصر رومل على الا يقع وهو مثخن بالجروح في ايدي الاعداء، وقد صحبه الطبيبان الى البيت، وتركاه في رعاية البروفسور البرخت والبروفسور اشتوك من جامعة تيبنغن» ٠

وكان الاول اخصائياً في تشريح الدماغ ٠ فلما فحص جراح رومل قال ٠ «ان انساناً لايستطيع ان يعيش وفيه مثل هذه الجروح !» واضاف الى ذلك ، انه يفضل أن ينقل رومل الى عيادته الخاصة في تيبنغن ٠

وعلى عكس ما كان متوقعاً، التأمت جراح رومل بسرعة غريبة، وأخذت صحته تتحسن يوماً بعد يوم ٠

بعد فشل المؤامرة

ومما أثار عجب زوجته ان أحداً من زعماء الرايخ، أو قادة الجيش لم يكلف نفسه مشقة السؤال بالتليفون عن صحة رومل، ولعلها لم تكن تدري في ذلك ما يدعو الى العجب، ولابد انه ارتاب في الأمر، وتذكر آراءه ومقترحاته التي أدلى بها الى هتلر، وما اتهمه هذا به من انه «من دعاة الهزيمة» ٠

وفي ليلة ٢٠ تموز، حينما تبين ان محاولة الاعتداء على هتلر قد فشلت، وان هتلر ما زال على قيد الحياة يصدر أوامره، دعى الجنرال هينريش فون اشتيلبناغل الى لاروش غيون، لمقابلة الفيلد مارشال فون كلوغه، وكان هذا على علم بالمؤامرة، وان لم يشترك فيها ولو انها نجحت لصرح باتصاله بالمتآمرين، ولذهب الى الحلفاء فوراً متقدماً بشروط الهدنة ٠

وشد ماارتاع فون كلوغه حين علم ان فون اشتيلبناغل أصدر أوامره في باريس قبل ان يشخص اليه، باعتقال رجال الغستابو وفرقة الدفاع وسرعان ما صرح لاشتيلبناغل بانه لا يريد الاستمرار في الخطة المتفق عليها ٠ وبعد مناقشة حامية بينهما، طلب اليه أن يعود الى باريس، وأن يطلق سراح رجال الغستابو وفرقة الدفاع !

ولعل قائد فرقة الدفاع كان على استعداد لان يسكت على ما حدث، وان يتستر عليه، فقد ذكر ان تلك الاوامر التي أصدرها اشتيلبناغل لم تكن تعني اكثر من تدريب المعتقلين، على

في ذلك اليوم نفسه لم يتنه قبل دعوة اشتيلبناغل الى القيادة العليا في برلين لاستيضاح جلية الأمر منه !

وحينما وصلت به السيارة الى قرب «فردون»، حيث قاتل في براعة خلال المعارك الدامية هناك في الحرب العظمى الاولى، أمر سائق السيارة بالتوجه الى ضفاف الموز، وان يتركه وحده ·

وما كاد يهبط من السيارة، حتى دلف الى النهر، ونزل فيه بثوبه العسكري، ثم اطلق الرصاص على نفسه فأصاب عينيه، ولم يكد السائق يسمع صوت الطلق الناري، حتى سارع الى القائد المنتحر، وحمله فاقد الوعي الى مستشفى فردون · حيث أجريت له جراحة عاجلة، وتبين انه فقد الى الابد إحدى عينيه · وحينما بدأ يسترد وعيه عقب الجُراحة كان اسم روميل اول ما جرىٰ به لسانه، وكان يردده مرات ·

ويقول الكولونل فولفغانغ مولر : «ان الطبيب هو الذي نقل اخباره الى الغستابو في باريس» بينما يؤكد اشبيدل ان رجالاً من الغستابو وفرقة الدفاع كانوا حول سرير اشتيلبناغل في المستشفى، وقد اصطحبوه بعد ذلك الى برلين، حيث عومل بمنتهى القسوة، ولقي أشد الوان التعذيب !

ولا يدري أحد ما الذي قاله، أو كشف عنه من اسرار، خلال هذيانه حينذاك · وايا ما كان الأمر فقد حوكم ، ثم اعدم شنقاً !

ويقول اشبيدل : «ان اشتيلبناغل كان رجلاً شجاعاً شريفاً، لا يخشى لومة لائم في اي شيء فعله !»

وفي ١٨ آب، دعي الفيلد مارشال فون كلوغه الى برلين، فقرر أن يسلك السبيل الذي سلكه اشتيلبناغل من قبل، فانتحر بتناول السم · وكان أسعد حظاً من سلفه، فلم يخطئ طريق المنون !

الفصل الحادي والثلاثون

شبيدل ورومل يعملان

اعتقال شبيدل ـ رومل يدعى الى برلين
رسولان يستجوبان رومل

مضت على رومل أسابيع هادئة في هرلنغن، لم تتخللها الا زيارات البروفسور البرخت لعيادته. وكان سروره عظيماً بتقدم صحة رومل، واستطاعته ان ينهض من فراشه، وان يجلس في الحديقة تحت أشعة الشمس، ويخرج للتنزه في بعض الاحيان ·

ولم يحدث في فترة نقاهته هذه أي شيء غير عادي، اللهم الا حادثة طريفة هي ان مجهولا حاول ان يتسلل الى بيت رومل عبر نفق يفضي الى احد المخابئ التي انشئت للوقاية من الغارات الجوية · فلما شعر به الحارس واطلق عليه النار فر هاربا !

ولم يبد أحد أهتماماً كبيراً بهذه الحادثة · فقد كانت المانيا في ذلك الحين، صيف سنة ١٩٤٤، ملأى بعناصر غاية في الغرابة من المهاجرين، وأسرى الحرب الهاربين، والعمال الاجانب ·

وفي السادس من شهر أيلول، استقبل رومل زائراً لم يكن يتوقع زيارته، ذلك هو الجنرال اشبيدل الذي جاء ليخبره بأنه قد اعفي من القيادة الى حين، وبأنه ذاهب الى برلين ليقدم تقريراً عن الموقف للجنرال غودريان، رئيس هيئة اركان الحرب في القيادة الالمانية العليا ·

وقالت لي زوجة رومل : «أن اشبيدل اخبرنا بأن كيتل وبودل كانا يتحدثان عن زوجي، على اساس انه من دعاة الهزيمة، ثم طلب اليه أن يحذرهما ٠ ولم يشأ أن يذكر له ما هو اكثر من ذلك مراعاة لحالته الصحية ٠ وظن زوجي أن كيتل وبودل يبحثان عن إنسان غيرهما . يحملانه تبعة الموقف العسكري في الغرب، كما رأى فيما تحدثا به عنه ما يفسر لماذا أسرفت الصحافة والاذاعة في المانيا في حديث اصابته دون أن تشيرا بشئ الى هجوم العدو، ودون أن تهتما إلا مؤخراً بنقل ما نشرته الصحف الأجنبية عن الحادث منذ بضعة أيام» ٠

ولم تسنح للجنرال اشبيدل فرصة الشخوص بنفسه الى برلين ليقدم تقريره المشار اليه ٠ واكبر الظن أن القيادة الالمانية خشيت، لسوء فهمها شخصيته الممتازة، أن يسلك سبيل الفيلد مارشال فون كلوغه والجنرالان بيك وفون اشتيلبناغل ٠ ففي الساعة السادسة صباحاً طرق باب بيته في فرويد نشتادت أحد ضباط فرقة الدفاع ومعه حارس مدجج بالسلاح ٠ وكان على ذلك الضابط أن يعود بالجنرال المطلوب، على عجل، حتى انه لم يجد الوقت الكافي لتفتيش البيت بدقة قبل ذلك، فاستطاعت زوجة اشبيدل أن تخفي صورة فوتوغرافية للجنرال بيك، كانت معلقة في مكان مرموق بقاعة الاستقبال، كما انها أفلحت في أخفاء بعض الاوراق الخاصة بزوجها !

وحمل اشبيدل بالسيارة الى اشتغارت ، ومن هنالك بالقطار في حراسة شديدة الى برلين، ثم الى سجن الغستابو في شارع البرنس البرخت !

وفي صباح اليوم التالي اتصل مساعد اشبيدل الشخصي برومل في هرلنغن وابلغه نبـ ذلك الاعتقال المفاجئ ٠ ورغم أن رومل كان لايزال رسمياً في عداد القواد، فلم يبلغ اليه هذا النبأ رسمياً ٠ على انه سارع الى كتابة خطاب احتجاج الى هتلر، وبعث به الى سب ديتريش رئيس فرقة الدفاع ليقدمه لهتلر ! وليس يدري أحد : هل اطلع هتلر على خطاب رومل أم لا، ولكنه على أي حال لم يرد عليه !

فرض الرقابة على بيت رومل

وفي عصر ذلك اليوم اتصل بزوجة رومل في هرلنغن بعض الاصدقاء تليفونياً، وابلغوها بأن شخصين مريبين شوهدا بالقرب من المنزل، يحاولان التسلل اليه، وكلما دنا منهما أحد ابتعدا ٠

وتولى الدنجر مراقبة هذين الشخصين فلاحظ في منتصف الساعة الرابعة مساء أن حدهما يخفي عينيه تحت منظار اسود، وقد كمن في الغابة المجاورة على ربوة تشرف على بيت ٠ كما علم انهما مزودان بجواز مرور بوصفهما مهندسين من روغنسبرغ، ويزعمان بانهما جاءا ى هرلنغن لأعمال حربية ٠

وذكر أحد اصحاب الفنادق الصغيرة لسكرتير رومل أن للرجلين سيارتين تقفان بجوار لفندق !

ولما أن علم شترولن باعتقال اشبيدل، تجشم مخاطرة المجئ من اشتنغارت الى بيت رومل في هرلنغن، فوجد البيت محاصراً بالحراس، ووجد رومل حزيناً مرتاعاً الى حد ما، وهو يشير اليه أن يتحدث همساً، فقد يكون الغستابو وضعوا جهازاً في البيت لتسجيل ما يقال ٠ وكان على مكتب رومل مسدس ٠ وقال له رومل : «انني لا اخشى الانكليز والأمريكيين، وانما اخشى الروس والالمان فقط !»

ثم عرض رومل على شترولن صورة من الرسالة التي بعث بها الى هتلر، وتذاكرا ما يمكن لانقاذ اشبيدل ٠ وكان رومل قد اتصل بعد ذلك بالقيادة العليا للجيش، ولكنه لم يتلق منها رداً بل لم تعن بابلاغه أسباب اعتقال رئيس هيئة اركان حربه !

وتلك هي آخر مرة رأى شترولن فيها رومل على قيد الحياة ٠ فقد حدث بعد ذلك بقليل ان اتصلت زوجة رومل باشترولن، وطلبت اليه إلا يجئ الى البيت لزيارة رومل مرة اخرى، خشية الغستابو !

وبعد ذلك بأيام جاء الى بيت رومل زائر آخر هو صديق قديم له من زعماء حزب النازي في اولم ٠ وفيما هما يشربان الشاي، قال لرومل بعد أن تحقق ان ليس هناك من يخشى منه : «ان رئيس فرقة الدفاع في اولم قد حدثني غير مرة بانك لم تعد تثق في امكان النصر على الحلفاء، كما سمعت منه انك تسرف في انتقاد هتلر، والقيادة الالمانية العليا !»

ولاحظ منفرد بن رومل، ان اباه كان يتحدث مع صديقه الزعيم النازي دون أي تحفظ، وانه صاح في دهشة وسخرية قائلاً له عقب سماعه ذلك الحديث منه : «أي نصر تعنيه ؟ لماذا لا تنظر الى الخريطة ؟ لترى موقفنا الآن وقد أحاط بنا البريطانيون والامريكيون والروس ؟! لا ٠٠ لا ٠٠ ان التحدث عن استطاعتنا النصر بعد هذا كله، ليس اكثر من هذر وهراء !»

ولما تحدث الزعيم النازي عن هتلر صرخ رومل مرة اخرى قائلاً : «اللعنة على ذلك الابله !»

وقد طلب اليه ذلك الزعيم النازي ان يتحفظ في كلامه، ويلزم جانب الحذر وقال له : «يافيلد مارشال يجب الا تقول كلاماً كهذا، فلن يمضي وقت طويل حتى يكون رجال الغستابو وراءك، ان لم يكونوا وراءك الآن !»

وهناك قصة رواها صحفي ايطالي وقال فيها : «ان ذلك الزعيم النازي الذي زار رومل، كتب تقريراً من ثلاثين صفحة، ضمنه كل المحاورات التي دارت بينه وبين رومل، ثم سلمه لبورمان يداً بيد !»

وهذه القصة لا يصدقها آل رومل، وذلك لان ذلك الزعيم النازي، جئ به بعد ذلك من هايدنيهم الى لندن، حيث امضى بضعة اشهر مع منفرد بن رومل في أحد معسكرات الاعتقال الفرنسية، وأكد له انه على يقين من ان اباه قد اغتيل، ثم مات ذلك الرجل أخيراً في معسكرات الاعتقال الامريكية فلم يتسن لاحد استجوابه في هذا الشأن ٠

على انني لا استبعد - مع هذا - ان تكون القصة صادقة ٠ ذلك لان اتقان التظاهر بالمودة والاخلاص، كان في مقدمة الصفات التي عرف بها كبار الجواسيس الالمان !

رومل يدعى الى برلين

وبعد شهر، أصبح رومل قادراً على أن يقود سيارته بنفسه، وان يذهب بها الى تيبنغن للعلاج ٠ وكان عليه ان يواصل ذلك حتى اليوم العاشر من شهر تشرين الاول، ثم يذهب الى برلين لحضور اجتماع ٠ ولكن حدث قبل هذا بثلاثة ايام، أن جاءته رسالة تليفونية من الفيلد مارشال كيتل يستعجله فيها، ويبلغه ان قطاراً خاصاً أعد لنقله في مساء اليوم التاسع من تشرين أول ٠ فاتصل رومل تليفونياً بالبروفسور البرخت ليؤجل علاجه، وذكر له انه دعي الى برلين ٠ ولقد نصح له البرخت كما نصح له الدكتور اشتوك بتجنب القيام بأية رحلة طويلة، فطلب رومل الى الدنجر أن يتصل تليفونياً بكيتل ويبلغه هذا ٠

وتقول زوجة رومل : «كان الذي رد على الدنجر هو الجنرال بورغدورف، وبعد قليل جاء رومل فمضى الى تلك الحجرة وبقي الدنجر معي ٠ وقد طلب زوجي الى الجنرال بورغدورف ان يبلغ كيتل نصيحة الاطباء له بتجنب السفر مراعاة لحالته الصحية ٠ ثم استوضحه جلية الأمر وسأله : هل يمكن ارسال ضابط لمقابلة المارشال كيتل ؟ ٠ فاجابه بورغدورف بان هتلر قد اصدر أمره الى كيتل بانه «يجب مقابلة رومل عاجلاً لمباحثته في شأن منصبه الجديد !»

ولم يكن روميل يتوقع ان يعين في منصب آخر، بعد الذي حدث بينه وبين هتلر · ثم هو على أي حال لم يكن في استطاعته ان يقوم باعباء قيادة جديدة تستغرق بضعة اشهر اخرى !

ولم يشأ روميل ان يذكر لزوجه شيئاً. رغم ان الخوف كان قد ذهب بها كل مذهب بعد مقتل شبيدل · وكان منفرد قد عاد الى بطاريته صباح ذلك اليوم ·

ومضت خمسة أيام دون ان يتلقى روميل كلمة من برلين · وفي الحادي عشر من شهر تشرين اول، جاء اليه الاميرال روغه ليتناول معه طعام العشاء ويقضي ليلته عنده · وقد سهرا الى ما بعد منتصف الليل يتحدثان · وذكر له روميل نبأ الأمر الذي صدر اليه بالذهاب الى برلين، وتخلفه نزولاً على مشورة الاطباء واضاف الى ذلك قوله : «لن اذهب الى برلين : انني أعلم انني لن ابلغ برلين حياً !»

ولقد قال الاميرال روغه فيما بعد : «لقد سخرت من ذلك اول الأمر · ولكن روميل أكد لي انه على يقين من انهم سيقتلونه في الطريق، ثم يزعمون بان موته طبيعي، أو نتيجة حادثة عادية · وبقي هذا الشعور يتملكه بعد ذلك يومين !»

وفي الثالث عشر من شهر تشرين اول جاءت رسالة تليفونية من اشتغارت · وكان روميل والدنجر خارج البيت، فتلقى الرسالة أحد الجنود، فطلب اليه ان يخبر الفيلد مارشال روميل بان الجنرال بورغدورف سيصل الى هرلنغن عند ظهر اليوم التالي، وسيكون برفقته الجنرال ميزل ·

وكان الجنرال بورغدورف معيناً منذ ٢٠ تموز الماضي بالبحث عن الضباط الذين ساهموا في المؤامرة ضد هتلر · ولعل هذا سبب الوجوم الذي اعترى روميل، حين علم بأمر تلك الرسالة التلفونية · وقد لاحظ الدنجر انه عزف عن الحديث الا للضرورة · وحسب أن صمته للتفكير في أمر لغزو، لان مجئ الجنرالين اليه لابد ان يكون للمباحثة والتشاور في هذا الأمر !

وفي صبيحة التالي وصل منفرد في قطار الساعة السادسة في اجازة · فالفى اباه قد صحا من النوم، وتناولا معاً طعام الافطار، ثم خرجا للتنزه مسافة طويلة · وسأله منفرد عن سبب زيارة الجنرالين القادمين، حين انبأه بها فأجابه روميل بقوله : «يقولان انها لمباحثتي في شأن منصب جديد !»

ولاحظ منفرد أن اباه يبدو مهموماً على غير عادته، ولم يفته ان يلاحظ تجلد ابيه وتعمده ان يغطي ذلك، لكي يتحدث معه في شئونه الخاصة، وعن مستقبله · وكان روميل

يريد من ابنه ان يكون طبيباً لا جندياً . ولم يعد روميل وابنه الى البيت الا في الساعة الحادية عشرة صباحاً !

وعند الظهر تماماً حضر الجنرال . بورغدورف وميزل . ومعهما المقدم ايرنجر، وكانوا يركبون عربة خضراء يقودها سائق يرتدي الزي الاسود الخاص بفرقة الدفاع «S.S» .

واحسن روميل استقبال ضيفيه، وقدم لهما زوجته وابنه والنقيب الدنجر وبعد لحظة اعرب الجنرال بورغدورف عن رغبته وزميله في حديث خاص مع روميل، فنهض هذا واقتاد الجنرال بوغدورف وتبعهما ميزل الى حجرة في الطابق الاسفل من البيت . وصعدت زوجته الى حجرتها .

وقبل ان يغادر روميل الحجرة مال الى النقيب الدنجر وقال له :«هيء الاوراق ومجموعة الأوامر والتقارير، التي كتبت عن الموقف ابان القتال في نورمانديا» .

وكن روميل يظن ان الجنرالين جاءا ليستجوباه في شأن الغزو . وكانت الاوراق التي كتبها الدنجر مهيأة تماماً، وقد ظل الدنجر يتحدث خارج البيت مع المقدم ايرنجر، في حين ذهب منفرد لتلوين بعض الخرائط التي طلبها ابوه .

وبعد حوالي ساعة غادر الجنرال ميزل حجرة الاجتماع، ثم تبعه بعد دقيقة أو دقيقتين الجنرال بورغدورف .
وصعد روميل الى زوجه في حجرتها !

الفصل الثاني والثلاثون

يتجرع السم بدلاً من المحاكمة

الوداع الأخير - في السيارة - اخت روميل

لم تكن زوجة روميل تتوقع ان ينتهي عاجلاً اجتماعه بالجنرالين الزائرين، رسولي القيادة الألمانية اليه . وقد قالت لي : «لقد تملكتني نوبة من الدهشة والجزع، حين فوجئت بصعوده الي في الطابق الأعلى بعد قليل . وزاد في فزعي ان وجهه كانت تعلوه سحابة رهيبة مريبة من القلق والكآبة . فصرخت : ماذا حدث، وما الذي اعتراك ؟ هل أنت مريض ؟ ونظر هو الي متجلداً وقال في هدوء : «لا فائدة من الجزع، لقد جئت لاودعك . ولن يمضي ربع ساعة حتى اكون قد فارقت الحياة !»

ومضت زوجة روميل تقص علي حديثه معها في تلك اللحظة الرهيبة، فقالت : «ومضى زوجي في حديثه فقال : انهم يرتابون في أمري، ويرون اني اشتركت في محاولة اغتيال هتلر، ويبدو أن قائمة غوردلر تضمنت اسمي، بوصفي الرئيس المنتظر للرايخ . على اني لم أر غوردلر هذا في حياتي كلها ! ثم هم يقولون، جرياً على عادتهم المألوفة : ان فون اشتيلبناغل، والجنرال اشبيدل، والكولونل فون هوفاكر، قد اعترفوا بأني كنت شريكهم في المؤامرة . وقد ذكرت لهم انني لا اصدق ذلك، كما أن شيئاً من هذا ليس صحيحاً» .

وحينما انبأها روميل بأنهم خيروه بين أن يقدم للمحاكمة أمام محكمة الشعب، وبين أن يتجرع سماً، جاءوا به معهم مؤكدين ان نتيجته تظهر بعد ثلاث ثوان !، راحت تتوسل اليه وترجو منه أن يقبل المحاكمة أمام محكمة الشعب، فهذه المحكمة لابد ان تقتنع ببراءته .

وهنا صرخ رومل قائلاً لها : «انني لا اخشى ان احاكم أمام الناس جميعاً، وذلك لأنني سأدافع عن كل شئ قمت به، ولكنني اعلم انني لن ابلغ برلين حياً !»

الوداع الأخير

وعندما كان رومل يغادر الحجرة جاء «منفرد» ابنه مبتهجاً يكاد يطير من الفرح. ليعرف المنصب الجديد الذي عين فيه ابوه !· وكان الجنرالان ينتظران رومل · فودع ابنه أيضاً على عجل، ثم دخل حجرة اخرى مجاورة، وتبعه ابنه اليها · وهناك طلب رومل من الجندي المخصص لخدمته أن يدعو اليه الدنجر، فلما جاء هذا، وعلم بما حدث، وجم ووقف جامداً صامتاً · والتزم رومل الصمت ايضاً ·

ولم يكن ثمة ما تخلل ذلك الصمت سوى أنين زوجة رومل، ينبعث من حجرتها · ولم يكن منفرد، والدنجر بأقل جزعاً منها وشعوراً بهول المصاب، ولكن الدنجر، ذلك الصفي الوفي الامين، لم يكن على استعداد لأن يتلقى هذه الفجيعة باكياً مولولا !

وكان الدنجر حاضراً حينما كانت أرملة رومل تروي قصة تلك الساعات الاخيرة الخطيرة في حياة زوجها، فصعد زفرة حارة طويلة، ثم قال : «طالما قلت له : يجب ان تحاول النجاة بحياتك على الاقل، وطالما سألته : لماذا لا نأخذ طريقنا معاً هرباً الى خارج المانيا ؟ وذكرته بالمآزق الحرجة التي وقعنا فيها من قبل ثم افلتنا منها · ولكنه كان يقول لي لا فائدة من ذلك يا صديقي، ان الشوارع والمنافذ جميعاً قد غصت بسيارات رجال فرقة الدفاع والغستابو · وليس في استطاعتنا أن نغادر البيت دون أن نكون مراقبين · كما انهم وضعوا تليفوني تحت المراقبة، فلا سبيل الى الاتصال بمقر قيادتي فضلاً عن العودة الى الميدان !»

وذكر الدنجر انه اشار على رومل، بقتل كل من بورغدورف وميزل · فرفض ذلك وقال : «لا · انهما ينفذان أوامر صدرت اليهما · ثم لا تنس انها وعداني، اذا قبلت تجرع السم، ألا يصيب زوجتي وولدي أي مكروه، وأن يصرف لهما معاش، فضلاً عن تشييع جنازتي رسمياً، ودفني في هرلنغن · اما اذا اخترت المحاكمة امام محكمة الشعب، فأنت تعرف طبعاً ما سيحدث في هذه الحالة !»

وأخيراً، صعد الدنجر زفرة حارة اخرى، وشرد بذهنه قليلاً، ثم استأنف حديثه فقال : «كان رومل اذا اقتنع بشئ فلا سبيل الى اقناعه بالعدول عنه او مناقشته فيه · وقد انهى حديثي معه ساعتئذ بقوله وهو يتحفز للقاء الجنرالين المنتظرين : لقد حدثت زوجتي بما استقر عليه

ولن أسمح لنفسي قط بأن يشنقني ذلك الرجل - يعني هتلر - اني لم ادبر أية خطة لاغتياله، وإنما حاولت ان انقذ وطني، كما فعلت طول حياتي . والآن، وبعد نصف ساعة على الأكثر، ستأتي رسالة تليفونية من مدينة أولم تقول بأن حادثاً وقع لي واني مت لساعتي !»

ويرى بعض المتآمرين الاحياء ان رومل كان يجب عليه ان يصر على أن يقدم الى محكمة الشعب، وبذلك كانت تتاح له فرصة يضرب فيها ضربته القاصمة لصالح المانيا، فيهتك ستر هتلر ويفضح خططه، كما ان ظهور رومل في قفص الاتهام كان من شأنه أن يزعزع الايمان بالنظام النازي .

ولو ان رومل كان على استعداد لأن يضحي بزوجته وولده، أو لو انه كان في صحة جيدة .. او .. لو انه كان يعتقد امكان وصوله حياً الى برلين، إذن لسلك مسلكاً آخر غير هذا الذي طال حوله الجدل والنقاش، واختلفت فيه الآراء .

وعلى أية حال . يجب ألا ننسى ان رومل كان عليه ان يختار في خلال ساعة واحدة !

في السيارة ...

ولما حزم رومل امره، هبط الدرج وبرفقته الدنجر ومنفرد . وكان الجنرالان يتمشيان في حديقة البيت . ثم تقدموا جميعاً نحو السيارة، فركب رومل أولاً وجلس في المقعد الخلفي ، ثم تبعه بورغدورف وميزل . وقد تركوا المقدم ايرنبرجر ليقوم بالترتيبات الاخرى . وانطلقت السيارة تعدو الى خارج هرلنغن .

وبعد خمس وعشرين دقيقة، دق جرس التليفون في بيت رومل، فخف اليه الدنجر، فاذا بالمتحدث هو المقدم ايرنبرجر، من بلدة اولم، قال للدنجر : «ان حادثاً جللاً قد وقع ! فالفيلد مارشال رومل حدث له نزيف دموي في السيارة . وقد فارق الحياة» .

ولما لم يجب الدنجر بكلمة صاح ايرنبرجر به سائلاً : «هل تسمع ما أقول ؟» فأجابه الدنجر : «نعم، لقد سمعت !»

فقال ايرنبرجر . «ارجو أن تبلغ ارملة رومل انني قادم فوراً الى البيت»

وصعد الدنجر الدرج ببطء يحمل نفسه حملاً، واتجه الى ارملة رومل . ولم يكن في حاجة الى ان يقول شيئاً، فقد كانت تعلم سلفاً بكل شئ !

وبعد نصف ساعة، سمع صوت سيارة أمام الباب ٠ وتوجه الدنجر الى الباب ٠ فاذا بالقادم ايرنبرجر، يطلب مقابلة ارملة رومل ٠
وقال له الدنجر : «انها لا تستطيع مقابلة أحد الآن !»

ولم يصر ايرنبرجر على مقابلتها، ثم انطلق هو والدنجر بالسيارة الى مستشفى اولم، فبلغاه دون ان ينبس أحد منهما بكلمة خلال الطريق، وهناك اقتيد الدنجر الى حجرة صغيرة، وضع بها جثمان رومل !

وقد ذكر لي الدنجر انه لم يتمالك نفسه في تلك اللحظة، فالتفت الى الاطباء ورجال الغستابو، وقال لهم : «كنت أحب ان أكون وحدي مع جثمان رومل ؟»

وكانت الدموع تتساقط على خدي الدنجر، وهو يروي لي تلك القصة ٠ ذلك ان رومل كان صديقه ثلاثين عاماً، كما كان رومل مثله الاعلى في البطولة ٠ ولا شك ان من الصعب ان نتصور ان ذلك الانسان الرقيق، الذي خلق ليعمل في أحد الدواوين الحكومية، قد اشترك في كثير من المعارك الهائلة ابان حربين عظميتين ٠

وقد كانت زوجته الجميلة تبكي ايضاً، وهي جالسة تخيط بعض الملابس ٠ ان أحداً ممن عرفوا رومل، لا يستطيع ان ينساه !

وفي اثناء غيبة الدنجر، جاء العقيد كوتسماني، قائد القوات الالمانية في اولم، الى بيت رومل في هرلنغن وكان بالغ التأثر، وهو يعزي ارملة رومل، رغم انه لم يكن يجهل حقيقة ما حدث ٠ وقد ذكر لها انه بعد ان نقل رومل الى المستشفى بلحظات، جاء اليه في مقر قيادته الجنرالان بورغدورف، واخبراه بان الفيلد مارشال رومل قد مات، ثم امره بان يتولى اتخاذ الاجراءات الخاصة بجنازته الرسمية ٠

وفي المساء، جاء الدنجر، واصطحب زوجة رومل، ومنفرد الى المستشفى ٠ وقد اخبرهم كبير الاطباء هناك ان الجنرالين قد اتيا برومل ميتاً، وذلك في الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة والعشرين بعد الظهر، وذكر لهم أيضاً انه بناء على أمر الجنرالين قد اعطاه حقنة منبهة للقلب، ثم اضاف الطبيب الى ذلك قوله : «ولكن دون جدوى !»

واحس الدنجر رغبة جامحة في ان يقول شيئاً ولكنه اعتصم بالصمت ٠ واستطرد كبير الاطباء فقال : «ان الأوامر قد صدرت اليه من السلطات العليا باجراء تشريح للجثة بعد الوفاة» ثم اقتادهم جميعاً الى الحجرة التي بها جثمان رومل ٠

وقد قالت لي ارملة رومل «حينما رأيت زوجي، الفيت على وجهه امتعاضاً وكراهية لامة العمق لم اشهدهما قط في حياته !» · ولعل هذا الامتعاض وتلك الكراهية ما تزال باقية منة الوضوح على قناع رومل حتى الآن ·

اخت رومل

وفي مساء اليوم التالي، الخامس عشر من ذلك الشهر، خرج أهل رومل، لاستقبال اخته التي استقدمت من اشتتغارت · وكان الاوامر قد صدرت الى الدنجر بان يذهب الى مقر القيادة العسكرية في اولم، ليقدم تقريراً. فالتقى بهم في الطريق · وتقول ارملة رومل : «كنا وقوفاً خارج المحطة ننتظر اخت زوجي. وفجأة ظهر الجنرال ميزل، واقترب من سيارتي، ثم راح يعرب لي عن اسفه على فجيعتي في زوجي، فاشحت بوجهي عنه دون ان اتحدث اليه، وتظاهرت بانني لا ارى يده التي امتدت الي !» وذكر الدنجر : «ان الجنرال ميزل سأله عن مكان ارملة رومل، كما سأله : كيف كان وقع المصاب على نفسها · فأجابه بقوله : «انها في السيارة خارج المحطة» ·

وحينما رأت اخت رومل جثمانه، لاحظت هي الاخرى امارات السخط والامتعاض المرتسمة على وجهه تماماً، كما لاحظت ذلك زوجته من قبل · ولكن أحداً لم يقل لهم حتى تلك الآونة، كيف مات رومل أو كيف قتل ؟!

وحمل جثمان رومل الى البيت ، حيث وضع في الحجرة نفسها، التي اجتمع فيها مع الجنرالين : بورغدورف، وميزل، ولف بعلم رسم عليه الصليب المعقوف، ولكن ابقي وجهه بلا غطاء ·

وصدرت الأوامر ايضاً بان يكون الجثمان في حراسة ضابطين، فوقفا الى جواره، وقد نكس كل منهما سيفه !

وعاد الجنرالان الى برلين · وبعد ان غادرا البيت، تبين الدنجر ان قبعة رومل، وعصا المارشالية، واوراقه الخاصة، قد فقدت كلها من البيت، فاتصل تليفونياً بالجنرال بورغدورف وطلب اليه ان يعيدها اليه، وقد اعاد اليه القبعة والعصا · أما الاوراق، ولا سيما مسودة الرسالة التي بعث بها رومل الى هتلر في الخامس عشر من شهر حزيران السابق، وكانت في جيب صدريته، فلم ترد اليه !

وقد قتل بورغدورف في آخر أيام القتال في برلين، اما الجنرال ميزل فهو ما يزال على قيد الحياة في المنطقة الامريكية بالمانيا ·

ولقد ذكر ميزل في احدى محاكم استئصال النازية في فرانكفورت منذ سنتين، ان السيارة التي اصطحبا فيها روميل، اوقفت في الطريق على بعد مئات من الياردات من بيت روميل. وان الجنرال بورغدورف امره هو والسائق ان ينزلا من السيارة لانه يريد ان يخلو بروميل : وبعد حوالي خمس دقائق لاحظنا ان الجنرال بورغدورف غادر السيارة أيضاً. وظل حوالي خمس دقائق اخرى يذرع الطريق، ثم اشار اليهما ان يعودا. فلما اقتربا من السيارة كان الفيلد مارشال روميل قد فارق الحياة !»

ويقول السائق : ان روميل كان يتلوى ويتوجع، وان قبعته كانت ملقاة تحت قدميه في السيارة، فرفعها ووضعها على رأسه، بعد ان اصلح من جلسته !

الفصل الثالث والثلاثون

تعازي الزعماء والشعب لاسرة رومل

هتلر يتهم كيتل ويودل بقتل رومل - يشيعون جنازة قتيلهم

وفي محكمة فرانكفورت، ذكر الجنرال ميزل ايضاً انه «لم يشأ ان يعتقد ان لرومل، وهو الاثير لدى هتلر، ادنى صلة بمحاولة اغتياله» ·

ولكن ميزل في التقرير الذي كتبه عن سلوك رومل، ويقع في صفحتين وقد اطلع عليه بورغدورف في حينه، كتب يقول : «انني انتهيت اخيراً الى الاعتقاد بان كل الاتهامات التي وجهت الى رومل صحيحة تماماً ·»

ومما يذكر أن أرملة رومل، حينما دعيت الى تلك المحكمة لسماع اقوالها، رفضت لأنها لا تريد أن ترى ميزل مرة اخرى، ولو كان في قفص الاتهام !

وقد اجل النظر في قضية ميزل، وانتهى الأمر بحفظها لعدم توافر ادلة الاتهام ·

وفي صيف ١٩٤٩ قدم الجنرال ميزل الى المحاكمة ثانية بموجب قانون استئصال شأفة النازية فحكم عليه بالسجن سنتين، ولما كان قد امضى تلك المدة في التوقيف فقد اطلق سراحه بعد حين من صدور الحكم ضده ·

ولقد وصف لي بعض الالمان الجنرال بورغدورف بأنه سكير سفاح ما كان ينبغي له أن يكون قائداً !»

ووصف لي بعضهم الجنرال ميزل بقولهم : «في أي عمل أو مشروع قذر دنئ، فتش في أعمق اعماقه، تجد الجنرال ميزل هناك بكل تأكيد !»

وصرح لي الجنرال يوهان كرامر - أحد قواد الفيلق الافريقي - بأن اقصى امانيه أن يضع يديه على الجنرال ميزل !

وما كاد يذاع نبأ وفاة رومل، حتى أخذت سيول البرقيات والرسائل تتوالى على أرملته مشاركة لها في مصابها الجلل · وقد بعث اليها هتلر في السابع عشر من شهر تشرين الأول ببرقية قال فيها :

«ارجو أن تتفضلي بقبول اعمق أسفي، على فقد زوجك، ولا شك في أن اسم رومل سيرتبط دائماً بمعارك البطولة التي دارت في شمال أفريقيا !»

ويلاحظ أن هتلر في برقيته هذه أغفل ذكر أعمال رومل في نورماندیا، ولم يشر بشئ الى الجروح التي اصيب بها هناك !

وأعرب الدكتور غوبلز في برقيته الى أرملة رومل عن شدة اسفه هو وزوجته !

وذكر يواكيم فون ربينتروب، انه تأثر أشد التأثير حين سمع أن رومل قد مات «متأثراً بتلك الجروح البالغة التي اصيب بها أبان حربه في فرنسا !»

ثم أكد لأرملة رومل ان انتصارات رومل سيخلدها تاريخ تلك المرحلة العظيمة !

وحتى كسيلرنغ - اعدى أعداء رومل في حياته - كتب بعد وفاة رومل يقول : (في كثير من الاوقات لم اكن استطيع التفاهم والاتفاق مع رومل، كما انه لم يكن يفهمني · على انني قد سررت بحق حين اسندت اليه قيادة لها شأنها في الجبهة الغربية، وذلك لأيماني بالاهمية الكبرى لخبرته الطويلة التي اكتسبها من قتاله ضد البريطانيين والأمريكيين · فضلاً عن ايماني بأن نشاطه الجم، وشخصيته الملهمة، وحاسته السادسة، وما اليها من مزاياه، كفيلة بأن تمكنه من الحيلولة دون وقوع الكثير من الامور التي نخشاها ·

كما كتب الجنرال غمبارا - أحد القواد الايطاليين الممتازين - يقول : (سيعيش رومل دائماً، حياً في قلوب الذين كانت لهم - مثلي - شرف رؤيته · وسيظلون دائماً رابطي الجأش، لا يهابون شيئاً تحت وابل النيران ·)

واصدر الفيلد مارشال مودل، الذي خلف فون كلوغه في منصب القائد الأعلى للقوات الالمانية في الغرب، أمراً يومياً اشار فيه الى وفاة رومل، وقال : (ان رومل لمن أعظم القادة

للالمان، وانه - الى قدرته على الحسم الخاطف للامور - لجندي من أشجع الجنود، جرئ جرأة لا مثيل لها . ولقد كان رومل دائماً في خطوط القتال الاولى، يلهم جنوده القيام بأعمال جديدة، من اعمال البطولة التي تضرب بها اروع الأمثال !)

هملر يتهم ...

وكانت تعزية هملر لأرملة رومل، غريبة حقاً في بابها، ذلك انه بعد وفاة رومل بثلاثة أيام، أرسل اليها مساعده الخاص، ليبلغها - نيابة عنه - انه يعرف القصة كلها، وانه روع بما حدث، ولا دخل له فيما اصاب رومل !

وتقول أرملة رومل : (ان مساعد هملر، ذكر لها من عنده، بعد أن أدى رسالته، ان هتلر برئ كل البراءة من دم رومل، وان ما حدث كان كله بتدبير كيتل وبودل !)

وقد عاد مساعد هملر، فكتب من جبهة القتال، قبل أن يقتل هو الآخر، رسالة غريبة قال فيها : (ان نهاية رومل كانت «لهدف اسمى»، وان هتلر وهملر لا دخل لهما في تلك النهاية الأليمة .)

على أن مثل هذا الدفاع عن هتلر وهملر، لا يستغرب من امثال مساعد هملر هذا، فقد كان من المؤمنين بهما كل الايمان .

واذا صح ألا دخل لهملر في مصرع رومل، فهو نفسه قد اعترف بأنه يعرف القصة كلها، ولا شك في انه كان يعرف أيضاً ان كيتل وبودل لا يستطيعان أن يجرؤا على قتل رومل، دون أمر من زعيمها هتلر . وليس يصح في الاذهان أن يحدث اغتيال قائد ذي شخصية كبيرة مثل رومل، دون أن يستشار في ذلك مستشار الرايخ الاكبر !

والواقع أن المسئولية الاولى في مصرع رومل، لم يوجد ما يحددها تماماً في المانيا النازية كلها، نظراً الى أن الأوامر التي كانت تصدر عادة شفوية، لم تكن تسجل على الورق . وايا ما كان الأمر، فان اسرة رومل واصدقاءه، لا يرتابون فيمن اصدر أمره باغتياله !

ومما يذكر أن كيتل وبودل لم يبعثا بأية تعزية الى ارملة رومل، كما ان سكرتير هتلر الخاص كان قد اقيل من منصبه بعد أيام، من ارساله اليها برقية هتلر، لأنه لم يختمها بعبارة (هايل هتلر) التقليدية !

يشيعون جنازة قتيلهم !

وفي اليوم الثامن عشر من شهر تشرين، شيعت جنازة روميل · وكان النازيون فيها كلصوص شيكاغو، الذين يمشون في جنازات ضحاياهم في خشوع · والواقع أن النازيين خير من يتقنون تنظيم المواكب والحفلات، للخداع والتضليل !

وقد أصدر هتلر أمره باعلان الحداد التام على روميل، عسكرياً ومدنياً، فكان على جميع الجنود في المنطقة المجاورة ان يشتركوا في الجنازة · وقد حمل نعشه من البيت الى كنيسة «اولم» ملفوفاً بعلم كبير يعلوه الصليب المعقوف، وكان الحراس كلهم يلبسون الخوذ الحديدية، وفي ايديهم قفازات بيضاء · وهناك في احدى القاعات الكبيرة التي كانت مخصصة للحفلات، وضع جثمان روميل وقد جللت اعمدة القاعة كلها بالاعلام والشارات وباقات الغار · وعلى النعش وضعت عصا المارشالية الخاصة بروميل وخوذته الحديدية وسيفه · كما وضعت الاوسمة اللماعة التي احرزها في الحربين العالميتين على وسادة من المخمل · وكان هناك اربعة من الضباط يحرسون النعش، وكلهم يحملون شارة الفيلق الافريقي · وظلوا كذلك حتى حان موعد الصلاة، فحل محلهم اربعة من قواد الجيش الالماني ·

اما واجهة البناء، فكانت تجللها الاعلام · وهناك في الميدان كانت سريتان من المشاة تقومان بعرض عسكري، كما كانت هناك سرية من سلاح الطيران، واخرى من فرقة الدفاع · وجوقة كاملة من موسيقى الجيش ·

وعلى مداخل الميدان، وقف بضعة آلاف من عامة الشعب، بينهم كثير من الفتيان والفتيات، ممن كان روميل مثلهم الاعلى في البطولة ·

ودخل خلف النعش اولاً : كبار الضباط من جميع اسلحة الجيش، ثم مندوبو حزب النازي، فكبار موظفي الرايخ، فحلفاء المانيا ·

كلمة هتلر في تأبين روميل

وأخيراً، جاء الفيلد مارشال فون رونشتدت ـ أكبر ضباط الجيش الالماني ـ ودخل مع اسرة روميل، فعزفت الموسيقى المارش الجنائزي، ثم القى فون رونشتدت كلمة باسم هتلر، القائد الاعلى للجيش، وقدم لها بقوله : (لقد دعانا قائدنا الاعلى الى هذا المكان لنودع الفيلد مارشال روميل، قائده الذي سقط في ميدان الشرف) ·

وقد لوحظ ان وجه فون رونشتدت بدت عليه علائم الشيخوخة، حين بلغ في الكلمة التأبينية وصف الصبر والجلد اللذين تلقى بها رومل ما اصيب به من الجروح على أيدي الأعداء أثناء القتال في نورمانديا • ثم مضى فقال : (ان المصير القاسي قد اختطف منا رومل، في اللحظة التي حمي فيها وطيس القتال، وكاد يتأزم) • ثم أخذ يعدد بعد ذلك اعمال رومل في كلا الحربين، وأفاض في الحديث عن المعارك التي خاض غمارها في افريقيا، منوهاً بالتقدير الذي يكنه له حتى اعداؤه •

ومرفون رونشتدت مرور العابر باعمال رومل في نورمانديا قائلاً : (لقد عمل رومل دون كلل لاعداد خطة ضد الغزو • وعندما بدأت المعركة، اشترك في القتال دون ان يقيم ادنى وزن لما قد يحل به من الاخطار) •

ولقد توازنت عناصر العزاء والرياء في العبارة التي اختتم بها فون رونشتدت كلمته فقال يصف اخلاص رومل لهتلر والنازي : (هذا المحارب الذي لم يكن يشعر بالتعب في سبيل هتلر والرايخ، لانه اشرب روح الاشتراكية الوطنية، هذه الروح هي التي اعطته القوة التي يعتز بها، كما كانت هي الينبوع الاساسي لكل ما قام به من اعمال • ان قلب رومل ملك لزعيمه هتلر !)

ثم وضع بين يدي نعش رومل اكليلاً من الزهر، قائلاً : (بأسم ادولف هتلر !) • وفي أثناء ذلك كانت الموسيقى تعزف النشيد الالماني المعروف (كان لي زميل !)

ومن تلك القاعة، نقل نعش رومل على عربة مدفع، تجرها احدى جرارات المشاة، ويتقدمها اكليل الزهر الذي بعث به هتلر، ووسادة من المخمل عليها اوسمة رومل •

وانتهى المطاف بالنعش أخيراً، الى المكان الذي تقرر ان تحرق جثة رومل فيه، ليذهب سر مصرعه، كرماد جثمانه ، مع الريح !

وقد جاء الاميرال روغه في قطار خاص من برلين، لينوب عن البحرية الالمانية في الاحتفال بتشييع جنازة رومل •

ولم يكن روغه يعلم شيئاً عن حقيقة الحال • على ان الشك بدأ يساوره • حينما لاحظ اضطراب رونشتدت • وسمع ما قاله عن اخلاص رومل لهتلر والنازية • ثم ازداد شكا في الأمر حين تخلف رونشتدت عن حضور حرق جثة رومل !

وكان بين اللائي اشتركن في جنازة رومل : زوجة شبيدل، وزوجة شترولن، وزوجة فون نويرات • ولا شك في ان اشتراكهن في الجنازة كان ضرباً من الشجاعة والجرأة نادر المثال

فزوجة شبيدل ـ مثلا ـ لم تكن تتوقع ان تراه حياً بعد اعتقاله والزج به في سجن الغستابو شارع البرخت، فقلما خرج من ذلك السجن أحد حياً ممن دخلوه !

ولقد فطن شترولن الى جلية الأمر، منذ اتصلت به ارملة روميل ونعته اليه !

ولم يكن ثمة ريب في ان مئات من رجال الغستابو، كانوا منبثين خلف الجنازة، يحسبهم الرائي في ثيابهم المدنية، من الفتيان الذين بث روميل فيهم روح الفتوة ودماثة الاخلاق !

ولم يكن عجباً ان تمعن زوجة شبيدل في حذرها، فلم ترد تحية شترولن !

على ان الاعتقال في مثل تلك الحالة كان يبدو غير متوقع، ولا سيما أن الذين كتبوا فصول هذه المأساة حرصوا على أن يخرجوا الفصل الأخير منها، اخراجاً فنياً يجمع بين الوقار والاسى ٠ فكان الجو الذي ساد الجنازة منبئاً في وضوح ان الجميع يكنون للفيلد مارشال الراحل وذكراه، اعمق التقدير والاجلال !

وفي اليوم التالي نقل رماد جثة روميل الى بيته في هرلنغن ٠

وتقع هرلنغن في واد تحف به الغابات ذوات الادواح ٠ وهي قرية جميلة، ابنيتها بيضاء، وسقوفها حمراء، ويشقها جدول صفا ماؤه، وطاب هواؤه ٠

وفي الربيع، تبدو تلك القرية في أبهى حلاها، اذ تمتلئ حدائقها بالزهور ٠ فاذا كان الوقت خريفاً، كما هو الشأن في ذلك الحين، فان اوراق الشجر تستحيل الى ما يشبه الذهب !

وهناك، في ناحية من القرية، كانت تقبع مقبرتها البسيطة المحاطة بالاشجار والازهار، تعلوها صلبان خشبية كتلك التي نشاهدها في مقابر الجنود، وعلى هذه الصلبان نقشت اسماء ابناء القرية الذين ماتوا في افريقيا، وكاسينو وريغا وبلغورد وغيرها !

اما الكنيسة التي تقرر ان يدفن فيها روميل، فيحيط بها سور شاهق ابيض، تبدو في ادناه زهور نابتة بيضاء ٠ وقد خصص جانب من هذا الحائط ليكون مثوى روميل الأخير، في تلك البقعة الهادئة بين الآل والاصدقاء !

الفصل الرابع والثلاثون

يحاولون اغتيال منفرد أيضاً !

شبيدل ينجو من الاعتقال - هتلر يضع تمثالاً

ليس امرأ هيناً ان تسأل سيدة عن شعورها، وهي واقفة امام قبر زوجها الذي اغتيل ٠ ولكني كنت اعرف أن الامر مختلف جداً فيا يختص بأرملة رومل فسألتها : (الم تحدثك نفسك بان تفضحي امر اولئك المجرمين الذين اختطفوا زوجك العظيم ؟)

فقالت : لقد جاهدت نفسي كثيراً حتى افعل ذلك ٠ وحينما كان فون رونشتدت يؤبن زوجي في القاعة الكبرى كانت نفسي تشتعل ثورة، وكدت اصرخ فيهم قائلة : (كفى ٠٠ انكم تكذبون) ولكن ما جدوى هذا كله ؟! لقد كان سهلاً على الغستابو ان يحولوا بين كل كلمة اقولها وبين الاسماع، من حيث لا يشعر احد غيرهم ٠ وكانوا بعد ذلك قادرين على ان ينالوا من زوجي امام الرأي العام، وعلى اي حال كان زوجي قد مات، وكان علي ان افكر في منفرد ابننا ٠

وسكتت أرملة رومل قليلاً، ثم استطردت تقول : قد يكون الأمر فيا يختص بي أنا، ليس ذا شأن في اعتقادي ٠ ولكن ينبغي أن تعلم ماذا صنعت السلطات الالمانية بأقرباء رومل الآخرين، الذين اعدموا بعد يوم ٢٥ تموز، وينبغي ان تعلم ان منفرد كان على وشك ان يغتال هو الآخر ٠ ان القوم على شئ كثير من المكر والدهاء ٠ ثم لا تنسى أن زوجي نفسه قد تفاهم معي على ما ينبغي عمله، ولهذا كله لن اهاجم احداً، ولن اتحدث عن تلك المؤامرة الدنيئة، وما كان لي ان ابدل او اغير فيا قاله زوجي او اعتزمه،
وهكذا مضى كل شئ وفقاً لخطة موضوعة !

على ان احداً لا يدري ـ على التحقيق ـ لم كان تلعثم فون رونشتدت وهو يلقي كلمته باسم هتلر في تأبين رومل، ولماذا لم يحاول فون رونشتدت أن يتحدث الى أرملة رومل ؟ ثم لماذا كانت نظراته الشاردة الغريبة، حين مر به كل من شترولن وفون نويرات ؟!

ويقول شترولن : (ان فون رونشتدت لم يعلم الا أخيراً بالخطة التي وضعت للتخلص من رومل، ومن المرجح انه قام مكرهاً بذلك الدور الذي فرضوا عليه تمثيله، ذلك لأن فون رونشتدت جندي حق وجنتلمان أيضاً، ولم يعرف عنه حاد عما كان يكنه لهتلر ولحزب النازي، من كراهية واحتقار !)

ويمكن القول بأن الارتياب في حقيقة مصير رومل لم يكن عاماً، بل كان مقصوراً على الخاصة العالمين ببواطن الامور . أما من عداهم من الالمان خارج نطاق القيادة العليا، والدوائر الداخلية لحزب النازي، فكانوا يعتقدون ان رومل مات متأثراً بالجروح التي اصيب بها في الميدان، ومن هنا يبكوه مخلصين، ولم يشغلهم عن التحدث بمآثره ومزاياه، ما كانوا فيه يومئذ من كرب عظيم انزلته بهم قذائف الطائرات والمدافع المعادية .

وقد قال لي النقيب هارتمان من مدينة هايدنهيم: لم تكن لدي أية شكوك في أول الأمر، ولكن حدث بعد ان شيعت الجنازة ببضعة أيام، ان لفت نظري أحد الأصدقاء الى ما اكتنف نهاية رومل من الغرابة والغموض . على اني لم اقتنع في ذلك الحين بان هناك ما يريب . ذلك لأنني رأيت رومل بعد موته، وكان وجهه هادئاً تماماً . ولم تكن هناك اية علامة تدل على انه مات مقتولاً بالرصاص او بغير الرصاص . كما اني كنت قد امضيت معه يوماً كاملاً في هرلنغن، قبل وفاته بثلاثة أسابيع .وكان يومئذ قد ابل من مرضه، وبدا في حالة تمكنه من معاودة نشاطه في الميدان . وقد تحدث معي عن الحرب العظمى الاولى، وكانت ذاكرته تبدو على اتم قوتها فهو يذكر الأسماء، ويحدد تاريخ الحوادث والوقائع بكل دقة . وادركت من خلال حديثه انه يتوقع أن يعين في منصب جديد، لأن هذا لا يوافق هوى غورنغ والقيادة الالمانية العليا . كما صرح بأن المانيا قد خسرت الحرب، ولم اسمع منه شئ يدل على انه يخشى على حياته او سلامته .

ولم يدرك هارتمان حقيقة الأمر الا من أرملة رومل وذلك في نيسان سنة ١٩٤٥

جندي أعرج في الميدان

وفي اثناء ذلك كانت اسرة رومل قد استأنفت حياتها العادية في ذلك البيت المنعزل على

سفح التل في هرلنغن · ولم يطرأ خلال ذلك أي شئ غير عادي، أللهم إلا ما حدث بعد أيام من الاحتفال بجنازة رومل، إذ تلقت أرملته أمراً من القيادة الالمانية العليا، بارسال الجندي الذي كان معيناً لخدمة رومل في البيت الى الميدان ·

وكان هذا الجندي أعرج غير صالح للخدمة العسكرية، اذ أطاحت باحدى قدميه شظية، كما أن شظية اخرى جرحت صدره جرحاً بليغاً · وكان هو الذي تلقى الرسالة التليفونية في يوم ١٣ تشرين اول، بانتظار قدوم الجنرالين بورغدورف وميزل لزيارة رومل !

ولم يجد احتجاج أرملة رومل، بأن ذلك الجندي لا يكاد يستطيع السير، فارسل الى الميدان بالقرب من براغ · وكان لأرملة رومل صديق ذو نفوذ في هيئة اركان حرب الجيش الذي يحارب في جبهة براغ، فتمكنت بوساطته من اعادة ذلك الجندي الى بيتها، ولكن القيادة الالمانية العليا ما لبثت أن دعته مرة اخرى الى الميدان، وبعد أيام من ذهابه علمت بأنه قتل هناك ·

وقد علقت أرملة رومل على ذلك الحادث قائلة في أسف خفي مرير : (لست أفهم تماماً معنى اصرار القيادة العليا على ارسال جندي أعرج مريض برتبة نفر الى الميدان · فقد يكون هذا للحاجة الماسة الى الجنود، وقد يكون لأن أرملة مثلي لفيلد مارشال مات، لم يعد لها حق في ان يخدمها أحد الجنود !)

تخاف على ابنها ويخاف عليها

وفيما عدا هذا لم يكن يضايق أرملة رومل أي شئ، حتى فطنت الى أن هناك رجلين من جنود فرقة الدفاع، يحومان حول بيتها متنكرين وقد بلغت بهما الجراة يوماً الى دخول حديقة البيت !

وهي تقول في ذلك : (لقد كان هذان الرجلان، يوليان الادبار كلما رأياني، ولم أتحقق ان لهما اي قصد سئ · وايا ما كان الأمر فانني لم افقد اعصابي رغم توقعي ان دوري لابد أن يجئ آخر الأمر، حينما يفرغ القوم من اغتيال كل من يعلمون بوقوفه على حقيقة نهاية زوجي · والحق اني لم أكن لاعبأ بأي خطر يتهددني، ولكني كنت دائمة القلق على منفرد ولدي، فلم يكن ثمة ايسر من أن تحمل الي الانباء نعيه ذات صباح أو مساء، مع الاشارة التقليدية الى سقوطه صريعاً في ميدان الشرف خلال قيامه بواجبه العسكري !)

ويقول منفرد : «الواقع انني لم اكن قلقاً على نفسي بقدر قلقي على حياة امي · وصحيح انني كنت اعرف الكثير عن مأساة نهاية ابي، وانني كنت اعتقد ان القوم لابد قد فكروا فيا يمكن ان يدفعني اليه الشباب والحماسة لابي، من الخوض في حديث تلك المأساة · يضاف الى هذا ان قائد فوجي كان نازياً متطرفاً، وكان يخيل الي دائماً انه لا يفتأ يحدجني بنظرات تؤكد هذا المعنى في ذهني · ولهذا اعتزمت ان القي بنفسي في اسر الامريكيين عند أول فرصة تسنح لذلك، عقب ما كان متوقعاً من دخولهم بلدة اولم!»

وحدث يوماً وبينما كان منفرد يشق طريقه الى خطوط الفرنسيين عند «ريدلنغن» على الدانوب، ان لمحه حينذاك بعض جنود فرقة الدفاع الالمانية الارهابيين، وكانت الأوامر الصادرة اليهم تقضي باعتقال اي جندي الماني يجدونه خارج خطوط القتال دون عذر مقبول، ثم شنقه عند أقرب شجرة !

ولم يكن ألذ لاولئك الجنود القساة الغلاظ الاكباد، من مباشرة تنفيذ تلك الأوامر الدموية الفظيعة · ولعل في هذا ما يكشف الغطاء عن سر تلك الجثث الكثيرة التي طالما شاهدها جنودنا مدلاة من اشجار الغابة السوداء، ومن الاشجار الاخرى المنتثرة في تلك الطرقات !

ولم يشك منفرد، في أن مصيره في تلك اللحظة قد تقرر على تلك الصورة البشعة، حينما استوقفه اولئك الجنود واستجوبوه ·

ولكنه نجا بمعجزة من ذلك المصير فقد صدق الجنود ما قال لهم من انه وقع في ايدي الفرنسيين منذ قليل، ثم افلح في أن يهرب منهم !

ويقول منفرد : «لقد كان سروري عظيماً بنجاتي من القتل بأيدي جنود فرقة الدفاع، ولكن سروري كان اعظم حين علمت بنجاة امي أيضاً !»

ولم يطل انتظار منفرد بعد ذلك، فلم تمض ايام حتى وقع أسيراً ·

وحينما علم الجنرال دي تاسيني انه ابن رومل، اكرم مثواه، وعينه في وظيفة مترجم، ثم لم يكفه كل هذا الاكرام لذكرى رومل خصمه، فاخذ على عاتقه نقل اخبار منفرد الى امه !

ومما يبعث على الدهشة، ان الدنجر لم يعرض له أحد بسوء، رغم الاعتقاد السائد بانه يعرف الكثير عن حقيقة نهاية رومل · على انه لم يسلم من قضاء ساعات شديدة الحرج، قبل استسلام المانيا ·

وكذلك يبدو عجيباً ان شترولن، استطاع هو الآخر ان يفلت من الاغتيال، أو على الأقل من الاعتقال !

ويبدو ان شترولن كان اشد دهاء وذكاء من الغستابو، او لعل القرائن ضده لم تكن كافية. ولاسيما ان اشتراكه في التآمر على اغتيال حياة هتلر، كان اشتراكاً غير مباشر، اي من بعيد ٠

ثم ان شترولن كان محبوباً لدى اهل اشتغارت، وكان معروفاً لدى كثيرين من خارج المانيا، فربما كان هذا مما ادى الى تركه وشأنه ٠

شبيدل ينجو من الاعتقال

اما الجنرال شبيدل، فان فراره من الاعتقال يعد حقاً احدى المعجزات ولا شك في ان هذه المعجزة حدثت بفضل ما عرف به شبيدل من علم واسع وحكمة بالغة، وذكاء خارق، وارادة حديدية ٠ وما الى ذلك من المزايا التي استطاع بها ان يتغلب على مكايد الغستابو، وتصرفاتهم مع خصومهم ٠

ولا شك في ان اسمه كان في قائمة الدكتور غوردلر، فضلاً عن ان غوردلر نفسه قد ادلى، تحت ضغط التعذيب، بكثير من الاسماء الاخرى ٠ فلماذا لم يشنق الدكتور اشبيدل ؟

لقد اجابني هو نفسه عن هذا السؤال فقال : «اعتقد ان سبب ذلك انني التزمت الهدوء التام، وانني ناقشت كل شئ معهم نقاشاً منطقياً خالياً من اية عاطفة، واستطعت ان احملهم على الاقتناع بانني لا اعبأ بمصيري اياً ما كان، وبأن كل ما يعنيني هو الوصول الى الحقيقة ٠ وكانت اشد اللحظات حرجاً حين واجهوني بالكولونل فون هوفاكر من هيئة اركان حرب الجنرال اشتيلبناغل، وكنت قد سمعت بانه قد اعطى بعض العقاقير، او عذب حتى ادلى بكثير من الاعترافات !»

والمعروف ان الجنرال شبيدل حينما كان في السجن لم ترفع عنه الحراسة لحظة من ليل او نهار!

ولم يكن أحد ليتوقع ان يستطيع اشبيدل اقناع الغستابو بانه برئ، ولكنه استطاع بتفوقه عليهم جميعاً من الناحية العقلية، ان يثير الريبة في أمر اعتقاله، بل انه استطاع ايضاً ان يجعلهم يشعرون بسخف تفكيرهم واجراءاتهم، وبذلك افلح في انقاذ حياته، ولو الى حين ٠

وقد ذكر لي اشبيدل انه استطاع ايضاً ان يقنعهم «بان من المستحيل ان يكون لرومل اي يد في الحوادث التي وقعت في ٢١ تموز سنة ١٩٤٤» ٠

ومهما يكن من قدرة شبيدل على الجدل دون خوف أو قلق، واستطاعته لذلك ان ينجو من كراهية هتلر له، فانه لم يستطع ان ينجي رومل من تلك الكراهية التي يكنها هتلر له ٠

ولعل هتلر لم يرد التخلص من رومل لاعتقاد بانه من دعاة الهزيمة، بل لأنه كان مصيباً في كل ما رآه في افريقيا ونورمانديا، في الوقت الذي ثبت فيه خطأ كل من بودل وكيتل !

ولعل هتلر يكون قد ادرك ان اعدام اشبيدل، وهو رئيس هيئة اركان حرب رومل، قد يثير الشكوك حول تلك المهزلة الواضحة التي دبرت للتخلص من رومل !

ولقد أفلح الدكتور اشبيدل الفيلسوف، في احباط حبائل القضاء النازي طيلة سبعة اشهر، ولكن هذا لم يفلته من سجن الغستابو، لأنهم لا يستسلمون أمام فرائسهم بسهولة، وقد ابقوه على أمل أن يجدوا الأدلة القاطعة على ادانته في يوم من الأيام ٠

وهكذا ظل اشبيدل حتى الاسابيع الأخيرة من الحرب، رهن التحقيق معه في امور اخرى، حامت حولها الريبة في «اورنا» على بحيرة كونستانس، وكان يقوم على حراسته جنود باشراف ضابط من ضباط فرقة الدفاع، وكانت الأوامر التي صدرت الى هذا الضابط تقضي بأن يحول دون وقوع أحد من المعتقلين حياً في قبضة الحلفاء ٠ وهنا تجلت عبقرية اشبيدل العسكري فأرسل الى هذا الضابط، بالاتفاق مع حاكم السجن الذي كان صديقاً له، برقية زائفة على أنها من هملر نفسه، يقول له فيها أن يتهيأ لنقل المعتقلين الى مكان آخر، اكثر سلامة وأمنا٠ وكان على الضابط أن يتصل بهملر تليفونياً فيما بعد ليتلقى منه تعليمات اخرى ٠ لكن تليفون السجن كانت قد قطعت اسلاكه، فلم يكن امام الضابط الا أن يذهب الى مكان آخر ليتحدث في التليفون ٠ وفي فترة غياب الضابط خارج السجن، إذن حاكمه لصديقه اشبيدل وعشرين معتقلا معه، بأن يهربوا ٠

وقبل أن يعود الضابط الى السجن، كانوا قد اختفوا لدى قس كاثوليكي روماني ٠

ومضى الغستابو يبحثون عنهم ٠ ولكن المنطقة ما لبثت أن احتلتها قوات الحلفاء !

تلك إذن نهاية قصة رومل ٠

وأرى لزاماً على أن أعود الى الوراء بضعة اسابيع، لاتحدث عن اغرب لحظة في تلك المأساة ٠

ففي أذار سنة ١٩٤٥ عندما أخذ العالم يهوى فوق رأس هتلر، تسلمت أرملة رومل رسالة بتاريخ ٧ آذار ٠ وكانت هذه الرسالة من رئيس لجنة انشاء قبور الجنود الالمان وكان فيها ما يلي :

«لقد اصدر هتلر الينا أمره بأن نقيم نصباً تذكارياً للفقيد الفيلد مارشال رومل، ولقد طلبت عدداً من المثالين ليضعوا تصميماً لهذا النصب ٠ وتجدين مع هذه الرسالة بعض هذه التصميات على انه ليس من الميسور الآن ان نقيم نصباً تذكارياً أو أن ننقله ٠ وكل ما نستطيعه هو صنع نموذج له ٠

«وبين النماذج تمثال يصور رومل على هيئة أسد يحتضر، وآخر يمثله في صورة «أسد يبكي»، وثالث يمثله «اسداً يتحفز للوثوب»، وانني افضل التصميم الأخير، اما اذا كنت تؤثرين عليه الأسد الذي يحتضر، فلك ما اردت، وحينئذ نقوم بالترتيبات اللازمة ٠٠»

«هذا وان الواجهة الرخامية يمكن انهاؤها فوراً، فلدي بذلك إذن خاص من الوزير البرت اشبير ٠ ومع أن النصب التذكارية، لا يمكن عملها الآن من الحجارة فقد رئى، نظراً الى حالة رومل الخاصة، ان من الممكن الحصول عليها وارسالها ٠»

ولم ترد أرملة رومل على هذه الرسالة ٠٠



الفصل الخامس والثلاثون

مذكرات رومل السرية

خبرة ثلاثين عاماً - كتاب الهجمات البرية - حاسته السادسة

انتهينا في الفصل الأخير من ترجمة كتاب «رومل» الذي ألفه أمير اللواء دزموند يونغ. ولم يبق أمامنا إلا تلك الضميمة التي أضافها المؤلف الى كتابه أعني «يوميات رومل» نفسه وتقع هذه الضميمة في ثلاثين صفحة من أصل الكتاب ٠

ويقول المؤلف في تقديم هذه اليوميات :

«بعد ان انتهيت من طبع هذا الكتاب ولم يبق إلا ان يغلف، علمت من منفرد ـابن رومل - انه أفلح في الحصول على بعض مذكرات أبيه، التي كان قد أخفاها قبل موته حتى لا تقع في أيدي الغستابو، ولا سيما انها تتضمن نقداً لاذعاً لهتلر وللقيادة الألمانية العليا» ٠

«وأزاء هذا طرت الى المانيا في اليوم التالي، حيث تمكنت في بيت رومل بهرلنغن، من فحص جانب من مذكرات رومل او يومياته، ومن قصص المعارك، والتعليقات العسكرية، التي كتبها او أملاها في فترات متقطعة من اوقات فراغه أبان الحرب، وحينما كان نزيل مستشفى اتسميرنغ في صيف سنة ١٩٤٢، او خلال فترة ما بين تركه قيادة المعارك في تونس، وبين قيادته لجانب من الجيوش الالمانية في الجبهة الغربية ٠»

وليست المقتطفات التي اضفتها الى الكتاب، وقد استغرقت ثلاثين صفحة سوى جزء يسير مما فحصته من المذكرات والتعليقات التي تركها رومل، وهناك جانب كبير منها لم اتمكن من فحصه ·

«ولاشك في أن ليوميات رومل اهمية عسكرية كبيرة، فضلاً عن انها تكشف عن مواهبه الفذة في القدرة على التعبير السريع، مما لا يتيسر الا لمن اوتي عبقرية في القيادة الحربية وسرعة الحركة وحسم الامور» ·

هذا الى ما ليوميات رومل من اهمية خاصة عند من يريدون دراسة الحملة على شمال افريقيا، وانا لنرجو ان تظهر في القريب العاجل ترجمة انكليزية لهذه الاكداس من المذكرات التي وصف فيها رومل ماشهده من المعارك وصفاً موجزاً، ولكنه في الوقت نفسه دقيق كل الدقة، فكان مثله فيه كمثل الرسام الممتاز الذي يعطيك في خطوط قليلة صورة معبرة عن كل خصائص صاحبها احسن التعبير ·

خبرة ثلاثين عاماً

وقد استهل رومل يومياته بقوله : «ان الميدان الافريقي كان وحده، دون الميادين العسكرية الاخرى، الذي استخدمت فيه الاساليب الحديثة في القتال، كما ان الصحراء الغربية كانت اول الميادين التي التقى فيها الحلفاء بالالمان» ! ·

وفي كثير من الاحيان يوجه رومل حديثه في يومياته الى القواد العسكريين، وينصح لهم باتخاذ موقف دون سواه، وهو في هذه النصائح انما يصدر عن خبرة طويلة استمرت منذ ان التحق بلواء المشاة الرابع والستين في التاسع عشر من شهر تموز سنة ١٩١٠ الى ان مات، اي اكثر من ثلاثين عاماً ·

ويبدو طابع رومل المدرس او الاستاذ، في كتابة هذه اليوميات واضحاً جلياً، فهو يحرص على ان ينبه القارئ العسكري أو المعنى بالشئون العسكري، الى بعض الامور العسكرية الدقيقة التى لا يفطن اليها غير الخبراء الممتازين ·

وهو يقرر ان تجاربه قد دلت على ان الحسم أو القرار الجرئ يؤتي خير الثمرات · على انه يستدرك فيقول : «ان هناك فرقاً بين الجرأة في العمليات أو التكتيكات، وبين المغامرة العسكرية · فالعملية الجريئة ليست لها الا فرصة واحدة للنجاح، ولكن اذا قدر لها الفشل،

ستترك للقائد قوات سليمة كافية تمكنه من معالجة الموقف، والثبات على قدميه · اما المغامرة العسكرية، فهي اما ان تقود الى النصر، واما ان تحطم القوة التي تستخدم فيها كل التحطيم» ·

ولا يفوت روميل ان يعلق على مواقف خصومه من البريطانيين تعليقاً مباشراً ينم عن فهم واضح للموقف ·

ومن بين ثنايا هذه المذكرات يطالعنا روميل بتنبؤات تصور بها بديهته، مواقف اعدائه وما ستؤدي اليه هذه المواقف، وقد اثبتت الأيام صحة هذه التنبؤات ·

ولقد افاض روميل في الحديث عن «تفوق الحلفاء الجوي»، وعن مدى أهمية هذا التفوق، والنتائج العسكرية الهائلة التي ترتبت عليه، لا في الصحراء الغربية حسب، بل في الجبهة الغربية وكل الميادين أيضاً ·

وقد رأينا كيف كان سلاح طيران الحلفاء سلاحاً قاضياً مهلكاً قبل فتح الجبهة الثانية، وفي أبان الغزو، بعد ان نزلت قوات الحلفاء في فرنسا ·

وكان هذا كله مما تضمنته التقارير التي كتبها روميل وقدمها لهتلر، وايده فيها بعض القواد الآخرين ·

ومما ذكره روميل ان تفوق البريطانيين في الجو قد جعل الرياح تذرو كل الجهود الالمانية، وكل قواعد التكتيك التي وضعوها، ولا سبيل الى مقاومة هجمات العدو الجوية، الا بالتفوق عليهم جوياً ·

كتاب الهجمات البرية

ومما يذكر ان هذه اليوميات قد عاون روميل على كتابتها وتنظيمها كل من النقيب الدنجر زميله المخلص الوفي له، وكذلك النقيب هلموت لانغ ·

وهي تذكرنا بعبارتها وطريقة عرضها وتبويبها، بالكتيب الصغير الذي اصدره روميل وسماه «الهجمات البرية»، مدوناً فيه محاضراته التي القاها في مدرسة المشاة في درسدن، فيما بين اول تشرين اول سنة ١٩٢٩ حتى ترك المدرسة في الثلاثين من أيلول سنة ١٩٣٣، وقد اودع روميل هذه المحاضرات خلاصة تجاربه الشخصية أبان الحرب العظمى الاولى، في بلجيكا وهضبة ارغون، وجبال الفوج والكربات وايطاليا · كما وصف فيه التكتيكات الصغرى، وصفاً بارعاً، وزوده بخرائط تخطيطية، كما رسم فيه دروس التكتيك رسماً واضحاً، ولقد اصبح هذا الكتيب من

المراجع المقررة في الجيش السويسري، الذي اهدى الى رومل ساعة ذهبية اعجاباً بهذا الكتيب الممتاز حقاً، رغم ضآلة حجمه ٠

وكان هذا الكتيب نقطة التحول في حياة رومل، ذلك لأن هتلر ما كاد يطلع عليه حتى اعجب بمؤلفه، وادناه منه، وجعله قائداً للفرقة التي تتولى حراسته ٠

فرومل هو ذلك المخلوق النادر الذي لا يرى، او الذي لا لون له، ذلك الانسان الذي تخصص في فن معين، وله عقلية «احادية» الاتجاه، او ذات اتجاه واحد، ومقصد واحد، وهدف بعينه ٠٠ رومل هو ذلك الجندي النظامي الذي لم تكن له أية متعة في الحياة ولا هواية قط، عدا فنه العسكري ٠

فلم يقرأ رومل في حياته كلها كتاباً لا يهتم بالامور العسكرية، فقد حصر عقله في هذا الباب دون سواه، وقد تظن ان هذا التضييق في نطاق التفكير قد جعل من رومل انساناً محدود الذكاء او غبياً، ولكن الواقع يدل على عكس ذلك تماماً ٠ فقد ذكر لي الجنرال الدكتور اشبيدل الفيلسوف الممتاز، ان رومل لعله لم يقرأ في حياته كتاباً قط لا يهتم بالامور الحربية ٠

وحين سألتُ اشبيدل : الم يكن رومل غبياً بعض الشئ ؟ كان اشبيدل قد حملق في وجهي قائلاً : كلا لم يكن غبياً ٠ ان هذا آخر شئ يمكن أن ينعت به ٠

وكان خير معين لرومل في تلك المعمعة التي خاضها بشجاعة نادرة، وببراعة فائقة، ذلك الاحساس الغريب او تلك الحاسة السادسة التي يسميها الالمان «الاستشعار بأطراف الأصابع» Fingerspitzengefuhl. تلك الحاسة السادسة التي شهد له بها كل معاونيه وزملائه ورؤسائه ٠

الفصل السادس والثلاثون
الصحراء الغربية في ميدان للتجارب

ضرورة التشكيلات الآلية ـ قواعد الحرب المقبلة

يستهل الفيلد مارشال ارفين رومل يومياته بقوله : «ربما كان ميدان شمال افريقيا، اول ميدان شهد الحرب الحديثة، من حيث الاسلحة واساليب القتال · فقد كنا في الصحراء الغربية نواجه تشكيلات آلية كاملة · وكانت هذه الصحراء المترامية الاطراف، الخالية من العقبات الطبيعية، تفتح أمامنا أبواباً لا حصر لها في الهجوم والدفاع والحركة ·

ففي الصحراء وحدها يمكن تطبيق قواعد الحرب الآلية، وحرب الدبابات تطبيقاً تاماً، سواء في ذلك القواعد التي تعلمناها قبل سنة ١٩٣٩، أم القواعد التي جدت، أو التي يمكن اتخاذها · ذلك لان ميدان الصحراء الغربية كان في الوقت نفسه حقلاً للتجارب · فهناك في الصحراء وحدها وقعت بحق معارك الدبابات، والتشكيلات الكبيرة المدرعة · وحتى في الحالات التي كان النضال فيها بالغ القسوة، وحتى في الحالات التي بدت الحرب خلالها جامدة ساكنة، كما رأينا ذلك في أهم مراحلها ابان الهجوم الذي شنه كننغهام وريتشي فيما بين سنتي ١٩٤١ و ١٩٤٢، وفي صيف سنة ١٩٤٢ حتى الاستيلاء على طبرق، حتى ذلك الوقت ظلت الحرب هناك تعتمد اولا وقبل كل شئ على سرعة الحركة !

وهذا ولاشك شئ جديد من الناحية العسكرية . ذلك لان هجومنا في بولندا وفي الغرب، كان ضد اعداء اعتمدوا دائماً في عملياتهم العسكرية على فرق المشاة غير الآلية، كما ان حريتهم في حسم الامور كانت محدودة جداً، ولا سيا فيا يتصل بالانسحاب . ولقد كان اعداؤنا في بولندا وفي الغرب، يضطرون في كثير من الاحيان - لاهتمامهم بقوات المشاة غير الآلية - الى اتخاذ خطوات لا تجدي اطلاقاً في تعويق تقدمنا . فبعد أن اقتحمنا فرنسا، كانت فرق مشاة العدو واقفة تحت رحمتنا، نلاحقها ونطاردها ونطوقها بقواتنا الآلية . وفي اثناء ذلك كان احتياطي العدو مكرهاً على ان يلقي بنفسه الى الهلاك بأيدي قواتنا المهاجمة، محاولاً بذلك أن يكسب الوقت، لتتمكن قوات المشاة من الانسحاب، قبل أن يتم تطويقها وابادتها . وطبيعي أن العدو كان يلجأ الى ذلك حين يكون في مراكز غير ملائمة له من الناحية التكتيكية .

ضرورة التشكيلات الآلية

ان فرق المشاة غير الآلية، لا تبدو قيمتها ضد قوات العدو الآلية او المدرعة، الا اذا كانت في مراكز قد اعدت من قبل . فاذا حدث أن اخترقت هذه المراكز، او طوقت واكره الجنود على الانسحاب، فانهم يكونون فرائس سائغة لقوات العدو الآلية وفي الحالات البالغة الدقة والحرج لا يستطيعون الا أن يتشبثوا بمراكزهم حتى آخر جولة، لأن الانسحاب يحدث ارتباكاً هائلاً، نظراً الى ضرورة استخدام التشكيلات الآلية لكسب الوقت، ولحماية مؤخرة الانسحاب !

لقد عانيت أنا نفسي هذه المحنة خلال تقهقر قوات المحور من برقة في شتاء كل من سنتي ١٩٤١ و ١٩٤٢، وذلك لأن كل الجيش الايطالي في الصحراء، وجانباً كبيراً من الالمان المشاة، ومنهم الغالبية العظمى من الجنود الذين ستتألف منهم الفرقة التسعون الخفيفة، لم تكن لديهم وسائل للنقل والحركة، في حين كان لابد من نقل جانب من قواتنا على ناقلات تروح وتجئ هنا وهناك، بينما كان على جانب آخر من قواتنا أن ينسحب افرادها ماشين !

على انه امكن، بفضل بساطة تشكيلاتنا المدرعة، تغطية انسحاب قواتنا امام القوات البريطانية الآلية التي كانت تلاحقنا بعنف !

ويمكن ان يعزى فشل غرازياني، أولا وقبل كل شئ، الى ان الجيش الايطالي، او الجانب الاعظم منه، لم يكن مسلحاً بقوات آلية . فكان ضعيف الحيلة امام القوات البريطانية الآلية كلها، وان كانت هذه ضعيفة هي الاخرى . فكان على الجيش الايطالي، على الرغم من وهنه وعجزه عن مواجهة البريطانيين، وفقده الأمل في احراز اي نصر، ان يرضخ للمعركة وان يتحطم من اجل حماية قواته من المشاة .

قواعد للحرب المقبلة

ولقد أدت هذه العمليات الآلية الصرفة في حرب صحراء ليبيا، وفي الاراضي المصرية، الى ظهور قوانين جديدة مختلفة تمام الاختلاف عن تلك القوانين العسكرية، والقواعد التكتيكية التي تستخدم في ميادين القتال الاخرى ٠ وهذه القواعد أو القوانين الجديدة، ستكون أساساً لكل حرب مقبلة ٠ فالحرب في المستقبل لن تقوم الا على أساس واحد، هو التشكيلات الآلية ٠

ان تطويق عدو مزود بآليات تزويداً تاماً، وفي منطقة صحراوية صالحة لحركة وسائل النقل الآلية، من شأنه أن يفضي الى النتائج التالية :ـ

(أ) ان العدو سيكون في ارحب وضع تكتيكي يتصوره العقل، اذا ما وجهت النيران ضده من جميع الجهات ٠ وحتى عندما يكون العدو معرضاً للنيران من ثلاث جهات، فان موضعه سيكون غير حصين من وجهة تكتيكية ٠

(ب) عندما يتم تطويق العدو يجد هذا نفسه ـ من وجهة تكتيكية ـ مجبراً على اخلاء المنطقة التي يحتلها ٠

ان تطويق العدو، والمباشرة بتحطيمه تدريجياً، عن طريق عزله الى جيوب، لا يمكن ان يعد الهدف الاول لأية حركة عسكرية، وانما يعتبر ـ على العادة هدفاً غير مباشر ٠ ذلك لأن القوة التي لم يمس كيانها التنظيمي بأذى، والمزودة بالآليات الوافية، ان مثل هذه القوة سيكون في مقدورها فك الحصار في أي وقت كان، وذلك عن طريق تكوين حلقة دفاعية معززة، ويتم هذا بسهولة اذا كان ميدان المعركة ملائماً لها ٠

وبفضل الاستعانة بالآليات سيكون قائد القوة المحاصرة في وضع يستطيع معه ان يركز جهده الرئيسي ضد نقطة معينة، ليشق طريق نجاته منها ٠ وقد طبقت هذه القاعدة في حرب الصحراء الغربية عدة مرات ٠

ومن ثم فان القوات المطوقة لا يمكن تحطيمها الا عن طريق القيام بهذه العمليات الثلاث :ـ

(أ) عندما تكون القوة المحاصرة غير مزودة بالآليات، أو اذا تعطلت تلك الآليات عن الحركة بسبب نقص البترول، أو عندما تضم تلك القوة عناصر غير متحركة لا تستطيع الاستغناء عنها ٠

(ب) عندما تكون قيادة تلك القوات رديئة، أو عندما تتكبد خسائر في سبيل انقاذ تشكيلات اخرى ٠

(ج) عندما تكون قوتها الحربية قد تحطمت سلفاً، واصبحت علائم الخور بادية عليها بوضوح ٠

فباستثناء الحالتين أ و ب اللتين تحدثان على الدوام في ميادين اخرى من ميادين الحرب، لا يمكن ان يشرع في تطويق العدو وتحطيمه فيما بعد على شكل جيوب، الا اذا ارهق في حرب مكشوفة تجعله يفقد صفة التماسك المنظم بين وحداته ٠

فالمعارك التي تهدف الى تحطيم مقاومة العدو، ينبغي ان ينظر اليها على انها معارك ابادة ليس إلا ٠ اما المعارك التي تشترك فيها الوحدات الآلية، فان الهدف المباشر من الخطة التي يضعها القائد، يجب ان يكون ابادة الجيش المقاوم عن طريق ضرب التماسك بين وحداته وتمزيقها ٠

وتتطلب معارك الابادة، من الوجهة التكتيكية، ان يكون القتال على اوسع مدى ممكن من قابلية الحركة وسرعة التنقل والتغيير ٠

وتتطلب النقاط التالية اهتماماً خاصاً وهي :ـ

(أ) يجب ان يسعى القائد جهده الى تركيز قواته آخذاً بنظر الاعتبار الوقت والمكان المناسبين، على ان يبحث في الوقت ذاته عن الفرصة الملائمة التي يستطيع خلالها مفاجأة القوات المعادية بالهجوم وتدميرها في اوقات مختلفة ٠

(ب) تكون طرق امداداته بصفة خاصة معرضة للهجوم، حيث يجب ان تمر عبرها الذخائر والوقود وكل المتطلبات الضرورية للمعركة ٠ ولذلك ينبغي الاهتمام بحماية هذه الطرق بمختلف الوسائل الممكنة، والعمل في الوقت نفسه على تحطيم خطوط مواصلات العدو، وقطع الامدادات عنه ٠ فالعمليات الحربية التي تقع في منطقة تموين القوى المضادة، ستؤدي الى تحطيم العدو وخسران المعركة حالاً ٠ وكما رأينا من قبل، فان الامدادات هي القاعدة الاساسية للمعركة، ولهذا ينبغي ان تكون حمايتها وصيانتها مقدمة على كل شئ آخر ٠

(ج) ان قوى الدبابات هي العمود الفقري للجيش الآلي ٠ فكل شئ يعتمد على الدبابات ٠ اما التشكيلات الاخرى فهي مجرد قوات ثانوية، وعلى هذا يجب ان تنجز حرب الابادة ضد وحدات الدبابات المعادية في اسرع وقت ممكن، وعن طريق وحدات دبابات مهاجمة ٠ كما ينبغي على القائد أن يستعمل دباباته حتى آخر هجوم مستطاع ٠

(د) يجب أن تصل نتائج الاستطلاع الى القائد في اسرع وقت مستطاع، وان على القائد بعد هذا ان يتخذ القرارات المباشرة، ويعمل على تنفيذها بالسرعة الممكنة · ذلك لان سرعة حسم القيادة للامور هي التي تقرر مصير المعركة · وعلى هذا فمن الضروري لقادة القوات الالية، ان يكونوا قريبين من قواتهم جهد الامكان، وان تكون طرق الاتصال مع تلك القوات سالمة مضمونة ·

(هـ) ان سرعة الحركة، وتحقيق التماسك بين وحدات القوى المحاربة، هي العوامل الحاسمة في كل معركة. وهي لذلك تتطلب الاهتمام الزائد · فكل اشارة تدل على وجود الارتباك في صفوف القوات المحاربة، يجب تلافيها باقصى سرعة مستطاعة، عن طريق اعادة تنظيم تلك القوات. وتحقيق التماسك بين وحداتها ·

(و) ان اخفاء القائد نواياه ومقاصده له اهميته العظمى، لانه بذلك يستطيع اعداد الاحوال الملائمة للمباغتة التي من شأنها ان تعينه على الاستفادة من الوقت الذي يحتاجه القائد المعادي في معاودة هجومه · ويجب ان تشجع وسائل المخادعة والتضليل على اختلاف انواعها، لكي تجعل القائد المعادي غير متيقن من وقت الهجوم ومكانه، وبذلك يضطر الى ان يتحرك بتردد واحتراس ·

(ز) والى ان يكون العدو قد ضرب واضطربت صفوفه، فان على القائد المهاجم ان يحاول الاستفادة من هذا الظفر الذي ناله، وذلك بان يكر على العدو مجدداً، ويدمر أكبر جزء ممكن من قواه المبعثرة، وهنا أيضاً تكون السرعة كل شئ في الموضوع · فيجب ان لا تعطى للعدو اية فرصة لاعادة تنظيم صفوفه، وكما ان تعقيب العدو يتوقف على سرعة اعادة تجميع القوات المطاردة له، فان السرعة في اعادة تنظيم وسائل الامدادات والتموين، من الامور الجوهرية للقوات المهاجمة ·

اما بالنسبة لميادين التكتيك والتنظيم فان النقاط التالية يجب ان يعنى بها عناية خاصة في معارك الصحراء :-

(أ) يجب ان تكون وحدة الدبابات ذات قابلية كبيرة للمناورة قبل كل شئ، وان يتزود القائد الى جانب هذا بمدافع سريعة الاطلاق ومن ذوات المرمى البعيد، ذلك لان الفريق الذي يملك مدافع قوية، يكون سلاحه اكثر استدامة، ويستطيع ان يفاجئ العدو قبل ان يفاجأه ذاك ·

ان المدرعات مع اهميتها، لا تكفي لان تعوض عن قوة المدفعية، ما دام ذلك التعويض

سيكون على حساب قابلية المناورة والسرعة، وكلاهما من المتطلبات التكتيكية التي لا غنى عنها .

(ب) ويجب ان تكون المدفعية هي الاخرى من النوع الممتاز، وذات قابلية كبيرة للحركة، فضلاً عن ضرورة تهيئة كميات وفيرة من العتاد اللازم لها .

(ج) اما المشاة فيمكن استخدامهم فحسب، في احتلال وضبط المراكز التي اعدت للحيلولة دون قيام العدو بمعارك خاصة، أو لارغامه على دخول مثل تلك المعارك . وعندما يتم تحقيق هذا الغرض، فيجب ان يكون في استطاعة قوات المشاة ان تتحرك بسرعة، فتثير تلك المعارك اينما شاءت، ومن ثم فان على تلك القوات ان تكون متنقلة ومزودة بالتجهيزات التي تعينها على اخذ مواضع دفاعية باقصى سرعة ممكنة، وفي النقاط التي لها أهميتها التكتيكية من ميادين المعركة .

لقد دلتني تجاربي العسكرية على أن اتخاذ القرارات بصورة سريعة حاسمة، أو حسم الامور حسماً جريئاً، يؤتى اطيب الثمرات . وينبغي الا يغرب عن بالنا ان نفرق بين الجرأة في العمليات أو التكتيك، وبين المقامرة الحربية . صحيح ان العملية الجريئة ليس امامها أكثر من فرصة واحدة للنجاح، ولكنها اذا لم يواتها التوفيق، تترك القائد ولديه قوات كافية تمكنه من معالجة اي موقف . اما المقامرة الحربية فهي عملية قد تكلل بالنجاح، أو قد تفضي الى الهزيمة وتحطيم كل ما لدى القائد من قوات !

«ان الوقت الوحيد الذي يستطيع فيه القائد ان يحسب سلفاً حساب سير المعركة، هو الوقت الذي يكون فيه متفوقاً على العدو . ففي هذه الحالة يتضح له طريق النصر على عدوه منذ البداية . وعلى ذلك لا تكون المشكلة مشكلة بماذا يحارب ؟ . بل تكون هي : «كيف يحارب ؟» . على اني ـ حتى في مثل هذا الموقف ـ ارى ان من الافضل ان يقوم القائد بعمليات عسكرية على اوسع نطاق، بدلا من ان يتخبط قلقاً في الميدان، كما يجب عليه ان يتخذ الحيطة الممكنة لكل ما يخطر بباله، من عمليات العدو الممكنة والمستحيلة معاً !

وليس من شك في ان لكل اسلوب من الاساليب العسكرية الفنية عيوبه، كما ان له مزاياه، والقائد الحق هو الذي يختار الاحسن من مختلف وجهات النظر، ثم يمضي بعد ذلك في تنفيذ ما اختاره، متقبلاً النتيجة كيفما كانت . اما انصاف الحلول فهي اسوأ من الفشل !

ويعود روميل فيدون تجاربه التي تبلورت في عبارات واضحة قوية فيقول : «ان من اول الدروس، التي استخلصتها من تجاربي في الحرب الآلية، هي ان السرعة في العمليات،

والسرعة في حسم القيادة العليا للامور، من العوامل الحاسمة في القتال · فالجنود يجب ان يمكنوا من العمل باقصى سرعة، وفي تناسق تام · والانسان يجب الا يقنع بالمستوى العادي لاي شئ، وانما يجب ان ينشد المثل الاعلى · وذلك لان الجانب الذي يبذل اعظم الجهد، هو الاسرع عادة، والنصر للاسرع، ويجب على الضباط جميعاً ان يدربوا جنودهم، وان يثبتوا في اذهانهم هذه الفكرة» ·

وقد تحدث رومل في يومياته عن مهام القائد كا ينبغي ان تكون، وكا طبقها على نفسه، فقال : «ان واجب القائد الاعلى ليس مقصوراً على العناية الدقيقة بكل ما تعرضه عليه هيئة اركان حربه، فان من واجبه كذلك ان يعنى كل العناية بكل كبيرة وصغيرة من شئون المعركة، وان يجعل الخطوط الامامية نصب عينيه دائماً، وذلك للاسباب التالية :ـ

(أ) ان التنفيذ الدقيق لخطط القائد الاعلى وهيئة اركان حربه، هو الشرط الاول لنجاح هذه الخطط · ومن هنا فلم يكن بد من ان يوليه القائد الاعلى اعظم جانب من عنايته، كا ان من الخطأ الركون الى ان كل قائد من القواد المحليين سينفذ ما يراد منه تنفيذه حسبما تتطلبه الحالة، ذلك لان بين هؤلاء القادة من قد يؤثر الراحة والدعة في بعض الاحيان، على مواجهة المخاطر الكبرى، والدقة في تنفيذ الخطط المرسومة، مما يسهل عليهم انتحال الاعذار والاسباب في اي وقت يشاؤون، ولذلك فان على القائد الاعلى أن يكون على اتصال شخصي دائم بهؤلاء القواد، ليجعلهم يشعرون بسلطته ويعملون على تنفيذ اوامره على الوجه الاكمل · فالقائد الأعلى ينبغي ان يكون المحرك الذي يدير آلة المعركة، ويوجهها من اقرب سبيل وأصلحه، الى الهدف المنشود ·

(ب) ويجب على القائد الأعلى أن يسعى باستمرار لأن يجعل قواته ملمة بأحدث الخطط التكتيكية والتجارب الحربية، وأن يتأكد من سلامة تطبيقها لتلك الخطط والتجارب · فينبغي عليه أن يتحقق بان مرؤوسيه قد دربوا وفق آخر التطورات المستحدثة، ذلك لأن أحسن «رخاء» للقوات المحاربة هو التدريب الفائق الذي ينقذ الجيش من اصابات لا مبرر لها البتة ·

(ج) وينبغي على القائد الأعلى أيضاً ـ وهذا لا يفضله شئ آخر في الأهمية والفائدة ـ ان يلم بأحوال الجبهة، وما يجري فيها الماماً تاماً، وان يطلع على ما يجد من المشاكل والعقبات أمام مرؤوسيه · فهو بهذه الطريقة وحدها يستطيع ان يحتفظ بجدة آرائه، ومطابقتها مع التطورات العسكرية الحديثة، وتطبيقها بالنسبة لظروف كل مناسبة من المناسبات، اما اذا كان، من ناحية ثانية، قد سلك في المعركة سلوك لاعب الشطرنج، فأن نظراته ستظل جامدة حتماً ·

ان أحسن النتائج يستطيع القائد استخلاصها، اذا هو جعل آراءه تتطور بحرية وفق الظروف المحيطة به، واذا استطاع تفادي الوقوع في غمرة الأمثلة الجامدة ·

(د) يجب أن يكون القائد الأعلى على اتصال قوي بجنوده، فيجب أن يفكر في شؤونهم، ويشعر بشعورهم، كيما يكون للجند ثقتهم فيه · وفي مثل هذا الاتصال توجد قاعدة رئيسة ينبغي أن نتذكرها دائماً، وهي : يجب أن لا يتظاهر القائد أمام الجنود بالشعور الذي لا يحس به في الواقع · ذلك لأن الجندي العادي قد اصبح من الوعي أنه يستطيع أن يفرق حقائق الامور وغيرها، عن الادعاءات والتضليلات ·

تفوق الحلفاء في الجو

ولقد عرض رومل المخاطر التي تعرضت لها قوات المحور، من جراه تعاظم قوة السلاح الجوي البريطاني، فكتب بعد معركة علم الحلفاء يقول :

«سيثير العدو معركة الابادة من الجو · وستكون قنابله ذات أثر فعال قوي في قواتنا الآلية التي تقف مجردة من أية وقاية في الصحراء · وستصبح سياراتنا ودباباتنا ومدافعنا، خير هدف للمقنبلات المعادية، وطائراته التي تطير على ارتفاع واطئ، سواء كانت قواتنا في ميدان المعركة، او في طريقها اليه ، او مشتبكة بالهجوم ·

وبمضي الوقت سيصبح العدو قادراً على ارباك قواتنا، وشلها عن الحركة، دون أن يتكبد هو اية خسائر تستحق الذكر ·

فمن وجهة نظر القيادة سيحصل العدو على الفوائد التالية :ـ

(أ) تأمين حصوله على تقارير استكشاف جوي كاملة ·

(ب) ستكون له القدرة على العمل بحرية وعزم، ما دام سلاحه الجوي سيصبح قادراً على احباط أي هجوم مضاد، وذلك بعرقلة محاولاتنا في الهجوم، وضرب مراكز احتشاداتنا او اعاقة حركاتنا، ريثما يتم له اتخاذ التدابير المقابلة لذلك ·

(ج) ان كل بطء يحدثه العدو في حركاتنا، سيؤدي الى سرعة حركاته هو، الأمر الذي يعد من أهم عوامل النجاح في الصحراء، حيث يصبح من السهل توقع مثل هذا التطور في الموقف ·

يضاف الى ذلك، ان العدو الذي يسيطر على الجو، يكون في مركز يسمح له بأن يكبد عدوه خسائر هائلة في ارتال امداداته، فلا يمضي وقت طويل حتى تشل حركة هذه الارتال،

نتيجة لنقص الامدادات، بسبب توقف نقلها الا في ساعات محدودة تحت جنح الظلام، خشية الرقابة الجوية المعادية المضروبة على كل الطرقات . وفي ذلك ما فيه من جعل الوقت في صالح العدو .

ثم يقول رومل : «ان أي جيش ، مهما تكن قوة اسلحته وكثرة عدده، اذا قدر له أن يقاتل عدواً له مثل هذا التفوق التام في الجو، فان مثله يكون كمثل عصابة من الرجال البدائيين، تحارب جنوداً اوروبيين مزودين بأحدث المعدات !»

فنحن نحاول هنا (في الهجوم على العلمين) أن نجعل دفاعنا ضد الهجوم البريطاني المتوقع، بشكل نستطيع معه ان نضعف من تأثير السلاح الجوي البريطاني جهد الامكان . ذلك لأن الخطر الحقيقي الوحيد الذي يتهددنا هو خطر السلاح الجوي البريطاني . وكنتيجة لذلك ليس باستطاعتنا ان نلقي العبء الرئيسي في الدفاع، على تشكيلاتنا الآلية، ما دامت هذه التشكيلات ـ كما شاهدنا فعلاً ـ معرضة لهجوم من الجو . فبدلاً من هذا علينا أن نقاوم العدو في مواقع ثابتة معدة للدفاع، ضد أحدث ما عرفته الحرب من وسائل الفتك والتدمير . وان علينا مع ذلك ان نقر بالحقيقة الواقعة، وهي أن العدو سيصبح في المستقبل قادراً على اعاقة حركاتنا، عن طريق الهجمات الجوية التي يشنها علينا ليلاً ونهاراً، وبمعونة رجال المظلات . وقد علمتنا التجارب ان المرء لا يمكن أن يتوقع المكوث في سيارته، او ينطلق بها عندما تهاجمه المقنبلات المعادية، وان من العبث أن يحاول ذلك في أي وقت كان . فيجب أن تكون مواقعنا من القوة انها تستطيع الصمود بحامياتها المحلية على شكل مستقل ولمدة طويلة، دون انتظار أية مساعدة من الاحتياطي المعد للمعركة، الى ان يتم وصول النجدات اليها، بالرغم من التأخير الذي سيحدثه سلاح الجو البريطاني في ايصال تلك النجدات .

ان تفوق البريطانيين في الجو، قد بدد كل قواعد العمليات والتكتيكات التي درجنا عليها من قبل، والتي كنا نستخدمها حتى ذلك الحين بنجاح . اذ أن مثل هذه القواعد لم يعد في الامكان تطبيقها . فبدون سلاح جوي قوي تحت تصرفنا، لا نستطيع ايجاد أي حل لمشكلة مجابهة تفوق العدو الجوي، ذلك لأن السلاح الجوي البريطاني الامريكي، سيكون هو العامل الحاسم في المعارك المقبلة .



الفصل السابع والثلاثون

معارك ١٩٤٢

خطأ القيادة الألمانية ـ تعزيز الجيش الثامن
مواضع البريطانيين في مرمريكا ـ خطة الهجوم ـ معركة الغزالة

ومضى رومل بعد ذلك، فأفاض في الحديث عن المعارك التي دارت في فصلي الربيع والصيف من سنة ١٩٤٢ . وليس من السهل ان نقفو آثاره وهو يتحدث بالتفصيل عن هذه المواقع الحربية، ويبدي آراءه السديدة فيها، ذلك لأن رومل ينطلق على سجيته في النقد والتعليق .

على اننا نورد بعض مقتطفات من هذا الحديث، ففيها ما يلقي الضوء على تفكير رومل من الناحية العسكرية، وعلى علاقته بالقيادة الالمانية العليا، كما انها تكشف لنا عن بعض الاحكام الدقيقة التي اصدرها على خصومه من القواد العسكريين، وعن خططه التي رفضها هتلر واهملها تماماً، دون أن يتبين مدى صحتها الا بعد ان فات الأوان، وانتهات الحرب في شمال افريقيا . ولقد كان رومل يهدف من وراء خططه تلك، الى تفادي الطامة الكبرى التي كادت أن تحيق بقوات المحور، وتنظيم عملياتها العسكرية كلها هناك .

و «العملية الحربية» في اللغة الالمانية العسكرية لها معنى خاص لا مثيل له في لغة اخرى . فالعمليات التي يتحدث عنها رومل هي «الحركات الديناميكية العامة لكل القوات الآلية»، ومن هنا يمكن أن يقال : ان كلا من رومل ومونتغمري كان يقوم بعمليات حربية في شمال افريقيا، في حين كان كل من ويفل واوكنلك، يخصصان الجانب الاكبر من عنايتها للاستراتيجية .

خطأ القيادة الألمانية العليا

ويبدأ رومل هذا الجانب من اليوميات بقوله :

«بعد نهاية هجومنا المضاد، الذي ادى في بداية سنة ١٩٤٢ الى الاستيلاء على برقة، برزت امامنا عقبات كثيرة كلها تتعلق بالامدادات والمؤن ٠

«وكان السبب الاول لهذه العقبات، هو ان القيادة الالمانية العليا لم تكن تبدي اهتماماً يذكر بالميدان الافريقي، والمعارك الدائرة فيه ٠ كما ان الايطاليين لم يكونوا متحمسين تماماً للقتال في البحر، بينما كان الاسطول البريطاني بالغ النشاط، فضلاً عما كبدنا سلاح الطيران البريطاني من خسائر فادحة ٠

وقد واصلت القيادة الالمانية العليا التي كنت خاضعاً لها، تجاهلها اهمية الميدان الافريقي ٠ فلم يدرك رجالها اننا في الشرق الادنى قادرون على أن نحرز بوسائل قليلة نسبياً، عدداً من الانتصارات لها اهميتها وقيمتها من الناحيتين : الاستراتيجية والاقتصادية ٠ وفاتهم ان امامنا في افريقيا والشرق الاوسط، ثروات هائلة من المواد الخام، كفيلة بان تحررنا من كل ما يساورنا من قلق بسبب نقص البترول ٠

وهكذا ضنت القيادة الالمانية العليا، ببضع فرق ميكانيكية تعزز بها جيشي، فيصبح قادراً على ان يوقع بالقوات البريطانية هزيمة ساحقة في الشرق الادنى ٠ وكانت حجة هتلر وهيئة اركان حربه، هي: ان الجبهة الشرقية تحتاج الى كميات هائلة من وسائل النقل، وان انتاج وحدات ميكانيكية اخرى للجبهة الافريقية، مرهق لطاقة المانيا الانتاجية ٠ كما ان الكثير من رجال القيادة الالمانية العليا كانوا ينظرون الى المعركة الافريقية منذ سنة ١٩٤١، على انها معركة خاسرة، وان ارسال امدادات جديدة الى افريقيا لا يجدي نفعاً ابداً وتلك نظرة قاصرة طائشة تبعث على الاسى والاسف !»[٣٠]

ان مصاعب التموين التي تزعم القيادة الالمانية انها مشكلة صعبة لا يمكن التغلب عليها، لم تكن كذلك ٠ فالواقع ان اول ما كنا في حاجة اليه هو ان تكون هناك في روما شخصية قديرة تخول حرية التصرف لحل تلك المشاكل كلها، ولا اهمية لما قد يؤدي اليه هذا من بعض

---

(٣٠) الواضح ان المانيا العسكرية كانت ، منذ اللحظة الاولى التي اشعلت فيها نيران الحرب العالمية الثانية ، تستهدف تدمير روسيا السوفياتية والقضاء على الشيوعية فيها ، وان احتلال الالمان لاوربا الغربية كان مقدمه ليس الا للهدف الرئيس وهو تحطيم الشيوعية في عقر دارها ، أي في روسيا السوفياتية ٠

التشاحن مع بعض الدوائر الايطالية . ولكن سياسة حكومتنا أزاء الحكومة الايطالية قد افسدت القضية الالمانية الايطالية في شمال افريقيا .

صحيح ان موارد الثروة الالمانية تنوء بمطالب الجبهة الشرقية، وهذه مسألة لا يمكن الاستهانة بها. وخاصة بعدما فقدناه من عتاد منذ شتاء ١٩٤١ ١٩٤٢، ولكن هذا كله لا ينفي - حسب اعتقادي الثابت - بان الامكانيات الهائلة التي يتيحها لنا تعزيز قواتنا في شمال افريقيا، تجعل هذا الميدان أهم كثيراً من بعض القطاعات الثانوية في الجبهة الاوروبية، حيث يمكن الاستغناء عن بعض من فرقها الميكانيكية وارسالها الى افريقيا .

قد يكون هذا التصرف الخاطئ من القيادة الالمانية العليا، نتيجة سوء الفهم والعجز عن ادراك الحقائق . على انني لا اشك أيضاً في أن حسن النيه ليس متوافراً هناك . ولقد استطعنا أن نصمد للبريطانيين قرابة عام ونصف عام، وان نكبدهم خسائر فادحة، كل ذلك بثلاث فرق ضعيفة الى حد يبعث على الضحك، حتى عجزت آخر الأمر، أمام ازدياد قوة البريطانيين في العلمين . لقد اجبرنا، بعد ضياع أفريقيا، على أن نعد فرقاً عديدة كيا نقف بوجه القوات البريطانية والأمريكية . حتى اننا قذفنا في الأخير بسبعين فرقة في معارك ايطاليا وفرنسا، ولو أننا أعطينا ستاً او سبعاً من الفرق الالمانية الميكانيكية في صيف سنة ١٩٤٢، لقضينا نهائياً على البريطانيين، ولا نمحى ذلك الخطر الذي يتهددنا في جنوب حوض البحر الأبيض المتوسط لمدة طويلة، ولو توفرت سلامة النية، لأمكن امداد هذه التشكيلات وتنظيم تموينها تموينا كافياً . غير أن القيادة لم تنتبه الى هذه الناحية إلا بعد أن بدأت معركة تونس . فقد حاولت إذ ذاك مضاعفة امداداتنا، ولكن هذا القرار جاء بعد فوات الأوان، لأننا كنا آنذاك غارقين الى آذاننا، في المشاكل التي أثارها بوجهنا ميدان البحر الأبيض المتوسط .

وبعد مرور فترة قصيرة تم إيصال ثمانية عشر الف طن من الامدادات الى أفريقيا، من أصل ستين ألف طن كان مقرراً ارسالها، نقول بعد هذه الفترة تغير الموقف فجأة وكان ذلك بفضل المبادأة التي أخذ الفيلد مارشال كسلرنغ بزمامها، حيث استطاع سلاحنا الجوي في ربيع ١٩٤٢، أن يضمن السيادة الجوية في القطاع الرئيسي من البحر الأبيض المتوسط .

وقد عززت الغارات الالمانية والايطالية الواسعة على جزيرة مالطة، الحقيقة القائلة بان تهديد خطوط المواصلات البحرية، يكون في بعض الأحيان ذا نتائج طيبة، كما لو ان تلك الخطوط قد استئصلت برمتها ! .

فعن طريق تحديد خطوط مواصلات العدو في البحر الأبيض المتوسط حسب، يمكن زيادة امداداتنا المتدفقة على طرابلس وبنغازي ودرنة .

تقوية الجيش الثامن

ثم عرض رومل بعد ذلك لما قامت به الحكومة البريطانية من تقوية الجيش الثامن وتموينه بكل ما يقع في يدها، على نحو أسرع مما قام به الالمان · واشار الى قوافل الاسطول البريطاني التي أخذت تصل تباعاً الى الموانئ المصرية، تحمل العتاد من انكلترا وأمريكا عبر طريق رأس الرجاء الصالح الذي يبلغ طوله اثني عشر الف ميل، ولا تستطيع وسائل النقل البريطانية أن تقطعه الا مرتين في العام · ورغم هذا، ورغم النشاط الكبير الذي بذله سلاح الغواصات الالمانية لعرقلة وصول ذلك العتاد، استطاع البريطانيون تعزيز قواتهم في الشرق الأدنى على نحو يستحق الاعجاب والتقدير، وبشكل لم نستطع نحن أن نضارعهم فيه · وفضلاً عن ذلك فقد كان البترول متوفراً للقوات البريطانية، حيث تزخر به معامل التكرير في الشرق الادنى · اما موانئ التموين البريطانية فقد كانت هدفاً للغارات الالمانية، غير أن تلك الغارات لم تكن عنيفة الا نادراً ·

ومن هذه الموانئ كان البريطانيون يجلبون امداداتهم الى الجبهة بوساطة ثلاثة طرق هي:ـ

١ ـ الخط الحديدي القوي الممتاز الذي يمتد من السويس حتى ضواحي طبرق ·

٢ ـ نظم الاسطول البريطاني خط شحن ساحلي بطريقة مدهشة حقاً · وقد كانت طبرق، وهي من أحسن الموانئ الموجودة في أفريقيا الشمالية، إحدى نقاط ذلك الخط البحري ·

٣ ـ الطريق البري الذي انشئ بصورة جيدة، وكان من السعة بحيث سهل على قوافل سيارات الامدادات استعماله · وكان هذا الطريق يمتد في الصحراء الغربية بين الاسكندرية وطبرق ·

وفضلاً عن هذا فقد وقفت الى جانب الانكليز شعوب ذات نفوذ عظيم، فكانت تلك الشعوب تعمل كل ما في طاقتها لتنظيم مصلحة تموين الحلفاء وفق أحسن الخطط المعروفة آنذاك ·

لقد استفاد اعداؤنا من حقيقة ان شمال أفريقيا هو الميدان الرئيسي للحرب التي تخوضها الامبراطورية البريطانية، ومن هنا عنيت بريطانيا العناية كلها، بأن يكون لها اسطول جبار ومن الدرجة الاولى في القوة والضخامة، بينما كنا نحن نعتمد على اسطول حلفائنا الايطاليين، ذلك الاسطول الذي لا يعول عليه ·

لقد أصبح واضحاً لنا بأن البريطانيين سيحاولون بكل ما اوتوا من قوة وحيلة، تدمير جيوشنا في اللحظة التي يشعرون فيها انهم اصبحوا من القوة بحيث يستطيعون المبادأة بالهجوم ٠ لقد كان جناحنا الجنوبي ينتثر في ساحة مكشوفة، وعما قريب سيكون لدى الجنرال ريتشي عدد كبير من العمليات المختارة ٠ وعلى هذا فستصبح خطوط تويننا مهددة تماماً، فاذا ما اضطررنا الى الانسحاب نتيجة الخطر الذي نتعرض له، فاننا سنقع في مصاعب جدية، ذلك لأن معظم فرقي الايطالية غير مزودة بالآليات، غير ان ريتشي لم يكن له من الوقت ما يعينه على استغلال الفرص العديدة التي سنحت له، لأنني صممت على أن اسبقه في هجومه ٠

مواضع البريطانيين في مرمريكا

كانت خطة البريطانيين الاساسيه في الدفاع عن مرمريكا، تتميز بالجهود التي يبذلونها كيما يخدعوا المهاجم بنوع من الحرب تلائم القيادة البريطانية اكثر من حركات المناورة في الصحراء المكشوفة ٠ والحقيقة ان تنفيذ هذه الخطة كان، من الوجهة الفنية، ممتازاً جداً، غير ان البريطانيين تناولوا حل المعضلة عن طريق مقدمات فاشلة سلفاً ٠ اذ ان التمسك بنظام الدفاع الجامد في ميدان مثل افريقيا الشمالية، وبوجود جناح جنوبي مكشوف، من شأنه ان يؤدي الى الكارثة ٠ ففي مثل هذه الاحوال لا **يمكن** نجاح المعركة الدفاعية، الا اذا حولت تلك المعركة الى حركة ديناميكية عامة تشترك فيها القوات الآلية ٠

وطبيعي ان تكون للمواضع المحصنة قيمتها المهمة اذا ما استطاعت تلك المواضع حرمان العدو فرصة القيام باية عمليات حربية خاصة ٠ على انه من الضروري ان لا تكون هذه المواضع مشغولة بالقوة المخصصة للدفاع الديناميكي اي المتنقل ٠

اما الخطة التي اتبعتها انا واركان حربي، فقد هيأت لنا امكانية اتخاذ القرارات الحاسمة في اكثر الظروف ملاءمة ٠ غير ان مصير جيشي لم يكن ليعتمد - في اي حال من الاحوال - على النجاح في هذا الرأي وحده ٠

ولقد وضعت تجاربي المعتادة التالية حسبما قدرته من البداية، على قاعدة ان الامور لا يمكن ان تسير وفق خطة معينة، فكلما ادرك المحارب الحالة عند ابتداء المعركة، كلما استطاع تجنب الخسارة والكارثة ٠

فنحن دخلنا المعركة يغمرنا الايمان بالنصر، لاننا كنا نعول على جنودنا، وعلى تدريبهم التكتيكي الممتاز وتجاريبهم في المبادأة ٠

خطة الهجوم

ان حركة الهجوم المكشوف يجب ان تنجز، عن طريق هجوم جبهوي تقوم به فرقة المشاة الايطالية التي كانت تحتل مواضعها في الغزالة امام الفرقة الانكليزية الخمسين وفرقة جنود جنوبي افريقيا · وقد تقرر ان تسند هذا الهجوم مدفعية قوية · وكان الانطباع السائد في الليل والنهار ان تكون.مراكز احتشاد الدبابات خلف الجبهة، ولهذا الغرض ينبغي ان يوجه مسير الدبابات وسيارات النقل بشكل دائري في تلك المنطقة ·

اما القيادة البريطانية فكانت تتوقع ان يكون هجومنا الرئيسي في الجزء الشمالي والوسط من موضع الغزالة · بينا كان الذي اردنا انجازه هو، ان ندفع بتشكيلات الدبابات البريطانية الى ما وراء المشاة في ذلك القطاع من المنطقة ·

كان هجوم الالمان الجبهوي ضد موضع الغزالة في نظر القيادة البريطانية أمراً يبدو جد سخيف وخاصة بعد أن استحال علينا تماماً أن نفضل هجوماً كهذا، على المخاطر التي تنجم عن قيامنا بحركة كماشة حول بير حكيم ·

فلو ان محاولتنا في مخادعة البريطانيين، والرامية الى أن يركزوا كل قوى دباباتهم،كانت قد فشلت، إذن لتوقعنا أن يبعثوا، على أقل تقدير، بجزء من الوية دباباتهم في ذلك القطاع، ولأمكن بهذا تمزيق قواتهم المهاجمة

كانت جميع حركات قواتي لآلية أثناء ساعات النهار، موجهة نحو النقطة التي سيبدأ عندها هجوم المشاة الايطاليين · ولكن بعد أن يحل الظلام يكون على الجحفل الآلي أن يندفع الى منطقة احتشاداته · وكان هذا الجحفل يضم الفيلق الأفريقي الالماني بما فيه الفرقتان المدرعتان الخامسة عشرة والحادية والعشرون، كما يضم الفيلق الآلي الايطالي العشرين، والفرقة الخفيفة التسعين، وثلاث وحدات استطلاعية · وقد تقرر أن يبدأ تقدم قواتنا الذي سيأخذ شكل هجوم مفتوح على بير حكيم، في الساعة العاشرة صباحاً · فمن هناك كان على الفيلق الافريقي الالماني والفيلق الايطالي العشرين وفرقة «اريتا» للدبابات وفرقة «تريست» الآلية، ان تندفع الى الساحل عن طريق «عكرمة» لتقطع بذلك خط امدادات البريطانيين، وتسحق فرقهم وقوى دباباتهم المحتشدة في موضع الغزالة ·

ولقد صدرت الاوامر الى الفرقة الخفيفة التسعين ان تندفع الى داخل منطقة «العظم الحامض» تصحبها وحدات الاستطلاع الثلاث، لتحول دون انسحاب حامية طبرق منها،

ولتحلب النجدات الى منطقة عكرمة · يضاف الى هذا انه كان علينا ان نحول دو استفادة البريطانيين من مستودعات التموين القيمة التي أنشأوها في المنطقة الواقعة شرقي طبرق ·

ولكي نخدع البريطانيين بان لدينا قوى دبابات هائلة في تلك المنطقة، صدرت الأوامر الى الفرقة التسعين الخفيفة بأن تتزود بسيارات نقل ثبتت عليها مكائن هوائية ومراوح (دفاسات) قوية، لاثارة الغبار، وايهام العدو بانها دبابات تتحرك وليست لوريات · وكان هدفنا من هذه الحركة هو الحيلولة دون اشتراك القوات البريطانية الموجودة في تلك المنطقة، في معركة عكرمة، كما يتسنى لوحدات دباباتنا كسب تلك المعركة · وما ان تم تدمير القوات البريطانية في مرمريكا، حتى وضعنا في الحال خطة اقتحام حصن طبرق بسرعة · غير ان حريتي في العمل قد قيدتها اوامر الدوتشي القاضية بأن لا أتعدى المنطقة المتاخمة للحدود المصرية !!

ومن الامور التي سبق تقريرها انه كان ينبغي احتلال جزيرة مالطة من قبل قوات المظلات الالمانية الايطالية والقوات المنزلة اليها من السفن، وان يتم هذا الاحتلال قبل أن يبدأ هجومنا في الصحراء، ولكن قيادتنا العليا ـ ولسبب لم يكن في الحسبان ـ تخلت عن هذه الخطة !

وكان من سوء الحظ ان أجل هذا العمل الجذاب الذي كنت اعتمد على جيشي في انجازه، الى فصل الربيع · وكانت نتيجة ذلك التأجيل ان تعاظمت قوى بريطانيا الحربية، وان حددنا تأريخ الهجوم في اليوم السادس والعشرين من ايار ١٩٤٢ ·

معركة موضع الغزالة

تشمل معركة الغزالة الاسابيع الثلاثة المبتدئة في السادس والعشرين من ايار والمنتهية في اليوم الخامس عشر من حزيران · ففي خلال هذه الاسابيع الثلاثة شهدت الصحراء الغربية حرب ابادة كبرى وبأفظع أشكالها · وعندما بدأت المعركة كانت وبالاً علينا أول الأمر · غير ان الظفر اصبح حليفنا بعد أن حدث تحول في القتال فيما بعد، وكان بعض ذلك الظفر يعزى جزئياً الى الهجمات التي استهدفنا من ورائها اغراضاً محددة، كما يعزى بعضه الآخر الى وسائل دفاعنا، ودحر التشكيلات البريطانية الممتازة بالرغم من الشجاعة التي ابدتها ·

وقد كان انتصار قواتي الالمانية الايطالية في نظر القوات البريطانية الممتازة، بالغ الدهشة للرأي العام العالمي ·

فقد انتقدت تصرفات خصمي الجنرال البريطاني ريتشي انتقاداً مراً، فهل كانت هزيمة قواته ناجمة في الواقع عن اخطاء وقع فيها ذلك القائد ؟ · لقد اطلعت مصادفة بعد المعركة على مقال نشره الناقد الحربي «ليدل هارت»، وعزا فيه فشل القيادة البريطانية اثناء معركة افريقيا، الى حقيقة ان القادة البريطانيين كانوا متمسكين بحرفية فنون معارك المشاة · والواقع ان هذا هو ذات ما شعرت به انا نفسي ·

فالقيادة البريطانية لم تستفد شيئاً من هزيمة ١٩٤١ ـ١٩٤٢ ـ، بل ظلت متمسكة بالنظريات القديمة، كارهة ان تدخل عليها اي تغيير أو تعديل · وهذا بعينه ما ادى الى فشل الجيش الروسي امام نابليون · وقد شاعت هذه الفرضية ذاتها اثناء الحرب بين كلا الفريقين من الضباط البريطانيين والالمان، الذين ظلوا غارقين الى ذقونهم في تلك النظريات المعقدة البالية، ففقدوا بذلك قابلية التكيف طبقاً للظروف ولما تتطلبه حقيقة الوضع ·

لقد برز مذهب عسكري جديد، ورسمت خطوطه بكامل تفاصيلها · وينظر الآن الى هذا المذهب على انه خلاصة الحكمة العسكرية · ففي نظر الضباط القدامى، لا يمكن قبول سوى الافكار العسكرية التي تترسم خطى قواعدهم النموذجية فهم يعتبرون كل فكرة تخالف هذه القواعد، مغامرة اذا نجحت فان نجاحها قد يكون نتيجة الصدفة والاتفاق ليس الا ·

ولقد كانت نتائج هذا الرأي الذي استبد بعقول بعض الضباط، تكبد خسائر فادحة لم تكن في الحسبان قط ·

لقد تطورت فنون الحرب، وتأثرت القواعد الحربية بهذا التطور تأثراً كبيراً · فالنظريات التي كان الأخذ بها صالحاً في حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨، لا يصح الأخذ بها في هذه الحرب، الا اذا كان الجزء الاعظم من القوات المحتشدة على الجانبين أو على الاقل الجانب الذي يطبقها، مؤلفاً من وحدات مشاة غير آلية · ففي مثل هذه الحالة تقوم القوات المدرعة مقام الخيالة، التي يعهد اليها بمطاردة المشاة وتشتيت شملهم، فلابد اذن ـ كما اوضحت سلفاً ـ من تطبيق قواعد مختلفة تمام الاختلاف في الحرب التي تخوضها قوات آلية كاملة من كلا الفريقين المتحاربين ·

ومهما كانت قيمة تطبيق التقاليد الحربية في ميدان آداب الجندية بالغة فان هذا الاسلوب ينبغي ان يحط منه في حقل العلوم العسكرية ·

ذلك لانه في ايامنا هذه لم يترك القادة العسكريون وحدهم، ان يتبصروا في الطرائق الحديثة، فتصبح عديمة القيمة لهذا السبب · فقد تغيرت اليوم قابليات الحرب بالتقدم الفني تغيرا

تاماً، ومن هنا كان واجبا على قائد الجيش الحديث ان يتحرر من الاساليب والطرق الروتينية البالية، وان يكون على علم تام بالمسائل الفنية ٠ كما يجب عليه ان يكون على استعداد لان يتكيف وفق الظروف والاحوال المحيطة بالجبهة، وان يقلب الخطط التي رسمها من قبل رأساً على عقب، اذا ما وجد ذلك ضرورياً ٠

ثم يصدر رومل بعد هذا حكمه على الجنرال ريتشي فيقول : «وانني أرى ان منافسي الجنرال ريتشي، ككثير من قواد المدرسة القديمة، لم يتحقق تماماً من النتائج التي تترتب على العمليات الميكانيكية الكاملة، ومن انفساح الصحراء أمامه ٠ ورغم الدقة الممتازة التي اتبعها في تنفيذ خططه، فقد كان مآلها الفشل، لانها كانت خالية من الجرأة !»



الفصل الثامن والثلاثون
كيف تقتحم حقول الالغام

الجندي البريطاني - قبل العلمين - عودة الى الماضي

وعلى الرغم من الحالة الخطرة التي أحاقت بنا مساء السابع والعشرين من أيار، وأثارت في وجهنا مشاكل معقدة خطيرة، فقد كنت كلي آمالاً، عما ستتكشف عنه المعركة في النهاية . ذلك لأن الجنرال ريتشي قد قذف بتشكيلاته المدرعة في المعركة على انفراد، وفي أوقات متباينة، وبهذا منحنا فرصة الاحاطة بها وتدميرها بما كان لدينا من دبابات . غير ان هذا التدمير الذي أوقعناه بالالوية البريطانية المدرعة لم يكن مفهوماً .

ففي اعتقادي ان تضحية البريطانيين بفرقتهم السابعة المدرعة جنوب «بير حرمات» وجنوبه الشرقي، لم يخدم غرضنا في المعركة الديناميكية . إذ لم يكن هنالك أي فارق فيما اذا كانت فرقي المدرعة قد نازلت العدو في تلك النقطة، أم في «طريق العبد»، حيث دخلت بقايا القوى الانكليزية المدرعة المعركة أخيراً .

وكان يبدو ان الهدف الرئيسي الذي سعى البريطانيون لتحقيقه، هو أن يقذفوا بكل ما كان لديهم من التشكيلات المدرعة في المعركة وفي وقت واحد . فهم لم يسمحوا بالخدعة التي اريد من ورائها تمزيق قواتهم قبل المعركة، او أثناء الخدعة التي قمنا بها ضد موضع الغزالة .

والواقع ان وحداتهم المزودة تزويداً فائقاً بالآليات، قد أعانتهم على اجتياز ميدان المعركة بسرعة هائلة كما لو كان هنالك خطر يتهددهم .

ان المعارك المتحركة في الصحراء، يمكن مقارنتها بالمعارك البحرية تمام المقارنة . ذلك أن من الخطأ أن تهاجم جانباً من السفن، وتترك اخرى غيرها في الميناء خلال المعركة.

(وهنا أدرج رومل تفصيلاً للحوادث التي تلت ذلك التاريخ حتى مساء اليوم التاسع والعشرين من أيار مما لم نشأ نقله في كتابنا)

●●●

ما ان بدأت تباشير صباح اليوم الثلاثين من أيار وراحت انواره تغمر الكون حتى كانت كل فرقة من الفرق قد تحركت الى المنطقة التي خصصت لها واتخذت موضعاً دفاعياً . وقد لاحظنا خلال هذه الحركات، تدفق قوات بريطانية قوية تدعمها الدبابات الى منطقة «العوالب»، فكانت هذه القوات تؤلف اللواء البريطاني المائة والخمسين التابع للفرقة الخمسين التي عززت مؤخراً، وفي الوقت ذاته نجح قسم من الفيلق الايطالي العاشر في اجتياز حقول الالغام البريطانية، فأنشأ له رأس جسر على الجانب الشرقي من تلك الحقول، على الرغم من النار الحامية التي صبتها المدفعية البريطانية على الايطاليين أثناء قيامهم بتطهير الطريق من الالغام، تلك النار التي كان لها تأثيرها الفعال على ارتالنا المتحركة .

وفي ظهر ذلك اليوم تم الاتصال بين القوات العاملة في الميدان والفيلق الايطالي العاشر، وبذلك تم فتح طريق مباشرة في الغرب لتأمين وصول الامدادات والنجدات . وفي أثناء النهار كان اللواء البريطاني قد طوق في «غوط العوالب» .

وفي المساء اندفعت عبر حقل الالغام، حيث يقع مقر قيادة الفيلق الايطالي العاشر، وذلك للاجتماع بالفيلد مارشال كسلرنغ قائد الفيلق الايطالي والمقدم فون بلو ممثل الفوهرر، ولاطلعهم على الخطط التي اعددتها للمعركة .

كانت حقول الالغام البريطانية قد سترت بالفيلق الافريقي الالماني من اي هجوم قد تقوم به الوحدات البريطانية من الشمال الشرقي . وفي الوقت ذاته صممت على تحطيم الجزء الشمالي من موضع الغزالة بكامله، ومعاودة الهجوم بعد ذلك . وكان ينبغي ان تشمل هذه العملية قبل كل شئ تحطيم اللواء البريطاني المائة والخمسين في العوالب، واتباعه باللواء الفرنسي الأول في بير حكيم .

وكل ما فعله العدو هنا، انه راح يتعقب انسحابنا متردداً حذراً . فقد جاء ارتداد التشكيلات الالمانية الايطالية مفاجأة مدهشة له، وكان من اثرها ان القيادة البريطانية لم تستغل ذلك الارتداد، فتعاود الهجوم ضدنا بالسرعة المطلوبة .

لقد لاحظنا صباح الثلاثين من ايار ان البريطانيين قد تمركزوا في مواضعهم شرقي جبهتنا، تشد ازرهم مائتان وثمانون دبابة، بينما حشدوا شمالنا قوات من المشاة تساندها مائة وخمسون دبابة • ولقد لبثنا ننتظر قيام البريطانيين بهجوم شديد ضدنا • غير ان مثل هذا الهجوم لم يقع، وانما استعيض عنه في الصباح بهجمات بريطانية ضئيلة، وجهت نحو فرقة اريتا الايطالية، وقد صدت هذه الهجمات من قبل الايطاليين وان كان الانكليز قد أصابوا بعض التقدم في بقية قطاعات الجبهة، وقد تم تحطيم سبعة وخمسين دبابة انكليزية في ذلك اليوم •

وفي المساء قمت نفسي باستطلاع لاعرف قابلياتي في مهاجمة القوات الانكليزية التي تحتل غوط العوالب • وقد اعددت قسماً من الفيلق الافريقي الالماني، وآخر من الفرقة التسعين الخفيفة • وفرقة تريست الايطالية، لمهاجمة مراكز البريطانيين في تلك المنطقة في الصباح التالي •

تقدمت التشكيلات المهاجمة ضد اللواء البريطاني المائة والخمسين في صباح اليوم الحادي والثلاثين من أيار • وقد شقت الوحدات الالمانية الايطالية طريقها يرداً فيرداً الى امام، فجابهت مقاومة بريطانية عنيفة لا يتصورها العقل ! كانت خطة الدفاع البريطاني قد اعدت بمهارة وحذق • وقد حارب البريطانيون - كما هي عادتهم - حتى آخر اطلاقة بقيت لديهم، واستعملوا نوعاً جديداً من المدافع المضادة للدبابات ذات عيار ٥٧ مليمتراً، ومع ذلك فقد توغلنا، مساء ذلك اليوم، في منطقة مهمة من مواضع البريطانيين • وفي اليوم التالي كان على القوات البريطانية أن تتلقى الضربة الأخيرة • فبعد قصف قوي قامت به طائراتنا، اندفعت قواتنا نحو مواضع البريطانيين، وفي هذا اليوم اشتركت انا والعقيد فستفال مع القوات المهاجمة في المعركة ، وقد جرح فستفال - لسوء الحظ - جرحاً بليغاً في ذات اليوم، إذ اصيب بشظية قنبلة مدفع بريطاني، ثم نقل الى اوربا للمعالجة وهكذا بقيت اعمل لوحدي في الايام التي تلت ذلك الحادث • كانت اصابة فستفال خسارة فادحة فقد كانت مساعداته لي ذات قيمة عالية لا تقدر، لما امتاز به من خبرة ومعرفة واستعداد لحسم الامور حسماً ناجحاً •

واستمر الهجوم، وراحت خطوط الدفاع البريطانية التي احسن انشاؤها وتعزيزها، تسقط الواحد تلو الآخر في يد قواتنا، وهكذا ما ان انقضى ظهر ذلك اليوم حتى استولينا على مركز العوالب برمته، عندما بلغت المقاومة البريطانية نهايتها • وقد أخذنا من البريطانيين ثلاثة آلاف أسير، وحطمنا واستولينا على ١٠١ دبابة وسيارة، وغنمنا ١٢٤ مدفعاً من مختلف الأنواع •

الجندي البريطاني

أشار روميل، في الوصف الذي أعطاه للعمليات الحربية التي حدثت في الأيام القلائل التالية لمعركة الغزالة، الى ما كان يتمتع به خصومه البريطانيون من جدارة واستحقاق، وما يعتورهم من نقص فقال :ـ

في ذلك اليوم أخلى لواء الحرس البريطاني موضع «جسر الفرسان»، بعد أن تعرضت تلك المنطقة طيلة الصباح الى قصف مركز من المدفعية بشكل لم يخطر على بالنا قط ٠ وقد كان هذا اللواء في الواقع نموذجاً حياً للصفات السلبية والايجابية التي يمتاز بها الجندي البريطاني ٠ فقد توافرت لهذا الجندي الشجاعة الخارقة والجلد، وفي ذات الوقت ظهر فيه عجزه البارز عن التحرك بسرعة ٠

(وبعد ان تحدث روميل عن سقوط طبرق، المح الى القرار الذي صمم على تنفيذه في افتتاح مصر، على الرغم من الأوامر التي اصدرها موسوليني بعدم التقدم نحو القطر المصري) ٠

كانت تلك هي الخطة التي قد يكتب لها النجاح ٠ فهي تجربة ٠ ولم يكن القيام بتلك العملية ليؤثر على سلامة جيشي ٠ وكما وقع فعلاً، كان باستطاعتنا ان ندافع عن انفسنا بنجاح في اية حالة ممكنة اثناء تقدمنا ٠ غير ان هذا التقدم قد تعرض في النهاية الى شئ من الانتقاد ٠ فقد قيل في حينه ان ارتال الامدادات العاملة في شمالي افريقيا لن تصبح قادرة ـ اثناء الزحف السريع المتواصل ـ على ضمان طريق تمويني طويل يمتد من بنغازي الى العلمين، وان البريطانيين سيستفيدون كثيراً من قصر خطوط امداداتهم الممتدة بين بورت سعيد والجبهة، غير ان مثل هذا الانتقاد يمكن دحضه بالدلائل التالية :ـ

(أ) ان تفوق البريطانيين في السلوم، كان اكثر فعالية من تفوقهم في العلمين، فباستطاعة العدو ان يشطر قواتنا، ثم يشرع في تحطيم فرقنا الآلية بما في ذلك تشكيلاتها المدرعة التي كانت ـ اثناء معركة العلمين ـ تحتفظ بتفوق ساحق ليس بالعدد ـ كما كان ذلك قبلاً ـ وانما بالنوعية ايضاً ٠

وعلى هذا كان من المتوقع ان يؤدي سحب مشاتنا غير الآلية من جبهة السلوم الى تحرج وضعنا، اكثر مما لو انسحبنا من العلمين ٠ فقد كانت قواتنا هذه ـ خلال معركة العلمين ـ تمثل مجموع الجيش، اما في السلوم فلم تكن لديها الفرصة الكافية للقيام بأي عمل فعال ٠ ذلك لان المواضع التي كانت تحتلها قواتنا في السلوم، لم تكن تتطلب اية محاولات جدية من العدو

لاقتحامها، وانما كان يكفي لدحر قواتنا تلك ان يقوم العدو بحركة هجومية بسيطة ۰ وقد كان على هذه القوات ان تختار أحد أمرين : فاما ان تكون غنيمة باردة للوحدات البريطانية الآلية. أو أن تتحمل عبء الانسحاب ۰

والحقيقة انه كان على ارتال امداداتنا ان تتغلب على مصاعب شاقة اثناء الزحف داخل الحدود المصرية، وكان من الأمور الجوهرية ان نطلب بعض الامدادات من ادارة التموين في روما، بعد ان ارهق سائقو الدبابات والمشاة في قتال استمر ثلاثة اسابيع دون انقطاع ۰

وهكذا أخذت الامدادات تتدفق عن طريق البحر الى الموانئ الواقعة في المنطقة المتقدمة، كما سبق أن وعد به في مثل هذه الاحوال ۰ فعندما بلغتني الأوامر القاضية بالاندفاع داخل مصر، خيل الي بان الظفر النهائي الذي أصبح في مصر قاب قوسين او أدنى، لابد وان يستفز القيادة الايطالية العليا الى عمل ما من شأنه أن يضاعف من جهودها ۰ وهذا سيهئ لي من الوقت ما أستطيع خلاله الاستفادة من الموانئ التي نستولي عليها في زيادة امداداتنا ۰

(ب) لم يكن من المتوقع أن تتحسن حالة امداداتنا في السلوم أيضاً، ذلك لأن كلاً من بنغازي وطبرق ـ بدلاً من طبرق ومرسى مطروح ـ ستكون هدفاً للمقنبلات البريطانية، وستتأثر بذلك كثيراً ۰ فمدينة بنغازي مثلاً يمكن أن تستخدم لمختلف الاغراض، ولرسو السفن الضخمة، وهذا معناه اتساع طريق الامدادات وامتداده حتى طرابلس التي ستكون خارجة عن قابلية ارتال امداداتنا ۰

اما بالنسبة للبريطانيين فمن النادر ان تبتعد حركاتهم عند الحدود بعض الشئ عن مركزهم التمويني ۰ فقد كان في متناول يدهم السكك الحديدية، والعدد الكافي من سيارات النقل والطرق الصالحة، بالاضافة الى الملاحة الساحلية ۰

كانت الفرقة النيوزيلندية التي يقودها الجنرال فرايبورغ ـ أحد الضباط القدامى المحنكين الذين استفادوا مثلى من الحروب السابقة ـ قد تمركزت ليلاً ثم اندفعت نحو الجنوب ۰

وما لبث القفر اللامع ان غمر مقر قيادتي الذي كان يمتد الى الجنوب ۰ فقد كان جحفل «موقعة كيل» وجزء من فرقة «لوتوريو» في غمرة الوغى ۰ وكان تبادل النيران بين قواتي والنيوزيلنديين، قد بلغ الذروة من الشدة والعنف، وعلى الاثر طوق مقر قيادتي بالسيارات المحترقة، فأصبحت بذلك هدفاً لنيران العدو المستمرة التي كانت تقذف علينا من مسافة قصيرة ۰ وما ان توالى القصف بعد ذلك حتى اصدرت اوامري الى هيئة اركان حربي بأن تتراجع نحو الجنوب الشرقي ۰ وقد تم هذا التراجع في وقت بلغ فيه القتال منتهى القسوة والجنون، ونشر فيه

الظلام حجابه الكثيف في سماء المعركة، بحيث لم يعد في استطاعة أحد ان يبصر يده اذا ما مدها امام عينيه · لقد بلغ من شدة الظلام ان راح السلاح الجوي البريطاني يقذف الجنود البريطانيين بقنابله، بينما راحت وحداتنا تطلق النيران على بعضها البعض ·

قبل معركة العلمين

استطاع البريطانيون - بسرعة عجيبة - ان يعززوا قواتهم في العلمين، وقد ادركت قيادتهم العليا ان المعركة القادمة ستكون الحاسمة · ولذلك سارعت الى دراسة الحالة بعناية ودقة فائقتين، وقد شحذ الخطر الجاثم همم البريطانيين فبذلوا جهوداً خارقة · فحينما تتحرج الامور وتحدق الاخطار من كل جانب، يستطيع المرء ان يحقق من الاهداف ما كان هو نفسه يعتبره من المستحيلات، ذلك لانه لا يوجد شئ كالخطر يجرف في طريقه الافكار التي سبق تصورها ·

لقد ثبتت الجبهة في اليوم الثالث عشر من حزيران · فمن وجهة نظر القيادة البريطانية استطيع ان أقول بان البريطانيين كانوا في أحسن مركز لهم، لان كفاءة البريطانيين انما تتجلى في التكتيك، كما يظهر ذلك واضحاً في الحرب البرية وفي الحرب الساكنة، فهم متخصصون في الهجوم المحلي، الذي يقومون به في حراسة دبابات المشاة والمدفعية ·

ومركز العلمين يمتد من البحر شمالاً الى منخفض القطارة جنوباً، وهي منطقة من الرمال اللينة، ومن ثم فهي لا يمكن عبورها بسيارات النقل الثقيلة · ولما كان مركز العلمين لا يمكن تطويقه، فان الحرب لا تمكن أحد الفريقين المتحاربين من استخدام الاساليب المفاجئة للفريق الآخر · ونتيجة مثل هذه الحرب الساكنة هي دائماً في صالح اكثر الفريقين تموينا وامدادات ·

ولقد حاولت أخيراً ان اتفادى هذه الحرب الساكنة، التي يعد البريطانيون اساتذة فيها ودربوا جنودهم عليها، وان ابلغ الصحراء المترامية الاطراف قبل الاسكندرية، كما اعاود هناك «العمليات العسكرية» التي برعنا فيها في الصحراء، ولكنني لم اوفق الى ذلك، لان البريطانيين عرفوا جيداً كيف يحولون دون تقدم قواتي التي كانت قد ارهقت الى اقصى حدود الارهاق ·

عودة الى الماضي

ان معركة الصيف قد بدأت بانتصارنا انتصاراً خرافياً، فبعد أن سقطت طبرق، أخذت قوة الامبراطورية البريطانية تظهر من جديد · ولم يخالجنا الأمل في أننا سنستولي على منطقة

قناة السويس الا بضعة أيام . فبينما كان ينبغي علينا أن نحارب في كل معركة بنفس ما لدينا من قوات، كان البريطانيون قادرين على أن يلقوا في المعركة بقوات جديدة مسلحة تسلحاً تاماً، كما كانوا قادرين على أن يسحبوا من الجبهة تلك الفرق التي تحطمت في قتالها غرب مصر، لتستريح وليعاد تنظيم صفوفها، في حين ظل جنودنا يحاربون، وأخذت قواتنا تنقص يوماً بعد يوم. وعدد الجرحى والقتلى يزداد .

لقد دخلنا المعركة بنفس الأفواج التي قادت الهجوم الاول، وركب جنودها السيارات البريطانية التي وقعت في أيدينا، وكانوا يقفزون منها ومن الناقلات، على المراكز البريطانية عبر الرمال . كما دخلنا المعركة بالدبابات والمدافع نفسها التي ارهقتها المعارك السابقة ! وكانت البطولة التي أظهرها ضباطنا وجنودنا في تلك الأسابيع المنصرمة قد بلغت أقصى الحدود التي تستطيعها قابلية الانسان .

وكنت اطالب قواتي بما لا طاقة لها به، فلم أدخر فرداً واحداً منها، ولم أعف انساناً من القيام بهذا العبء، جندياً كان أم ضابطاً أم قائداً . بل لم أعف من الاشتراك في القتال حتى نفسي !

وكان واضحاً لي تماماً ان سقوط طبرق بانهيار الجيش الثامن، هو الفرصة الوحيدة في الحرب الأفريقية التي تفتح لي الطريق الى الاسكندرية . فهذا الطريق لم يكن يحميه الا عدد قليل من الجنود البريطانيين، فاذا لم نستغل هذه الفرصة الوحيدة أنا وجماعتي بكل وسيلة ممكنة، فاننا نكون في منتهى الحماقة . ولو أن الانتصار كان يقوم، كما كان في العصور القديمة، على قوة ارادة الجنود وتصميهم وعنادهم وصلابة قائدهم، إذن لتخطينا العلمين . ولكن .. ولكن موارد امداداتنا كانت قد نضبت، والفضل في ذلك يرجع الى الفوضى والضعف في مستودعاتنا في اوربا .

وفي ذلك الحين انهارت مقاومة التشكيلات الايطالية، وكان واجب الزمالة يقضي علي أن اقول بوضوح، وبخاصة لأنني القائد الأعلى للايطاليين أيضاً، ان الهزائم التي منيت بها القوات الايطالية في اوائل تموز قبل العلمين، لم يكن الجندي الايطالي مسئولاً عنها . فالجندي الايطالي له عزيمة، وليس أنانياً، كما انه زميل طيب القلب، وان الأعمال التي يقوم بها لتعد فوق المتوسط، ولا سيا اذا نظرنا الى الظروف التي يحارب فيها . هذا الى أن ما قامت به الوحدات الايطالية، والميكانيكية منها خاصة، ليفوق كل ما قام به الجيش الايطالي أبان قرن مضى . وكان بين الايطاليين ضباط وقادة يحوزون اعجابنا كرجال وكجنود .

اما تلك الهزيمة الايطالية فترجع الى النظام العسكري الايطالي، والى الحكومة الايطالية، كما ترجع الى نقص العتاد، والى عدم اكتراث كثير من كبار القادة الايطاليين الحكام، وكثيراً ما حال هذا كله بيني وبين تنفيذ خططي !

الفصل التاسع والثلاثون

معركة علم الحلفا

العلمين ـ الرجوع الى أفريقيا ـ عودة الى العلمين

أخذ شهر آب ينصرم وقد قارب نهايته، ومع ذلك فان الامدادات العاجلة التي وعدت بها، بما فيها من ذخيرة وبترول، لماتصل بعد ٠ وهذا النزر الذي كان وجوده أمراً حيوياً بالنسبة لحركاتنا الحربية، هذا النزر هو الآخر شرع بالتناقص والاضمحلال، في حين ان أي تأخير في وصول تلك الامدادات الينا يعني الكف عن الهجوم الذي وضعنا خطته ٠

ومهما يكن الأمر فقد سبق للمارشال كافليرو ان أنبأني بأن السفن الموسقة بالبترول ستكون عندي بعد ساعات أو اليوم التالي على الأقل ٠ ولقد ظللت أحلم بانجاز هذا الوعد، وآمل ان يتحقق ما صرح به المارشال كسلرنغ، من انه سيبعث الي بخمسمائة طن من البترول جواً اذا اقتضت الضرورة ذلك ٠ ولما كنت اعتقد أن مضي الليالي المقمرة سيفوت علينا آخر فرصة امامنا للقيام بالهجوم، فقد اصدرت اوامري بأن يبدأ الهجوم في ليلة ٣٠ ـ ٣١ من آب، كما أعد من قبل ٠

كان كل شئ قد هئ منذ ايام خلت ٠ وقد اعددنا ذلك على اساس توقعنا وصول البترول بين لحظة واخرى، غير اننا في الحقيقة لم نرد أن نبدأ هجومنا قبل أن يصل الينا هذا البترول، اذ ان وعود كافليرو في هذا الصدد لا يمكن التعويل عليها ٠

ولقد دافع البريطانيون، في المراحل الاولى من المعركة، عن مراكزهم بقدرة بالغة وعناد تام، كان من نتيجته ان بعثوا بالانذارات والتقارير الضافية عن الحالة الى القيادة البريطانية، مما وفر لها الوقت الكافي لتهيئة التدابير المضادة اللازمة · وكانت هذه اللحظة التي تنفس البريطانيون فيها الصعداء ذات اهمية عظمى لديهم · فلقد كانوا في حاجة الى تثبيت جبهتهم. كما تستطيع قواتهم المحاربة التحشد والاستعداد لضرب القوات الالمانية الايطالية التي كانت تواصل تقدمها ·

كانت خطتي هي أن اتقدم بقواتي الآلية مسافة خمسين كيلومتراً اخرى في ضوء القمر، ومن هناك اواصل الهجوم الى الشمال عند الفجر · غير ان هذه الخطة لم يكتب لها النجاح، فقد حالت بعض العقبات الارضية دون تقدم دباباتنا، وبذلك فقدنا عنصر المفاجأة الذي كان عماد خطتنا ·

واذا ما وقع تقدم من قبل القوات الآلية في الجنوب، فان البريطانيين سيكونون في حاجة ماسة الى الوقت الذي يستطيعون خلاله القيام باعمال الاستطلاع، ووضع القرارات والعمل على تنفيذها، وفي خلال هذه الحركات تكون قواتنا قد تحررت من اي هجوم مضاد قد يشن عليها · غير اننا فقدنا الانتفاع من هذه الفرصة السانحة، فقد عرف البريطانيون الموضع الذي كنا فيه، ووجدت ان قرارنا بمتابعة القتال أو الكف عنه انما يتوقف بالدرجة الاولى على الأحوال المحيطة بالفيلق الافريقي ·

فلقد علمت بعد ذلك حالاً بان الفيلق الافريقي، بقيادة الجنرال بايرلاين، قد اقتحم الالغام البريطانية، وكان على وشك ان يندفع نحو الشرق · وهكذا بحثت الوضع مع الجنرال بايرلاين، واتفقنا نحن الاثنين على مواصلة الهجوم · ونظراً لمعاودة الدبابات البريطانية تحشدها واستعدادها للقيام بهجوم مباشر، فلم يعد بامكاننا ان نندفع نحو الشرق بسبب الخطر الاكيد الذي يتعرض له جناحنا، حيث كان مقرراً تركيز الفرقة السابعة المدرعة في الجنوب وتحشيد الفرقتين المدرعتين العاشرة والاولى في الشمال · وعلى هذا صممنا على ان نتحول في وقت مبكر نحو الشمال · كان هجومنا ذاك قد فشل لاسباب ثلاثة هي :ـ

(أ) كانت مواضع البريطانيين في الجنوب قد تكاملت قوتها بشكل واسع، على النقيض من المعلومات التي زودتنا وحداتنا الاستكشافية بها، وحملتنا على تصديقها ·

(ب) كانت الهجمات التي شنها سلاح الطيران البريطاني ضدنا باستمرار، والتي اسلمته زمام السيادة الجوية، كانت هذه الهجمات قد أعاقت جنودنا عن أية حركة وجعلت من المستحيل علينا احراز أي تقدم وفقاً للخطة المقررة من قبل ·

(ج) كان البترول، وهو الشرط الضروري لتنفيذ خططنا، لم يصل في الوقت المحدد له . والسفن التي وعدنا بها كافليرو قد اغرق البعض منها، وتأخر البعض الآخر. هذا في الوقت الذي لم تكن فيه بعض هذه السفن قد ابحرت الى افريقيا فعلاً. وكان من سوء حظنا عدم تمكن كسلرنغ من انجاز وعده بارسال خمسمائة طن من البترول جواً في اليوم، الى جبهة كانت في امس الحاجة الى هذه المادة .

العلمين

(كان رومل ـ قبل مرضه وعودته الى المانيا ـ قد أعد العدة اللازمة لمقاومة الهجوم الذي كان يتوقع أن يشنه البريطانيون ضده في العلمين) .

«كنا في هذه المعركة، كما في المعارك التي سبقتها، متفوقين على البريطانيين ـ ونحن في صحراء مكشوفة ـ من ناحية التدريب والقيادة .

فقد كان في وسع البريطانيين ـ من الناحية التكتيكية ـ أن يستفيدوا جيداً من المعارك والالتحامات التي وقعت بيننا وبينهم، الا أنهم لم يستطيعوا ذلك بسبب النظام التقليدي المحافظ الذي كان يسير عليه الجيش البريطاني، والذي لا يلائم الحرب في الصحراء المكشوفة، وان كان يجدي في المعارك التي تنشب في جبهات ثابتة .

وعلى الرغم من ذلك كله لم نخاطر في القيام بالعمليات الدفاعية الكبرى في الصحراء للاسباب التالية :ـ

(أ) لقد اصبحت قوى فرقنا الآلية ضعيفة ناقصة بشكل ملموس . فبينا كان خصومنا يعززون انفسهم بوحدات آلية جديدة، لم تصلنا نحن سوى وحدات غير آلية كانت عديمة الجدوى في حرب الصحراء، ولذلك اجبرنا على أن نختار نوع الحرب التي تستطيع وحداتنا هذه الاشتراك فيها .

(ب) التفوق الجوي الذي ناله البريطانيون، والتكتيكات الجديدة التي أخذ السلاح الجوي البريطاني يمارسها، يضاف اليها ما سبقت الاشارة اليه من التقييدات التي ترافق استخدام القوى الآلية .

(ج) النقص الاساسي الذي كنا نعانيه في البترول . فقد وجدت نفسي غير قادر على دخول المعركة لان حركتنا قد شلت بسبب نقص البترول، فنقص البترول في الحركات الدفاعية المتحركة، يعني الكارثة .

الرجوع الى أفريقيا

وبينا نحن كذلك اذ استدعاني الفوهرر لمقابلتـه · وكان الموقف في العلمين قد ساء الى حد اصبح معه من الضروري أن يطلب الي الفوهرر العودة بطريق الجو الى افريقيا لتولي القيادة · وقد عدت في الصباح التالي · وكنت على يقين انه لم تعد في افريقيا اكاليل اخرى من الغار · ذلك انني علمت من التقارير التي نظمها ضباطي، ان امداداتنا قد هبطت الى ما دون الحد الادنى من الطلبات الضئيلة التي طلبتها · وهكذا اصبح واضحاً، وفي وقت قصير جداً، بانني كنت اجهل حقيقة كيف ساءت الامور في افريقيا من الناحية التموينية ·

وعندما هبطت روما حوالي الساعة الحادية عشرة قبل الظهر التقيت في المطار بالجنرال «رنتلن» الملحق العسكري الالماني، وضابط الارتباط مع القوات الايطالية · وقد اطلعني رنتلن على آخر تطورات الحوادث في الميدان الافريقي · فبعد تمهيد قوي من المدفعية احتل العدو اجزاء عدة من مواقعنا القائمة الى جنوب المرتفع ٣١، وان عدة افواج من الفرقة المائة والرابعة والستين واخرى غيرها من الايطاليين، قد ابيدت عن بكرة أبيها، وكان الهجوم البريطاني ما يزال مستمراً، وما يزال الجنرال اشتومة مفقوداً · ومما ذكره لي الجنرال رنتلن انه لم يعد بيد الجيش الالماني الايطالي في افريقيا غير ثلاث مستودعات من البترول، اذ انه لم يكن في الامكان ارسال كميات اكثر في الاسابيع الأخيرة بسبب كثرة ما اغرقه البريطانيون من سفننا، ولان الاسطول الايطالي لم يعد العدة لنقل الكميات المطلوبة من البترول الى شمال افريقيا ·

لقد اصبح الموقف بالغ الخطورة · ذلك لأنه خصص لكل سيارة تعمل بين الجبهة وطرابلس من البترول مايكفي لقطع ٣٠٠ كيلومتر حسب · وقد كانت هذه الكمية من الضآلة بحيث انها تحول دون استمرار المقاومة عندنا · ان هذا النقص الهائل في البترول من شأنه ان يحول بيننا وبين اتخاذ القرارات التكتيكية ، ويضع تقييدات قاسية على الخطط التي ارتأينا العمل بها ·

لقد كنت حانقاً الى آخر درجات الحنق ، ذلك لانه اثناء سفري من افريقيا ، كان لدينا في ميدان مصر وليبيا مالا يقل عن ثماني مستودعات من البترول ، والذي ينبغي ان لايقل عن ثلاثين مستودعاً ·

وقد اظهرت التجارب انه يحتاج الى مستودع واحد من البترول (مايكفي لقطع مائة كيلومتر) في كل يوم من ايام المعارك ، فبدونه يتعطل المحارب عن الحركة ، مما يسهل على العدو العمل بنشاط دون ان يكون في مقدور خصمه اتخاذ الاجراءات العملية المضادة ·

ولقد أسف رنتلن لهذا الموقف وقال انه كان ـ لسوء الحظ ـ في اجازة ، ولذلك لم يكن في استطاعته ان يولي مسألة الامدادات العناية الكافية التي تستحقها !

ولما وجدت اننا سنخوض هذه المعركة وليس لنا سوى أمل ضئيل حتى في نوال ظفر دفاعي ، واصلت طيراني عبر البحر الأبيض المتوسط بطائرتي الخاصة «اللقلق» فهبطت في مقر قيادتي بأفريقيا · وفي منتصف ذلك اليوم عثر على جثة الجنرال فون اشتومه ، فنقلت الى درنة · كانت الظروف القاسية التى احاطت بوفاته تتلخص في ان الجنرال شتومه قد اندفع باحدى السيارات الى ميدان المعركة ، وعندما بلغ المرتفع ٢١ ، اطلق بعض المشاة البريطانيين النيران عليه من رشاشاتهم ومدافعهم المضادة للدبابات ، وقد اصيب العقيد «بختنغ» الذي رافق فون اشتومه بجرح بليغ في رأسه ، وعلى اثر ذلك انحرف السائق نائب العريف وولف بالسيارة . اما الجنرال فون شتومه فقد قفز من السيارة وتعلق بالقسم الخارجي منها في الوقت الذي كان فيه السائق يندفع بجنون خارج نطاق نيران العدو وفي الحال اصابت الجنرال فون شتومه سكتة قلبية فسقط من السيارة ، دون أن يشعر السائق بسقوطه · وفي صباح يوم الأحد وجد فون شتومة ميتاً بجانب احدى السيارات دون ان يصاب بأي جرح كان ·

وبعد أن وصف رومل المعركة وصفاً ضافياً ، اورد نص البرقية التي بعث بها اليه موسوليني ، والتي تدل على مدى سوء فهم الدوتشي ودوائر روما للموقف في الميدان الافريقي · وهذه هي البرقية :

«الفيلد مارشال رومل ··

«لقد كلفني الدوتشي ان انقل اليك اعظم تقديره لهجومك المضاد الموفق ، الذي قدته بنفسك · والدوتشي يعرب لك عن ثقته بأن المعركة الآن في تقدم وانها بقيادتكم ، ستبلغ النصر المنشود» ·

ثم سرعان مابدأ واضحاً ان هيئة اركان حرب هتلر ، ليست أحسن فهماً للموقف في افريقيا · وربما كان من سوء الحظ احياناً ان تكون للانسان شهرة عسكرية فأنا اعرف حدود قدرتي ، ولكن غيري من الناس يتوقعون مني ان آتي بالمعجزات !

عود الى العلمين

ثم يجمل رومل الحديث عن معركة العلمين فيقول : «لقد خسرنا المعركة الحاسمة في الحملة الافريقية ، وكانت حاسمة لاننا خسرنا فيها الجانب الاكبر من مشاتنا وقواتنا الميكانيكية

، كم كانت نتائجها أبعد من ان تقدر . ولكن الشيء الذي يبعث على الدهشة حقاً ، هو أن الدوائر الرسمية في كل من الجانبين الالماني والايطالي ، لم ترجع هذه الهزيمة الى اسبابها الحقيقية من العجز التام في الامدادات ، وتفوق الحلفاء علينا في سلاح الطيران ، بل هي حتى لم ترجعها الى الأمر الذي صدر الينا بالنصر أو الموت دون العلمين ! . فمسئولية الهزيمة كلها يجب عندها ، ان تقع على الجنود وقوادهم . ولا شك ان هذه الاحكام الجائرة لايجرؤ على اصدار مثلها الا من طال بعدهم عن الميدان ـ فشاخوا وهرموا ـ كما جاء في الامثال . بل انهم ذهبوا في احكامهم علينا الى حد أن رمونا بأننا كنا نلقي سلاحنا أمام الحلفاء ، ووصموني بأنني من انصار الهزيمة ، وبأنني استسلم لليأس والتشاؤم حين امنى بهزيمة ، وفي المواقف التي يشتد حرجها ، ولذلك يحملني هؤلاء مسئولية كل ماحدث ، وما ذاك الا لأنهم يحقدون عليّ ، ويستكثرون انتصاراتي حسداً ، وهم اليوم يطلقون السنّهم الحداد ينهشون بها سيرتي ، وبالامس لم يكن واحد منهم يجرؤ على أن يفتح شفتيه بكلمة .

وكان الجيش فريسة هذه النزهات ، وحينما وقع الجيش كله في ايدي البريطانيين ، عقب مغادرتي افريقيا ، كان السادة الاستراتيجيون اصحاب المقاعد الوثيرة العالية ، مازالوا يفكرون ويديرون الخطط في رؤوسهم متسائلين : ماذا عسانا فاعلين في الدار البيضاء ؟ !

«وليس من الانصاف في شيء أن ننكر ان كثيراً من اولئك السادة اصحاب المراكز الرفيعة ، لم يكن ليعوزهم الذكاء الكافي لادراك ماهو واقع في شمال افريقيا ، وانما تعوزهم الشجاعة التي يواجهون بها الحقائق التي لايمكن تغييرها ، وليهتدوا بها !»

«انهم كنعام الصحراء يتوقعون الخطر باخفاء رؤوسهم في الرمال ، ويعيشون في احلام جميلة رحبة ، فاذا جد الجد ، ووقعت الواقعة ودارت الدائرة ، راحوا يبحثون عن الابرياء المساكين من الجنود والقادة في الميدان ، ليحملوهم اوزارهم !»

«ورغم تجاربي الطويلة ، لايسعني الا ان اعترف بالخطأ الواحد الذي وقعت فيه ذلك هو انني لم اراوغ ولم أهمل تماماً ، ذلك الأمر الذي صدر اليّ «بالنصر أو الموت» دون العلمين . فلو انني اهملت ذلك الامر ، لكانت هناك فرصة لانقاذ الجيش وكل قوات المشاة ، ولاصبحوا جميعاً بعد قليل أكثر «مقدرة على معاودة القتال» .

ولكيلا ادع ثغرة للشك في نفوس المؤرخين بشأن الاحوال والملابسات التي كنا نعمل فيها في معركة العلمين ، لايسعني الا ان اجمل الموقف فيما يلي :

من الحقائق الثابتة بأنه لا قوام لجيش ، مالم يكن مطمئناً الى حصوله على حاجته من

للذخائر والاسلحة والمؤن والبترول ، لكي يتمكن من مواجهة الموقف ومواصلة القتال ·· فقبل ان تبدأ المعركة الحقيقية ، تحتدم المعركة ويتقرر مصيرها من قبل امراء الاعاشة والتموين ، وان اشجع الشجعان لايستطيع ان يعمل من دون مدافع ، والمدافع لاقيمة لها دون ان تكون لديها كفايتها من الذخيرة ، والمدافع والذخيرة في حرب تقوم على الحركة ، لاتنفع شيئاً الا اذا تيسر نقلها على ناقلات لديها كفايتها من البترول · وفي المستقبل ستكون المعارك الحربية مسبوقة بالمعارك الجوية · فهذا هو الامر الذي سيحدد من سيقاسي من الاضرار السوقية والتكتيكية التي اسهمت في ذكرها اعلاه ، ومن الذي سيجابه منذ البدء خطأ تكتيكياً بيناً ·

أن شيئاً من المطالب الحيوية التي ابديناها لم يتحقق على اي نحو من الانحاء، ولهذا كان علينا ان نعاني مرارة النتائج !

ذلك لان السيادة البريطانية على الجو ، ثم على الماء ، تبعاً لذلك ، في المنطقة الوسطى من حوض البحر الابيض ·· جعلت مواردنا اقل من ان تكفينا لنعيش ، يضاف الى هذا وفرة مالدى العدو من ذلك كله · بل انه لم يحدث قط في اي ميدان من ميادين القتال ان احتشد فيه ماحشد البريطانيون يومئذ من الدبابات الثقيلة وقاذفات القنابل والمدافع ، ومن المؤن التي لاتنضب ، وهذا كله في جبهة قصيرة كجبهة العلمين ·

كانت القيادة الجوية البريطانية قد استكملت اسبابها · فقد جاءت أيام قام فيها البريطانيون بثمانمائة هجمة من المقنبلات ، والفين وخمسمائة هجمة من المقاتلات والقاذفات وذوات الطيران المنخفض · اما من ناحيتنا نحن فلم نكن نستطيع القيام بأكثر من ستين هجمة بالمقنبلات ، ومائة هجمة بالمقاتلات ، وقد تضاءلت هذه الهجمات باستمرار فيما بعد ·

وبكلمة عامة كانت مبادىء القيادة البريطانية لم تتغير رغم ان تكتيكاتهم اصبحت متطورة ·

والحقيقة ان هذه المبادىء قد اعانت الجيش الثامن على النجاح للاسباب التالية :ـ

١ ـ ان الجيش الثامن لم يدخل المعركة في صحراء مكشوفة ، بينما كان على قواتنا الآلية ان تؤلف جبهة من أجل حماية فرق المشاة التي كانت تدخل المعارك دون سند من وسائل النقل · فالحرب قد اخذت صفة معركة مواد ليس الا ·

٢ ـ كان للبريطانيين التفوق الساحق في السلاح من ناحية الكم والكيف ، بحيث اصبحوا قادرين على مجابهة اي نوع من انواع العمليات الحربية ·

كانت الاساليب التي استخدمتها القيادة البريطانية في تدمير قواتي ، نتيجة من نتائج سيادتها المطلقة · فكانت تلك الاساليب تتألف من : ـ

(١) تركيز نيران المدفعية تركيزاً كبيراً وعلى نطاق عال (٢) القصف الجوي المستمر الذي تقوم به اسراب قوية من القاذفات · (٣) الهجمات المحلية المحدودة التي كانت تجري عن طريق الافراط في استعمال المواد ، والتي اظهرت درجة عالية جداً من التدريب ، جاءت مطابقة للظروف المحيطة بها تمام المطابقة ·

كان بعض هذه الخطة التي اتبعتها القيادة البريطانية ، يقوم على مبدأ الحساب الدقيق ، ذلك المبدأ الذي لايمكن اتباعه إلا في حالة التفوق المادي · والواقع ان البريطانيين لم يقوموا بـ يمكن ان يوصف بأنه «عملية» ، وانما ركزوا جل اعتمادهم على التأثير الذي تحدثه مدفعيتهم وقوتهم الجوية · وكانت القيادة البريطانية ـ كما هو شأنها دائماً ـ تبدي تباطؤاً ملحوظاً في اعمالها ·

ففي ليلة ٢ ـ ٣ من تشرين الثاني شرعنا بالانسحاب ، وقد مر علينا وقت طويل قبل ان يبدأ العدو في تعقبنا ومطاردتنا، ولو اننا تدخلنا في الأمر التعس الذي اصدره هتلر، لكان في استطاعتنا النجاة، وبلوغ «فوكا» بكامل مشاتنا ·

وكانت القيادة البريطانية ـ كالعادة ـ تتمسك بحذرها التقليدي ، وباتخاذ القرارات الخالية من العنف · مثال ذلك ان البريطانيين كانوا يهاجموننا بين حين وآخر، بوحدات منفصلة من الدبابات ، ولم يقذفوا ـ كما توقعنا ـ بالتسعمائة دبابة التي كان باستطاعتهم استعمالها ، وبدون ان يحملوا انفسهم مغبة المخاطرة ، بدأوا حركاتهم في الجبهة الشمالية ، مستخدمين تفوقهم الساحق للحصول على نتيجة سريعة بأقل مايمكن من الجهد والخسارة ·

والحقيقة انه كان بستطاعة البريطانيين ، تحت ذلك الستار من نيران المدفعية والطائرات ، أن يقذفوا بنصف قواتهم الى المعركة ، ويبيدوا قواتي التي فقدت قابلية الحركة في ميدان المعركة · وأكثر من ذلك تكبد البريطانيون أنفسهم خسائر فادحة لهذا السبب ، وقد تكون القيادة البريطانية أرادت أن تحجز دباباتها في الخط الثاني لاستخدامها في تعقب قواتنا ·

ولقد استفادت القيادة البريطانية استفادة كبرى من المعارك التي خاضتها ضد قوات المحور ، في تدريب تشكيلاتها من المشاة والدبابات تدريباً ممتازاً · غير انه يمكن القول بأن الأساليب الجديدة التي تطبقها القيادة البريطانية الآن ، انما طبقتها لوفرة مالديها من الذخيرة ومواد الحرب الحديثة ·

وقد أظهرت المدفعية البريطانية ماتمتاز به من قوة وسرعة ، وعلى الاخص قابليتها العظمى وسرعتها في التهيد للقوات المهاجمة · وكانت قوات الدبابات البريطانية تقوم بنقل مراقبي المدفعية الذين يرفعون التقارير عما تحتاج اليه الجبهة في أسرع وقت ممكن ، وايصالهم الى وحدات المدفعية · ويضاف الى هذا ان وفرة الامدادات والمؤن وتوفر مدافع من طراز عال . قد عاد بفوائد جلى على البريطانيين ·

وقد استطاع البريطانيون بمدافعهم تلك أن يدكوا مواضع المدافع الايطالية ، حيث لم تستطع هذه المدافع الرد على البريطانيين لضعفها ، ولأن اقصى مدى كانت تبلغه يتراوح بين خمسة وستة كيلومترات ·

وقد كان من سوء أوضاعنا ، ان جزءاً كبيراً من مدفعيتنا كان يضم مدافع ايطالية من هذا النوع ·

ان شجاعة الجنود الالمان ، وكثير من الايطاليين في المعركة ، حتى في أحرج الساعات ، لشيء يستحق الاعجاب حقاً · فهذه القوات ، ولاشك خلفت وراءها سجلاً من المجد احرزته في عام ونصف عام ، ماكان ليحرزه غيرها أي جيش من الجيوش ، ولا غَرو ، فان كل جندي من جنودي لم يكن يدافع عن وطنه حسب ، ولكنه كان الى هذا يدافع عن تقاليد الفيلق الأفريقي ·

وإذن ، يمكن أن أقول : ان صفحة مجيدة في تاريخ الشعبين الالماني والايطالي ، قد خطها جيشي في أفريقيا ، بما أبداه من بسالة وجَلَد وصدق بلاء ، ورغم انه لم يكن صاحب النصر الأخير !



الفصل الاربعون

العودة الى تونس

(أعد رومل اثناء انسحابه من العلمين في تشرين الثاني ١٩٤٢ ، خطة للعمليات المقبلة في شمالي أفريقيا ، وقد كانت هذه الخطة أساس المحادثات التي جرت بين رومل وكل من باستيكو وكافليرو وكسلرنغ وغورنغ وهتلر) .

(أ) ليس باستطاعتنا الصود بوجه الهجمات البريطانية في أي موضع في طرابلس ، مادامت الأحوال التموينية الحاضرة لاتسمح لنا باستبدال الأسلحة والدبابات والسيارات ، وما دام الاحتياطي من البترول - وهو أمر ضروري للمعارك المتحركة - لايفي بالغرض ، ذلك لأن من السهل على العدو اقتحام جميع مواضعنا في الجنوب ، ولهذا اصبح من اللازم ان نضع العبء الرئيسي من الدفاع ، على عاتق القوات الآلية .

وعلى هذا كان من الضروري لنا أن نعد العدة منذ البداية ، لاخلاء طرابلس كيما نستطيع الاحتفاظ بقابس .

أن تنفيذ خطة الانسحاب هذه من «مرسى البريقة» ، الى تونس ، تعتمد على اعتبارين هامين : أولاهما كسب الوقت جهد المستطاع ، وثانيهما انجاز عملية الانسحاب بأقل مايمكن من الخسائر في الرجال والمواد .

وكانت المشكلة الرئيسة التي تجابهنا في هذا التراجع ، هي القوات الايطالية غير الآلية .

فالتشكيلات التي تتحرك ببطء ، والتي لايمكن ان نتخلى عنها ، هي التي تقرر مصير سرعة التراجع للجيش كله · وهذا يؤلف كارثة كبيرة للجيش المتراجع ، وخاصة اذا ماجابه مهاجماً متفوقاً عليه بآلياته تفوقاً ساحقاً · لهذه الاسباب كان من الضروري ان تنتقل الفرق الايطالية الى مواضع جديدة في الغرب ، قبل ان يبدأ الهجوم البريطاني ، وذلك بغية الاحتفاظ بالقوات الآلية في مرسى البريقة بوجه البريطانيين ، ولالغام الطريق والاستفادة من كل فرصة ممكنة لتحطيم طلائع العدو الزاحفة ·

وقد اظهر القائد البريطاني من الحذر مايتعدى حدود الوصف · فهو لم يغامر بشيء ، ولم يقم بأي عمل ينطوي على الشجاعة · وعلى هذا كان من واجب قواتنا الآلية ان تترك لدى العدو انطباعاً ينبيء بانها في منتهى النشاط ، لكي تزيد من حذر البريطانيين ، وتحملهم على التباطوء في الزحف ·

كنت على يقين من ان مونتغمري لن يغامر في ضربنا بقوة ، أو يعمل على مطاردتنا ، مادام يستطيع ان يواصل زحفه دون خسارة وبأمان وسلامة تامتين · والحقيقة اذا مانظرنا الى هذه العمليات كمجموع ، نجد ان مثل هذا المسرى لايلحق به الا خسائر طفيفة جداً ، بالنسبة لتلك التي يتكبدها لو انه أصر على اساليبه ، فأظهر تفوقاً ساحقاً في كل عملية تكتيكية ، وضحى بعامل السرعة لديه ·

وعلى كل حال فقد كان ينبغي ان ينجز التراجع نحو تونس في مراحل عدة ، وان يجبر البريطانيون على أن يبتعدوا عن بعضهم البعض حسب الامكان · وقد كانت هذه الحركة مقامرة بالنسبة لحذر القائد البريطاني ، الذي اثبتت الوقائع انه كان محقاً فيه ·

كان خط «بيراث» يعد الموضع الاول ، بينما كان خط ترهونة ـ حمص يعتبر الموضع الثاني · وحتى في هذا القطاع لم نكن قد عزمنا بعد على التفكير في دخول المعركة ، وانما قصدنا بدلاً من ذلك ان تتحرك مشاتنا مقدماً ، بينما تلتحم قواتنا الآلية مع العدو التحاماً خفيفاً لتأخر تقدمه · اما في قابس التي تشبه العلمين ، فقد كان علينا ان نصمد نهائياً ، مادام لم يعد في الامكان مهاجمتنا من الجنوب ·

(ب) كان على مشاتنا ان تتحمل في قابس الثقل الرئيس من المعركة · فالموضع ذاته لايساعد على القيام بهجوم تشنه القوات الآلية ، وانما يمكن اقتحامه عن طريق تركيز كميات هائلة من المواد ·

فالمارشال مونتغمري لن يخاطر ، وانما سيحتاج الى بضعة شهور ، كيما يستطيع جلب

كفايته من المواد الحربية من ليبيا ، ويصبح قادراً على شن هجوم في وادي العكاريت ، يطمح من ورائه الى النجاح .

وفي الوقت ذاته كان يجب تعزيز القوات الآلية ، وتزويدها بالذخائر التي تساعدها على بلوغ تونس ، في الوقت الذي يستمر التراجع فيه .

وكان من المتوقع وصول الفرقة الخامسة المدرعة ، وإذْ ذاك تصبح لدينا فرصة لابأس بها لانشاء قوة مهاجمة اخرى .

كان الخطر الكبير الذي يجابهنا ، هو انفساح الجبهة واتساعها غربي تونس ، الأمر الذي من شأنه أن يمنح البريطانيين والأمريكيين في تلك المنطقة فرصاً طيبة للقيام بالهجوم . ولذلك كان علينا قبل كل شيء أن نشن هجوماً هناك بكل مالدينا من آليات ، وأن نحطم جزءاً من التشكيلات الانكلو - أمريكية ، وندفع بالبقية الباقية منها الى الجزائر .

وفي الوقت ذاته لم يكن مونتغمري ليأمل القيام بأية حركة في قابس ، قبل أن يتمكن من تهيئة كميات وافرة من الذخيرة لمدفعيته .

وبعد أن ضربنا الانكلو - أمريكان في غربي تونس ، وجردناهم من القوة التي تعينهم على شن هجوم ضدنا ، كان ينبغي أن نعيد تنظيم قواتنا في أسرع وقت ممكن ، وأن نهاجم مونتغمري وندفع به متراجعاً نحو الشرق ، فنؤخر امتداده بذلك ! غير ان انجاز مثل هذه العملية من الصعوبة بمكان ، بسبب طبيعة الأرض التي لاتساعد على حركة كهذه .

(ج) لايمكن الاحتفاظ بليبيا او تونس اثناء التقدم الطويل . ذلك لأن مصير الحرب الأفريقية كان قد قرر بمعركة الاطلنطي . ففي اللحظة التي أصبحت فيها الولايات المتحدة - بمالديها من قابلية صناعية هائلة - تشعر بأنها تستطيع العمل في أي مرسح من مراسح الحرب ، في هذه اللحظة فقدنا فرصة احراز أي نصر حاسم .

فحتى لو افتتحنا أفريقيا كلها ، ولم نترك للامريكيين سوى رأس جسر يستطيعون عن طريقه نقل موادهم الحربية ، فاننا نكون قد خسرنا القارة الافريقية تماماً[٣١]

فالمهارة التكتيكية في مثل هذه المرحلة لايمكن أن تحول دون الهزيمة ، وانما كل ماتستطيع أن تؤديه هو أن تؤخر تلك الهزيمة بعض الوقت . وعلى هذا ينبغي أن يكون

---

(٣١) ذكر المؤلف : ان هذا الراي يناقض آراء رومل السابقة ، ويؤيد وجهة نظر الجنرال هالدر ، فقد ظل رومل يصر بأنه لو تهيأت له المساعدة التي يريدها لأفتتح الشرق الاوسط في ربيع وصيف ١٩٤٢ .

الهدف في معركة تونس ، كسب الوقت لنتمكن من سحب قواتنا بسلام الى أوربا . ولما كانت تجاربنا قد أظهرت ان لاأمل لنا في الاحتفاظ بجيش كبير في تونس ، فأن جهودنا يجب أن تتركز في تقليص قواتنا المحاربة ، وجعلها تشكيلات صغيرة مزودة بالأسلحة تزويداً تاماً . واذا ماأضطر الحلفاء الى اتخاذ قرار ما بالهجوم ، فان علينا أن نخرق الجبهة ، ونخلي اكبر عدد ممكن من قواتنا بطريق الجو والبحر . ويجب أن يكون أول صمود لنا في المنطقة التي تغمرها التلال ، والتي تمتد حول تونس من «انفيدا فيل» . اما الصمود الثاني فينبغي أن يكون في شبه جزيرة «كاب بون» .

فعندما يحتل الحلفاء تونس في الأخير ، سوف لايجدون فيها أياً من قواتنا ، أو أقل عدد من الأسرى ، وبهذه الوسيلة يحرمون من ثمار انتصارهم ، كما حرمنا نحن من امثال ذلك الانتصار في دنكرك .

(د) يجب أن تؤلف من القوات التي يراد سحبها الى ايطاليا قوة محاربة . ذلك لأن هذه القوات كانت تمتاز بالتدريب الحسن وبالتجارب الحربية التي خبرتها في حربها ضد الانكلو ـ أمريكان .

وأكثر من ذلك قد تحدثت أنا نفسي اليهم عن هذا ، وأنبأتهم ان قيمتهم تحت قيادتي لايمكن أن تقاس الا بكامل عددهم .

انتهى الكتاب

الملاحـــق

ملحق أول

كيف قتلوا أبي

بقلم : منفرد

(على أثر صدور كتاب رومل ووصول نسخة منه الى منفرد ابن المارشال رومل ، كتب منفرد هذا مقالاً في إحدى الصحف الألمانية ، أوضح فيه كيف نكل هتلر وعصابته بالمارشال رومل واصدقائه . وها نحن نقدم هنا ترجمة ذلك المقال) .

لقد حكم القدر وقضى على والدي ، وخبت تلك الشعلة الوضاءة ، واهيل التراب على جثمان أشهر قائد عرفته الحرب العالمية الثانية .

فهل يسمح لي الآن أن أكشف عن صفحة خاصة من حياة والدي العظيم ؟ .

لقد كان والدي يؤمن بما قاله نابليون ، من ان لكل شخص كوكب في كبد السماء يضيء ويخبو ، متتبعاً حياة صاحبه . أما والدي فقد بلغ نجمه كبد السماء، غير ان ذلك اللمعان لايعبر عن الحقيقة ، إذْ أنه توهج وأضاء ولكنه لم يدم طويلاً وسرعان ماهوى وانطفأ .

فبين عامي ١٩٤٠ ـ ١٩٤٢ برز والدي في طليعة القواد الالمان ، نظراً لما اظهره من بسالة فائقة وعبقرية خارقة في ادارة دفة المعارك وخاصة في الشمال الافريقي .

ولم يكن والدي في تلك الايام ، كعادته ، من المخلصين للحزب النازي أي انه لم يكن من المتحمسين للحزب ومبادئه ، بل انه كان يعد نفسه قائداً عسكرياً لادخل له بالسياسة . لذا فقد أسر الى الهر هتلر ، بعد هزيمة الالمان في العلمين ، بأن انتصار الالمان في الحرب ضرب من المحال، بسبب تناقص الاسلحة والمعدات الالمانية باستمرار، وازديادها مطرداً عند الحلفاء. وخاصة الامريكان .

وقد كان جواب هتلر على هذا الرأي الذي ابداه والدي قوله :ـ

«انني اوافقك على ماتقول ، ولكن ماالعمل اذا كان الحلفاء يرفضون التفاهم معي بأية صورة كانت» ٠

وعلى أثر توالي الاندحارات الالمانية ، أخذ بعض القادة الالمان يؤمنون بضرورة انهاء هذه المجزرة ، غير انهم كانوا يتهيبون التصريح بآرائهم ، حتى فيما بين زملائهم من القادة الآخرين ، هذا اذا اخذنا بنظر الاعتبار ان الحلفاء كانوا يريدون الاستسلام بدون قيد وشرط ٠

وفي مساء اليوم الخامس من حزيران سنة ١٩٤٤ ، وفي نفس الوقت الذي كانت فيه سفن الانزال الحليفة تغزو نورماندي ، كان والدي في طريقه الى «برختسغادن» المقر الخاص للهر هتلر ، لمطالبة الفوهرر بسحب بعض الفرق من داخل المانيا وبعض البلاد الاوروبية الاخرى ، وارسالها الى الجبهة الغربية في فرنسا لمقاومتها الغزو المنتظر ٠

وعندما سمع والدي بنبأ الغزو من الراديو المثبت في سيارته ، صرف النظر عن هذه المقابلة الخاصة ، واستدار قافلاً الى باريس لادارة دفة العمليات الحربية على الساحل الفرنسي ٠

ولما كان والدي يؤمن بضعف القوات الالمانية ، ونقص تجهيزاتها في الجبهة الغربية ، ولما كان يعلم جيداً ان هتلر ليس على استعداد تام لمعاونته في ارسال النجدات ، فقد قرر ان يأخذ الأمر على مسؤوليته الخاصة ، ويتخذ مايلزم من قرارات تؤمن نجاح العمليات الحربية ، أو الاستسلام للحلفاء اذا مادعت الضرورة الى ذلك ٠

ولهذا فقد ارسل مذكرة مستعجلة الى القيادة الالمانية العليا ، كتب فيها «يدافع جنودنا دفاعاً مستميتاً عن مواقعهم الحربية ، ولكن هذه المقاومة اليائسة لن تجدينا نفعاً ، بالنظر لتفوق الحلفاء علينا في العدة والعدد ٠ فالنتيجة معروفة سلفاً !

وانني بصفتي قائداً للجبهة الغربية أرى ان يركن الى الحكمة والصواب ، كيما نتجنب النتيجة المروعة ، وانهاء هذه المقاومة اليائسة منذ الآن » ٠

وبعد ارسال هذه المذكرة حاول والدي أن يعمل بوحي الساعة ، ويقرر مايتراءى له بانه في مصلحة البلاد ، ولكن ٠٠ وتقدرون فتضحك الاقدار ٠٠ !

فقد اعترضه سيل من الرصاص قضى على كل آماله في تحقيق ماانتواه ٠ وتفصيل الحادث هو ان والدي بعدما يقرب من يومين من ارسال مذكرته تلك ، ركب سيارته الخاصة ليتجول في الجبهة بقصد التفتيش كعادته دائماً دون حراسة ، وبينما هو يتنقل بسيارته في الجبهة التقت

به طائرة أمريكية ، فهبطت نحوه واطلقت عليه الرصاص من رشاشاتها من علو واطىء ، واصلته ناراً حامية فاصيب والدي في رأسه وكتفه بجروح عديدة ، غير أن السيارة واصلت سيرها ، وبعد مسافة قصيرة اصطدمت بشجرة ضخمة على الرصيف ، وذلك بسبب اصابة السائق اصابات مباشرة ٠

وبعد اصطدام السيارة بالشجرة انقلبت في حفرة على جانب الطريق ، وعلى أثر ذلك نقل المارشال والدي الى مستشفى الميدان حيث اجريت له الاسعافات الأولية ، وظهر بنتيجة الفحص ان هناك كسراً في الجمجمة ، وآخر في الفك الأعلى ، وكدمات قوية حول العين اليسرى نتيجة اصدام السيارة وانقلابها ٠

كان الجنود الالمان ينسحبون أو بالاصح يهربون نحو الشرق بسرعة فائقة ، ولما كان والدي تحت المعالجة في المستشفيات الأمامية ، فقد ركب بمساعدة بعض الجنود ، في سيارة نقل المانية فانسحب هو الآخر مع جنود الرايخ ، مخالفاً بذلك نصائح الاطباء الذين طلبوا منه الراحة ، وعدم الحركة بسبب أن اصابته قاتلة ٠ اما سبب هروب والدي وتعريض نفسه لخطر المضاعفات ، فهو انه كان يأنف من الوقوع في الأسر ، فلهذا فضل تعريض نفسه للموت من الوقوع بأيدي الاعداء ٠

وبعودة والدي الى بلاده لاحقته المصائب والكوارث ، ويكفي للدلالة على ذلك أن الجنرال «اشبيدل» ورئيس أركان حربه ـ وكان قد سرح من الخدمة آنذاك ـ جاءنا ذات يوم للزيارة ، وبمجرد خروجه من دارنا القى الغستابو القبض عليه دون أن يوجه له أية تهمة ، سوى زيارة المارشال رومل ٠٠ بطل معارك الشمال الافريقي ٠٠٠

وفي نفس اليوم الذي القي فيه القبض على الجنرال اشبيدل ، كنا نرى رجال الغستابو يحيطون بدارنا يحصون على والدي حركاته وسكناته ٠٠

وعندما رأى والدي ذلك أيقن انه أصبح من المغضوب عليهم وانه قد وضع في القائمة السوداء ٠

ولهذا أصبح لايغادر الدار بمفرده وبدون سلاح يحمله ٠ ولم يكتف بذلك بل أخذ يصطحب معه الجندي المرافق ، وهو مسلح أيضاً ، استعداداً للطوارىء ، وعندما دعاه المارشال «كايتل» الى برلين لمشاورته في الموقف الحربي ـ كما ادعى كايتل ـ اعتذر والدي بمرضه وبعدم استطاعته تحمل مشاق السفر والانتقال ٠

ولم نكن - حتى ذلك الحين - نعلم سبب غضب هتلر على قائده وصفيه روميل ، ومحاولته لتخلص منه مهما كان الثمن ٠

وفي الرابع عشر من تشرين الأول حضر الى دارنا ضابطان المانيان برتبة جنرال وطلبا مقابلة والدي ٠

وعندما اجتمعا به خيراه بين أن ينتحر بتناول السم ، أو ان يلقى القبض عليه ويحاكم عسكريا ٠ وأضافا الى ذلك ان روميل ، في حالة اختياره للحل الثاني ، سيعدم باعتباره خائناً للرايخ ، وتحرم عائلته من أية مساعدة من الحكومة ، بالاضافة الى العار الذي سيلحقها الى أبد الآبدين ٠

اما اذا اختار الحل الأول - وهو تناول السم - فانه في هذه الحالة سيعتبر شهيداً وطنياً ، قضى نحبه بسبب الجراح التي اصيب بها في الجبهة ٠

واستدار الضابطان أخيراً نحو والدي ، وأخبراه أن الدار محاصرة من قبل الغستابو ، فلا فائدة من المقاومة ، وان عليه أن يختار أحد الحلين دون تأخير ٠

وعندئذ اختار المارشال الحل الأول ، وبعد أن ودعنا أنا ووالدتي وداعاً قصيراً حاراً مؤلماً ، ركب في سيارة الغستابو ، وقد علمت بعد ذلك ان والدي تناول السم من رجال الغستابو بيد ثابتة ، وتناوله في ظل شجرة من أشجار الغابة الواقعة على مقربة من دارنا ٠

وقد شيع جثمانه باحتفال مهيب ، وسار خلف نعشه الجنرال «رونشتدت» نائباً عن الهر هتلر ، وقد القى المذكور خطاباً نوه فيه بالخدمات التي أداها روميل للرايخ ، والبطولة الفذة التي أظهرها في مختلف ميادين القتال ، سواء أكان ذلك في اوروبا أم في أفريقيا ٠

وقد اصدر هتلر اوامره بصنع تمثال نصفي لوالدي يوضع في أحد الميادين الهامة ٠

هذا في الوقت الذي كان فيه الحزب النازي يحضر - أو بالاصح يُزَوِر - الوثائق اللازمة لاثبات خيانة والدي لبلاده ٠

أما الخطة التي رسموها لذلك فهي أن يدعوا بأنهم عثروا على هذه الوثائق بطريق الصدفة ، كل ذلك ليشوهوا سمعة هذا البطل العظيم ، لأنه لم يكن نازياً في يوم من أيام حياته ٠

ولكن الأيام لم تمهلهم ٠٠ فقد سقطت المانيا وذهبت اتعابهم في تزوير الوثائق وجمعها ادراج الرياح ٠٠٠٠٠

منفرد

ملحق ثانٍ

معلومات عن المؤلف وكتابه

لابد وان القراء يتوقعون الآن ـ وقد انتهوا من قراءة كتاب رومل الذي حرصنا على ترجمته بأمانة ودقة ـ الى ان يعرفوا بعض الشيء عن مؤلفه اللواء دزموند يونغ ، وما شهده في حياته من مخاطر وما يزاوله الآن من أعمال فنقول :ـ

ولد دزموند يونغ في سنة ١٨٩١ من أب بحار ، وهو الكومودور سير فردريك يونغ ، وام نيوزيلندية . وكان ابوه على رأس قسم في البحرية ، مهمته انقاذ السفن الغارقة أو المحطمة ابان الحرب العظمى الاولى . ولقد ورث دزموند عن ابيه ذلك الولع بالبحار ، وركوبها وانقاذ السفن وانتشال حطامها . ثم كتب عن ذلك كتاباً .

وفي سنة ١٩٢٤ اتجه اهتمامه الى شيء آخر ، غير السفن ، فاشتغل بالصحافة وبدأ حياته الصحفية في صحيفة «يوهانسبرغ ستار» في جنوب افريقيا ، ولم تمض عليه سوى سنة واحدة حتى اصبح رئيساً لتحرير صحيفة «ناتال ويتنس» وفي سنة ١٩٢٨ التحق بجريدة «كيب تيمز» .[٣٢]

ثم سافر يونغ الى الهند رئيساً لتحرير صحيفة «بيونير» في سنة ١٩٣٣ .

ثم التحق في سنة ١٩٤٠ بالعمل في الحكومة الهندية كمستشار صحفي .

والتحق بالجيش الهندي في سنة ١٩٤١ ، ثم وقع في الاسر سنة ١٩٤٢ في شمال افريقيا ، وقضى ستة عشر شهراً في معسكر اسرى الحرب في ايطاليا ، ثم هرب منه في ايلول سنة ١٩٤٣ الى سويسرة حيث اصدر صحيفة هنالك لاسرى الحرب من بريطانيا ودول الدومنيون ، وقد بلغ عدد هؤلاء الاسرى ٥٠٠٠ وكان توزيع هذه الصحيفة ٤٫٦٠٠ نسخة .

---

(٣٢) جميع هذه الصحف كانت تصدر في جنوب افريقيا او حكومة بريتوريا الحالية التي يحكمها المستعمرون البيض وحدهم .

ولما اعفي يونغ من العمل في الجيش الهندي في سنة ١٩٤٦ ، اشترك في اصدار صحيفتين في الباكستان ، وبعد ذلك غادر الهند نهائياً في سنة ١٩٤٧ ۰

كيف إسر يونغ

وقد تحدث اللواء دزموند يونغ في مطلع كتابه «رومل» عن كيفية اصابته ، ووقوعه اسيراً بأيدي قوات رومل ، ثم نقله ومن معه من الاسرى الى ايطاليا ، وها نحن نقدم ترجمة ذلك المطلع ۰

ماان اشرقت شمس اليوم الاول من حزيران ، وراحت ترسل اشعتها الحادة حتى انتهينا من تطهير حقل الالغام الواقع غربي «بير حرمات» ۰

وقبل مساء مضى ، وحيث كنا في مقرات لواء المشاة الهندي العاشر وحواليه اقتحمت الدبابات الالمانية مواضعنا وراحت تطاردنا ۰

وقد كنا جميعاً مبتئسين شأننا في ذلك شأن الاسرى الآخرين الذين يبيتون ليلتهم في العراء ۰

كنا خليطاً من البريطانيين والهنود ۰ وكان بعضنا ـ وهو لايرتدي غير ثوب وبنطلون قصير ـ يرتجف من البرد ، بينما كان البعض الآخر قد تلفع بالمعاطف فلم يظهر من جسمه غير العينين وتدثر بالبطانيات وغطى رأسه بخوذة ضيقة ۰

كان الكل منا قد اخذ منه التعب والجوع مأخذه ، بالاضافة الى الاوساخ التي تراكمت فوق جسده ، وهكذا بدأنا نتحقق ان المثل الساخر الذي يستعمله سكان الشرق الاوسط بقولهم «يخفي نفسه في كيس» ان هذا المثل لم يكن ليحمل الهزء والفكاهة ۰

كان حراسنا يحدجوننا من وقت لآخر بنظرات تحمل معنى الازدراء وعدم الاكتراث ، وبنفس النظرة التي كنا نحن انفسنا ننظر بها تلك الارتال الطويلة من اسرى الطليان ۰

واذ ارعبتني الالغام ، رحت أدب ببطء على طول حافة حقل الالغام ، وفي اللحظة التي كنت فيها على وشك ان اضع فيها قدمي دون عناية واهتمام ، هتف بي أحد الجند الالمان بحدة في ان اعود الى الرتل ،وإذ ذاك/انتبهت الى الموضع الذي كنت فيه ۰

وقد مررنا ، على الجانب الآخر من حقل الالغام ، من امام بطارية المانية كانت ماتزال تواصل اعمالها ۰ كانت مدافعنا ودباباتنا تبحث عن هذه البطارية ۰ وكانت القنابل التي

تقذف المدافع الثقيلة من ذوات الخمسة والعشرين رطلاً ، والاطلاقات التي ترميها الدبابات ، كانت هذه القنابل والاطلاقات قد شرعت تنهال حوالي الرتل . وقد اصابت احدى القنابل ضابطاً شاباً بجانبي فاقتطعت منه ساقه ورفعتها عاليا الى الهواء .

وهنا بدأت اصوات الهلع والفزع تتعالى من الجبهة . وقد اقتحم كل واحد منا الآخر وراح يلملم اطرافه ، ويلتصق به ويتدافع . ولقد ركضت مع البقية بضع ياردات ، ولما وجدت ان من السهل أن أجري وسط القنابل المحترقة بنفس السرعة التي أجري فيها خارج نطاق تلك القنابل ، فقد تراجعت قليلاً وشرعت أسيراً سيراً اعتيادياً ، وعلى حين غرة وجدت نفسي بجانب شاب أشقر اللون من أفراد الفيلق الأفريقي الالماني ممن عهد اليهم أمر العناية بالمؤخرة . وقد أشار الي ذلك الشاب بأن أجري ، وإذ ذاك خلعت قبعتي وأريته شعر رأسي الذي وخطه الشيب .

وكما يبدو التردد والحيرة على الجرو الذي يرافق قطيعاً من الغنم ، ويكون في شك من قدرته على افتراس الشارد من القطيع او حماية البقية ، بدا التردد على ذلك الشاب ، وإذْ ذاك أسرع في تعقب الرتل وأومأ اليَّ أن ألحق به .

وإذْ بدا لي أن البطارية مازالت مستغرقة في عملها رحت أتجول خارج الجناح ، وعلى بعد خمسين ياردة أو مايقرب من ذلك ، عثرت على ماكنت أبحث عنه وهو خندق مستطيل ، وإذ ذاك قذفت بنفسي فيه ورحت اهيل التراب عليَّ حتى قمتي ، فقد كان الاستسلام في الصحراء هي النهاية التي تحدث نادراً . وقد منيت نفسي بأن أظل مضطجعاً في ذلك الخندق الى ان يحل الظلام وإذْ ذاك آخذ طريقي عبر حقل الالغام . أما الدار التي يمكن ان استريح عندها فقد لا أعثر عليها الا في «العضم»، بينما قطع خلق كثيرون قبلي أطول من تلك المسافة مشياً على الاقدام .

وما لبث ان انكشف امري بعد عشرين دقيقة ، فقد اوقف ضابط الماني سيارته على مقربة مني ، وكان الضابط قد لمحني عند مروره ، فتوقف عن السير على انني مالبثت ان مرقت من الخندق واندفعت الى مقدمة الرتل ، تحت وابل من القذائف المتساقطة . وقبل ان التحق بالبقية هتف بي ضابط الماني بالانكليزية قائلاً : «أأنت هنا ايها الضابط الكبير ؟» . وقد اكون ضابطاً كبيراً غير انني في الواقع كنت اكبرهم سناً . وعاد الضابط الالماني يحدثني فقال : ستذهب وضابطين المانيين في سيارة وسترفعون معكم علم الهدنة ، وعليك ان تنبىء رجال مدفعيتكم بأن يكفوا عن اطلاق النيران لانهم بذلك انما يعرضون رجالكم للخطر ليس الا !»

لقد كان في ذلك الكفاية حقاً . ان شعور أسير الحرب لايسمح له - بصفة طبيعية - بأن يفعل مايطلبه منه الغير ، ولذلك اجبت الضابط بأنني لاأستطيع ان انجز ماطلب اليَّ انجازه .

فرد علي قائلاً : « باستطاعتك ان تعهد الى ضابط آخر القيام بهذه المهمة » فكان جوابي هذه المرة انني لاأستطيع ان اصدر الى أحد أمراً كهذا .

ولقد مرت بي لحظات غريبة خلال الستة عشرة شهراً التي انفقتها في الاسر ، وأنا أتساءل متعجباً ماذا كان رجال المدفعية - عند وصولي اليهم - سيقبلون بعودتي الى الاسر ، وعما اذا كنت خاطئاً في رفضي تحقيق ماطلبه مني ذلك الضابط .

وفي هذه اللحظة وقفت سيارة المانية ، فقفز منها ضابط قصير يرتدي بدلة جيدة جديدة تختلف عما كنا نرتديه ، وقد لاحظت ان هذا الضابط يملك عينين زرقاوين براقتين وذقن بارز وتبدو عليه ملامح رجال القيادة ، وقد شرع الضابطان يتحدثان بضع ثوانٍ . التفت بعدها الضابط الذي يعرف الانكليزية وخاطبني بجفاه قائلاً :

لقد أمرني الجنرال بأنك اذا لم تقبل اطاعة الأمر الذي اصدرته اليك الآن ، فانك لن تجبر على ان تفعل ذلك .

حدجت الجنرال بنظرة فشاهدت على وجهه - كما توقعت - شبح ابتسامة .

وأياً كان الامر فان تدخله كان ذا قيمة ، ثم اشحت عنه قبل أن اعود الى الرتل ، وآخذ طريقي الى معسكر الأسرى .

كان من النادر على ان أخفق في تمييز روميل عن غيره من الضباط الالمان ، كما كنت بالكاد أتوقع أن يكون ذلك الجنرال ذو العينين الزرقاوين البراقتين وهو روميل نفسه ، الا بعد بضع سنوات ، وعندما أرتني أرملته قناع الموت الذي اخذ له ، وقصت عليَّ مأساة مقتله .

تعليقات على كتاب روميل

وقد بدت براعة يونغ الصحيفة في الحصول على المواد الكافية لهذا الكتاب.وحين كان كتابه هذا ماثلا للطبع، بعث له ابن روميل برسالة يخبره فيها بأنه قد كان يخفي في حائط من حوائط البيت مذكرات ابيه . وطار يونغ الى المانيا وفحص اليوميات وحمل بعضها معه، ثم استعان بأربعة من المترجمين يعملون ليلاً ونهاراً، حتى استوت له هذه الصفحات الثلاثين التي نشرناها في نهاية الكتاب .

ولقد علقت مجلة «الستريتد لندن نيوز» في عددها الصادر في ٤ شباط الماضي ، على كتاب روميل تحت عنوان «تحية لجندي معاد» بقلم سير جون اسكوير ٠ ولقد اختتم هذا الكاتب عرضه للكتاب بقوله : تلك اذن حياة رجل ممتاز ٠ وان هذا الكتاب لعرض بارع لبعض مراحل الحرب ، وبين ثنايا الكتاب تلمع خبرة المؤلف نفسه ٠ والمؤلف حسن العبارة ، وله قدرة على الحكم والتقدير ٠ فلماذا يقف عند روميل وحسب ، والمعلومات ماتزال حاضرة بين ايدينا ، لماذا لايكتب تاريخاً لحياة «صديقنا هتلر» أو صديقنا العجيب غورنغ ؟ ٠ أما صديقنا غوبيلز فقد عرض نفسه تماماً في يومياته التي نشرت وترجمت الى معظم اللغات الحية» ٠

ولعل كتاباً في اعقاب الحرب لم يتلقه جمهور القراء وعامة الصحف ، بهذه الحفاوة ، كما تلقوا كتاب دزموند يونغ عن «روميل» فلقد تلقفته الصحف والمجلات ، ونشرت تعليقها عليه في صفحاتها الاولى ٠ ولقد بلغ عدد مابيع من هذا الكتاب في الاسبوعين الاولين من نشره في مدينة لندن وحدها ١٣٠ ألف نسخة !

ملحق ثالث

خالد بن الوليد والمارشال روميل

(أوحت مطالعة كتاب روميل الى أحد الكُتاب بكتابة هذه المقارنة الطريفة بين خالد بن الوليد والمارشال روميل) .

كنت افكر لايام خلت ، وفي اثناء دراستي لكتاب صدر عن معارك روميل في الصحراء . ان هناك تقارباً عظيماً بين خططه العسكرية في الحرب الماضية ، وبين الخطط التي اتبعها خالد بين الوليد في فتوحاته وزحوفه ، سواء اكان ذلك في العراق أم في سورية .

وعادت بي الذاكرة الى حديث الفتوح الاولى ، والى ذلك الحدث الضخم الذي كان بعيد المدى ، عظيم الخطر في مصائره ونتائجه ، شديد الأثر في مستقبل الانسانية وحضارتها . وفطنت في الوقت نفسه الى ماأجمع عليه المؤرخون من انه لم تكن هناك إمارات ـ وحتى بعد انتقال سيد العرب الى مآبه ـ تدعو الى توقع هذا الحدث .

وفجأة وفي صباح يوم من الايام لمئات خلت من الأعوام ، اقتحم امصار الامبراطوريتين الفارسية والبيزنطية ، فرسان من الصحراء ، ماسمع عنهم سكان الامبراطوريتين شيئاً مذكوراً ، الا ماكان يتناقله المسافرون من انهم يؤلفون قبائل تضرب في الارض طلباً للماء والكلأ ، وانهم من البدو الرحل الذين لاخطر من استقرارهم في مكان معين . ولكن هؤلاء الفرسان اكتسحوا بين ليلة وضحاها ، كل مالم يكن موجوداً عندهم من ارض خصبة ومدن قائمة . وانهر جارية ، وعروش قوية ، ونظم حكومية ثابتة ...

أما عددهم فكان قليلاً في أول الأمر ، ولم يصلوا في وقت من الاوقات لان يكونوا اكثر من خصومهم عدداً أو عدة ، ولكنهم في مقابل هذا كانوا اقو باء في ايمانهم ، يبيعون انفساً تموت غداً بأنفس لاتموت أبداً ...

رومل في المعركة

كان الجنرال رومل في التاسعة والاربعين من عمره ، لما اصبح في شهر آذار من سنة ١٩٤٠ ملء السمع ، ملء البصر ، وكان في هذا الحين ، يقود الفرقة السابعة المصفحة في معركة فرنسا .

وبعد سنين من هذا التاريخ ، انتقل الى قيادة الجيش الالماني في افريقيا ، فلم تبق بقعة في العالم لم تتحدث عن رومل ، وعن أفعال رومل . وفي هذه السنة نفسها انعم عليه هتلر برتبة المارشالية ، بينما كان خصومه الانكليز يعترفون بأنه أمهر قواد المانيا الحديثة .

والواقع ان هذا القائد كان ينعم ببراعة قل نظيرها عند غيره من القواد ، وبذكاء واسع مكنه من استباق الحوادث وتهيئة الجو اللازم للمعركة ، مع استعمال الخدعة والحيلة في حركاته العسكرية والتفوق على خصومه مع انه كان اقل منهم عدداً وسلاحاً ، وآلة وغذاء ...

وحدث يوماً ان بدأ الانكليز بهجوم على فرقه ، وكانوا اوفر عدداً ، وامضى سلاحاً ، ولم يبق لرومل الا التراجع والاستسلام ، وكلاهما شر ، فما كان منه - وكان يعلم ان الطيارات الانكليزية تراقب جيوشه مراقبة شديدة في الليل والنهار وانها تأخذ صور هذه الجيوش وحركتها وتنقلاتها . نقول ماكان منه الا ان أمر جميع السيارات التي لديه بالدوران حول المعسكر وفي الصحراء يومين متواليين ،ليوهم خصومه بانه اقوى مما يظنون ، ونجحت الخدعة ، وتوقف الانكليز عن هجومهم متوهمين ان رومل يملك قوة كبيرة !

وحدث في يوم آخر ، ان أمر رومل جنوده بالهجوم ، فاخبره «اركان حربه بأنهم لايملكون من الدبابات الا سبعاً فقط . فأمر عندئذ بأن يستبق هجوم الدبابات السبع ، هجوم قوامه غبار يسد السماء ويملأ المنافس ، وما هي الا دقائق حتى كانت سيارات النقل العديدة التي يملكها جيشه تجري حول المعسكر ، وفي الأرض الحرام التي تفصل بين الجيشين المتحاربين ، في مساحة لاتقل عن عدة كيلومترات ، فأثارت عاصفة عظيمة من الغبار ، وظهرت بعدها الدبابات السبع تتقدم نحو المعركة ، فظن الانكليز انهم يواجهون فرقة مصفحة كاملة ، فارتدوا على اعقابهم واخلوا مراكزهم ، اذ لم يكن عندهم مايقابل هذه القوة .

وكان منظره وهو يشرف على معركة من المعارك واقفاً على سيارته ، والنار تتساقط حوله ، يبعث على الدهشة · وكان كثير الايمان بمناعته من الخطر ، حتى كان كثيراً مايقول الى اركان حربه : « تعالوا اليَّ حولي فلن يصيبكم خطر مادمت بينكم ! » ·

والواقع ان جرأته كانت فوق التصور ، وكان الى هذا بارعاً في تنظيم المعارك الحربية وادارتها على الوجه الذي يرضيه ، وكان سريعاً في اغتنام الفرصة المناسبة ، ومن اكبر المغامرين في خوض معركة يعتقد ان المغامرة وحدها تقلبها الى نصر محتوم ···

وكان في هذا كله شبيهاً بخالد بن الوليد ، بطل العرب في الفتوح الاولى ، وكانت سياسته العسكرية تساوق سياسة خالد من جميع الوجوه ، حتى يستطيع المؤرخ المعاصر ان يقول ان رومل درس حركات القائد العربي بدقة ، ثم أجراها في معاركه بأمعان ونظام !

خالد بن الوليد

ومن المؤكد ان وصف المعارك الحربية السالفة ليس يتعلق بما يصدر عن الرواة من اخبارها فحسب ، وانما يتصل ايضاً بطبيعة الارض التي دارت عليها المعركة ، فان كانت جبلية كان موقف القائد البارع في ترتيب جيشه وتنظيم طلائعه ، غيره في الارض الرملية ، أو الأرض المليئة بالمغاور والصحارى وسواها · وهذه الظاهرة خطيرة في تفهم سير المعارك التي راح خالد بن الوليد يلهب لظاها ، في حروبه العراقية والسورية ، خصوصاً وان خالداً لم يكن على علم بطبيعة الارض التي كان يخوض غمار الحرب فيها ، وهذا ثابت بما نعلمه من انه لم يغادر الحجاز قبل الفتوح الاسلامية ، كما يشهد بذلك اعتماده في بعض الاحايين على الاعراب من الذين يعرفون مفاوز الجزيرة وسهولها وطرقها حين يريد الانتقال من مكان الى آخر ·

وظهرت براعة خالد العسكرية ، وكان ، بعد ، في الثلاثين من عمره ،، في معركة «أحد» ، لما راح يقتنص الفرصة السانحة من انشغال المسلمين بحظهم من الغنائم بعد أن كسروا قريشاً ، فيأتيهم من خلفهم ويشد عليهم من وراء ظهرهم ، فيقلب فشل قريش نصراً ، ويعيد الحرب جزعاً ، وتظفر قريش بما لم يكن بحسبانها من نصر ظاهر ورجحان بليغ ··

ويظهر تفوقه كرة ثانية في معركة «مؤته» ، حين تمكن من الارتداد بالجيش العربي ، وكان في ثلاثة آلاف مقاتل ، لما ظهر من رجحان الروم عليه ، فحال بين الروم وبين ماكانوا يريدونه من محق هذا الجيش وافنائه · واذا ذكرنا ان قتلى العرب في هذه المعركة كانوا اثني

عشر رجلاً ، ظهرت براعة خالد في تفهم الفن العسكري ، وتمكنه من الارتداد بهذا الجيش القليل ، امام عدو يفوقه عدداً ، دون ان يستطيع هذا له منعاً أو كيداً ..

واذا عرضنا لمعارك الردة رأيناه جريئاً بارعاً ومحارباً رائعاً ، خصوصاً لما ظهرت بنو حنيفة على جيشه ، وعلم ان وجود مسيلمة على رأس قومه هو السبب في تأخر النصر على جنده ورجاله ، فراح يبرز بين الصفوف ، ويدعو مسيلمة للمبارزة ، فلما تثاقل هذا عن دعوته ، صمد له يحطم الصفوف في طريقه اليه ، ولم ينثن عنه ، الا وهو قتيل تخاطفته سيوف العرب المسلمين . وهذا موقف فريد يدلك على جرأة خالد ، وانه حقاً يحب الموت كما يحب غيره الحياة ..

وأما في حرب العراق فقد أخذ خالد عدوه بالحيلة والمفاجأة ، هذه واقعة «ذات السلاسل» سرح خالد جيشه الصغير الذي لم يكن يزيد عن عشرة آلاف مقاتل ، في ثلاث فرق ، وواعدهم «الحفير» ليجتمعوا به ويصدموا عدوهم مجتمعين ..

ونرجح ان غرضه كان ان يلقي في روع عدوه ، بأنه ملاقيه في عدد من الجند قليل ، وان يأمن جنده طريقهم الى عدوهم ، حتى لاتكون هناك عورة أو يأتيهم من خلفهم ، وهم لايشعرون ..

فلما علم هرمز قائد الفرس ان خالداً في الحفير ، مشى اليه ، فغادر خالد المكان الى «كاظمة» ، ولا نعلم سبباً لتبديل خالد خطته الا ان يكون المكان الجديد اصلح للحرب والقتال ، وأقرب الى الصحراء، وكان خالد يعرف في جنده العرب رغبة ملحة، وقوة عظيمة، حين يقاتلون على أطراف الجزيرة ويصادمون على رمالها واديها ..

وهذه خطة غاية في الدهاء ، حين اراد مقاتلة عدوه في ارضه ، بعيداً عن مراكزه ، ثم ان في حمل قائد الفرس على السير الى هذا المكان مشقة عظيمة له ولجنده ، فلا يصل هؤلاء الى «كاظمة» الا وقد اضناهم التعب ، وبرح بهم النصب ، فيقاتلهم خالد وهو اكثر مايكون أملاً بالنصر ، واعظم مايكون وثوقاً بالفلاح والنجاح ، خصوصاً وقد كان السير على الرمال والانتقال في هذه المفاوز ، أمراً مألوفاً عند عرب الجزيرة ، ثقيلاً مهلكاً للفرس . وكان لخالد ماأراده ، ففاز على هرمز وقتله ، وبدد جنده ، ومزق عسكره ..

اما معركة «الولجة» فقد حارب خالد فيها اعداءه الفرس في ثلث جيشه ، وارسل للثلثين كميناً له ، على ان يأتوا العدو من خلفه . وبدأت المعركة والعدو لايظن الا ان خالداً

في هذه القوة القليلة ، وانه ظافر عليه حتماً ، وخالد يماكر عدوه ويخاتله، حتى ظهر كمين خالد من خلف العدو ، فاصبح هذا بين سيوف من خلفه ، وسيوف من قدامه فهلك اكثره ..

وانظر اليه في معركة «اليس» وخالد يعتقد انه ملاق فيها بعض خصومه ، فاذا به يجدهم قوة كبيرة تذكر ، واذا به يصل اليهم وقد تهيأوا لطعامهم ، وخالد كامل التعبئة كما هي عادته ، فلما رأى عددهم وقوتهم رأى ان يتعجلهم بالسيف ، فاعمله فيهم فشتت شملهم وهزمهم . ولو كان القائد غير خالد ، لسمح لجنده بشيء من الراحة بعد مشقة السفر ، ونصب الزحف ، ولكن خالداً راح يفضل اهون الشرين وكان موفقاً حقاً ..

فاذا انتهى خالد من هذا مشى الى الانبار ، ونظرة الى جغرافية الأرض تدلك على المسافة التي قطعها خالد في طريقه الى الانبار ، فاذا أهلها قد خندقوا واعتصموا في حصونهم ، فما كان من خالد إلا ان اقتحم الخندق بجثث الابل الضعيفة ، نحرها ورماها في الخندق ركاماً وأمر جيشه باقتحامه على هذا الجسر الغريب ، فكان له النصر الذي أراده ، والنصر كان وما يزال للرجل الحازم.الجسور القوي .

ولعل معركتي «المضيح» و «الثنى» من أغرب معارك خالد في العراق . فقد راح يبيت خصومه في المكانين ، ثم يهاجمهم ليلاً ، بعد أن قسم جيشه الى ثلاث فرق ، فأفنى عدوه ولم ينج منهم مخبر . ومثل هذه الخطط السريعة تدلك على عزيمة هذا الرجل وما كان ينعم به من قوة ليست في سواه من الرجال ، ثم تدلك على معرفته مواطن الضعف في خصومه ، وتدلك ايضاً على علمه الدقيق بمنازلهم . ولعله كان يرسل عيونه تجلو له ماخفي من اخبار اعدائه ، وتنقل له مايتصل بعددهم ومواطن ترحالهم ومنازلهم ، والا فكيف تريده ان يوفق في مهاجمة القوم وهو لايشعرون ، ويصدمهم وهو لايحسون ؟

أما معركة اليرموك الفاصلة التي قضت على كل أمل للروم في الاحتفاظ بسورية ، فان لها حديثاً عجباً ، ذلك ان الروم كانوا في اكثر من مائة الف فارس على ماأجمع عليه المؤرخون ، وكان العرب لايزيدون عن اربعين الفاً ، وكان خالد قد غادر العراق الى الشام نجدة لقوات العرب قبل المعركة الفاصلة ، فلما شاهد كثرة الروم وقلة العرب ، أمر بتقسيم الجيش العربي الى كراديس ، كل كردوس في الف فارس ،ليوهم الروم ان العرب مثلهم عدداً ، وليبث في العرب روح النخوة بعد ان قسمهم الى كراديس ، يضم كل كردوس قبيلة أو بطناً من بطون العرب ، فلا يتخاذل أحدهم أمام رفيقه ولا يسمح لسواه ان يمتاز عليه ..

وانجلت المعركة في مساء اليوم نفسه عن انهيار الجيش الرومي ، وتمزق صفوفه ، وهرب كثره ، وسقوط الباقين بين قتيل وأسير وجريح ..

ملحق رابع

نهاية هتلر

١ ـ الأيام الأخيرة

لازال مصير هتلر من الالغاز الغامضة التي تحير العقول وتنسج حولها الخيالات والقصص الطريفة المفتعلة ، ولا يزال عدد كبير من الناس يعتقد أن هتلر مازال حياً وانه لابد ان ينهض مرة ثانية فيبعث المانيا من جديد ويعود الى لعبته الخطرة السابقة ، لعبة اشعال الحرب في سبيل ايجاد المانيا عظمى ٠

ولاشك ان القارئ الكريم وقد عرف الصورة البشعة التي انتهت بها حياة القائد العظيم رومل بأمر من هتلر ، وعلى يد اعوانه المقربين اليه ، فانه يتوق توقاً شديداً الى معرفة نهاية هتلر والمصير الذي صار اليه بعد أن احاط الجيش الأحمر بالعاصمة برلين احاطة السوار بالمعصم وراح يدكها دكا ٠

ونود هنا ان نعرض صورة مفصلة ترسم خطوط الساعات الأخيرة من عمر الفوهرر وكيف انتهت حياته ومضت كشعاع خاطف في سماء الدنيا ثم مالبثت ان خبت فجأة والى الأبد ٠

كانت الحرب الجوية في الايام الأخيرة من شهر آذار والايام الاولى من شهر نيسان ١٩٤٥ على اشدها فوق برلين ، بحيث لم يكن أحد من سكانها يستطيع نوما أو راحة ٠٠

وكان هتلر في هذه الفترة يعيش في اقبية المستشارية ، حيث يحمل اليه كل ساعة وكل دقيقة كبار الحاشية وكبار الضباط ، آخر الاخبار عن تقدم الجيش الروسي نحو العاصمة . وكان هتلر كعادته يكثر من المناقشة والحوار ، ويدعو سكان برلين الى الدفاع حتى الموت ، ويمنيهم بالنصر العاجل ، والمعجزة المنتظرة .

وكان بورمان رئيس غرفته السياسية والمارشال كايتل ، يتوسلان اليه أبداً ان يهدئ من روعه ، وان ينقذ نفسه ، بمغادرة برلين الى جبال بافاريا حيث تتيسر له كل وسائل الدفاع والحرب .. ولكنه كان يرفض ابداً أن يغادر برلين ، مذكراً اياهما بانه اقسم للشعب الالماني ان لايعيش بعد فشله أبداً ..

وصول ايفا

وفي الخامس عشر من شهر نيسان سنة ١٩٤٥ وصلت ايفا براون الى برلين ، وقد اختلف الناس في هذه الصداقة التي ربطت بين القلبين ، ذلك ان ايفا لم تكن بارعة الجمال ، ولكنها كانت فتاة ذات جاذبية وسحر ووداعة ، انعشت قلب هتلر ، فبادلها حباً بحب ، وودا بود ، وصداقة بصداقة ..

ويقولون ان العلاقات الاولى بينهما لم تكن علاقات عشق وغرام ، وانما كانت علاقات مودة وصداقة ، هذا مايقوله بعض اخصاء هتلر ، وهذا ماقاله هتلر نفسه في وصيته السياسية . فقد وصف علاقاته مع ايفا بأنها كانت علاقات صداقة حقيقة استمرت عدة سنوات ..

وحاول هتلر ان يرد ايفا عن البقاء في برلين ، فأبت ورفضت ، ولم تكن في هذا الوقت زوجة هتلر ، ولا كانت عشيقة معروفة له ، ولم يكن لها من الحق في البقاء بقربه ، اكثر من غيرها وسواها من بنات الريخ الثالث ...

وحتى هذه الساعة اي اليوم الخامس عشر من شهر نيسان ، ولم يكن هتلر ، وقد فطن الى ان كل شيء قد انتهى ، وأن الأمل في انقاذ المانيا، كان فوق الطاقة والامكان ..

وظل الروس يتقدمون ، والحلفاء يزحفون نحو العاصمة ونحو قلب المانيا ، ولكن هتلر لايزال يمني نفسه بالأمل في صد الروس عن برلين ، وكان في الواقع هو القائد العام للقوات العسكرية الألمانية حول برلين ، وفي الحادي والعشرين من شهر نيسان اصدر أمره الى هذه

نوت للقيام بهجوم معاكس حاسم على الروس ، تشترك فيه كل الاسلحة العسكرية والقوات المرابطة بقيادة الجنرال ستاينر ، ولكن الهجوم لم يقع ، لأن الارتباط كان مفقوداً بين القوات الالمانية ..

جمع هتلر رجاله في مؤتمر عام ، أو من كان موجوداً منهم في برلين ، لان غورنغ ودونيتز كانا قد غادراها . ولكن كايتل وبودل وبورمان حضروا الاجتماع ، وبسطوا الموقف ، فأدرك هتلر ان كل شيء قد انتهى ، وأعلم الجميع عندئذ بعزمه النهائي على البقاء في برلين والموت فيها .

احتج القواد والسياسيون ونصحوه بمغادرة العاصمة ، واخبروه انهم لم يفقدوا الأمل في النصر ، وان الجيش الالماني لايزال قوياً ، واتصل به غورنغ وريبنتروب ودونيتز وهملر بالتليفون ، يقدمون له النصح ويعدونه بارسال كل القوات التي عندهم لانقاذ برلين ، فلم يقبل ، وأمر بأن يذاع بالراديو الى كل الماني نبأ اعتزامه البقاء في العاصمة ، والدفاع عنها حتى النهاية ..

وخرج المجتمعون وقد علت وجوههم امارات الكآبة والاضطراب ، لايدرون مايفعلون ولا يقررون ، وكان بعضهم قد احزنته كلمات هتلر الأخيرة ، مشيراً الى تقصيرهم وضعف وطنيتهم ، وبعد برهة دعى هتلر المارشال كايتل اليه وكرر امامه عزمه على البقاء في برلين ، وأمره بمغادرتها ، فرفض كايتل الا ان يذهب معه ، فأبى هتلر ، ثم اتفق الاثنان على أن يذهب كايتل الى الجنرال ونك يستحثه ورجاله لانقاذ برلين .

وعاد الى هتلر هدوؤه ، فدعا بالعشاء لكايتل ، وقام بنفسه يخدمه وينظر في أن يكون معه كل مايحتاجه في سفرته هذه ..

غورنغ يتنمر

وفي هذه الأثناء كانت الأخبار قد وصلت الى غورنغ ، بأن هتلر قد أعلن عزمه على البقاء في برلين حتى الساعة الأخيرة ، وانه قد ترك له أمر المفاوضات وحكم الرايخ الثالث - وكان هتلر في أثناء الاجتماع قد القى كلمة كهذه وهو غاضب ناقم ، حملها أحد اخصاء غورنغ اليه - إذ كان يصعب على هتلر في مقره الاتصال بجميع القوات الالمانية ، فجمع غورنغ أعوانه وأخذ رأيهم فأيدوه ، وقالوا له : ان هتلر قد عينه خلفاً له منذ سنة ١٩٤١ ، وانه لم ينقض هذا التعيين ، فأرسل غورنغ الى هتلر برقية يسأله فيها تأكيد تعيينه هذا ، وقال له اذا لم يصل

جوابك اليَّ حتى الساعة العاشرة ، يكون معنى ذلك الموافقة ، وانك لاتنعم بالحرية المطلقة في مكانك - من حيث الاتصال بالخارج طبعاً - فأقوم عندئذ بحكم الرايخ الثالث باسمك لما فيه خير المانيا ..

فلما وصلت هذه البرقية اللاسلكية الى هتلر ، انفجر غاضباً وكان بورمان ينتظر مثل هذه الفرصة ، للقضاء على غورنغ والتخلص منه . إذ كان الوحيد الذي عينه هتلر بعده ، فاذا خلا الجو منه ، فقد لا يبعد أن يتولى بورمان السلطة بعد هتلر ، وهو ماكان يريده ويعمل له ..

واقنع بورمان هتلر بأن برقية غورنغ انذار ظاهر ، وانه يحاول الاتصال بالحلفاء لتسلم المانيا ، فأصدر هتلر أمره بعزل غورنغ والقبض على اعوانه ، ونفذ الأمر حالاً ..

وفي اليوم الخامس والعشرين من شهر نيسان تمكن الروس من تطويق برلين كلها ، ولم يبق من منفذ الى الخارج الا طريق الجو ، وكان هذا الطريق صعباً خطراً ، إذْ كانت الطائرات الروسية تراقب الطرق الجوية الالمانية كلها .

فون غريم

وفي الوقت الذي أخذ يغادر فيه برلين من يريد من الموظفين والضباط والقواد ، وصلت برقية من هتلر في الرابع والعشرين من نيسان الى الجنرال فون غريم في ميونخ ، وهو من ألمع الطيارين الالمان بالقدوم الى برلين ..

وكان فون غريم من اخلص النازيين لهتلر ، وكانت صديقته الطيارة الشهيرة حنة ريتش تعبد الفوهرر ، ومع كل الصعوبات التي لاقاها الطيار في طريقه هو وصديقته ، وقد قدما الى برلين تحرسها أربعون طائرة ، وصلا سالمين ، رغم نار الروس وهجمات الطيارين الروس ، ولكن بعد أن اصيب غريم في رجله ، فنقل الى مستشفى المستشارية حيث ضمدت جراحه ، وزاره هتلر بعد قليل وأخبره انه طلبه اليه ليخبره بخيانة غورنغ ، وبتعيينه هو في منصب القائد الأعلى للطيران الالماني مكانه ..

وكان هتلر يكلمه والدموع ظاهرة بارزة في عينيه . فلما كان المساء تحدث هتلر الى الطيارة حنة ريتش في غرفته بما اعتزمه من الانتحار هو وايفا براون ، اذا قطعنا الأمل من انقاذ برلين ، وأخبرها انه لايزال يأمل أن يتمكن جيش الجنرال ونك من انقاذ العاصمة ، فان لم

يوفق ، وتمكن الروس من دخول برلين والوصول الى المستشارية ، فأن خطة الانتحار تنفذ حالاً ‥ كما أعطى حنة ريتش كمية من السم لاستعمالـه هي والجنرال فون غريم ، فيما اذا دعت الحالة ولم يبق أمل بالخلاص .

الاستعداد للانتحار

فلما كان مساء السابع والعشرين من شهر نيسان كانت قنابل الروس تتساقط على دار المستشارية بكثرة مخيفة تنذر باقتراب الساعة الأخيرة ، وتحدثنا حنة ريتش ان هتلر استدعى في هذه الليلة الجامحة ، جميع أعوانه في أقبية المستشارية ، وتحدث عن خطة الانتحار الذي يجب على الجميع تنفيذها ، كما تبسط في الطريقة المثلى للقضاء على الاجساد بعد الموت بحيث لاتبقى منها بقية ولا أثر ‥

ثم تكلم كل واحد من الحاشية كلمة تناسب المقام معرباً فيها عن ولائه لهتلر والمانيا ‥

والواقع ان الأقل من حاشية هتلر قضى على نفسه ، واما الاكثرية فانها اعتصمت بالحياة ، وانكرته لما وقعت في قبضة الحلفاء ، ولم يخلص لـه الاخلاص الكامل غير غوبلز وامرأته وأولادهما الذين انتحروا جميعاً بعد انتحاره ، وسوى الجنرال فون غريم الذي تمكن من مغادرة برلين قبل انتحار هتلر ، فلما قبض عليه الحلفاء بعد ذلك تناول السم وهو في سجنه ‥ واما هتلر نفسه فكان مخلصاً في عزمه على الانتحار ، ولكنه كان في الوقت نفسه لايزال عظيم الايمان بمقدرة جيش الجنرال ونك على انقاذ برلين ، مع ان هذا الجيش كان في حالة لاتمكنه من القيام بهجوم فعال حاسم ‥ ولكن أحداً من اعوان هتلر لم يخبره حتى الساعة الأخيرة بحالة جيش الجنرال ونك العسكرية ، فظل هتلر على اعتقاده بأن الجيش سوف يقبلُ لانقاذه ، وراح يصدر الأوامر ، ويعد خطط الدفاع الهجومي ، وهو في غرفته الخاصة في أقبية المستشارية ‥

وفي اليوم الثامن والعشرين من شهر نيسان أصبح الروس على مقربة من وسط ، برلين وعندئذ أخذ السلك التليفوني المرتبط بالراديو ، وكان السلك الوحيد الذي يصل بين هتلر والخارج ، يطلب النجدة مخاطباً تارة المارشال كايتل ، وتارة ميونيخ متسائلاً :

ـ أين جيش الجنرال ونك ، وأين الجيش التاسع ، اني أنتظر انقاذ برلين ‥ وفي الساعة الثامنة مساء ابرق بورمان الى ميونيخ يقول :

بدلاً من إرسال الجنود لانقاذنا ، فأن أحداً لايرد علينا ولا يجاوبنا . الخيانة حلت محل الاخلاص ، ان المستشارية تحترق ‥

وبعد ساعة وصلت الى المستشارية أخبار موثوقة عن مساعي هملر لعقد صلح مع الحلفاء ..

٢ ـ الاستعدادات للموت

كانت الصدمة عنيفة على هتلر لما وصلته أخبار المفاوضات التي يقوم بها هملر مع الحلفاء ، فثار وغضب وطرح الصوت عالياً متهماً هملر بالخيانة ، وطعن زعيمه من خلفه ، فلما هدأ روعه اجتمع الى غوبلز وبورمن في غرفته ، ولا يزال ماجرى وتقرر في هذه الغرفة سراً من الأسرار ، ذلك ان بورمن وهو الوحيد الذي لايزال حياً قد اختفت آثاره ، ولم يعثر عليه إنسان حتى الآن .

وليس يستبعد ان يكون هتلر قد ذهب به التفكير ، وفي هذه الساعات الدقيقة من حياته ، الى هذه المؤمرات المتتابعة التي يقوم بها بعض أنصاره ، وأقرب المقربين اليه ، للاتفاق مع الحلفاء على صلح يكفل لألمانيا الحياة بعد أن فشلت فيما تحاوله من السيطرة على العالم ، وقطعت آمالها من النصر العاجل القريب ..

وتذكر هتلر فيما تذكره ، موقف المارشال رومل والصديق المقرب اليه ، والموثوق عنده ، وكيف انه لم يتورع هو نفسه لما أحس بالخطر الداهم ، أن ضحى بزعيمه هتلر في سبيل المانيا ، وحياتها وحرياتها .

تذكر هتلر كل هذا ، وأدرك ان أصدقاءه يتنكرون له الواحد بعد الآخر ، وانه لم يبق منهم إ أقلهم ، وقد غاب عنه أن أحداً منهم لم يخنه ، إلا خوفاً من انهيار المانيا واستعبادها ، وانهم ، كانوا يحاولون ذلك الا في سبيل تضحيته في سبيل المانيا ، التي نذر نفسه لخدمتها وتعزيزها ..

الصديق الأخير

كان الاجتماع سرياً غامضاً لم يظفر بما حدث فيه ، أو دار الحديث حوله ، أحد من البشر .

ولكن المعلوم حتى الآن من القرائن ، وما صار إقراره بعد هذا الاجتماع ، وهو ان هتلر أخذ يستعد للموت ، فكتب وصيته السياسية ، ووافق على عقد قرانه مع ايفا براون ٠٠ وكان ذلك في مساء الثامن والعشرين والتاسع والعشرين من شهر نيسان ٠

فلما كان اليوم التاسع والعشرون تمكنت إحدى الطائرات الألمانية من الوصول الى برلين والنزول قريباً من المستشارية ، وكانت قد جاءت لنقل الجنرال فون غريم الى مقر أعماله الجديد ،وجاءه هتلر مودعاً ، وطلب منه القبض على هملر، لأن مثله يجب أن لا يكون هو الخليفة من بعده ، كما أمره عند وصوله ، بأن يبعث بالطائرات للانقضاض على الدبابات الروسية التي كانت قد وصلت الى قلب برلين ٠

حاول غريم ان يعتذر عن الذهاب ويبقى مع الفوهرر ، ولكن هتلر رفض هذه التضحية وأمره بالرحيل ، وكذلك غادر غريم وصديقته حنه ريتش برلين لآخر مرة ، فوصلا سالمين خلف الخطوط الروسية ، حيث تمكن غريم من إرسال أوامره الى جميع القوات الجوية الألمانية بانقاذ برلين ٠

وبعد سفر غريم عقد زواج هتلر بايفا براون ، وحضر حفلة الأكليل بورمان وغوبلز ، ولما انتهت مراسيم الزواج خرج هتلر مع عروسه الى الممر حيث كان بأنتظاره بعض القواد والموظفين فصافحهم ، ثم انسحب مع زوجته الى غرفته الخاصة لتناول طعام الافطار ٠

وبعد وقت قصير دعي غوبلز وزوجته وبورمان السيدتين كريستيان وكونغ الموظفتين في مكتبه الخاص الى غرفته، حيث قضى الجميع عدة ساعات يتكلمون ويشربون الشمبانيا ، وفي وسط الحديث تكلم هتلر مجدداً عن انتحاره القريب ، ومادام قد خانه أكثر انصاره وأعوانه فلا فائدة بعد هذا من حياته ، فعم الجميع الوجوم وتولاهم الذهول ، ولكن أحداً منهم لم يعترض على قراره هذا ، ثم انتقل هتلر الى غرفة اخرى مع سكرتيرته الخاصة حيث أخذ يكتب وصيته السياسية ، وفي هذه الوصية السياسية اعلن هتلر تعيينه الاميرال دونتز ليكون خليفته من بعده ، كما نزع كل حق لغورنغ وطرده من الحزب ٠٠ وطرد هملر وعين مكانه سواه ٠٠ وأعلن في الوقت نفسه لخليفته من بعده أسماء الوزراء الجدد الذين يجب ان يؤلفوا الحكومة من بعده ، وكان ريبنتروب ممن عزلهم وعين مكانه سواه ٠٠ كما أبقى غوبلز وبورمان ، وأمرهما بمغادرة برلين ليتما العمل الذي بدأه في تعزيز المانيا ونشر النازية ٠

وأما وصيته الخاصة فهي مختصرة جداً ، يعلن فيها زواجه من ايفا براون ، كما يشير الى رغبتها في الموت معه ، بمحض إرادتها ، وأما مايملكه ، إذا كان يملك شيئا، فهو للحزب ، فاذا لم يكن هناك حزب فللدولة ٠

فلما كان الصباح أمضى هتلر الوصيتين بحضور بعض أنصاره وأعوانه ، وأمر بارسال الوصية السياسية الى خارج برلين ، والى من يعنيهم الأمر بواسطة رجال اختارهم غوبلز وبورمان ·

غوبلز ينتحر

ومع ان هتلر قد أمر بورمان وغوبلز بمغادرة برلين بعد موته ، والمضي في واجباتها نحو المانيا والنازية ، فأن غوبلز رأى من واجبه أن يموت هو أيضاً ، مفضلاً بعمله هذا أن يضرب للشعب الالماني مثلاً في تضحية الذات ، والموت في ساحة المعركة ··

وقبلت زوجته أن تموت معه ، كما قرر الزوجان أن يشرب أولادهما الصغار الكأس نفسه ، ويقول غوبلز في وصيته ان عملي هذا سيكون مفيداً للشعب الالماني ، وفي الأوقات العصيبة التي سوف تأتي ، مثل هذه التضحيات تكون أوقع تأثيراً من حيلة الرجال ، لأن المانيا لن تخلو من الرجال الذين سوف يسيرون بها نحو الحرية ، ولكن الأعمال الانشائية تحتاج أبداً الى هذه المثل التي تقوم على التضحية وبذل النفس ··

«ولأجل هذه الاسباب ، وبالاتفاق مع امرأتي ، وباسم أولادي الذي لايستطيعون لصغرهم أن يعلنوا عن رغبتهم ، ولو كانوا كباراً لأيدوني ، لقد قررت أن لاغادر برلين ، ولو وقعت في قبضة العدو ، بالقرب من الفوهرر قررت أن لاغادر برلين ، ولو وقعت في قبضة العدو ، وبالقرب من الفوهرر قررت أن أنهي حياة لاقيمة لها عندي اذا لم أستطع صرفها بالقرب من الزعيم وفي خدمته ··»

ولكن غوبلز لم يخبر هتلر بما اعتزمه لنفسه وأولاده ، وأكتفى بأن كتب وصيته هذه وأرسلها مع رسول خاص الى خارج برلين ·

وفي صباح التاسع والعشرين من شهر نيسان انقطعت المخابرات بين برلين والعالم ، إذ تمكن الروس من تدمير البالون الذي كان ينقل أخبار القيادة الألمانية العليا الى هتلر ، ومنه اليها ، فسمح هتلر لبعض أنصاره الباقين بمغادرة برلين ، كما أخذ يستعد للساعة الأخيرة ··

النهايـة

اختلف المؤرخون الذين كتبوا عن حياة هتلر في وصف الساعات الأخيرة من حياته والصورة التي مات بها اختلافاً كبيراً ٠ ورغم ذلك الاختلاف فان النقاط الجوهرية في هذا الفصل الأخير من مأساة المانيا والفوهرر ، تكاد تكون واحدة ، ذلك ان معظم المؤرخين قد أجمعوا على أن هتلر مات منتحراً وان جثته هو وعشيقته ٠ ايفا براون ، قد احرقتا بعد موتها ٠

والوصف التالي الذي نورده هو مااتفق أكثر اولئك المؤرخين على ايراده والاشارة اليه ٠

في مساء التاسع والعشرين من شهر نيسان أخذ هتلر يستعد للموت ، فأمر بأعدام كلبه المحبوب حيث أعطاه أحد الاطباء سماً فقضى لساعته ٠٠ كما صدر الأمر باعدام الكلبين الآخرين وكانا ، كما يظهر ، لبعض أفراد الحاشية ٠ وأعطى هتلر بعض السم لبعض أنصاره وأعوانه ممن اعلنوا عزمهم على الموت معه ٠٠ متأسفاً ان لايكون بمقدوره اعطاءهم هدية أفخر من هذه وأجمل ٠٠

وفي مساء اليوم نفسه وبينما كان بعض أفراد الحاشية يتناولون طعامهم ، دخل أحد اتباع هتلر عليهم وأعلمهم ان الزعيم يريد توديع السيدات ، وان أحداً يجب ان لايذهب الى فراشه قبل اشعار آخر ٠٠

وجاء الأمر فعلاً في الساعة الثانية والنصف من صباح اليوم الثلاثين من نيسان ، فاحتشدوا جميعاً رجالاً ونساء في ممر من أقبية المستشارية تحت الأرض ، وجاء هتلر بعد قليل ومعه بورمن ، وكان الجميع يعدون عشرين شخصاً ، وأخذ هتلر يصافح السيدات الواحدة بعد الاخرى ، صامتاً هادئاً ، وتحدث بعضهن اليه ، فلم يعرهن جواباً ، فلما انتهى من مصافحة الجميع ارتد الى غرفته ٠٠

أخذت النسوة يتحدثن بعضهن الى بعض عن معنى هذه الحفلة الوداعية في هذه الساعة المتأخرة من الليل ، لم يكن هناك إلا تفسير واحد ، هو ان هتلر قد اعتزم أن يموت ٠٠

فلما كان الصباح جاء القادة الألمان الى دار المستشارية لتقديم تقاريرهم عن الحالة العسكرية حول برلين وفي برلين ، فاستقبلهم هتلر صامتاً ، واستمع لهم وهم يشرحون الحالة ٠٠ وفي الساعة الثانية من بعد الظهر تناول طعام الغذاء ، ولم تكن ايفا براون معه ، ولعل سبب

ذلك انها لم تجد عندها من الشهية مايمكنها من تناول طعامها ، وتناول هتلر طعامه ، مع طباخه وكاتبتيه كما هي عادته ..

ولم يتناول الحديث على المائدة شيئاً عن النهاية المقبلة ، ولكن الاستعدادات كانت قائمة ليكون كل شيء جاهزاً حاضراً ..

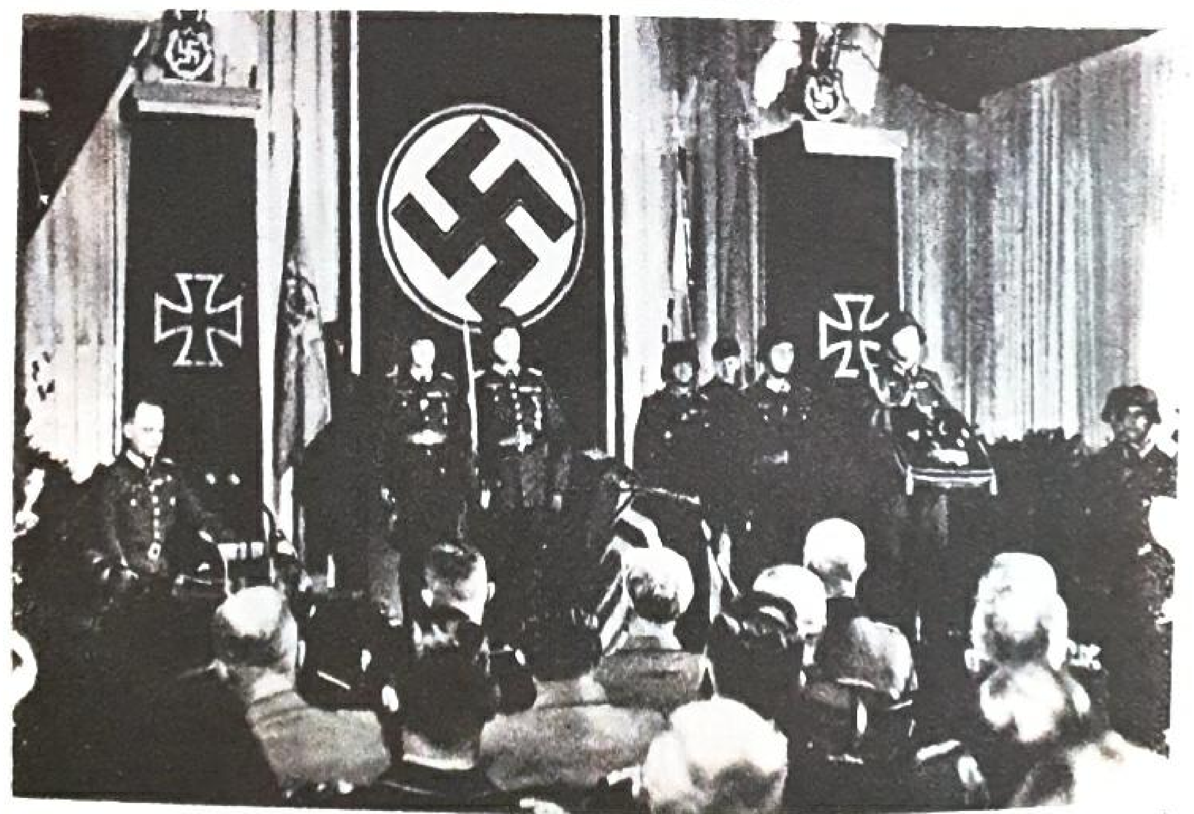
وكان في صباح اليوم نفسه ، قد أصدر أحد أفراد حاشية هتلر ، أمره الى السائق باحضار مائتي ليتر من البنزين الى مدخل الأقبية ، فاعتذر السائق بصعوبة تحضير مثل هذه الكمية الكبيرة ، فأكدوا عليه الأمر فأحضر فعلاً مائة وثمانين ليتراً ..

ولما انتهى هتلر من طعامه ، اعتصم في غرفته وقتاً طويلاً بعد أن صرف زائريه ، ثم خرج مع ايفا براون بعد قليل ليودع رجال الحاشية وكبار الموظفين ، أمثال غوبلز وبورمان وغيرهما .. ولم تحضر زوجة غوبلز حفلة الوداع الثانية ، ولعلها كانت تفكر بموت صغارها ، ففضلت البقاء معهم ، وبعد ان صافح هتلر وايفا جميع الحاضرين ، دخلا الى مخدعهما ، وبعد برهة سمع الجميع صوت طلق ناري واحد ، وبعد قليل دخل بعض رجال الحاشية الغرفة ، فوجدوا ايفا قد تجرعت السم ، وهتلر قد اطلق الرصاص على فمه فسقط ميتاً لساعته ، وقد أخذ الدم يطفر من وجهه .. وكانت الساعة الثالثة والنصف ..

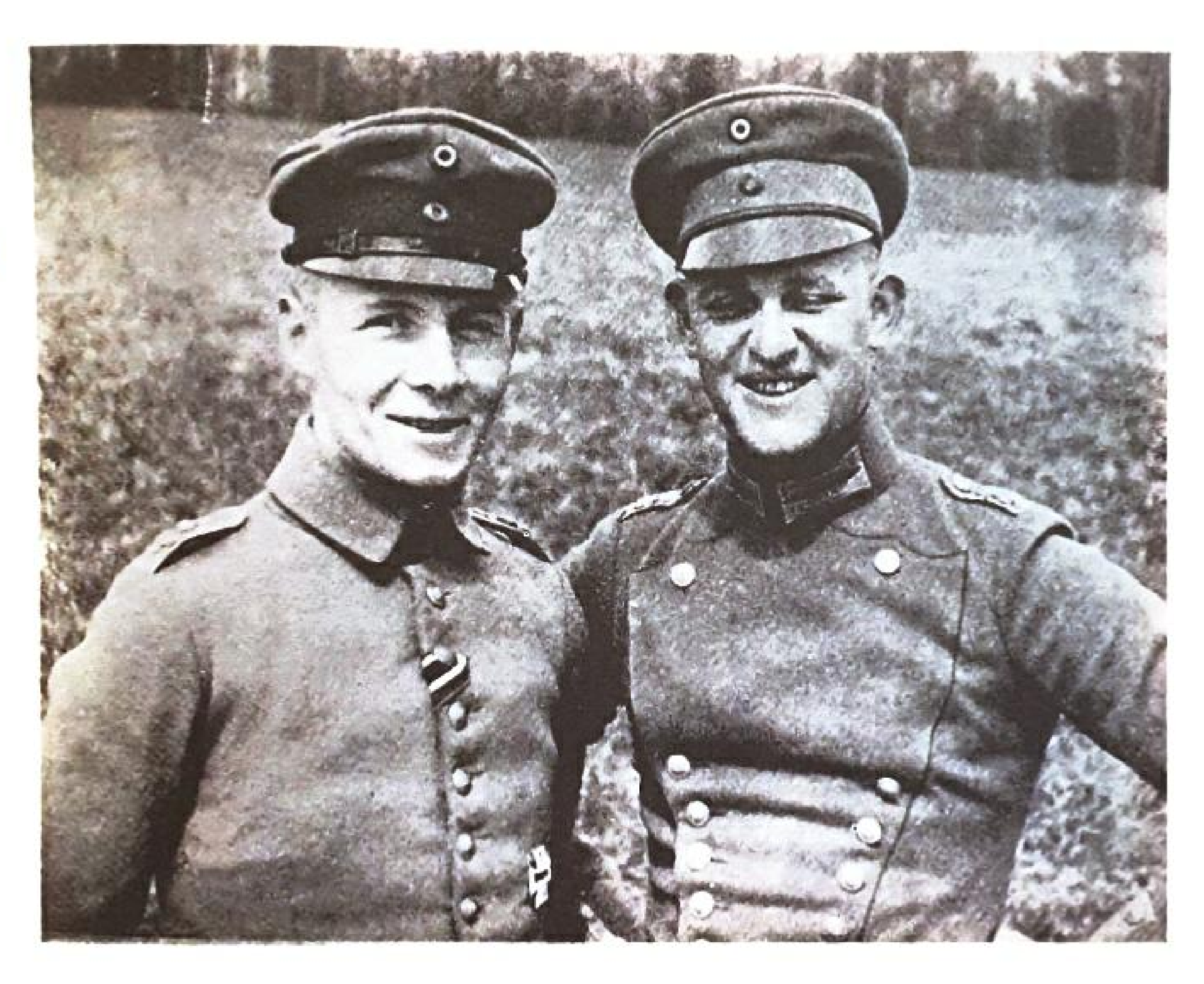
ولما تمت الاستعدادات لاحراق الجثتين ، دخل الغرفة اثنان من حرس الهجوم فحملا جثة هتلر ، بعد أن لفاها بغطاء من الصوف ، كما حمل بورمن جثة ايفا براون .. ووضعت الجثتان جنباً الى جنب على أرض الحديقة ، وعلى مقربة من مدخل الأقبية وصب البترول عليهما ، ثم اشعلت النار ، فبدأت تلتهم الجثتين .. وكان المشهد رهيباً مخيفاً ..



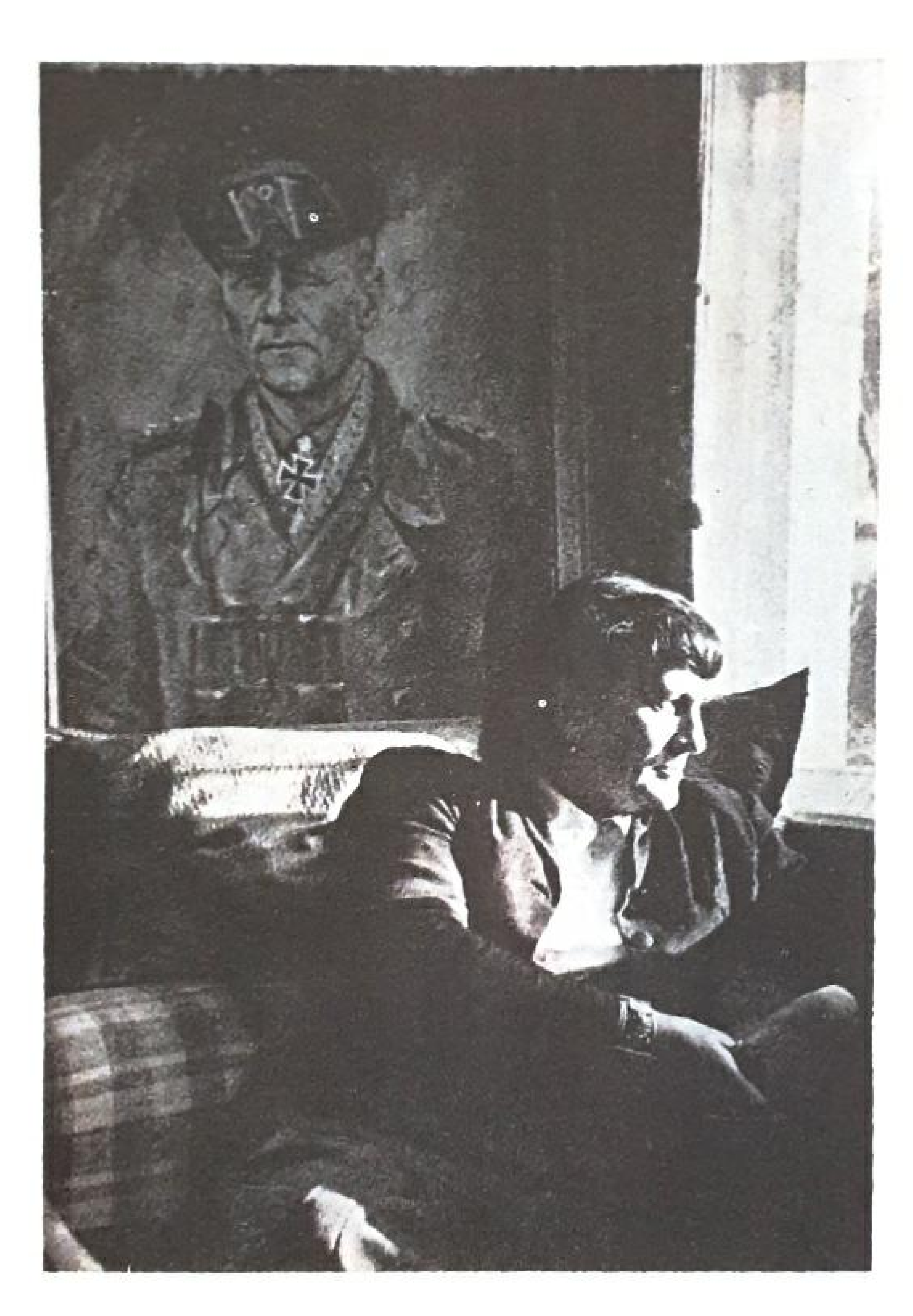
رومل في الصحراء الغربية



تأبين رومل بخطاب من الفيلد مارشال فون رونشتدت



روميل خلال الحرب العالمية
الاولى

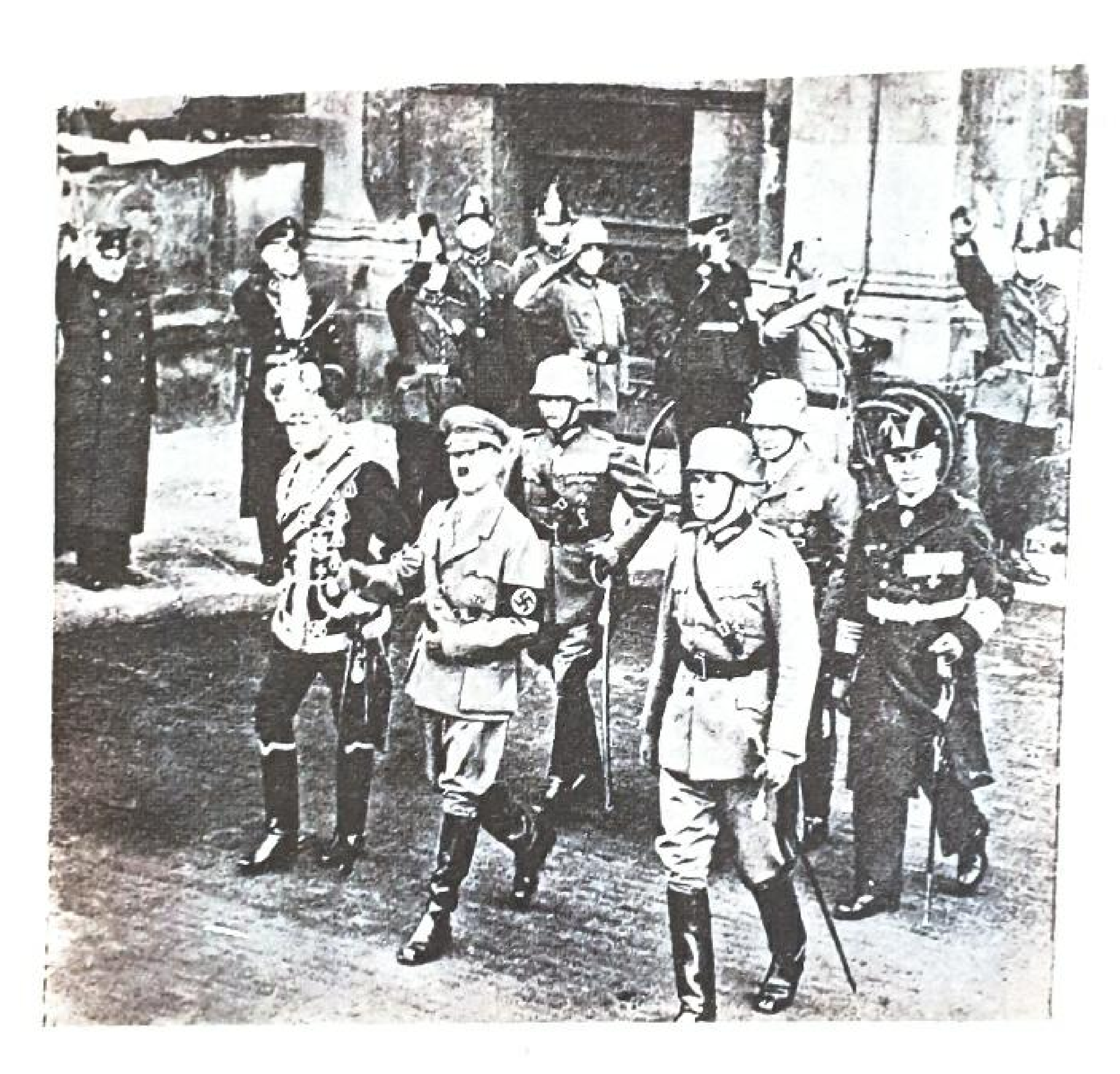


زوجـة رومـل

رومل والكابتن الدنجر



رومل والكابتن هلميث لانك والجنرال سبيدل

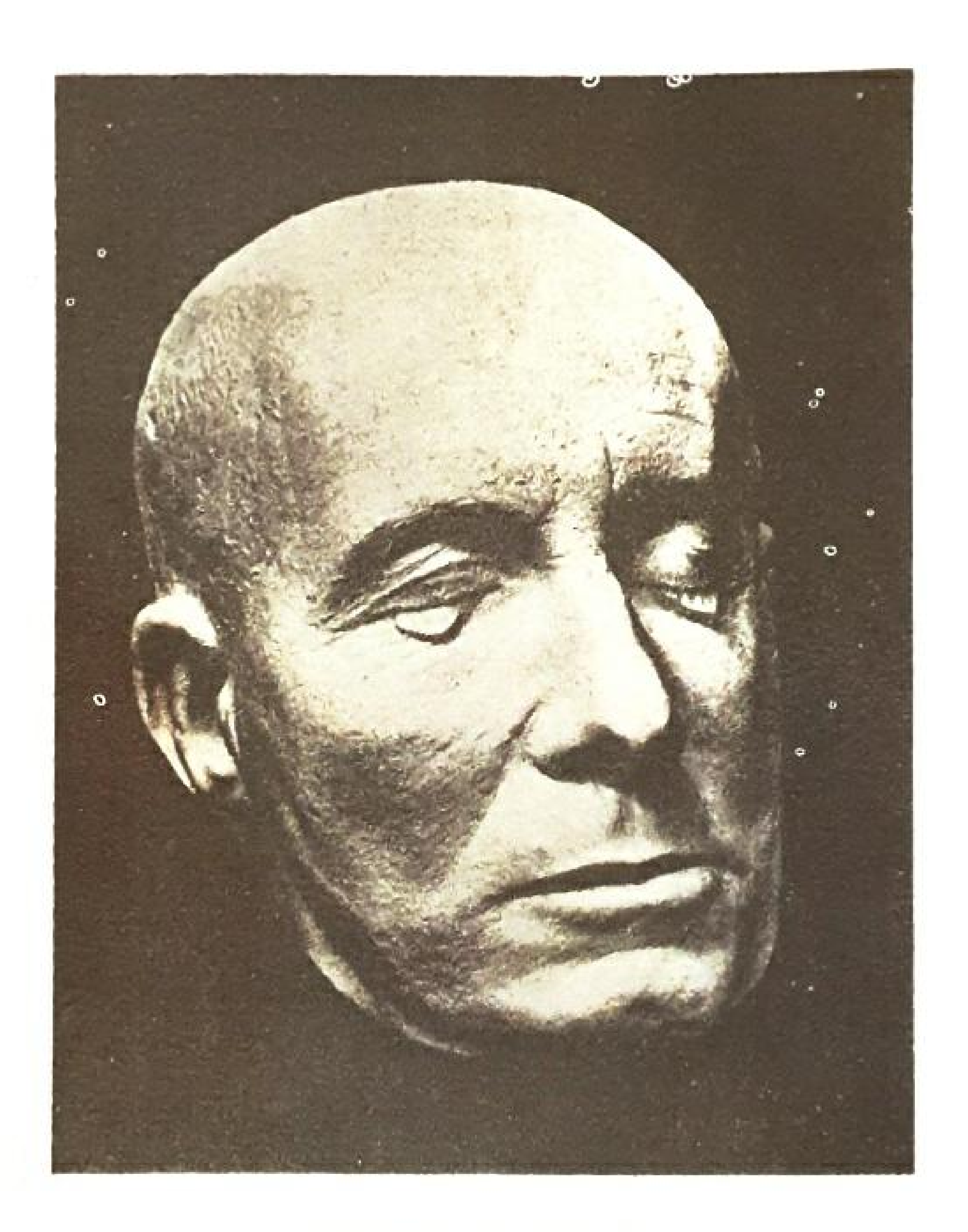


الاحتفال بتولي الحزب النازي
الحاكم في المانيا في آذار ١٩٣٥

زوجة رومل وولده اثناء حفل التأبين .



رأى هتلر غازي مصر المنتظر فانعم عليه بعصا الفيلد مارشال .



رأس من الجبس لرومل عند وفاته

الفهرست

الفهرست

م. سرمد حاتم شكر

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ٩١٥ / لسـنة ١٩٨٤

هذا الكتاب

الحديث عن الحرب العالمية الثانية ، كواحدة من الاحداث الكبرى التي غيرت مجرى التاريخ العالمي ، يفرض بالضرورة المرور بسيرة ابرز شخصياتها السياسية والعسكرية .. ولا شك ان الفيلد مارشال رومل هو واحد من بين المع القادة العسكريين في تلك الحرب ، ان لم يكن المعهم جميعاً ، واكثرهم شهرة على الاطلاق.

واذا كان القارىء العربي قد عرف وسمع الكثير عن رومل ، القائد المقاتل ، الذي لقبه اعداءه بـ «ثعلب الصحراء» ، واحترموه مرغمين على شجاعته الفائقة وذكائه الخارق ، الا انه قد لايعرف كل شيء عن هذا الرجل المتميز في الدهاء والعبقرية والفروسية ، كما تسطرها صفحات هذا الكتاب بموضوعية ودقة وشمول.

ومما يعطي لكتاب «حياة رومل ومذكراته السرية» اهمية خاصة ،وهو انه كان قد كتب من قبل صحافي مثابر وضابط نشيط شارك في الحرب ضد قوات رومل ،ووقع اسيراً لديها في معارك الشمال الافريقي ، حيث كان رومل قائداً لجيوش المحور في تلك الجبهة الصحراوية القاسية والعريضة.

وهو اضافة الى هذا كله ،كتاب شيق ومليء بالتجارب العسكرية ، والنماذج الانسانية التي لاتخلو من المتعة والفائدة لمن يريد الاطلاع على مجرى تلك الحرب الرهيبة ، واسباب انتصار الحلفاء وهزيمة قوات المحور فيها .

الناشر

مطبعة واوفسيت عشتار ـ الباب الشرقي ـ بغداد ـ تلفون 8884010

نشر وتوزيع مكتبة النهضة العربية ومكتبة دار احياء التراث العربي

بغداد ـ هاتف : ٨٨٨٩٣٥٩ ـ تلكس : ٣٠٩٦ ـ بغداد

السعر ٣٫٠٠٠ دينار